تفسير البغوي

«معالم التنزيل»

للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي
(المتوفى - ٥١٦هـ)

المجلد الرابع

حققه وخرج أحاديثه

محمد عبد الله النمر   عثمان جمعة ضميرية   سليمان مسلم الحرش

دار طيبة للنشر والتوزيع
الرياض ـ شارع عسير ـ ص. ب : ٧٦١٢
تليفون : ٤٣٥٩٧٤٠/٤٣٥٤٩٣٧

حقوق الطبع محفوظة
١٤١١هـ

تفسير البغوي

«معالم التنزيل»

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ التَّوْبَةِ

سورة التوبة

قال مقاتل: هذه السورة مدنية إلا آيتين من آخر السورة.

قال سعيد بن جبير: قلتُ لابن عباس سورة التوبة؟ قال: هي الفاضحة مازالت تنزل: «ومنهم. .»، «ومنهم. .» حتى ظنوا أنها لم تُبْق أحداً منهم إلا ذكر فيها، قال: قلتُ سورة الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر، قال: قلت سورة الحشر؟ قال: قل سورة بني النضير(1)

أخبرنا أبو سعيد، أحمد بن إبراهيم الشريحي، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم الثعلبي، أنبأنا أبو الحسين علي بن محمد بن الحسين الجرجاني، أنبأنا أبو أحمد عبدُالله بن عديٍّ الحافظ، أنبأنا أحمد بن علي بن المثنى، حدثنا عبيدالله القواريري، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا عوف بن أبي جميلة الأعرابي، حدثني يزيد الفارسي، حدثني ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة، وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما «بسم الله الرحمٰن الرحيم» ووضعتموها في السبع الطوالِ؟.

فقال عثمان: إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان، وهو ينزل عليه السُّوَرُ ذوات العدد، فإذا نزل عليه الشيء يدعو بعضَ من يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال مما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل، وكانت قصتها شبيهةً بقصتها، وقُبِض رسول الله ﷺ ولم يبيِّنْ لنا أنها منها، فمن ثَمَّ قرنتُ بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتُها في السبع الطُّوالِ(2).

---

(1) عزاه السيوطي في الدر المنثور: (4 / 120) لأبي عبيد وابن المنذر وابن مردويه، مختصراً.

(2) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب من جهر بها (بسم الله الرحمن الرحيم): 1 / 380، والترمذي في التفسير: 8 / 477 - 480، وقال: هذا حديث حسن (وفي نسخة: حسن صحيح) لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس، ويزيد الفارسي روى عن ابن عباس غير حديث، ويقال: هو يزيد بن هرمز. وأخرجه ابن حبان ص(125) من موارد الظمآن، والحاكم: 2 / 221، 330، وقال:

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿براءةٌ مِنَ اللّهِ ورسولِهِ﴾، أي: هذه براءة من الله. وهي مصدر كالنَّشاءة والدَّناءة.

قال المفسرون: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، كان المنافقون يرجفون الأراجيف وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأمر الله عزّ وجلّ بنقض عهودهم، وذلك قوله عزّ وجلّ: «وإمّا تخافنّ من قومٍ خيانةً» الآية (الأنفال ـ ٥٨).

قال الزَّجّاج: براءة أي: قد برىء اللّهُ تعالى ورسولُهُ من إعطائهم العهود والوفاء لهم بها إذا نكثوا.

﴿إلي الذينَ عاهدتُّم مِّن المشركين﴾، الخطاب مع أصحاب النبي ﷺ وإن كان النبي ﷺ هو الذي عاهدهم وعاقدهم، لأنه عاهدهم وأصحابه راضون بذلك، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا.

﴿فسيحوا في الأرض﴾، رَجع من الخبر إلى الخطاب، أي: قلْ لهم: سيحوا، أي سيروا في الأرض، مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحداً من المسلمين. ﴿أربعةَ أشهرٍ واعْلموا أنّكم غير مُعجزي الله﴾، أي: غير فائتين ولا سابقين، ﴿وأنّ اللّهَ مُخزي الكافرين﴾، أي: مذلُّهم بالقتل في الدنيا والعذاب في الآخرة.

واختلف العلماء في هذا التأجيل وفي هؤلاء الذي برىء الله ورسوله إليهم من العهود التي كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ:

١٥٢/ أ فقال جماعة: هذا تأجيل من الله تعالى / للمشركين، فمن كانت مدةُ عهده أقلّ من أربعة

صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والإمام أحمد في المسند: ١/٥٧، ٦٩. وعزاه ابن كثير للنسائي (تفسير ابن كثير: ٤/٥٨٨)

ورواه الحافظ ابن حجر في «موافقة الخبر الخبر ص٦٨، ٦٩» بإسناده إلى أبي داود وحسّنه، وقال: رجاله رجال الصحيح إلا يزيد الفارسي، وضعف أحمد شاكر هذا الحديث في تعليقه على المسند: ١/٣٢٩، وقال: هو حديث ضعيف، بل هو حديث لا أصل له، يدور في كل رواياته على يزيد الفارسي الذي رواه عن ابن عباس، تفرد به عنه عوف بن أبي جميلة الأعرابي وهو ثقة.

ومن قبل: ضعفه ابن عطية فقال: هذا القول يضعفه النظر أن يختلف في كتاب الله هكذا. انظر: المحرر الوجيز: ٦/٣٩٨. وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير: ٢/٣٣٢، ٤/١٠٦، ٥٨٨، فضائل القرآن (الملحق بالتفسير) لابن كثير: ص(١٧ ـ ١٨)، شرح السنة للبغوي: ٤/٥١٨، والدر المنثور: ٤/١١٩، فتح القدير للشوكاني: ٢/٣٣١ ـ ٣٣٢.

أشهر: رفعه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدة عهده أكثر من أربعة أشهر: حطّه إلى أربعة أشهر، ومن كانت مدة عهده بغير أجل محدود: حدّه بأربعة أشهر، ثم هو حرب بعد ذلك لله ورسوله، فيُقتل حيث أدْرك ويؤسر إلا أن يتوب(١).

وابتداء هذا الأجل: يوم الحج الأكبر، وانقضاؤه إلى عشر من شهر ربيع الآخر.

فأما من لم يكن له عهد فإنما أجله انسلاخ الأشهر الحُرُم، وذلك خمسون يوماً. وقال الزهري: الأشهر الأربعة شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم(٢)، لأن هذه الآية نزلت في شوال، والأول هو الأصوب وعليه الأكثرون.

وقال الكلبي: إنما كانت الأربعة الأشهر لمن كان له عهد دون أربعة أشهر، فأتمّ له أربعة أشهر، فأمّا من كان له عهد أكثر من أربعة أشهر فهذا أمر بإتمام عهده بقوله تعالى: «فأتِمُّوا إليهم عهدَهم إلى مُدّتِهم»(٣). قال الحسن: أمر الله عزّ وجلّ رسولَه ﷺ بقتال من قاتله من المشركين، فقال: «قاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتلونَكم»، فكان لا يقاتل إلاّ من قاتله، ثم أمره بقتال المشركين، والبراءة منهم، وأجّلهم أربعة أشهر، فلم يكن لأحد منهم أجل أكثرُ من أربعة أشهر، لا من كان له عهد قبل البراءة ولا من لم يكن له عهد، فكان الأجل لجميعهم أربعة أشهر، وأحلّ دماءَ جميعهم من أهل العهد وغيرهم بعد انقضاء الأجل.

وقيل: نزلت هذه قبل تبوك.

قال محمد بن إسحاق ومجاهد وغيرهما: نزلت في أهل مكة، وذلك أن رسول الله ﷺ عاهد قريشاً عام الحديبية على: أن يضعوا الحرب عشر سنين يأْمَنُ فيها الناسُ، ودخلت خزاعةُ في عهد رسول الله ﷺ، ودخل بنو بكر في عهد قريش، ثم عَدَتْ بنو بكر على خزاعة فنالت منها، وأعانتهم قريش بالسلاح، فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ونقضوا عهدهم خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى وقف على رسول الله ﷺ وقال:

لا هُمَّ إني ناشدٌ محمداً * حِلْفَ أبِيْنا وأبيه الأتْلَدا

(١) تفسير الطبري: ١٤/٩٦-٩٧.
(٢) تفسير الطبري: ١٤/١٠١.
(٣) تفسير الطبري: ١٤/١٠٢.

فانصرْ هداكَ اللّهُ نصراً أبداً * وادعُ عِبادَ الله يأتوا مَدَداً
أبيض مثل الشمس يسمو صعداً * إن سِيمَ خَسْفاً وجهُهُ تربَّدا
هم بيَّتُونا بالهَجيْر هُجَّدَا * وقَتَلُونَا رُكَّعاً وسُجَّدا
كنتَ لنا أباً وكنا ولدا * ثُمَّتَ أسلمنا ولم نَنْزِعْ يدا
فيهم رسولُ الله قدْ تجرَّدا * في فَيْلَقٍ كالبحر يَجْري مُزْبدا
إنَّ قريشاً أخْلَفُوك المَوْعِدَا * ونقضُوا ميثاقَك المؤكَّدا
وزَعَمُوا أن لستَ تنجي أحداً * وهم أذلُّ وأقلُّ عَدَدا

فقال رسول الله ﷺ: «لا نصرتُ إنْ لم أنصركم»، وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة.

فلما كان سنة تسع أراد رسول الله ﷺ أن يحج، ثم قال: إنه يحضر المشركون فيطوفون عراة، فبعث أبا بكر تلك السنة أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج، وبعث معه بأربعين آية من صدر براءة ليقرأها على أهل الموسم، ثم بعث بعده علياً، كرَّم الله وجهه، على ناقته العضباء ليقرأ على الناس صدر براءة، وأمره أن يُؤذِّن بمكة ومنى وعرفة: أن قد بَرِئَتْ ذِمَّةُ الله وذمة رسوله ﷺ من كل مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

فرجع أبو بكر فقال: يارسول الله بأبي أنت وأمي أنزل في شأني شيء؟ قال: لا، ولكن لا ينبغي لأحد أن يبلِّغ هذا إلاّ رجل من أهلي، أمَا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معي في الغار وأنك صاحبي على الحوض؟ قال: بلى يارسول الله.

فسار أبو بكر رضي الله عنه أميراً على الحج، وعلي رضي الله عنه ليُؤذِّن ببراءة، فلما كان قبل يوم التروية بيوم خطب أبو بكر الناس وحدَّثهم عن مناسكهم، وأقام للناس الحج، والعربُ في تلك السنة على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية من الحج، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فأذَّن في الناس بالذي أُمر به، وقرأ عليهم سورة براءة.

وقال زيد بن يُثَيْع[2] سألنا علياً بأي شيء بعثت في تلك الحجة؟ قال: بعثتُ بأربعٍ: لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢/٣٩٤ - ٣٩٦، ٥٤٥ - ٥٤٦، تفسير الطبري: ١٤/٩٦ - ٩٧.
(٢) زيد بن يُثَيْع - بضم التحتانية، وقد تبدل همزة، بعدها مثلثة ثم تحتانية ساكنة ثم مهملة، الهمداني الكوفي - ثقة، مخضرم - من الثانية (التقريب) وفي الأصل كانت «تبيع».

﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾

أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا[1].

ثم حج النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع.

فإن قال قائل: كيف بعث رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه ثم عزله وبعث علياً رضي الله عنه؟.

قلنا: ذكر العلماء أن رسول الله لم يعزل أبا بكر رضي الله عنه، وكان هو الأمير، وإنما بعث علياً رضي الله عنه لينادي بهذه الآيات، وكان السبب فيه: أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها، أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم، أو رجل من رَهْطِه، فبعث علياً رضي الله عنه إزاحةً للعلَّة، لئلا يقولوا: هذا خلاف ما نعرفه فيُنَافي نقضَ العهد.

والدليل على أن أبا بكر رضي الله عنه كان هو الأمير: ما أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسحاق، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي ابن شهاب، عن عمه، أخبرني حُمَيْد بن عبدالرحمن أن أبا هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحَجَّة في مؤذِّنين يوم النحر نؤذِّن بمنى: ألَا لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد بن عبدالرحمن: ثم أردف رسول الله ﷺ علياً فأمره أن يؤذِّن ببراءة. قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل منىً يوم النحر: ألا لا يحج بعدَ العام مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيت عُرْيان[2].

قوله عز وجل: ﴿وأذانٌ﴾ عطف على قوله: «براءة» أي: إعلام. ومنه الأذان بالصلاة، يقال: آذنته فأذن، أي: أعلمته. وأصله من الأذن، أي: أوقعته في أذنه.

﴿مِنَ اللّهِ ورسولِهِ إلى النّاسِ يومَ الحجِ الأكبر﴾ واختلفوا في يوم الحج الأكبر: روى عكرمة عن ابن عباس: أنه يوم عرفة، ورُوي ذلك عن عمر بن الخطاب وابن الزبير. وهو قول عطاء وطاووس

---

(١) تفسير الطبري: ١٤/١٠٦، ورواه الترمذي في الحج: ٣/٦١٠، وفي التفسير: ٨/٤٨٨ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه الإمام أحمد في المسند برقم (٤) ورقم (٥٩٤) بتحقيق الشيخ أحمد شاكر. وانظر: فتح الباري: ٨/٣١٩.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة، باب ما يستر من العورة: ١/٤٧٧ - ٤٧٨، ومسلم في الحج، باب لا يحج بالبيت مشرك.. برقم (١٣٤٧): ٢/٩٨٢.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٤﴾

ومجاهد وسعيد بن المسيب.

وقال جماعة: هو يوم النحر، رُوي عن يحيى بن الجزار قال: خرج علي رضي الله عنه يوم النحر على بغلة بيضاء، يريد الجبانة، فجاءه رجل وأخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: يومك هذا، خَلِّ سبيلها. ويُروى ذلك عن عبدالله بن أبي أوفى والمغيرة بن شعبة. وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير والسدي.

وروى ابن جريج عن مجاهد: يوم الحج الأكبر حين الحج أيام منى كلها، وكان سفيان الثوري يقول: يوم الحج الأكبر أيام منى كلها، مثل: يوم صفين ويوم الجمل ويوم بُعاث، يُراد به: الحين والزمان، لأن هذه الحروب دامت أياماً كثيرةً.

وقال عبدالله بن الحارث بن نوفل: يوم الحج الأكبر اليوم الذي حج فيه رسول الله ﷺ. وهو
١٥٢/ ب قول ابن سيرين، لأنه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود والنصارى والمشركين،/ ولم يجتمع قبله ولا بعده.

واختلفوا في الحج الأكبر: فقال مجاهد: الحج الأكبر: القِران، والحج الأصغر: إفراد الحج.

وقال الزهري والشعبي وعطاء: الحج الأكبر: الحج، والحج الأصغر: العمرة؛ قيل لها الأصغر لنقصان أعمالها.

قوله تعالى: ﴿أنّ اللّهَ بريءٌ مِّنَ المشركين ورسولُهُ﴾، أي: ورسوله أيضاً بريء من المشركين. وقرأ يعقوب «ورسولَه» بنصب اللام أي: أنّ اللّهَ ورسولَه بريءٌ، ﴿فإنْ تُبْتُم﴾: رجعتم من كفركم وأخلصتم التوحيد، ﴿فهو خير لكم وإنْ تولَّيتم﴾: أعرضتم عن الإيمان، ﴿فاعلموا أنّكم غيرُ معجزِي اللّهِ وبشِّرِ الذينَ كفروا بعذابٍ أليم﴾.

﴿إلّا الذينَ عاهدْتُّم منَ المشركين﴾، هذا استثناء من قوله: «براءةٌ من اللّهِ ورسولهِ إلى الذين عاهدتم من المشركين» إلا مِنْ عَهْد الذين عاهدتم من المشركين، وهم بنو ضُمْرَةَ، حيٌّ من كنانة، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بإتمام عهدهم إلى مدتهم، وكان قد بقي من مدتهم تسعة أشهر، وكان السبب

﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

فيه: أنهم لم ينقضوا العهد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثمّ لم يَنْقُصُوكم شيئاً﴾، من عهدهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿ولم يُظاهِرُوا﴾، لم يعاونوا، ﴿عليكم أحداً﴾، من عدوكم. وقرأ عطاء بن يسار: «لم ينقضوكم» بالضاد المعجمة من نقض العهد، ﴿فأتِمُّوا إليهم عهدهم﴾، فأوفوا لهم بعهدهم، ﴿إلى مُدّتِهم﴾، إلى أجلهم الذي عاهدتموهم عليه، ﴿إنّ اللّهَ يُحبُّ المتّقين﴾.

قوله تعالى: ﴿فإذا انْسَلخَ﴾، انقضى ومضى ﴿الأشهر الحُرم﴾، قيل: هي الأشهر الأربعة: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم.

وقال مجاهد وابن إسحاق: هي شهور العهد، فمن كان له عهد فعهده أربعة أشهر، ومن لا عهد له: فأجله إلى انقضاء المحرم خمسون يوماً، وقيل لها «حُرُمٌ» لأن الله تعالى حرَّم فيها على المؤمنين دماءَ المشركين والتعرُّضَ لهم.

فإن قيل: هذا القدر بعض الأشهر الحرم والله تعالى يقول: «فإذا انسلخَ الأشهرُ الحُرم»؟.
قيل: لمّا كان هذا القدر متصلاً بما مضى أُطلق عليه اسم الجمع، ومعناه: مضت المدة المضروبة التي يكون معها انسلاخ الأشهر الحُرم.

قولـه تعـالى: ﴿فـاقْتُلوا المشركينَ حيثُ وجدْتُموهم﴾، في الحل والحرم، ﴿وخُذوهم﴾، وأسروهم، ﴿واحْصُروهم﴾، أي: احبسوهم.

قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد إن تَحَصَّنُوا فاحصروهم، أي: امنعوهم من الخروج.

وقيل: امنعوهم من دخول مكة والتصرف في بلاد الإسلام.

﴿واقْعدُوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ﴾، أي: على كل طريق، والمرصد: الموضع الذي يرقب فيه العدو، من رصدتُ الشيء أرصده: إذا ترَقَّبْتُه، يريد: كونوا لهم رصداً لتأخذوهم من أي وجهٍ توجهوا.

وقيل: اقعدوا لهم بطريق مكة، حتى لا يدخلوها.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

﴿**فإنْ تابوا**﴾، من الشرك، ﴿**وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاةَ فخلّوا سبيلهم**﴾، يقول: دعوهم فليتصرفوا في أمصارهم ويدخلوا مكة، ﴿**إنّ اللهَ غفورٌ**﴾، لمن تاب، ﴿**رحيمٌ**﴾ به.

وقال الحسين بن الفضل: هذه الآية نسخت كل آية في القرآن فيها ذكر الإعراض والصبر على أذى الأعداء[1].

قوله تعالى: ﴿**وإنْ أحدٌ مِّنَ المشركين استجارَكَ**﴾، أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرتُك بقتالهم وقتلهم، أي: استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ليسمع كلام الله. ﴿**فأجِرْهُ**﴾، فأعِذْهُ وآمنه، ﴿**حتى يسمع كلامَ اللّهِ**﴾، فيما له وعليه من الثواب والعقاب، ﴿**ثم أبْلِغْهُ مأمَنه**﴾، أي: إن لم يسلم أبلغه مأمنه، أي: الموضع الذي يأمن فيه وهو دار قومه، فإن قاتلك بعد ذلك فقدِرْتَ عليه فاقتله، ﴿**ذلك بأنّهم قومٌ لا يعلمون**﴾، أي: لا يعلمون دين الله تعالى وتوحيده فهم محتاجون إلى سماع كلام الله. قال الحسن: وهذه الآية محكمة إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿**كيفَ يكونُ للمشركين عهدٌ عندَ الله وعندَ رسولِهِ**﴾، هذا على وجه التعجب، ومعناه جحد، أي: لا يكون لهم عهد عند اللهِ، ولا عند رسوله، وهم يغدرون وينقضون العهد، ثم استثنى فقال جلّ وعلا: ﴿**إلّا الذين عاهدتُّم عندَ المسجدِ الحرام**﴾، قال ابن عباس: هم قريش. وقال قتادة: هم أهل مكة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ يوم الحديبية.

قال الله تعالى: ﴿**فما اسْتَقامُوا لكم**﴾، أي: على العهد، ﴿**فاسْتَقِيمُوا لهم**﴾، فلم يستقيموا، ونقضوا العهد، وأعانوا بني بكر على خزاعة، فضرب لهم رسول الله ﷺ بعد الفتح أربعة أشهر يختارون من أمرهم: إمّا أن يُسْلِمُوا، وإمّا أن يلحقوا بأي بلاد شاؤوا، فأسلموا قبل الأربعة الأشهر.

---

(١) تقدم في مناسبة سابقة أن بعض العلماء رحمهم الله قد توسع في هذه القضية، فجعل آية السيف ناسخة لكل آية في القرآن فيها أمر بالصبر أو الصفح أو المسالمة، ولا يسلَّم لهم ذلك فإنه لا تنافي بينها، وهي من «المُنْسأ» كما يقول الزركشي وغيره، وليست من المنسوخ.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨﴾

قال السدي والكلبي وابن إسحاق: هم من قبائل بكر: بنو خُزيمة وبنو مُدْلج وبنو ضُمْرة وبنو الدِّيل، وهم الذين كانوا قد دخلوا في عهد قريش يوم الحديبية، ولم يكن نقض العهد إلا قريش وبنو الديل من بني بكر، فأمر بإتمام العهد لمن لم ينقض وهم بنو ضمرة.

وهذا القول أقرب إلى الصواب؛ لأن هذه الآيات نزلت بعد نقض قريش العهد وبعد فتح مكة، فكيف يقول لشيء قد مضى: «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم»؟ وإنما هم الذين قال عزّ وجلّ: «إلاّ الذين عاهدْتُّم مِّنَ المشركين ثمّ لمْ ينقصُوكم شيئاً» كما نقصكم قريش، ولم يظاهروا عليكم أحداً كما ظاهرت قريش بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ. ﴿إنّ الله يحب المتقين﴾.

قوله تعالى: ﴿كيفَ وإنْ يظهرُوا عليكم﴾، هذا مردود على الآية الأولى تقديره: كيف يكون لهم عهد عند الله [كيف][1] وإن يظهروا عليكم! ﴿لا يَرْقُبُوا فيكم إلاًّ ولا ذِمَّةً﴾، قال الأخفش: كيف لا تقتلونهم وهم إن يظهروا عليكم أي: يظفروا بكم، لا يرقُبُوا: لا يحفظوا؟ وقال الضحاك: لا ينتظروا. وقال قطرب: لا يراعوا فيكم إلاًّ. قال ابن عباس والضحاك: قرابةً. وقال يمان: رحماً. وقال قتادة: الإلُّ الحِلْفُ. وقال السدي: هو العهد. وكذلك الذمة، إلاّ أنه كرر لاختلاف اللفظين. وقال أبو مجلز ومجاهد: الإلّ هو الله عزّ وجلّ. وكان عبيد بن عمير يقرأ: «جبر إلّ» بالتشديد، يعني: «عبدالله». وفي الخبر أن ناساً قدِمُوا على أبي بكر من قوم مسيلمة الكذاب، فاستقرأهم أبو بكر كتاب مسيلمة فقرأوا، فقال أبو بكر رضي الله عنه: إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ، أي: من الله.

والدليل على هذا التأويل قراءة عكرمة «لا يرقبون في مؤمن إيلاً» بالياء، يعني: الله عزّ وجلّ. مثل جبرائيل وميكائيل. ولا ذمةً أي: عهداً. ﴿يُرضونكم بأفواههم﴾، أي: يُعْطُونكم بألسنتهم خلاف ما في قلوبهم، ﴿وتأبى قلوبُهم﴾، الإيمان، ﴿وأكثرُهم فاسقون﴾.

فإن قيل: هذا في المشركين وكلهم فاسقون فكيف قال: «وأكثرهم فاسقون»؟

---

(١) ساقط من «ب».

ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ
وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ
يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾

قيل: أراد بالفسق: نقضَ العهد، وكان في المشركين من وفى بعهده، وأكثرُهم نقضوا، فلهذا قال: «وأكثرُهم فاسقون».

﴿اشْتَرَوْا بآياتِ اللَّهِ ثمناً قليلاً﴾، وذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلةٍ أطعمهم إيّاهـا أبـو سفيان. قال مجاهـد: أطعم أبـو سفيان/حلفـاءه، ﴿فصـدُّوا عَن سبيله﴾، ١٥٣/ أ
فمنعوا الناس من الدخول في دين الله. وقال ابن عباس رضي الله عنه: وذلك أنَّ أهل الطائف أمدُّوهم بالأموال ليقوُّوهم على حرب رسول الله ﷺ، ﴿إنّهم ساء﴾ بئس ﴿ما كانوا يعملون﴾.

﴿لا يَرْقُبُونَ في مُؤمنٍ إلّاً ولا ذِمّةً﴾، يقول: لا تُبْقُوا عليهم أيها المؤمنون كما لا يُبْقُونَ عليكم لو ظهروا، ﴿وأولئك هُمُ المعتدون﴾، بنقض العهد.

﴿فإنْ تابُوا﴾، من الشرك، ﴿وأقامُوا الصلاةَ وآتوُا الزكاةَ فإخوانُكم﴾ أي: فهم إخوانكم، ﴿في الدّين﴾، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ﴿ونفصّلُ الآيات﴾ ونبين الآيات ﴿لقوم يعلمون﴾، قال ابن عباس: حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة. قال ابن مسعود: أمرتهم بالصلاة والزكاة فمن لم يزك فلا صلاة له.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بـن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا شعيب بن أبي حمزة عن الزهري، حدثنا عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود أن أبا هُريرة رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رضي الله عنه بعده، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أنْ أُقاتلَ النّاسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله، فَمنْ قال لا إله إلا الله عَصَمَ منّي مالَهُ ونفسَهُ إلا بحقّهِ وحسابُه على الله»؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال، والله لو منعوني عَناقاً كانوا يُؤدُّونها إلى

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾

رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على مَنْعها. قال عمر رضي الله عنه: فوالله ما هو إلّا أن قد شرح صدرَ أبي بكر للقتال، فعرفتُ أنه الحق[1].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عمرو بن عباس، حدثنا ابن المهدي، حدثنا منصور بن سعد عن ميمون بن سِيَاهٍ عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى صلاتَنا واستقبلَ قِبلتَنا وأكل ذبيحتنا: فذلك المسلمُ الذي له ذِمّةُ الله وذِمّةُ رسوله»[2].

قوله تعالى: **﴿وإن نكثُوا أيمانَهم﴾**، نقضوا عهودهم، **﴿منْ بعدِ عهدِهم﴾**، عقدهم، يعني: مشركي قريش، **﴿وطعنُوا﴾**، قدحوا **﴿في دينكم﴾** عابوه. فهذا دليل على أن الذمي إذا طعن في دين الإسلام ظاهِراً لا يبقى له عهد، **﴿فقاتِلُوا أئمّةَ الكفر﴾**، قرأ أهل الكوفة والشام: «أئمة» بهمزتين حيث كان، وقرأ الباقون بتليين الهمزة الثانية. وأئمة الكفر: رؤوس المشركين وقادتهم من أهل مكة.

قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيانَ بن حرب، وأبي جهل بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وسائر رؤساء قريش يومئذٍ الذين نقضوا العهد، وهم الذين همّوا بإخراج الرسول[3] وقال مجاهد: هم أهل فارس والروم[4].

وقال حذيفة بن اليمان: ما قُوتلَ أهلُ هذه الآية ولم يأتِ أهلُها بعد[5] **﴿إنهم لا أيمانَ لهم﴾**، أي: لا عهود لهم، جمع يمين. قال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد. وقرأ ابن عامر: «لا إيمان لهم» بكسر الألف، أي: لا تصديق لهم ولا دين لهم. وقيل: هو من الأمان، أي لا تؤمنوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، **﴿لعلّهم ينتهون﴾**، أي: لكي ينتهوا عن الطعن في دينكم والمظاهرة عليكم. وقيل:

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: ١٣/٢٥٠، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله.. برقم (٢٠): ١/٥١-٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة، باب فضل استقبال القبلة: ١/٤٩٦.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير: ١٤/١٥٤، وبنحوه مطولاً: البخاريّ: ٨/٣٢٢. وانظر: الدر المنثور: ٤/١٣٦.

(٤) في الدر المنثور: عن مجاهد قال أبو سفيان.

(٥) انظر: الطبري: ١٤/١٥٥-١٥٦، فتح الباري: ٨/٣٢٣.

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم
بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾
قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ
قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

عن الكفر، ثم حض المسلمين على القتال، فقال جلّ ذكره: ﴿**أَلا تقاتِلُون قوماً نكثُوا أيمانهم**﴾، نقضوا عهودهم، وهم الذين نقضوا عهد الصلح بالحديبية وأعانوا بني بكر على قتال خزاعة. ﴿**وهمّوا بإخراج الرّسول**﴾، من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة، ﴿**وهم بدءوكم**﴾، بالقتال، ﴿**أوّل مرّة**﴾، يعني: يوم بدر، وذلك أنهم قالوا حين سَلِمَ العير: لا ننصرف حتى نستأصل محمداً وأصحابه.

وقال جماعة من المفسرين: أراد أنهم بدأوا بقتال خُزاعةَ حلفاء رسول الله ﷺ.

﴿**أتخشونهم**﴾، أتخافونهم فتتركون قتالهم؟ ﴿**فاللّهُ أحقُّ أن تخشَوه**﴾، في ترك قتالهم، ﴿**إنْ كنتم مؤمنين**﴾.

﴿**قـاتلُوهم يُعـذِّبْهمُ اللّهُ بأيـديكم**﴾، يقتلهم الله بأيديكم، ﴿**ويُخْـزِهِمْ**﴾، ويذلهم بالأسر والقهر، ﴿**وينْصُرْكُم عليهم ويَشْفِ صُدورَ قومٍ**﴾، ويبرىء داء قلوب قوم، ﴿**مؤمنين**﴾، مما كانوا ينالونه من الأذى منهم. وقال مجاهد والسدي: أراد صُدُورَ خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ حيث أعانت قريش بني بكر عليهم، حتى نكأوا فيهم فشفىٰ الله صدورهم من بني بكر بالنبي ﷺ وبالمؤمنين.

﴿**ويُذهِبْ غيظَ قلوبهم**﴾، كَرْبَها ووَجْدَها بمعونة قريش بكراً عليهم، ثم قال مستأنفاً: ﴿**ويتوبُ اللّهُ على من يشاءُ**﴾، فيهديه إلى الإسلام كما فعل بأبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، ﴿**واللّهُ عليمٌ حكيم**﴾ ورُوي أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «ارفعوا السّيفَ إلا خزاعة من بني بكر إلى العصر». [1]

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ١٤/٤٨٧، وأبو عبيد في الأموال ص(١٣١).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أمْ حَسِبْتُم﴾، أظننتم ﴿أن تُتْرَكُوا﴾، قيل: هذا خطاب للمنافقين. وقيل: للمؤمنين الذين شق عليهم القتال. فقال: أم حسبتم أن تُتركوا فلا تؤمروا بالجهاد، ولا تُمتحنوا، ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿ولمّا يعلم اللّهُ﴾، ولم يرَ اللّهُ ﴿الذين جاهدُوا منكم ولم يتّخِذُوا منْ دُونِ اللّهِ ولا رسولِهِ ولا المؤمنين وَليجَةً﴾، بطانةً وأولياءَ يُوالونَهم ويُفشون إليهم أسرارهم. وقال قتادة: وليجة خيانة. وقال الضحاك: خديعة. وقال عطاء: أولياء. وقال أبو عبيدة: كل شيء أدخلته في شيء ليس منه فهو وليجة، والرجل يكون في القوم وليس منهم وليجة. فوليجة الرجل: من يختص بدخيلة أمره دون الناس، يقال: هو وليجتي، وهم وليجتي، للواحد والجمع. ﴿واللّهُ خبيرٌ بما تعملون﴾.

قوله تعالى: ﴿ما كانَ للمشركين أنْ يعمرُوا مساجدَ اللّهِ﴾ الآية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أُسر العباسُ يوم بدرٍ عيَّره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم، وأغلظ علي رضي الله عنه له القولَ. فقال العباس: مالكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟.

فقال له علي رضي الله عنه: ألكم محاسن؟ فقال نعم: إنّا لَنَعْمرُ المسجدَ الحرام ونحجبُ الكعبةَ ونسقي الحاج، فأنزل الله عزّ وجلّ رداً على العباس: «ما كانَ للمشركين أنْ يعمروا مساجدَ الله»[1]، أي: ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله.

أوجب على المسلمين منعهم من ذلك، لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده، فمن كان كافراً بالله فليس من شأنه أن يعمرها. فذهب جماعة إلى أنّ المراد منه: العمارة المعروفة من بناء المساجد / ومرمَّته عند الخراب فيمنع منه الكافر حتى لو أوصى به لا تمتثل. وحمل بعضهم ١٥٣/ ب

(١) أسباب النزول للواحدي ص(٢٧٨).

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨﴾

العمارة هاهنا على دخول المسجد والقعود فيه. قال الحسن: ما كان للمشركين أن يتركوا فيكونوا أهل المسجد الحرام.

قرأ ابن كثير وأهل البصرة: «مسجد الله» على التوحيد، وأراد به المسجد الحرام، لقوله تعالى: «وعمارة المسجد الحرام»، ولقوله تعالى «فلا يقربوا المسجد الحرام»، وقرأ الآخرون: **﴿مساجد الله﴾** بالجمع والمراد منه أيضاً المسجد الحرام. قال الحسن: إنما قال مساجد لأنه قبلة المساجد كلها. قال الفراء: ربما ذهبت العرب بالواحد إلى الجمع وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى أن الرجل يركب البِرْذَوْنَ فيقول: أخذت في ركوب البراذين؟ ويقال: فلان كثير الدرهم والدينار، يريد الدراهم والدنانير؟.

قوله تعالى: **﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾**، أرادَ: وهم شاهدون، فلما طرحت «وهم» نصبت، قال الحسن: لم يقولوا نحن كفار، ولكن كلامهم بالكفر شاهد عليهم بالكفر.

وقال الضحاك عن ابن عباس: شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام، وذلك أن كفار قريش كانوا نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد، وكانوا يطوفون بالبيتِ عراة، كلما طافوا شوطاً سجدوا لأصنامهم، ولم يزدادوا بذلك من الله تعالى إلّا بُعْداً.

وقال السدي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يُسأل من أنت؟ فيقول: أنا نصراني، واليهودي يقول: أنا يهودي، ويقال للمشرك: ما دينك؟ فيقول: مشرك. قال الله تعالى: **﴿أولئك حَبِطَتْ أعمالهم﴾**، لأنها لغير الله عزّ وجلّ، **﴿وفي النار هم خالدون﴾**.

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: معناه شاهدين على رسولهم بالكفر؛ لأنه ما من بطن إلا ولدته، ثم قال تعالى: **﴿إنّما يَعمُرُ مَساجِدَ الله مَنْ آمنَ باللّهِ واليومِ الآخرِ وأقام الصلاة وآتَى الزكاة ولم يخشَ إلّا الله﴾** ولم يَخَفْ في الدين غيرَ الله، ولم يترك أمر الله لخشية غيره، **﴿فعسى أولئكَ أن يكونوا منَ المُهتدين﴾**، «وعسى» من الله واجب، أي: فأولئكَ هم المهتدون، والمهتدون هم المتمسكون بطاعة الله عز وجل التي تؤدي إلى الجنة.

أخبرنا أبو عمرو محمد بن عبدالرحمن النسوي، حدثنا محمد بن الحسين الحيري، حدثنا محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن الفرج الحجازي، حدثنا بقية، حدثنا أبو الحجاج، المهدي، عن عمرو بن الحارث، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدُوا له بالإيمان» فإن الله قال: ﴿إنّما يَعْمُرُ مساجدَ الله. مَنْ آمن بالله واليوم الآخر﴾[1].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، أنبأنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن مطرف، عن يزيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ غَدا إلى المسجد أو راحَ أعدَّ الله له نُزُلَه منَ الجنةِ كلّما غَدا أو رَاحَ»[2].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، حدثنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبدالجبار الرياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا أبو عاصم، عن عبدالحميد بن جعفر، حدثني أبي عن محمود بن لبيد، أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أراد بناء المسجد فكره الناسُ ذلك، وأحبُّوا أن يَدَعَهُ، فقال عثمان: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «مَنْ بنَى للّهِ مسجداً بنىٰ اللّهُ له كهيئته في الجنة»[3].

وأخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، حدثنا علي بن الحسين الدَّارَ ابَجِرْدِيّ، حدثنا أبو عاصم بهذا الإسناد، وقال: «بنَى اللّهُ له بيتاً في الجنّة»[4].

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة: ٣٦٦/٧، وقال: هذا حديث حسن غريب، وفي تفسير سورة التوبة: ٤٩٠/٨ وقال: حسن غريب، وابن ماجة في المساجد، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة، برقم (٨٠٢): ٢٦٣/١، والدارمي في الصلاة، باب المحافظة على الصلوات: ٢٢٢/١، وصححه ابن حبان، ص(٩٩) من موارد الظمآن، والحاكم: ٢١٢/١، ٣٣٢/٢ وتعقبه الذهبي فقال: درّاج كثير المناكير. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٦٨/٣، ٧٦ وضعفه الألباني في تعليقه على المشكاة: ٢٢٤/١ وسلسلة الضعيفة: ١٧٨/٤.

(٢) أخرجه البخاري في صلاة الجماعة، باب فضل من غدا إلى المسجد أو راح: ١٤٨/٢، ومسلم في المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا.. برقم (٦٦٩): ٤٦٣/١، والمصنف في شرح السنة: ٣٥٢/٢.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة، باب من بنى مسجداً: ٥٤٤/١، ومسلم في المساجد، باب فضل بناء المساجد برقم (٥٣٣): ٣٧٨/١ بنحوه. والمصنف في شرح السنة: ٣٤٧/٢.

(٤) انظر: المراجع السابقة نفسها.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٩﴾

قوله عز وجل: ﴿أجعلتُم سقاية الحاجِّ﴾ الآية.

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، حدثنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، حدثنا عبدالله بن حامد بن محمد الوزان، حدثنا أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبيدالله المعافري، حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع الحلبي، حدثنا معاوية بن سلام، عن زيد بن سلام، عن أبي سلام، حدثنا النعمان بن بشير قال: كنتُ عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أُبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أُسقي الحاج. وقال الآخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد أن أعمر المسجد الحرام. وقال الآخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلتما، فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صليتُ دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه، ففعل فأنزل الله عزّ وجلّ: «أجعلتم سقاية الحاجِّ وعمارةَ المسجدِ الحرام»، إلى قوله: «واللَّهُ لا يهدي القومَ الظالمين»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال العباس حين أُسِر يومَ بدرٍ: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنّا نعمر المسجد الحرام، ونَسْقي الحاجّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله، والإيمان بالله والجهاد مع النبي ﷺ خيرٌ مما هم عليه(٢).

وقال الحسن، والشعبيّ، ومحمد بن كعب القرظيّ، نزلت في علي بن أبي طالب، والعباس بن عبدالمطلب، وطلحة بن شيبة، افتخروا فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال علي: ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية: ﴿أجعلتُم سقايةَ الحاجِّ﴾(٣).

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله، برقم (١٨٧٩): ٣/١٤٩٩، والواحدي في أسباب النزول ص(٢٧٩).
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٤/١٧٠، أسباب النزول للواحدي ص(٢٧٩).
(٣) أخرجه الطبري: ١٤/١٧١، والواحدي ص(٢٧٩ - ٢٨٠). وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية»: (٥/١٨ - ١٩) =

والسقاية: مصدر كالرعاية والحماية.

قوله: ﴿وعمارةَ المسجدِ الحرام كمنْ آمنَ باللّهِ واليومِ الآخرِ﴾، فيه اختصار تقديره: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كإيمان من آمن بالله وجهاد من جاهد في سبيل الله؟.

وقيل: السقاية والعمارة بمعنى الساقي والعامر. وتقديره: أجعلتم ساقي الحاج وعامرَ المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله؟ وهذا كقوله تعالى: «والعاقبةُ للتقوى» أي: للمتقين، يدل عليه قراءة عبدالله بن الزبير وأُبيٍّ بن كعب «أجعلتم سُقَاةَ الحاجِّ وعَمَرَةَ المسجدِ الحرام»، على جمع الساقي والعامر.

﴿كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهدَ في سبيلِ الله لا يستوُون عندَ اللّهِ واللّهُ لا يهدي القومَ الظّالمين﴾ أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثني إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو أسامة، حدثنا يحي بن مهلب، عن حسين، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقىٰ، فقال العباس: يافضل اذهب إلى أمك فاتِ رسولَ الله ﷺ بشرابٍ من عندها،
١٥٤/أ / فقال: اسقني، فقال: يارسول الله إنّهم يجعلون أيديهم فيه، قال: اسقني، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: اعملوا فإنكم على عمل صالح، ثم قال: لولا أن تُغْلَبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه، وأشار إلى عاتقه[1].

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنا عبدالغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، عن مسلم بن الحجاج حدثني محمد بن منهال الضرير، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا حميد الطويل عن بكر بن عبدالله المُزَنيّ قال: كنتُ جالساً مع ابن عباس عند الكعبة فأتاه أعرابي فقال: ما لي أرى بني عمِّكم يسقون العسل واللبن وأنتم تسقون النبيذ؟ أمِنْ حاجةٍ بكم؟ أم مِنْ بُخلٍ؟ فقال ابن عباس: الحمد لله ما بِنا حاجةٌ ولا بُخْلٌ، قدم رسول الله ﷺ على راحلته وخلفه أسامة فاستسقى، فأتيناه بإناءٍ من نبيذ فشرب وسقى فضلَه أسامةَ، وقال: أحسنتم وأجْمَلْتُم كذا فاصنعوا، فلا نريد تغيير ما أمر به رسول الله ﷺ.[2].

= من طبعة جامعة الإمام: «هذا اللفظ لا يعرف في شيء من كتب الحديث المعتمدة، بل ودلالات الكذب عليه ظاهرة. منها: أن طلحة بن شيبة لا وجود له، وإنما خادم الكعبة هو شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، وهذا مما يبين لك أن الحديث لم يصح...

وقول علي: «صليت ستة أشهر قبل الناس» فهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة، فإن بين إسلامه وإسلام زيد وأبي بكر وخديجة يوماً أو نحوه فكيف يصلي قبل الناس بستة أشهر».

(١) أخرجه البخاري في الحج، باب سقاية الحاج: ٣/٤٩١.

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب وجوب المبيت بمنى ليالي أيام التشريق.. برقم (١٣١٦): ٢/٩٥٣.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ
عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: **﴿الذينَ آمنُوا وهاجَرُوا وجاهدُوا في سبيل الله بأموالِهم وأنفسِهم أعظمُ درجةً﴾** فضيلة، **﴿عندَ اللهِ﴾**، من الذين افتخروا بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام. **﴿وأولئك هم الفائزون﴾**، الناجون من النار.

﴿يُبشرُهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم﴾.

﴿خالدين فيها أبداً إنّ الله عنده أجرٌ عظيم﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء﴾، قال مجاهد: هذه الآية متصلة بما قبلها، نزلت في قصة العباس وطلحة وامْتِنَاعِهما من الهجرة(١).

وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: قال: لمّا أمر النبي ﷺ الناس بالهجرة إلى المدينة، فمنهم من يتعلق به أهله وولده، يقولون: ننشدك بالله أن لا تضيِّعَنا. فيرقّ لهم فيقيم عليهم ويدع الهجرة، فأنزل الله عز وجل هذه الآية(٢).

وقال مقاتل: نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة، فنهى الله عن ولايتهم، فأنزل الله: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياءَ﴾**(٣) بطانةً وأصدقاء فتفشون إليهم أسراركم وتؤثرون المقام معهم على الهجرة، **﴿إن استحبوا﴾**، اختاروا **﴿الكفرَ على الإيمان، ومن**

---

(١) تفسير الطبري: ١٤/١٧٦. وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. انظر: الدر المنثور: ٤/١٥٧.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص(٢٨٠)، وعزاه ابن حجر للثعلبي من رواية جويبر عن الضحاك عن ابن عباس. انظر: الكافي الشاف ص(٧٤).

(٣) عزاه ابن حجر للثعلبي. المرجع السابق.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿يتولّهم منكم﴾، فيطلعهم على عورة المسلمين ويُؤثر المقام معهم على الهجرة والجهاد، **﴿فأولئك هُمُ الظالمون﴾**، وكان في ذلك الوقت لا يُقبل الإيمان إلّا من مهاجر، فهذا معنى قوله: **﴿فأولئك هم الظالمون﴾**.

ثم قال تعالى: **﴿قلْ﴾** يامحمد للمتخلفين عن الهجرة: **﴿إن كان آباؤكُم﴾**، وذلك أنه لما نزلت الآية الأولى قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إنْ نحنُ هاجرنا ضاعت أموالُنا وذهبت تجاراتُنا وخُرّبتْ دورُنا وقطعنا أرحامنا، فنزل: **﴿قُل إن كَانَ آبَاؤُكم وَأبنَاؤُكم وَإخوَانُكم وأزوَاجُكم وعشيرتُكم﴾**، قرأ أبو بكر عن عاصم: «عشيراتكم» بالألف على الجَمع، ، والآخرون بلا ألف على التوحيد، لأن جمع العشيرة عشائر: **﴿وأموال اقترفتموها﴾** اكتسبتموها **﴿وتجارةٌ تخشَوْنَ كسادَها ومساكِنُ ترضونَها﴾**، أي: تستطيبونها يعني القصور والمنازل، **﴿أحبَّ إليكم منَ الله ورسولِه وجهادٍ في سبيله فتربَّصُوا﴾**، فانتظروا، **﴿حتى يأتي الله بأمره﴾**، قال عطاء: بقضائه. وقال مجاهد ومقاتل: بفتح مكة وهذا أمر تهديد، **﴿والله لا يهدي﴾** لا يُوفّق ولا يُرشد **﴿القومَ الفاسقين﴾**، الخارجين عن الطاعة.

قوله تعالى: **﴿لقدْ نصَركُم اللّهُ في مواطنَ﴾**، أي مشاهد، **﴿كثيرةٍ ويَوْمَ حُنينٍ﴾**، وحنين وادٍ بين مكة والطائف. وقال عروة: إلى جنب ذي المجاز.

وكانت قصة حنين على ما نقله الرواة(١): أن رسول الله ﷺ فتح مكة وقد بقيت عليه أيام من شهر رمضان، ثم خرج إلى حُنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفاً، ـ عشرة آلاف من المهاجرين

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٤٣٧/٢ ومابعدها، الدر المنثور: ١٥٨/٤ ومابعدها.

وألفان من الطلقاء، قال عطاء كانوا ستة عشر ألفاً.

وقال الكلبي: كانوا عشرة آلاف، وكانوا يومئذ أكثر ما كانوا قط، والمشركون أربعة آلاف من هوازن وثقيف، وعلى هوازن مالك بن عوف النَّصْري، وعلى ثقيف كنانة بن عبد ياليل الثقفي، فلما التقى الجمعان قال رجل من الأنصار يقال له سلمة بن سلامة بن وقش: لن نُغلبَ اليومَ عن قلة، فساء رسولَ الله ﷺ كلامُه، ووكلوا إلى كلمة الرجل. وفي رواية: فلم يرض الله قوله، ووكَلَهم إلى أنفسهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم المشركون وخلوا عن الذراري، ثم نادوا: ياحماة السواد اذكروا الفضائح، فتراجعوا وانكشف المسلمون.

قال قتادة: وذكر لنا أن الطلقاء انجفلوا يومئذ بالناس فلما انجفل القوم هربوا.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، [أخبرنا عبدالعزيز][1]أخبرنا عبدالغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو خيثمة عن أبي إسحاق قال: قال رجل للبراء بن عازب: يا أبا عُمارة فررتُم يومَ حنين؟ قال: لا والله ما ولّى رسولُ الله ﷺ، ولكنه خرج شُبَّانُ أصحابِه وأخِفَّاؤُهم وهم حُسّرٌ ليس عليهم سلاحٌ، أو كثيرُ سلاح، فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم، جمع هوازن وبني نَصْر، فَرَشَقُوهم رَشْقاً ما يكادون يخطؤونَ، فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب يقود به، فنزل واستنصر وقال: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب، ثم صفَّهُمْ[2].

ورواه محمد بن إسماعيل عن عبيدالله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق. وزاد قال: فما رُؤي مِنَ الناس يومئذ أشدُّ منه[3].

ورواه زكريا عن أبي إسحاق. وزاد قال البراء: كنا إذا احمرّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا لَلَّذي يحاذي به ـ يعني النبي ﷺ[4]. ـ

(١) ساقط من «ب».
(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب غزوة حنين، برقم (١٧٧٦): ٣/١٤٠٠.
(٣) أخرجه البخاري في الجهاد، باب من قال: خذها وأنا ابن فلان. ٦/١٦٤.
(٤) أخرجه مسلم في الموضع السابق: ٣/١٤٠١.

وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: قال البراء: إن هوازن كانوا قوماً رماة، وإنّا لمّا لقيناهم حملنا عليهم، فانهزموا، فأقبل المسلمون على الغنائم فاستقبلونا بالسِّهام، فأمّا رسول الله ﷺ فلم يفرَّ.

قال الكلبي: كان حول رسول الله ﷺ ثلاثمائة من المسلمين وانْهزَمَ سائرُ الناسِ.

وقال آخرون: لم يَبْقَ مع النبي ﷺ يومئذ غير: العباس بن عبدالمطلب، وأبو سفيان بن الحارث، وأيمن بن أم أيمن، فقتل يومئذ بين يدي رسول الله ﷺ.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أخبرنا عبدالغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان / حدثنا مسلم بن الحجاج، قال: حدثنا أبو طاهر، أحمد بن عمرو بن سرح، حدثنا ابن وهب، أخبرنا يونس عن ابن شهاب، قال: حدثني كثير بن عباس بن عبدالمطلب قال: قال عباس: شهدتُ مع رسول الله ﷺ يوم حنين فلزمتُ أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يُرْكِض بغلتَه قِبَلَ الكفار، وأنا آخذٌ بلجام بغلةِ رسول الله ﷺ أكفُّها إرادةَ أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه، فقال رسول الله ﷺ أيْ عبَّاسُ: نادِ أصحابَ السَّمُرة، فقال عباس ـ وكان رجلاً صيِّتاً ـ فقلت بأعلى صوتي: أين أصحابُ السَّمُرة؟ قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهُمْ حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يالبيك يالبيك، قال: فاقتتلوا والكفار، والدعوة في الأنصار يقولون: يامعشر الأنصار يامعشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال: هذا حين حَمِيَ الوَطِيْسُ[1]، ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حصياتٍ فرمَى بهنّ وجوهَ الكفار، ثم قال: انهزموا وربِّ محمد، فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى حَدَّهم كليلاً، وأَمْرَهُمْ مُدْبِراً[2]. ١٥٤/ب

وقال سلمة بن الأكوع: غزونا مع رسول الله ﷺ حُنيناً قال فلما غَشُوا رسولَ الله ﷺ نزلَ عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال «شاهت الوجُوه»، فما خلق

(١) لم تسمع هذه الكلمة إلا من رسول الله ﷺ. والوطيس: حفرة تحتفر تحت الأرض، فتوقد فيها النار، ويصغّر رأسها، ويخرق فيها خرق للدخان، ثم يوضع فيها اللحم ويُسَدُّ، ثم يؤتى من الغد واللحم غابٌ لم يحترق. ولحمها شواء. وهي مجاز في شدة الحرب.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، برقم (١٧٧٥): ٣/١٣٩٨ ـ ١٣٩٩، والمصنف في شرح السنة: ١٤/٣١ ـ ٣٢.

الله منهم إنساناً إلا ملأ عينه تراباً بتلك القبضة، فَوَلَّوا مُدْبرين، فهزمهم الله عزّ وجلّ فقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين[1].

قال سعيد بن جبير: أمدَّ الله تعالى نبيّه ﷺ بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين[2].

وفي الخبر: أن رجلاً من بني نضر يقال له شجرة، قال للمؤمنين بعد القتال: أين الخيل البُلْق والرجال الذين عليهم ثياب بيض، ماكنا نراكم فيهم إلاّ كهيئة الشامة وما كان قتلنا إلا بأيديهم؟ فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: تلك الملائكة.

قال الزهري: وبلغني أن شيبة بن عثمان بن طلحة قال[3]: استدبرتُ رسولَ الله ﷺ يوم حنين وأنا أريد قتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة، وكانا قد قتلا يوم أحد، فأطلع الله رسوله ﷺ على ما في نفسي فالتفتَ إليَّ وضرب في صدري وقال أعيذك بالله ياشيبة، فأرْعِدَتْ فرائصي، فنظرت إليه فهو أحب إلي من سمعي وبصري، فقلت: أشهد أنكَ رسول الله، وأن الله قد أطلعك على ما في نفسي.

فلما هزم الله المشركين وولّوا مدبرين، انطلقوا حتى أتوا أوطاس وبها عيالهم وأموالهم، فبعث رسول الله رجلاً من الأشعريين يقال له أبو عامر وأمَّره على جيش المسلمين إلى أوطاس، فسار إليهم فاقتتلوا، وقتل: دريد بن الصِمَّة، وهزم الله المشركين وسبىٰ المسلمون عيالهم، وهرب أميرهم مالك بن عوف النصري، فأتى الطائف فتحصَّنَ بها وأُخِذ ماله، وأهله فيمن أخذ. وقُتل أميرُ المسلمين أبو عامر[4].

قال الزهري: أخبرني سعيد بن المسيب أنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف سبيّ، ثم إن رسول الله ﷺ أتى الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر، فلما دخل ذو القعدة وهو شهر حرام انصرف عنهم، فأتى الجعرَّانه فأحرم منها بعُمرة وقسّم فيها غنائم حنين وأُوطاس، وتألف أناساً، منهم: أبو سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، والأقرع بن حابس، فأعطاهم[5].

(١) أخرجه مسلم في الموضع السابق، برقم (١٧٧٧): ١٤٠٢/٣.
(٢) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم. الدر المنثور: ١٦١/٤.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام: ٤٤٤/٢.
(٤) سيرة ابن هشام: ٤٤٩/٢، ٤٥٣، طبقات ابن سعد: ١٥١/٢ ـ ١٥٢.
(٥) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزي: ٤٢٢/١ ـ ٤٢٣.

أخبرنا عبدالوحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، حدثنا الزهري، أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ أناساً من الأنصار قالوا لرسول الله - حين أفاء الله على رسوله من أموال هو ازن ما أفاء، فطَفِقَ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل - فقالوا: يَغْفِرُ الله لرسولِ الله ﷺ يُعطي قريشاً ويَدَعُنَا وسيوفُنا تَقْطُرُ من دمائِهم؟ قال أنس: فَحُدِّثَ رسولُ الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قُبَّةٍ من أَدَمٍ ولم يَدْعُ معهم أحداً غيرهم، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما كان حديثٌ بلغني عنكم؟ فقال له فقهاؤهم أمّا ذوُو رأينا يارسول الله، فلم يقولوا شيئاً، وأما أناسٌ منّا حديثةٌ أسنانُهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يُعطي قريشاً ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: إني لأُعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله ﷺ؟ فوالله ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: بلى يارسول الله قد رضينا، فقال لهم «إنكم سترون بعدي أُثْرَةً شديدة، فاصبروا حتى تَلْقَوا الله ورسوله على الحوض»[(١)].

وقال يونس عن ابن شهاب: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بالكفر أتألفهم»، وقال: «فاصبروا حتى تلقَوُا اللّهَ ورسولَه فإني على الحوض»، قالوا: سنصبر[(٢)].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا وهيب، حدثنا عمرو بن يحيى عن عباد بن تميم عن عبدالله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حُنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذْ لم يصبهم ما أصابه الناس، فخطبهم فقال: «يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضُلاّلاً فهداكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي وكنتم عالَةً فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئاً قالوا: اللّهُ ورسولُه أمَنُّ قال: ما يمنعكم أن تُجيبوا رسولَ الله كلّما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمَنُّ؟ قال: لو شئتم قلتُم كذا وكذا، أترْضَونَ أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً أو شِعْباً لسلكت وادي

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة: ٦/٢٥٠ - ٢٥١، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، برقم (١٠٥٩): ٢/٧٣٣ - ٧٣٤.

(٢) في رواية مسلم، في الموضع السابق.

الأنصار وشعبهم، الأنصار شِعارٌ والناسُ دِثار، إنكم ستلقون بعدي أَثَرَةً فاصْبرُوا حتى تلقوني على الحوض»(١).

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أخبرنا عبدالغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا
١٥٥/ أ إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن / أبي عمر المكي، حدثنا سفيان عن عمر بن سعيد بن مسروق عن أبيه عن عباية بن رفاعة، عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: أعطى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أميّة وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

فَمَا كَانَ حِصْنٌ ولا حَابِسٌ * يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فِي المَجْمَعِ
أَتَجْعَلُ نَهْبِي ونَهْبَ العُبَيْـ * ـدِ بَيْنَ عُيَيْنَةَ والأَقْرَعِ
ومَا كُنتُ دونَ امرِئٍ مِنْهُمَا * ومَن تَخْفِضِ اليَوْمَ لا يُرْفَعِ

قال: فأتم له رسول ﷺ مائة(٢).

وفي الحديث: أن ناساً من هوازن أقبلوا مسلمين بعد ذلك، فقالوا: يارسول الله أنت خيرُ الناس وأَبَرُّ الناس، وقد أُخِذَتْ أبناؤنا ونساؤنا وأموالنا(٣).

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا سعيد بن عفير، حدثني الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير: أن مروان والمِسْوَر بن مَخْرَمَة أخبراه أن رسول الله ﷺ قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين، فسألوه أن يردَّ إليهم أموالهم وسَبْيَهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن معي من ترون وأحبُّ الحديث إليَّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال. قالوا: فإنا نختار سَبْيَنَا. فقام رسول الله ﷺ فأثنى على الله عزّ وجلّ بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أردَّ إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يُطَيِّبَ ذلك لهم فليفعل، ومن أحب أن يكون على حظ حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا، فليفعل فقال الناس: قد طَيَّبْنا ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف: ٤٧/٨، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام، برقم (١٠٦١): ٢/٧٣٨، والمصنف في شرح السنة: ١٤/٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في الموضع السابق برقم (١٠٦٠) ٢/٧٣٧.

(٣) ذكره الثعلبي بغير سند، وذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة في المغازي مطولاً. انظر: الكافي الشاف ص(٧٤)، فتح الباري: ٣٨/٨.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

يارسول الله فقال رسول الله، ﷺ: إنا لا ندري من أَذِن منكم في ذلك ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا[1]. فأنزل الله تعالى في قصة حنين: **﴿لقدْ نصركم اللّهُ في مواطنَ كثيرة ويوم حنين إذْ أعْجَبْتكُم كثرتُكم﴾**، حتى قلتم: لن نغلب اليوم من قلة، **﴿فلم تُغن عنكم﴾**، كثرتُكم، **﴿شيئاً﴾**، يعني إن الظفر لا يكون بالكثرة، **﴿وضاقتْ عليكمُ الأرض بما رحبت﴾**، أي برحبها وسعتها، **﴿ثم ولّيتم مدبرين﴾**، منهزمين.

﴿ثم أنزل الله﴾ بعد الهزيمة، **﴿سكينته﴾**، يعني: الأمنَة والطمأنينة، وهي فعيلة من السكون **﴿على رسولِه وعلى المؤمنينَ وأنزلَ جنوداً لم تروها﴾**، يعني: الملائكة. قيل: لا للقتال، ولكن لتجبين الكفار وتشجيع المسلمين، لأنه يُروى: أن الملائكة لم يقاتلوا إلّا يوم بدر، **﴿وعذَّبَ الذين كفروا﴾**، بالقتل والأسر وسبي العيال وسلب الأموال، **﴿وذلك جزاءُ الكافرين﴾**.

﴿ثمّ يتوبُ اللّهُ من بعدِ ذلكَ على من يشاءُ﴾، فيهديه إلى الإسلام، **﴿واللّهُ غفورٌ رحيم﴾**.

قوله تعالى: **﴿يا أيّها الذين آمنوا إنّما المشركون نجس﴾** الآية، قال الضحاك وأبو عبيدة: نجس: قذر. وقيل: خبيث. وهو مصدر يستوي فيه الذكر والأنثى والتثنية والجمع، فأما النِّجْس: بكسر النون وسكون الجيم، فلا يقال على الانفراد، إنما يقال: رِجْسٌ نِجْسٌ، فإذا أُفرد قيل: نَجِسٌ، بفتح النون وكسر الجيم، وأراد به: نجاسة الحكم لا نجاسةَ العين، سُمّوا نَجَساً على الذم. وقال قتادة: سماهم نجساً لأنهم يُجنبون فلا يغتسلون ويُحْدِثون فلا يتوضؤون.

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب قوله تعالى: «ويوم حنين. . .»: ٨/٣٢-٣٣.

قولـه تعالى: ﴿فلا يقربُوا المسجدَ الحرامَ﴾، أراد منعهم من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام، وأراد به الحرم وهذا كما قال الله تعالى: «سبحانَ الذي أسرَى بعبدِهِ ليلاً مِّنَ المسجد الحرام» «الإسراء - ١»، وأراد به الحرم لأنه أسرى به من بيت أم هانىء.

قال الشيخ الإمام الأجل: وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار على ثلاثة أقسام:

أحدها: الحرم، فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال، ذمّياً كان أو مستأمناً، لظاهر هذه الآية، وإذا جاء رسول من بلاد الكفار إلى الإمام والإمامُ في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم، بل يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم. وجوّز أهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم.

والقسم الثاني من بلاد الإسلام: الحجاز، فيجوز للكافر دخولها بالإذن ولكن لا يقيم فيها أكثر من مقام السفر وهو ثلاثة أيام، لِما رُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لئن عشتُ إن شاء الله تعالى لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدعَ فيها إلا مسلماً»(١). فمضى رسول الله ﷺ وأوصى فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»(٢)، فلم يتفرغ لذلك أبو بكر رضي الله عنه، وأجلاهم عمر رضي الله عنه في خلافته، وأجّل لمن يقدم منهم تاجراً ثلاثاً. وجزيرة العرب من أقصى عدن أبين إلى ريف العراق في الطول، وأما العرض فمن جدة وما وَالاَهَا من ساحل البحر إلى أطراف الشام.

والقسم الثالث: سائر بلاد الإسلام، فيجوز للكافر أن يقيم فيها بذمة وأمان، ولكن لا يدخلون المساجد إلّا بإذن مسلم.

قوله: ﴿بعدَ عامهم هذا﴾، يعني: العام الذي حجّ فيه أبو بكر رضي الله عنه بالنّاس، ونادَى علي كرّم الله وجهه ببراءة، وهو سنة تسع من الهجرة.

قوله: ﴿وإنْ خِفْتُم عَيْلَةً﴾، وذلك أنَ أهل مكة كانت معايشهم من التجارات وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ويتجرون، فلما مُنِعُوا من دخول الحرم خافُوا الفقر، وضيقَ العيش، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وإن خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فقراً وفاقةً. يُقال: عال يعيل عَيْلَةً، ﴿فسوفَ

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، برقم (١٧٦٧): ٣/١٣٨٨، والمصنف في شرح السنة: ١١/١٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في باب إخراج اليهود من جزيرة العرب من كتاب الجزية: ٦/٢٧١، مطولاً، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه، برقم (١٦٣٧) ٣/١٢٥٧ - ١٢٥٨، والمصنف في شرح السنة: ١١/١٨٠ - ١٨١.

قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

يُغنيكُم اللَّهُ مِنْ فضِله إنْ شاءَ إنَّ اللَّهَ عليمٌ حكيمٌ﴾، قال عكـرمة: فأغناهم الله عزّ وجلّ بأن أنزل عليهم المطر مدراراً فكثر خيرهم. وقال مقاتل: أسلم أهل جدة وصنعاء وجريش من اليمن وجلبوا الميرة الكثيرة إلى مكة فكفاهم الله ما كانوا يخافون. وقال الضحاك وقتادة: عوّضهم الله منها الجزية فأغناهم بها. وذلك: قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الذينَ لا يُؤمنونَ باللّهِ﴾، قال مجاهد: نزلت هذه الآية حين أُمر رسول الله ﷺ بقتال الروم، فغزا بعد نزولها غزوة تبوك[1].

وقال الكلبي: نزلت في قريظة والنضير من اليهود، فصالحهم وكانت أول جزية أصابها أهل الإسلام، وأول ذُلّ أصاب أهل الكتاب / بأيدي المسلمين. ١٥٥/ب

قال الله تعـالى: ﴿قاتلوا الذين لا يُؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر﴾، فإنْ قيل: أهل الكتاب يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قيل: لا يؤمنون كإيمان المؤمنين، فإنهم إذا قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله، لا يكون ذلك إيماناً بالله. ﴿ولا يُحرِّمُونَ ما حرّمَ اللّهُ ورسولُهُ ولا يَدِينُون دِينَ الحقِّ﴾، أي: لا يدينون الدين الحق، أضاف الاسم إلى الصفة. وقال قتادة: الحق هو الله، أي: لا يدينون دينَ الله، ودينـه الإسـلام. وقال أبو عبيدة: معناه لا يطيعون الله تعالى طاعة أهل الحقّ. ﴿مِنَ الذين أوتُوا الكتابَ﴾، يعني: اليهود والنصارى. ﴿حتّى يعطُوا الجزية﴾، وهي الخراج المضروب على رقابهم، ﴿عَنْ يَدٍ﴾، عن قهر وذلّ. قال أبو عبيدة: يقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس: أعطاه عن يدٍ. وقال ابن عباس: يعطونها بأيديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم. وقيل: عن يدٍ أي: عن نقد لا نسيئة. وقيل: عن إقرار بإنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم، ﴿وهم صَاغِرُون﴾، أذلاء مقهورون. قال عكرمة: يعطون الجزية عن قيام، والقابض جالس. وعن ابن عباس قال: تُؤخذ منه ويُوطأ عنقه.

وقال الكلبي: إذا أعطى صفع في قفاه.

وقيل: يؤخذ بلحيته ويضرب في لهزمتيه.

(١) انظر: الدر المنثور: ١٦٧/٤.

وقيل: يُلبّب ويُجر إلى موضع الإعطاء بعنف.

وقيل: إعطاؤه إيّاها هو الصغار.

وقال الشافعي رحمه الله: الصغار هو جريان أحكام الإسلام عليهم.

واتفقت الأمة على جواز أخذ الجزية من أهل الكتابين، وهم اليهود والنصارى إذا لم يكونوا عرباً.

واختلفوا في الكتابي العربي وفي غير أهل الكتاب من كفار العجم، فذهب الشافعي: إلى أنّ الجزية على الأديان لا على الأنساب، فتؤخذ من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً، ولا تؤخذ من أهل الأوثان بحال، واحتج بأن النبي ﷺ أخذها من أكيدر دومة، وهو رجل من العرب يقال: إنه من غسان، وأخذ من أهل ذمة اليمن، وعامّتهم عرب.

وذهب مالك والأوزاعي: إلى أنها تؤخذ من جميع الكفار إلا المرتد.

وقال أبو حنيفة تُؤخذ من أهل الكتاب على العموم، وتؤخذ من مشركي العجم، ولا تؤخذ من مشركي العرب. وقال أبو يوسف: لا تؤخذ من العربي، كتابياً كان أو مشركاً، وتُؤخذ من العجمي كتابياً كان أو مشركاً.

وأما المجوس: فاتفقت الصحابة رضي الله عنهم على أخذ الجزية منهم.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، أخبرنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع بَجَالة يقول: لم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هَجَر[1].

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن جعفر بن محمد، عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة ـ باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب: ٦/٢٥٧.

في أمرهم؟ فقال عبدالرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سُنُّوا بهم سُنّة أهل الكتاب»[1].

وفي امتناع عمر رضي الله عنه عن أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبدالرحمن [بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر، دليلٌ على أن رأي الصحابة كان على أنها لا تُؤخذ][2] من كل مشرك، وإنما تُؤخذ من أهل الكتاب.

واختلفوا في أن المجوس: هل هم من أهل الكتاب أم لا؟ فرُوي عن علي رضي الله عنه قال: كان لهم كتاب يدرسونه فأصبحوا، وقد أسري على كتابهم، فرُفعَ من بين أظهرهم[3].

واتفقوا على تحريم ذبائح المجوس ومناكحتهم بخلاف أهل الكتابين.

أما من دخل في دين اليهود والنصارى من غيرهم من المشركين نُظِرَ: إن دخلوا فيه قبل النسخ والتبديل يُقرّون بالجزية، وتحلّ مناكحتهم وذبائحهم، وإن دخلوا في دينهم بعد النسخ بمجيء محمد ﷺ لا يُقَرُّون بالجزية، ولا تحلّ مناكحتهم وذبائحهم، ومن شككنا في أمرهم أنهم دخلوا فيه بعد النسخ أو قبله: يقرون بالجزية تغليباً لحقن الدم، ولا تحل مناكحتهم وذبائحهم تغليباً للتحريم، فمنهم نصارى العرب من تنوخ وبهراء وبني تغلب، أقرَّهم عمر رضي الله عنه على الجزية، وقال: لا تحل لنا ذبائحهم.

وأما قدر الجزية: فأقله دينار، لا يجوز أن ينقص منه، ويقبل الدينار من الفقير والغني والوسط لما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أخبرنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا عبدالرزاق أخبرنا سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ، باب الزكاة: ١/٢٧٨، والشافعي: ٢/١٣٠ (ترتيب المسند)، وأبو عبيد في الأموال ص(٤٢)، وابن أبي شيبة في المصنف: ٣/٢٢٤، والخطيب في تاريخ بغداد: ١٠/٨٨، والبيهقي في السنن: ٩/١٨٩، والمصنف في شرح السنة: ١١/١٦٩.
وقال ابن عبدالبر: هذا حديث منقطع، لكن معناه يتصل من وجوهٍ حِسَان. وانظر: نصب الراية: ٣/٤٤٨ - ٤٤٩، مجمع الزوائد: ٦/١٣، إرواء الغليل: ٥/٨٨.

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) جاء ذلك في خبرٍ عن علي رضي الله عنه أخرجه الشافعي في المسند: ٢/١٣١، وفيه سعيد بن المرزبان: مجروح. قال يحيى بن سعيد القطان: لا أستحلّ أروي عنه. وانظر: نصب الراية: ٣/٤٤٩ - ٤٥٠.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾

بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عَدْلَه مَعافِرَ[1]. فالنبي ﷺ أمره أن يأخذ من كل حَالِم، أي بالغ ديناراً ولم يفصل بين الغني والفقير والوسط، وفيه دليل على أنها لا تجب على الصبيان وكذلك لا تجب على النسوان، إنما تُؤخذ من الأحرار العاقلين البالغين من الرجال.

وذهب قوم إلى أنه على كل موسر أربعة دنانير، وعلى كل متوسط ديناران، وعلى كل فقير دينار، وهو قول أصحاب الرأي.

قوله تعالى: ﴿وقالتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللّهِ وقالتِ النّصارَى المسيحُ ابنُ اللّهِ﴾، روى سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس قال: أتىٰ رسولَ الله ﷺ جماعةٌ من اليهود: سلام بن مشكم، والنعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعكَ وقد تركتَ قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وقالتِ اليهودُ عزيزٌ ابنُ الله﴾[2].

قرأ عاصم والكسائي ويعقوب ﴿عزيرٌ﴾ بالتنوين والآخرون بغير تنوين؛ لأنه اسم أعجمي ويشبه اسماً مصغراً، ومن نوَّن قال: لأنه اسم خفيف، فوجهه أن يصرف، وإن كان أعجمياً مثل نوح وهود ولوط. واختار أبو عبيدة التنوين وقال: لأن هذا ليس بمنسوب إلى أبيه، إنما هو كقولك زيد ابن الأمير وزيد ابن أختنا، فعزيرٌ مبتدأ وما بعده خبر له.

وقال عبيد بن عمير: إنما قال هذه المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء[3].

(١) أخرجه الترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة البقر: ٢٥٧/٣ وقال: هذا حديث حسن. وأبو داود في الامارة، باب في أخذ الجزية: ٢٤٩/٤، والنسائي في الزكاة: ٢٥/٥ - ٢٦، وابن حبان في موارد الظمآن ص(٧٩٤) والإمام أحمد في المسند: ٢٣٠/٥، ٢٣٣، وصححه الحاكم: ٣٩٨/١، وأخرجه المصنف في شرح السنة: ١٧٢/١١.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير: ٢٠٢/١٤، وابن اسحاق في السيرة: ٥٧٠/١، وعزاه السيوطي أيضاً مع الرواية الأخرى لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه. الدر المنثور: ١٧٠/٤ - ١٧١.

(٣) تفسير الطبري: ٢٠١/١٤، وأخرجه ابن المنذر عن ابن جريج. الدر المنثور: ١٧١/٤.

وهو الذي قال: «إن الله فقير ونحن أغنياء» «آل عمران ـ ١٨١».

وروى عطية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما قالت اليهود عزيز ابن الله من أجل أن عزيراً كان فيهم وكانت التوراة عندهم والتابوت فيهم، فأضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فرفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، فدعا الله عزيرٌ وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدورهم، فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله تعالى نزل نور من السماء فدخل جوفه فعـادت إليه التـوراة فأذّن في قومه، وقال: يا قوم قد آتاني اللّه التوراة وردها إليّ! فعلق به / الناس ١٥٦/ أ يعلمهم، فمكثوا ما شاء الله تعالى، ثم إن التابوت نزل بعد ذهابه منهم، فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله، فقالوا: ما أُوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله(١).

وقال الكلبي: إن بختنصر لما ظهر على بني إسرائيل وقتل منهم من قرأ التوراة، وكان عزير إذ ذاك صغيراً فاستصغره فلم يقتله، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله عزيراً ليجدد لهم التوراة وتكون لهم آية بعد مائة سنة، يقال: أتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه فمثلت التوراة في صدره، فلما أتاهم قال أنا عزير فكذبوه وقالوا إن كنت كما تزعم فأَمِلِ علينا التوراة، فكتبها لهم، ثم إن رجلاً قال: إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم، فانطلقوا معه حتى أخرجوها، فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر منها حرفاً، فقالوا: إن الله لم يقذف التوراة في قلب رجل إلا لأنه ابنه، فعند ذلك قالت اليهود: عزيرٌ ابن الله.

وأمّا النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، وكان السبب فيه أنهم كانوا على دين الإسلام إحدى وثمـانين سنـة بعدما رُفع عيسى عليه السلام يُصَلُّون إلى القبلة، ويصومون رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له «بولص» قتل جملة من أصحاب عيسى عليه السلام، ثم قال لليهود: إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا به والنار مصيرنا، فنحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، فإني أحتال وأُضِلُّهم حتى يدخلوا النار، وكان له فرس يقال له العقاب يقاتل عليه فعرقب فرسه وأظهر الندامة، ووضع على رأسه التراب، فقال له النصارى: من أنت؟ قال: بولص عدوكم، فنوديت من السماء: ليست لك توبة إلا أن تتنصّر، وقد تبت. فأدخلوه الكنيسة، ودخل بيتاً

(١) أخرجه الطبري: ١٤/٢٠٢ ـ ٢٠٣. وانظر: الدر المنثور: ٤/١٧١.

﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾

سنة لا يخرج منه ليلاً ولا نهاراً حتى تعلَّم الإنجيل، ثم خرج وقال: نوديت أن الله قَبِلَ توبتك، فصدّقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس، واستخلف عليهم نسطورا وعلَّمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، ثم توجه إلى الروم وعلَّمهم اللاّهوت والنَّاسوت، وقال: لم يكن عيسى بإنس ولا بجسم، ولكنه ابن الله، وعلَّم ذلك رجلاً يقال له «يعقوب» ثم دعا رجلاً يقال له مَلْكا، فقال: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى، فلما إستمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً، وقال لكل واحد منهم: أنت خالصتي، وقد رأيت عيسى في المنام فرضي عني. وقال لكل واحد منهم: إني غداً أذبح نفسي، فادعُ الناس إلى نِحْلَتِكَ. ثم دخل المذبح فذبح نفسه وقال: إنما أفعل ذلك لمرضاة عيسى، فلما كان يوم ثالثه دعا كلُّ واحد منهم الناسَ إلى نِحْلَتِه، فتبع كلَّ واحد طائفةٌ من الناس، فاختلفوا واقتتلوا فقال الله عزّ وجلّ: ﴿وقالتِ النّصارى المسيحُ ابنُ اللّه﴾ ﴿ذلك قولُهم بأفواهِهم﴾، يقولون بألسنتهم من غير علم. قال أهل المعاني: لم يذكر الله تعالى قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا كان ذلك زوراً. ﴿يُضاهِؤنَ﴾، قرأ عاصم بكسر الهاء مهموزاً، والآخرون بضم الهاء غير مهموز، وهما لغتان يقال: ضاهيته وضاهأته، ومعناهما واحد. قال ابن عباس رضي الله عنه: يشابهون. والمضاهاة المشابهة. وقال مجاهد: يواطؤون. وقال الحسن: يوافقون، ﴿قولَ الذين كفرُوا مِنْ قبلُ﴾، قال قتادة والسدي: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالوا: المسيح ابن الله، كما قالت اليهود: عزير ابن الله. وقال مجاهد: يضاهؤن قول المشركين من قبل الذين كانوا يقولون اللاّت والعُزّى ومناة بنات الله. وقال الحسن: شبّه كفرَهم بكفر الذين مضوا من الأمم الكافرة كما قال في مشركي العرب: «كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم» (البقرة - ١٨٨). وقال القتيبي: يريد أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أوّلهم، ﴿قاتَلَهُم اللّهُ﴾، قال ابن عباس: لعنهم الله. وقال ابن جريج: أي: قتلهم الله. وقيل: ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب، ﴿أنّى يُؤفكون﴾، أي: يصرفون عن الحق بعد قيام الأدلة عليه.

﴿اتّخـذُوا أحبارَهم ورُهبانَهم أرباباً﴾، أي: علماءهم وقرّاءهم، والأحبار: العلماء، واحدها حبر،

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وحبر بكسر الحاء وفتحها، والرهبان من النصارى أصحاب الصوامع فإن قيل: إنهم لم يعبدوا الأحبار والرهبان؟ قلنا: معناه أنهم أطاعوهم في معصية الله واستحلوا ما أحلّوا وحرّموا ما حرّموا، فاتخذوهم كالأرباب. رُوي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال لي «ياعدي اطرحْ هذا الوثن من عنقك»، فطرحته ثم انتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿**اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً مِّن دُون الله**﴾، حتى فرغ منها، قلت له: إنّا لسنا نعبدهم، فقال: «أليس يُحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه ويحلّون ما حرّم الله فتستحلونه»؟ قال قلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»[1].

قال عبدالله بن المبارك:

وهـل بـدّلَ الـدينَ إلاّ المـلوك * وأحبـارُ سَـوءٍ ورهبـانُهـا

﴿**والمسيحَ ابنَ مريمَ**﴾، أي: اتخذوه إلهاً، ﴿**وما أُمرُوا إلاّ ليَعْبُدُوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمّا يُشركون**﴾.

﴿**يريدون أنْ يُطفئُوا نُورَ اللّهِ بأفواهِهم**﴾، أي: يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إياه. وقال الكلبي: النور القرآن، أي: يريدون أن يردوا القرآن بألسنتهم تكذيباً، ﴿**ويأبى اللّهُ إلاّ أنْ يُتمّ نورَهُ**﴾، أي: يُعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعثَ به محمداً ﷺ، ﴿**ولو كَرِهَ الكافرون**﴾.

﴿**هو الذي أرسلَ رسولَهُ**﴾، يعني: الذي يأبىٰ إلا إتمام دينه هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ، ﴿**بالهدى**﴾، قيل: بالقرآن. وقيل: ببيان الفرائض، ﴿**ودين الحقّ**﴾، وهو الإسلام، ﴿**ليظهرَهُ**﴾،

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ١٤/٢١٠. ورواه مختصراً الترمذي في تفسير سورة براءة: ٨/٤٩٢ ـ ٤٩٤، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالسلام بن حرب، وغُطَيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

وعزاه السيوطي أيضاً: لابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي. انظر: الدر المنثور: ٤/١٧٤، الكافي الشاف ص(٧٥)، جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ص(٤٣٧).

ليعليه وينصره، ﴿على الدِّين كله﴾، على سائر الأديان، ﴿ولو كَرِهَ المشركون﴾.

واختلفوا في معنى هذه الآية: فقال ابن عباس: الهاء عائدة إلى رسول الله ﷺ أي: ليعلمه شرائع الدين كلها فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه منها شيء.

وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى دين الحق، وظهوره على الأديان هو أن لا يُدانَ الله تعالى إلّا به.

وقال أبو هريرة والضحاك: وذلك عند نزول عيسى بن مريم لا يبقى أهل دين إلا دخل في الإسلام / وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في نزول عيسى عليه السلام قال: «ويهلك في زمانه المللُ كلُّها إلّا الإسلام»[1]. وروى المقداد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتُ مدرٍ ولا وبرٍ إلّا أدخله الله كلمة الإسلام إمّا بعزِّ عزيز أو ذلِّ ذليلٍ»[2]، إمّا يعزهم الله فيجعلهم من أهله، فيعز به، أو يذلهم فيدينون له. ١٥٦/ب

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب، حدثنا أبو جعفر محمد سليمان بن منصور، حدثنا أبو مسلم بن إبراهيم بن عبدالله الكجي، حدثنا أبو عاصم النبيل، حدثنا عبدالحميد، هو ابن جعفر، عن الأسود بن العلاء، عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبدَ اللّاتُ والعُزّى»، قالت: قلت يارسول الله ما كنت أظن أن يكون ذلك بعدما أنزل الله تعالى عليك: «هو الذي أرسل رسولَه بالهدَى ودينِ الحقِّ ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره المشركون». ثم قال: «يكون ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله تعالى ريحاً طيبة، فتقبض من كان في قلبه مثقال ذرة من خير، ثم يبقىٰ من لا خير فيه، فيرجع الناس إلى دين آبائهم»[3].

قال الحسين بن الفضل: معنى الآية ليظهره على الدين كله بالحجج الواضحة.

وقيل: ليظهره على الأديان التي حول النبي ﷺ فيغلبهم.

قال الشافعي رحمه الله: فقد أظهر الله رسوله ﷺ على الأديان كلها بأن أبان لكل من سمعه أنه

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢/٤٣٧. وقال الحافظ ابن حجر: رواه أحمد وأبو داود بإسناد صحيح من طريق عبدالرحمن بن آدم عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٦/٤. وذكره الهيثمي من رواية المقداد وتميم الداري وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال الطبراني رجال الصحيح. مجمع الزوائد: ٦/١٤. هذا، وفي نسخة «أ» جاء في الرواية: «يعز عزيزاً ويذل ذليلاً».

(٣) أخرجه مسلم في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة برقم (٢٩٠٧): ٤/٢٢٣٠ والمصنف في شرح السنة: ١٥/٩١-٩٢.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾

الحق، وما خالفه من الأديان باطل، وقال: وأظهره بأن جماع الشرك دينان: دين أهل الكتاب، ودين أمّيين فقهر رسول الله ﷺ الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعاً وكرهاً، وقتل أهل الكتاب وسبى، حتى دان بعضهم بالإسلام، وأعطى بعضهم الجزية صاغرين، وجرى عليهم حكمه، فهذا ظهوره على الدين كله، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**ياأيّها الذين آمنُوا إن كثيراً من الأحبار والرُّهبان**﴾، يعني: العلماء والقراء من أهل الكتاب، ﴿**ليأكُلُون أموالَ النّاس بالبَاطِلِ**﴾، [يريد: ليأخذون][1] الرشا في أحكامهم، ويُحرّفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتباً يقولون، هذه من عند الله، ويأخذون بها ثمناً قليلاً من سفلتهم، وهي المآكل التي يصيبونها منهم على تغيير نعت النبي ﷺ، يخافون لو صدقوهم لذهبت عنهم تلك المآكل، ﴿**ويصدُّون**﴾، ويصرفون الناس، ﴿**عنْ سبيل الله**﴾، دين الله عزّ وجلّ.

﴿**والذينَ يكنزونَ الذهبَ والفِضّةَ ولا يُنفقونَها في سبيل الله فبشِّرْهم بعذاب أليم**﴾، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كل مال تؤدّىٰ زكاته فليس بكنز، وإن كان مدفوناً. وكل مالٍ لا تُؤدّى زكاته فهو كنز، وإن لم يكن مدفوناً. ومثله عن ابن عباس.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أخبرنا عبدالغافر بن محمد أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني سويد بن سعيد، حدثنا حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم أن أبا صالح ذكوان أخبره أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ صاحب ذهبٍ ولا فِضّةٍ لا يؤدي منها حقّها إلاّ إذا كان يومُ القيامة صُفّحتْ له صفائحُ من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكوىٰ بها جبينُه، وظهرهُ، كلما بردت أُعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا صاحبَ إبلٍ لا يُؤدي منها حقّها، ومن حقها حلبها يوم وِرْدِها إلاّ إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ لها بقاع قرقر، أوفر ما كانت، لا يفقدمنها فصيلاً واحداً، تطؤه بأخفافِها، وتعضّه بأفواهها، كلّما مرّ عليه

(١) في «أ»: (يريدون يأخذون).

أُوْلاها رُدّ عليه أُخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضي الله بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، ولا صاحبَ بَقَرٍ ولا غنم، لا يُؤدي منها حقّها، إلاّ إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ لها بقَاعٍ قرقرٍ لا يفقد منها شيئاً ليس فيها عقصاء، ولا جلحاء، ولا عضباء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، كلّما مرَّ عليه أُوْلاها، رُدّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يَقضي الله بين العباد، فيرى سبيله إمّا إلى الجنة وإما إلى النار»[1].

وروينا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدِ زكاتَه، مُثِّلَ له مالُه يوم القيامة شجاعاً أقرع، له زبيبتان يُطوّقه يوم القيامة، فيأخذ بِلِهْزِمتَيْهِ، يعني: شِدْقيه، ثم يقول: أنا مالُك، أنا كنزُك، ثم تلا: ﴿ولا يحسبنّ الذينَ يَبْخلُون بما آتَاهُم الله﴾ الآية[2].

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: كل مال زاد على أربعة آلاف درهم فهو كنز، أَدَّيْتَ منه الزكاة أو لم تُؤدِّ، وما دونها نفقة[3].

وقيل: ما فضل عن الحاجة فهو كنز. أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أخبرنا عبدالغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة، فلما رآني قال: «هم الأخسرون وربِّ الكعبة»، قال: فجئت حتى جلست، فلم أتقارّ أن قمت فقلت: يارسول الله فداك أبي وأمي، مَنْ هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا، من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، وقليلٌ مّا هم»[4].

ورُوي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه كان يقول: من ترك بيضاء، أو حمراء، كوي بها يوم القيامة[5].

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة ـ برقم (٩٨٧): ٢/ ٦٨٠ ـ ٦٨١، والمصنف في شرح السنة: ٥/ ٤٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة: ٣/ ٢٦٨، والمصنف في شرح السنة: ٥/ ٤٧٨.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير: ١٤/ ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان ـ باب كيف كان يمين النبي ﷺ: ١١/ ٥٢٤، ومسلم في الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة ـ برقم (٩٩٠): ٢/ ٦٨٦.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٥/ ١٦٨، والطبري: ١٤/ ٢٢٠. وعزاه ابن حجر أيضاً للبخاري في التاريخ ـ وابن مردويه من طريق عبدالله بن عبدالواحد الثقفي عن أبي النجيب الشامي عن أبي ذر، وعن ثوبان أخرجه ابن مردويه والطبراني في مسند الشاميين بلفظ أخر. انظر: الكافي الشاف ص(٧٥ ـ ٧٦).

يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

ورُوي عن أبي أمامة قال: مات رجل من أهل الصُّفَّة، فوجد في مئزره دينار، فقال النبي ﷺ «كَيَّةٌ»، ثم توفي آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال النبي ﷺ: «كيّتان»(١).

والقول الأول أصح؛ لأن الآية في منع الزكاة لا في جمع المال الحلال. قال النبي ﷺ: «نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح»(٢).

ورَوىٰ مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية، كَبُرَ ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا أن يدع لولده شيئاً، فذكر عمر ذلك لرسول الله فقال: «إنّ الله عزّ وجلّ لم يفرض الزكاة إلا ليطيِّبَ بها ما بقي من أموالكم»(٣).

وسئل ابن عمر رضي الله عنهما عن هذه الآية؟ فقال: كان ذلك قبل أن تنزل الزكاة، فلما أنزلت جعلها الله طُهْراً للأموال.

وقال ابن عمر: ما أبالي لو أن لي مثل أحد ذهباً أعلم عدده / أزكيه وأعمل بطاعة الله. ١٥٧/ أ

قوله عزّ وجلّ: ﴿ولا يُنفقونَها في سبيلِ الله﴾، ولم يقل: ولا ينفقونهما، وقد ذكر الذهب والفضة جميعاً. قيل: أراد الكنوز وأعيان الذهب والفضة. وقيل: ردّ الكناية إلىٰ الفضة لأنها أعم، كما قال تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة وإنّها لكبيرة» «البقرة ـ ٤٥»، ردّ الكناية إلى الصلاة لأنها أعمُّ، وكقوله تعالى: «وإذا رَأَوْا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها» (الجمعة ـ ١١) ردّ الكناية إلى التجارة لأنها أعمُّ، ﴿فَبَشِّرْهُم بعذاب أليم﴾. أي: أنذرهم.

﴿يوم يُحمَى عليها في نارِ جهنّم﴾، أي: تدخل النار فيوقد عليها أي على الكنوز، ﴿فتُكوَى

(١) أخرجه الإمام أحمد: ١٠١/١. قال ابن حجر: رواه أحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني والطبري ـ من طريق شهر بن حوشب. ورواه ابن حبان من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني. انظر: الكافي الشاف ص(٧٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد: ١٩٧/٤، ٢٠٢، والمصنف في شرح السنة: ٩١/١٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب حقوق المال: ٢٥٠/٢، وصححه الحاكم: ٣٣٣/٢، والبيهقي: ٨٣/٤، وذكره المصنف في المصابيح: ١٠/٢. وذكره الهيثمي في المجمع: ٣٠/٧ وقال: رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن عمير وهو ضعيف. وانظر: الدر المنثور: ١٧٨/٤.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ

بها﴾، فتحرق بها، ﴿جباهُهم﴾، أي: جباه كانزيها، ﴿وجنوبُهم وظهورُهم﴾، روي عن ابن مسعود قال: إنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم، ولكن يوسع جلده حتى يوضع كل دينار ودرهم في موضع على حدة.

وسئل أبو بكر الوراق: لِمَ خَصّ الجباه والجنوب والظهور بالكي؟ قال: لأن الغني صاحب الكنز إذا رأى الفقير قبض وجهه، وزوى ما بين عينيه، وولّاه ظهره، وأعرض عنه بكشحه.

قوله تعالى: ﴿هذا ما كنزتُم﴾، أي: يقال لهم: هذا ما كنزتم، ﴿لأنفسكم فذُوقوا ما كنتم تكنِزُون﴾، أي: تمنعون حقوق الله تعالى في أموالكم. وقال بعض الصحابة: هذه الآية في أهل الكتاب. وقال الأكثرون: هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين، وبه قال أبو ذر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿إنّ عِدّة الشّهور﴾، أي: عدد الشهور، ﴿عندَ اللّهِ اثنا عشرَ شهراً في كتابِ اللهِ﴾، وهي المحرّم وصفر وربيع الأول وشهر ربيع الثاني وجُمادى الأول وجمادى الآخرة ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة. وقوله: ﴿في كتاب الله﴾ أي: في حكم الله. وقيل: في اللوح المحفوظ. قرأ أبو جعفر: اثنا عشر، وتسعة عشر، وأحد عشر، بسكون الشين، وقرأ العامة بفتحها، ﴿يومَ خلقَ السمواتِ والأرضَ﴾، والمراد منه: الشهور الهلالية، وهي الشهور التي يعتدُّ بها المسلمون في صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم، وبالشهور الشمسية تكون السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، والهلالية تنقص عن ثلاث مائة وستين يوماً بنقصان الأهلة. والغالب أنها تكون ثلاثمائة وأربعاً وخمسين يوماً، ﴿منها أربعة حرم﴾، من الشهور أربعة حرم وهي: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، واحد فرد وثلاثة سَرْد، ﴿ذلك الدِّينُ القيّمُ﴾، أي: الحساب المستقيم.

﴿فلا تظلِمُوا فيهنَّ أنفسَكم﴾، قيل: قوله «فيهن» ينصرف إلى جميع شهور السنة، أي: فلا تظلموا فيهن أنفسكم بفعل المعاصي وترك الطاعة. وقيل: «فيهن» أي: في الأشهر الحرم. قال قتادة: العمل الصالح أعظم أجراً في الأشهر الحرم، والظلم فيهنّ أعظم من الظلم فيما سواهنّ، وإن

ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

كان الظلم على كل حال عظيماً. وقال ابن عباس: فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم يريد استحلال الحرام والغارة فيهنّ. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لا تجعلوا حلالها حراماً، ولا حرامها حلالاً، كفعل أهل الشرك وهو النسيء.

﴿وقاتلوا المشركين كافّة﴾، جميعاً عامة، ﴿كما يُقاتلونكم كافةً واعْلمُوا أنّ اللّهَ مع المتقين﴾، واختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم. فقال قوم: كان كبيراً ثم نسخ بقوله: «وقاتلوا المشركين كافة» كأنه يقول فيهن وفي غيرهنّ. وهو قول قتادة، وعطاء الخراساني، والزهري وسفيان الثوري، وقالوا: إن النبي ﷺ غَزَا هَوازن بحنُين، وثقيفاً بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة. وقال آخرون: إنه غير منسوخ: قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يُقاتلُوا فيها وما نسخت.

قوله تعالى: ﴿إنّما النسيءُ زيادةٌ في الكفر﴾، قيل: هو مصدر كالسعير والحريق. وقيل: هو مفعول كالجريح والقتيل، وهو من التأخير. ومنه النسيئة في البيع، يقال: أنسأ الله في أجله أي أخر، وهو ممدود مهموز عند أكثر القراء، وقرأ ورش عن نافع من طريق البخاري: بتشديد الياء من غير همز، وقد قيل: أصله الهمزة فخفف.

وقيل: هو من النسيان على معنى المنسي أي: المتروك. ومعنى النسيء: هو تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر، وذلك أن العرب كانت تعتقد تعظيم الأشهر الحرم، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام، وكانت عامة معايشهم من الصيد والغارة، فكان يشقُّ عليهم الكفُّ عن ذلك ثلاثةُ أشهر على التوالي، وربما وقعت لهم حرب في بعض الأشهر الحرم فيكرهون تأخير حربهم، فنسؤوا أي: أخّروا تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، وكانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر، فيحرمون صفر ويستحلون المحرم، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخّروه إلى ربيع، هكذا شهراً بعد شهر، حتى استدار التحريم على السنة كلها. فقام الإسلام وقد رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عزّ وجلّ فيه، وذلك بعد دهر طويل، فخطب النبي ﷺ في حجته.

كما: أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف الفربري، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا محمد بن سَلَام، حدثنا عبدالواحد حدثنا عبدالوهاب، حدثنا أيوب عن محمد بن سيرين، عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: «إنّ الزمان قد استدار كهيئته يومَ خَلقَ السمواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان». وقال: «أيّ شهر هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس البلد الحرام؟ قلنا: بلى، قال: فأيّ يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال: فإنّ دماءكم وأموالكم، قال محمد: أحسبه قال: وأعراضَكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربّكم فيسألكم عن أعمالكم، ألاَ فلا ترجعوا بعد ضُلاّلاً يضرب بعضُكم رقابَ بعض، ألا ليبلغ الشاهدُ الغائب فلعلّ بعضَ من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ألا هل بلغتُ ألا هل بلغت»(1)؟

١٥٧/ ب قالوا: وكان قد استمر النسيء بهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر / ويحجون من قابل في شهر آخر.

قال مجاهد: كانوا يحجون في كل شهر عامين، فحجوا في شهر ذي الحجة عامين، ثم حجوا في المحرم عامين، ثم حجوا في صفر عامين، وكذلك في الشهور، فوافقت حجة أبي بكر رضي الله عنه قبل حجة الوداع السنة الثانية من ذي القعدة، ثم حج النبي ﷺ في العام القابل حجة الوداع، فوافق حجة شهر الحج المشروع وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة يوم التاسع، وخطب اليوم العاشر بمنى، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق الله السموات والأرض، وأمرهم بالمحافظة عليه لئلا يتبدل في مستأنف الأيام.

واختلفوا في أول مَنْ نسأ النسيء: فقال ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد: أول من نسأ النسيء بنو مالك بن كنانة، وكانوا ثلاثة: أبو ثُمَامة جُنَادُ بن عوف بن أمية الكناني. وقال الكلبي: أول

---

(1) أخرجه البخاري في الأضاحي ـ باب من قال: الأضحى يوم النحر: ١٠/٧ـ٨، ومسلم في القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض، برقم (١٦٧٩): ٣/١٣٠٥، والمصنف في شرح السنة: ٧/٢١٥ ـ ٢١٦.

من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال: له نعيم بن ثعلبة، وكان يكون أميراً على الناس بالموسم، فإذا همَّ الناس بالصدر، قام فخطب الناس فقال: لا مردّ لما قضيت، أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، فيقول له المشركون: لبيك، ثم يسألونه أن ينسأهم شهراً يغيرون فيه، فيقول: فإنَّ صفرَ العامَ حرام، فإذا قال ذلك حلُّوا الأوتار، ونزعوا الأسنة والأزجة، وإن قال حلال عقدوا الأوتار، وشدّوا الأزجة، وأغاروا. وكان من بعد نعيم بن ثعلبة رجل يقال له: جنادة بن عوف، وهو الذي أدركه النبي ﷺ.

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: هو رجل من بني كنانة يقال له: القلمس، قال شاعرهم: «وفينا ناسيء الشهر القَلَمَّس»، وكانوا لا يفعلون ذلك إلا في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب للموسم.

وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: إن أول من سنّ النسيء عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني زهير بن حرب، حدثنا جرير، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبا بني كعب، وهو يجر قُصْبَهُ في النار»[1].

فهذا الذي ذكرنا هو النسيء الذي ذكره الله تعالى فقال: ﴿إنما النَّسيء زيادةٌ في الكفر﴾، يريد زيادة كفر على كفرهم، ﴿يُضَلُّ به الذينَ كفرُوا﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿يضل﴾ بضم الياء وفتح الضاد، كقوله تعالى: «زين لهم سوء أعمالهم»، وقرأ يعقوب بضم الياء وكسر الضاد، وهي قراءة الحسن ومجاهد على معنى ﴿يضل﴾ به الذين كفروا الناس، وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الضاد، لأنهم هم الضالون لقوله: ﴿يُحلُّونَه﴾، يعني النسيء ﴿عاماً ويُحرِّمونه عاماً لِيوَاطِئوا﴾، أي: ليوافقوا، والمواطأة: الموافقة، ﴿عِدّةَ ما حرَّمَ اللّه﴾، يريد أنهم لم يحلوا شهراً من الحرام إلا حرّموا مكانه شهراً من الحلال، ولم يحرموا شهراً من الحلال إلا أحلوا مكانه شهراً من الحرام، لئلا يكون الحرام أكثر من أربعة أشهر، كما حرم الله فيكون موافقة العدد، ﴿فيحلّوا ما حرّم اللّهُ زُيّنَ لهم سوءُ أعمالهم﴾، قال ابن عباس: زين لهم الشيطان، ﴿واللّهُ لا يهدي القومَ الكافرين﴾.

---

(١) سبق تخريجه في سورة المائدة ١٠٨/٣. وليس في الحديث ما يدل على أن عمرو بن لحي أول من سنّ النسيء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

قوله عز وجل: ﴿**يـاأيها الذينَ آمنُوا مالكم إذا قيلَ لكمُ انفرُوا في سبيلِ اللّهِ اثّاقلتُم إلى الأرضِ**﴾ الآية، نزلت في الحث على غزوة تبوك، وذلك أن النبي ﷺ لما رجع من الطائف أمر بالجهاد لغزوة الروم، وكان ذلك في زمان عسرة من الناس، وشدة من الحرّ، حين طابت الثمار والظلال، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلّا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حَرٍّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً، ومفاوز هائلة، وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فشقّ عليهم الخروج وتثاقلوا فأنزل الله تعالى: ﴿**ياأيّها الذين آمنُوا مالكم إذا قيل لكم**﴾[1] أي: قال لكم رسول الله: ﴿**انفرُوا**﴾ اخرجوا في سبيل الله ﴿**اثّاقلتُمْ إلى الأرض**﴾ أي: لزمتم أرضكم ومساكنكم، ﴿**أرضيتُم بالحيـاةِ الدنيا من الآخرة**﴾، أي: بخفض الدنيا ودَعَتِها من نعيم الآخرة. ﴿**فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل**﴾.

ثم أوعدهم على ترك الجهاد، فقال تعالى:

﴿**إلّا تنفرُوا يُعذِّبْكم عذاباً أليماً**﴾، في الآخرة. وقيل: هو احتباس المطر عنهم في الدنيا. وسأل نجدةُ بن نفيع ابنَ عباس عن هذه الآية، فقال: إن رسول الله ﷺ استنفر حياً من أحياء العرب، فتثاقلوا عليه، فأمسك عنهم المطر، فكان ذلك عذابهم[2]. ﴿**ويستبدِلْ قوماً غيركم**﴾ خيراً منكم وأطوع. قال سعيد بن جبير: هم أبناء فارس. وقيل: هم أهل اليمن، ﴿**ولا تضرُّوه شيئاً**﴾، بترككم النفير. ﴿**واللّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ**﴾.

---

(١) انظر، الطبري: ١٤/٢٥٣، أسباب النزول للواحدي ص(٢٨٣)، الدار المنثور: ٤/١٩٠.

(٢) أخرجه الطبري: ١٤/٢٥٤ ـ ٢٥٥، وصححه الحاكم في المستدرك: ٢/١١٨، وأخرجه أبو داود في السنن مختصراً: ٣/٣٦٧، والبيهقي في السنن: ٩/٤٨. وانظر: الدر المنثور: ٤/١٩٣ ـ ١٩٤.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إلّا تنصرُوه فقدْ نصرَه اللّهُ﴾، هذا إعلام من الله عز وجلّ أنه المتكفّلُ بنصرِ رسوله وإعزاز دينه، أعانوه أو لم يعينوه، وأنه قد نصره عند قلة الأولياء، وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من العَدَدِ والعُدَد، ﴿إذْ أخرجه الذين كفرُوا﴾، من مكة حين مكروا به وأرادوا تبييته وهمُّوا بقتله، ﴿ثاني اثنين﴾ أي هو أحد الاثنين، والاثنان: أحدهما رسول الله ﷺ، والآخر أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿إذْ هما في الغار﴾، وهو نقب في جبل ثور بمكة، ﴿إذْ يقولُ لصاحبه لا تحزنْ إنّ اللّهَ معنا﴾، قال الشعبي: عاتب الله عزّ وجلّ أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أخبرنا أبو المظفر محمد بن أحمد التميمي، أنبأنا محمد بن عبدالرحمن بن عثمان، أنبأنا خيثمة بن سليمان، حدثنا أحمد بن عبدالله الدُّورقي، حدثنا سعيد بن سليمان، عن علي بن هاشم عن كثير النَّوَّاء عن جُمَيْع بن عُمَيْر قال: أتيت ابن عمر رضي الله عنهما فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «أنت صاحبي في الغار، وصاحبي على الحوض»[1].

قال الحسين بن الفضل: من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله ﷺ فهو كافر لإنكاره نصَّ القرآن. وفي سائر الصحابة إذا أنكر يكون مبتدعاً، لا يكون كافراً.

وقوله عزّ وجل: ﴿لا تحزنْ إنّ الله معنا﴾ لم يكن حزن أبي بكر جُبْناً منه، وإنّما كان إشفاقاً على رسول الله ﷺ. وقال: إن أقتل فأنا رجل واحد وإن قتلت هلكت الأمة / . ١٥٨/أ

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب بشارة لأبي بكر وعمر: ١٠/١٥٤، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. والمصنف في شرح السنة: ١٤/٨٢. وقال: هذا حديث حسن غريب. وفي الحديث: كثير بن إسماعيل أو ابن نافع النوّاء: ضعيف من السادسة. (تقريب).

ورُوي أنه حين انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار جعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، فقال له رسول الله ﷺ: مالك يا أبا بكر؟ قال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فلما انتهيا إلى الغار قال مكانك يارسول الله حتى استبرىء الغار، فدخل فاستبرأه ثم قال: انزل يارسول الله، فنزل فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر(١).

أخبرنا أبو المظفر التميمي، أخبرنا محمد بن عبدالرحمن بن عثمان المعروف بابن أبي النظر، أخبرنا خيثمة بن سليمان، حدثنا أبو قلابة الرقاشي، حدثنا حيان بن هلال، حدثنا همام بن يحي، حدثنا ثابت البناني، حدثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه حدّثهم، قال: نظرتُ إلى أقدام المشركين فوق رؤوسنا ونحن في الغار فقلت: يارسول الله لو أنّ أحدهم نظرَ تحتَ قدميه أبصرَنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنّك باثنين اللّهُ ثالثُهما(٢).

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، حدثنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن عقيل، قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لم أعقل أبويَّ قط إلّا وهما يدينان الدين، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرةً وعشياً، فلما ابتلي المسلمون. . قال النبي ﷺ للمسلمين: «إني أُريت دار هجرتكم، ذات نخل، بين لابتين وهما الحرتان» . فهاجر من هاجر قِبَلَ المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة، وتجهز أبو بكر رضي الله عنه قِبَلَ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلِكَ فإني أرجو أن يؤذن لي» فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «نعم» فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين ـ كانتا عنده ـ ورق السَّمُر، وهو الخَبْط، أربعة أشهر.

قال ابن شهاب: قال عروة: قالت عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نَحْرِ الظَّهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعاً في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمْرٌ، قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: أَخْرِجْ مَنْ عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور: (٤/١٩٧ ـ ١٩٨) للبيهقي في الدلائل، ولابن عساكر عن ضبة بن محصن.
قال ابن كثير في البداية والنهاية: (٣/ ١٨٠) في هذا السياق غرابة ونكارة. وأخرجه ابن اسحاق مختصراً: ١/ ٤٨٦. وقال ابن كثير عن هذه الرواية: وهذا فيه انقطاع من طرفيه، وساقه من رواية أبي القاسم البغوي مطولاً، وقال: وهذا مرسل، وقد ذكرنا له شواهد.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين: ٧/ ٨ ـ ٩، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر رضي الله عنه، برقم (٢٣٨١): ٤/ ١٨٥٤، والمصنف في شرح السنة: ١٣/ ٣٦٥.

بأبي أنت يارسول الله ، قال: «فإني قد أُذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يارسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يارسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين، قال رسول الله: «بالثَّمن» قالت عائشة رضي الله عنها: فجهزناهما أَحَثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفْرَةً في جِرَابٍ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سُميت ذات النطاقين، قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة، كبائتٍ فيها، فلا يسمع أمراً يُكَادَانِ به إلاّ وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيْرَة، مولى أبي بكر، مِنْحَةً من غنمٍ ، فيُرِيْحُها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسْلٍ ، وهو لبن منحتهما ورَضِيْفُهُما حتى يَنْعِقَ بهما عامر بن فهيرة بغَلَسٍ ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسولُ الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدِّيْل، وهو من بني عبد بن عدي هادياً خِرِّيتاً، والخِرِّيتُ: الماهر بالهداية، قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السَّهْمِيّ، وهو على دين كفار قريش فأَمِنَاهُ، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم على طريق السواحل.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبدالرحمن بن مالك المُدْلِجيّ، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ : أن أباه أخبره أنه سمع سراقة بن مالك بن جعشم يقول: جاءنا رسل كفار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره، فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج، أقبل رجل منهم، حتى قام علينا ونحن جلوس، فقال: ياسراقة إني قد رأيت آنفاً أَسْوِدَةً بالساحل أُرَاهَا محمداً وأصحابه، قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطَلَقُوا بأعيننا، ثم لبثتُ في المجلس ساعةً، ثم قمتُ فدخلت البيت فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمة، فتحبسها عليّ، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزُجِّه الأرض، وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فدفعتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي، فخررت عنها فقمت، فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام فاستقسمت بها أَضُرُّهُم أم لا؟ فخرج الذي أكره، فركبت فرسي وعصيت الأزلام، تقْربُ بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ، وهو لا يلتفت وأبو بكر يُكْثِرُ الالتفات، فساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تُخرج يديها فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت

من الحبس عنهم أن سيظهر أمر النبي ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتهم خبرَ ما يُريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزآني ولم يسألاني شيئاً إلا أن قالا: أَخْفِ عنّا، فسألته أن يكتب لي كتابَ أمن فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

قال ابن شهاب: فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض، وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله ﷺ من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرّة فينتظرونه حتى يردّهم حرّ الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أَوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجلٌ من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يامعشر العرب هذا جَدُّكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله ﷺ صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم يرَ رسول الله ﷺ يحيّ أبا بكر حتى أصابت الشمسُ رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناسُ رسولَ الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسّسَ المسجد الذي أُسس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربداً للتمر، لسهيل وسهلٍ، غلامين يتيمن في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل. ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين، فَسَاوَمَهُمَا بالمربَدِ ليتخذه مسجداً فقالا: بل نهبه لك يارسول الله، ثم بناه مسجداً، وطفق رسول الله ينقل معهم اللَّبِنَ في بنيانه ويقول وهو ينقل اللَّبن:

هــذا الحِمَالُ لا حِمَــالُ خَيْبَــر * هــذا أَبَــرُّ ربَّنــا وأَطْهَــرْ

ويقول:

اللهم إن الأجـر أجـر الآخـرة * فارحـم الأنصـار والمهاجـرة

فتمثل ببيت رجلٍ من المسلمين لم يسمَّ لي.

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

قال ابن شهاب: ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذه الأبيات[1].

قال الزهري: لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله تعالى زوجاً من حمام حتى باضا في أسفل النقب، والعنكبوت حتى نسجت بيتاً، وفي القصة أنبت يمامة على فم الغار، وقال النبي ﷺ: اللّهمّ أعمِ أبصارهم / عنّا فجعل الطلب يضربون يميناً وشمالاً حول الغار يقولون: لو دخلا ١٥٨/ ب
هذا الغار لتكسر بيض الحمام وتفسخ بيت العنكبوت[2].

قوله عزّ وجلّ: ﴿فأنزل اللّهُ سكينتَهُ عليه﴾، قيل: على النبي ﷺ. وقال ابن عباس: على أبي بكر رضي الله عنه، فإن النبي ﷺ كانت عليه السكينة من قبل، ﴿وأيّده بجنودٍ لم تروْهَا﴾، وهم الملائكة نزلوا يصرفون وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته. وقيل: ألقوا الرعب في قلوب الكفار حتى رجعوا. وقال مجاهد والكلبي: أعانه بالملائكة يوم بدر، أخبر أنه صرف عنه كيد الأعداء في الغار ثم أظهر نصره بالملائكة يوم بدر.

﴿وجعلَ كلمةَ الذينَ كفرُوا السفلى﴾، وكلمتهم الشرك، وهي السفلى إلى يوم القيامة، ﴿وكلمةُ اللّهِ هي العُليَا﴾، إلى يوم القيامة. قال ابن عباس: هي قول لا إله إلا الله. وقيل كلمة الذين كفروا: ما قدّروا بينهم في الكيد به ليقتلوه، وكلمة الله: وَعْدُ الله أنه ناصره. وقرأ يعقوب: ﴿وكلمةَ الله﴾ بنصب التاء على العطف ﴿واللّهُ عزيزٌ حكيم﴾.

قوله تعالى: ﴿انفرُوا خِفافاً وثِقالاً﴾، قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة وعِكرمة: شُبّاناً وشُيوخاً. وعن ابن عباس: نشاطاً وغير نشاط. وقال عطية العوفي: ركباناً ومشاةً. وقال أبو صالح: خفافاً من المال، أي: فقراء، وثقالاً أي: أغنياء. وقال ابن زيد: الثقيل الذي له الضيعة، فهو ثقيل يكره أن يدع ضيعته، والخفيف الذي لا ضيعة له. ويروى عن ابن عباس قال: خفافاً أهل الميسرة

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: ٧/ ٢٣٠ - ٢٣٣ والمصنف في شرح السنة: ١٣/ ٣٥٤ - ٣٦٢. وقد اختصر جُمَلاً منه في التفسير، أشرنا إليها بنقاط.

(٢) ذكر ذلك ابن عساكر عن زيد بن أرقم والمغيرة بن شعبة. وهو حديث غريب جداً، من هذا الوجه كما قال الحافظ ابن كثير في البداية: ٣/ ١٨٢.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ
وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ﴾

من المال، وثقالاً أهل العسرة. وقيل: خفافاً من السلاح، أي: مقلّين منه، وثقالاً أي: مستكثرين منه. وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال مرّة الهمذاني. أصحاء ومرضى. وقال يمان بن رباب: عزاباً ومتأهلين. وقيل: خفافاً من حاشيتكم وأتباعكم، وثقالاً مستكثرين بهم. وقيل: خفافاً مسرعين خارجين ساعة سماع النفير، وثقالاً بعد التروي فيه والاستعداد له.

﴿وجاهدُوا بأموالِكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾، قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه، فقيل له: إنك عليل صاحب ضر، فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثّرت السواد وحفظت المتاع.

وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس: نُسخت هذه الآية بقوله:(وما كان المؤمنون لينفروا كافة)[1].

وقال السدي: لما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على الناس فنسخها الله تعالى وأنزل: (ليسَ على الضعفاء ولا على المرضَى)[2] الآية.

ثم نزل في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك:[3].

﴿لو كان عرضاً قريباً﴾، واسم كان مضمر، أي: لو كان ما تدعونهم إليه عرضاً قريباً، أي: غنيمة قريبة المتناول، ﴿وسفراً قاصداً﴾، أي قريباً هيناً، ﴿لاتّبعوك﴾، لخرجوا معك، ﴿ولكنْ بَعُدَتْ عليهمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة، والشقة: السفر البعيد، لأنه يشقُّ على الإنسان. وقيل: الشقة الغاية التي يقصدونها، ﴿وسيحلفون باللّهِ لو استطعنا لخرجنا معكم يُهلِكُون أنفسهم﴾، يعني باليمين الكاذبة، ﴿والله يعلم إنّهم لكاذِبُون﴾، في أَيمانهم وإيمانهم، لأنهم كانوا مستطيعين.

﴿عفا اللّهُ عنكَ﴾، قال عمرو بن ميمون: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفدية من أسارى بدر، فعاتبه الله كما تسمعون.

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ص(٥٢)، أسباب النزول (٢٨٣ - ٢٨٤) ابن كثير: ٢/٣٦٠.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي. الدر المنثور: ٤/٢٠٨.
(٣) أسباب النزول للواحدي ص(٢٨٤).

صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا
يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن
كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بالعفو قبل أن يُعيِّره بالذنب.

وقيل: إن الله عزّ وجلّ وقّره ورفع محله بافتتاح الكلام بالدعاء له، كما يقول الرجل لمن يخاطبه إذا كان كريماً عنده: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك ألاّ زرتني. وقيل معناه: أدام الله لك العفو.

﴿لِمَ أذِنْتَ لهم﴾، أي: في التخلّف عنك ﴿حتى يتبيّن لكَ الذينَ صدقُوا﴾، في أعذارهم، ﴿وتعلمَ الكاذِبين﴾، فيها، أي: تعلم من لا عذر له. قال ابن عباس رضي الله عنه: لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ.

﴿لا يستأذِنُكَ الذينَ يُؤمنُون باللّهِ واليوم الآخرِ أنْ يُجاهدُوا بأموالِهم وأنفسهم﴾، أي: لا يستأذنك في التخلف، ﴿واللّهُ عليمٌ بالمتقين﴾.

﴿إنَّما يستأذِنُكَ الذينَ لا يُؤمنُون باللّهِ واليوم الآخرِ وارْتَابَتْ قلوبُهم﴾، أي شكّتْ ونافقت، ﴿فهم في ريبهم يتردّدُون﴾، متحيّرين.

﴿ولو أرادُوا الخروجَ﴾، إلى الغزو، ﴿لأعدُّوا لَهُ﴾، أي: لهيَّؤوا له ﴿عُدَّةً﴾، أهبة وقوة من السلاح والكراع، ﴿ولكنْ كَرِهَ اللّهُ انبعاثَهم﴾، خروجهم، ﴿فثبَّطَهم﴾، منعهم وحبسهم عن الخروج، ﴿وقيلَ اقْعُدُوا﴾، في بيوتكم، ﴿معَ القاعدين﴾، يعني: مع المرضى والزَّمْنَى. وقيل: مَع النسوان والصبيان. قوله عزّ وجلّ: ﴿وقيل﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اقعدوا. وقيل: أوحىٰ إلى قلوبهم وأُلهِمُوا أسباب الخذلان.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ﴾

﴿لو خرجُوا فيكم﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ أمرهم بالجهاد لغزوة تبوك، فضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنية الوداع، وضرب عبدالله بن أُبيّ على [ذي جُدَّة[1]] أسفل من ثنية الوداع، ولم يكن بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبدالله بن أُبيّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب، فأنزل الله تعالى يعزّي نبيه ﷺ[2]: ﴿لو خرجوا﴾ يعني المنافقين ﴿فيكم﴾ أي معكم، ﴿ما زادُوكم إلاّ خبالاً﴾، أي: فساداً وشرّاً. ومعنى الفساد: إيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر، ﴿ولأوْضَعُوا﴾، أسرعوا، ﴿خِلاَلَكُم﴾، وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض. وقيل: ﴿لأوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ﴾ أي: أسرعوا فيما يخلّ بكم. ﴿يبغونَكُم الفتنة﴾، أي: يطلبون لكم ما تفتنون به، يقولون: لقد جُمع لكم كذا وكذا، وإنكم مهزومون وسيظهر عليكم عدوكم ونحو ذلك. وقال الكلبي: يبغونكم الفتنة يعني: العَيْبَ والشرَّ. وقال الضحاك: الفتنة الشرك، ويقال: بغيته الشر والخير أبغيه بُغَاءً إذا التسمتُه له، يعني: بغيت له.

﴿وفيكم سمّاعُونَ لهم﴾، قال مجاهد: معناه وفيكم محبون لهم يؤدون إليهم ما يسمعون منكم، وهم الجواسيس. وقال قتادة: معناه وفيكم مطيعون لهم، أي: يسمعون كلامهم ويطيعونهم. ﴿واللّهُ عليمٌ بالظالمين﴾.

﴿لقدْ ابْتَغَوُا الفتنةَ مِن قبلُ﴾، أي: طلبوا صدَّ أصحابك عن الدين وردَّهم إلى الكفر، وتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم، كفعل عبدالله بن أُبيّ يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه. ﴿وقلّبُوا لك الأمورَ﴾ وأجالوا فيك وفي إبطال دينك الرأي، بالتخذيل عنك / وتشتيت أمرك، ﴿حتى جاءَ الحقُّ﴾، النصر والظفر، ﴿وظهر أمر الله﴾، دين الله، ﴿وهم كارِهُون﴾. ١٥٩/ أ

قوله تعالى: ﴿ومنهم مَنْ يقولُ ائذنْ لي ولا تفتنّي﴾، نزلت في جَدّ بن قَيْسٍ المنافق، وذلك

(١) في «أ»: (ذي حلوة). و«ذو جُدّه» الطريق الواضح المسلوك.
(٢) أسباب النزول للواحدي ص(٢٨٤).

سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ

أن النبي ﷺ لمّا تجهز لغزوة تبوك قال: يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر؟ يعني الروم، تتخذ منهم سراري ووصفاء، فقال جد: يارسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، ائذنْ لي في القعود ولا تفتني بهنّ وأعينُك بما لي. قال ابن عباس: اعتلَّ جد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال: أذنت لك فأنزل الله عزّ وجلّ[1]: ﴿**ومنهم**﴾ يعني من المنافقين ﴿**مَنْ يقولُ ائذنْ لي**﴾ في التخلف ﴿**ولا تفتنِّي**﴾ ببنات الأصفر. قال قتادة: ولا تؤثمني: ﴿**ألا في الفتنةِ سقطُوا**﴾، أي: في الشرك والإثم وقعوا بنفاقهم وخلافهم أمْرَ الله وأمْر رسوله، ﴿**وإنّ جهنّم لمحيطةٌ بالكافرين**﴾، [مطبقة بهم][2] وجامعة لهم فيها.

﴿**إنْ تصبْكَ حسنةٌ**﴾، نصرة وغنيمة، ﴿**تسؤهم**﴾، تُحزنُهم، يعني: المنافقين، ﴿**وإنْ تُصبْك مصيبة**﴾، قتل وهزيمة، ﴿**يقولوا قدْ أخذنا أمْرَنا**﴾، حذَرنا، أي: أخذنا بالحزم في القعود عن الغزو، ﴿**منْ قبلُ**﴾، أي: من قبل هذه المصيبة، ﴿**ويتولّوا**﴾، ويدبروا ﴿**وهمْ فرحُون**﴾، مسرورون بما نالك من المصيبة.

﴿**قلْ**﴾ لهم يا محمد ﴿**لن يُصيبنا إلا ما كتبَ اللّهُ لنا**﴾، أي: علينا في اللوح المحفوظ، ﴿**هو مولانا**﴾، ناصرنا وحافظنا. وقال الكلبي: هو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة، ﴿**وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾.

﴿**قلْ هلْ تربّصُون بنا**﴾، تنتظرون بنا أيها المنافقون، ﴿**إلاّ إحدى الحُسنيين**﴾، إما النصر والغنيمة أو الشهادة والمغفرة. وروينا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تكفَّلَ اللّهُ لِمَنْ جاهد في

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٤/٢٨٧ - ٢٨٨، أسباب النزول للواحدي ص(٢٨٤ - ٢٨٥).
(٢) في «ب»: (مطيفة بهم).

عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا
أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن
تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

سبيلهَ لا يُخْرِجُه من بيته إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلمته: أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة»[1].

قوله عز وجل **﴿ونحنُ نتربصُ بكم﴾**، إحدى السوأتين إمّا: **﴿أنْ يصيبَكُم اللَّهُ بعذابٍ من عنده﴾**، فيهلككم كما أهلك الأمم الخالية، **﴿أو بأيدينا﴾** أي: بأيدي المؤمنين إن أظهرتم ما في قلوبكم، **﴿فتربصُوا إنّا معكم مُّتربِّصُون﴾**، قال الحسن: فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه.

﴿قلْ أنفقُوا طوعاً أو كَرْهاً﴾، أمرٌ بمعنى الشرط والجزاء، أي: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً. نزلت في جد بن قيس حين استأذن في القعود، قال أُعِيْنُكم بمالي، يقول: إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً **﴿لنْ يتقَبَّلَ منكم إنّكم﴾**، أي: لأنكم، **﴿كنتم قوماً فاسقين﴾**.

﴿وما مَنَعهم أن تُقْبَلَ مِنْهُم﴾، قرأ حمزة والكسائي: **﴿يقبل﴾** بالياء لتقدم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء لأن الفعل مسند إلى جمع مؤنث وهو النفقات، فأنَّث الفعل ليعلم أن الفاعل مؤنث، **﴿نفقاتُهُمْ﴾**، صدقاتهم، **﴿إلاّ أنّهم كفرُوا باللّهِ وبرسولِهِ﴾**، أي: المانع من قبول نفقاتهم كفرهم، **﴿ولا يأْتُونَ الصلاةَ إلاّ وهم كُسالىٰ﴾**، متثاقلون لأنهم لا يرجون على أدائها ثواباً، ولا يخافون على تركها عقاباً، فإن قيل: كيف [ذمَّ][2] الكسلَ في الصلاة ولا صلاة لهم أصلاً؟ قيل: الذم واقع على الكفر الذي يبعث على الكسل، فإن الكفر مُكسل، والإيمان منشط، **﴿ولا ينفقون إلاّ وهم كَارِهُون﴾**، لأنهم يعدونها مغرماً ومنعها مغنماً.

(١) أخرجه البخاري في الخُمس، باب قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم»: ٦/٢٢٠، ومسلم في الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، برقم (١٨٧٦): ٣/١٤٩٦.
(٢) في «أ»: ذكر.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

﴿فلا تُعجِبْكَ أموالهم ولا أولادُهم﴾، والإعجاب هو السرور بما يتعجب منه، يقول: لا تستحسن ما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد لأن العبد إذا كان من الله في استدراج كثّر الله ماله وولده، ﴿إنّما يُريدُ اللّهُ ليعذبَهم بها في الحياة الدنيا﴾، فإن قيل: أي تعذيب في المال والولد وهم يتنعمون بها في الحياة الدنيا؟.

قيل: قال مجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير، تقديره. فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنّما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة.

وقيل: التعذيب بالمصائب الواقعة في المال والولد.

وقال الحسن: يعذبهم بها في الدنيا بأخذ الزكاة منها والنفقة في سبيل الله. وقيل: يعذبهم بالتعب في جمعه، والوجل في حفظه، والكره في إنفاقه، والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده، ثم يُقدم على مَلِكٍ لا يُعْذره. ﴿وتزْهَقَ أنْفُسُهم﴾، أي: تخرج، ﴿وهم كافِرُون﴾، أي: يموتون على الكفر.

﴿ويحلفون بالله إنّهم لمنكم﴾، أي: على دينكم، ﴿وما هم منكم ولكنّهم قومٌ يفرقون﴾ [يخافون أن يظهروا ما هم عليه][1].

﴿لو يجِدُون مَلْجأً﴾، حرزاً وحصناً ومعقلاً. وقال عطاء: مهرباً. وقيل: قوماً يأمنون فيهم. ﴿أو مَغَارَاتٍ﴾، غِيرَاناً في الجبال، جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه، أي يستتر. وقال عطاء: سراديب. ﴿أو مُدَّخلاً﴾، موضع دخول فيه، وأصله: مدتخل مفتعل، من أدخل يدخل. قال مجاهد: محرزاً. وقال قتادة: سرباً. وقال الكلبي: نفقاً في الأرض كنفق اليربوع. وقال الحسن: وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله ﷺ. وقرىء: (مَدْخلاً) بفتح الميم وتخفيف الدال، وكذلك قرأ

(١) ساقط من «أ».

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يعقوب، ﴿لَوَلّوا إليه﴾، لأدبروا إليه هرباً منكم، ﴿وهم يَجْمَحُون﴾، يسرعون في إباءٍ ونفورٍ لا يردّ وجوهَهم شيء. ومعنى الآية: أنهم لو يجدون مخلصاً منكم ومهرباً لفارقوكم.

قوله تعالى ﴿ومنهمْ مَّن يَلْمِزُكَ في الصّدَقَاتِ﴾، الآية نزلت في ذي الخويصرة التميمي، واسمه حرقوص بن زهير، أصل الخوارج.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرني أبو سلمة بن عبدالرحمن أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً فينا، أتَاه ذُو الخُويصرة، وهو رجل من بني تميم فقال: يارسول اعدل، فقال: «وَيْلَك فمنْ يعدلُ إذا لم أعدلْ، قد خبت وخسرت إن لم أكنْ أعدل»، فقال عمر رضي الله عنه: يارسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال له: «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، يمرقون من الدِّين كما يَمْرُقُ السّهمُ مِنَ الرَّميَّة ينظر إلى نَصْلِه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رِصَافِه فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نَضِيِّه، وهو قِدْحُه، فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قُذَذِهِ فلا يوجد فيه شيء، قد سَبَقَ الفَرْثَ والدَّم آيَتُهم، رجل أسود إحدى عضديه مثل ثَدْيِ المرأة، أومثل البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يخرجون على حين فُرْقَةٍ من الناس». قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فَالْتُمِس، فَوُجِدَ، فَأُتِيَ به حتى نظرتُ إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته[1].

وقال الكلبي: قال رجل / من المنافقين يقال له [أبو الجَوَّاظ][2] لرسول الله ﷺ: لم تقسمْ بالسوية، فأنزل الله تعالى[3]: ﴿ومنهم مَن يَلْمِزَكَ في الصَّدَقات﴾ أي: يعيبك في أمرها وتفريقها ١٥٩/ب

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام: ٦/٦١٧-٦١٨، ومسلم في الزكاة، باب ذكر قتال الخوارج وصفاتهم، برقم (١٠٦٤): ٢/٧٤٤-٧٤٥. والمصنف في شرح السنة: ١٠/٢٢٤.

(٢) في «ب»: (ذو الحواظ).

(٣) أسباب النزول للواحدى ص(٢٨٦).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ
مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ
وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

ويطعن عليك فيها. يُقال: لمزه وهمزه، أي: عابه، يعني أن المنافقين كانوا يقولون إن محمداً لا يعطي إلا من أحب. وقرأ يعقوب ﴿يلمزك﴾ حيث كان. وقال مجاهد: يلمزك أي: يَرُوزُك يعني: يختبرك. ﴿فإن أُعطُوا منها رَضُوا وإنْ لمْ يُعطَوْا منها إذا هم يَسْخَطُون﴾، قيل: إن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا.

﴿ولو أنّهم رَضُوا ما آتاهم اللّهُ ورسولهُ﴾، أي: قنعوا بما قسم لهم الله ورسوله ﴿وقالوا حسبنا الله﴾، كافينا الله، ﴿سيُؤْتينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ ورسولُهُ﴾، ما نحتاج إليه ﴿إنّا إلى اللّهِ رَاغِبُون﴾، في أن يوسّع علينا من فضله، فيُغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس. وجواب ﴿لو﴾ محذوف أي: لكان خيراً لهم وأعود عليهم.

قوله تعالى: ﴿إنّما الصدقاتُ للفقراء والمساكين﴾ الآية، بيّن الله تعالى في هذه الآية أهل سهمان الصدقات وجعلها لثمانية أصناف. ورُوي عن زياد بن الحارث الصُّدَائي قال: أتيت رسولَ الله ﷺ فبايعته، فأتاه رجل وقال: أعطني من الصدقة، فقال له رسول الله ﷺ: «إنّ الله لم يرضَ بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزّأها ثمانية أجزاء، فإن كنتَ من تلك الأجزاء أعطيتك حقك»[1].

قوله تعالى ﴿للفقراء والمساكين﴾. فأحدُ أصناف الصدقة: الفقراءُ، والثاني: المساكين.

واختلف العلماء في صفة الفقير والمسكين، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة والزهري: الفقير الذي لا يسأل، والمسكين: الذي يسأل.

وقال ابن عمر: ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمرة إلى التمرة، ولكن من أنقى

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة: ٢/٢٣٠ ـ ٢٣١، والدار قطني في الزكاة ٢/١٣٧، والبيهقي في السنن: ٤/١٧٤. وقال المنذري: في إسناده عبدالرحمن بن زياد الافريقي وقد تكلم فيه غير واحد.

نفسه وثيابه لا يقدر على شيء، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

وقال قتادة: الفقير: المحتاج الزَّمِنُ، والمسكين: الصحيح المحتاج.

وروي عن عكرمة أنه قال: الفقراء من المسلمين، والمساكين من أهل الكتاب.

وقال الشافعي: الفقير من لاَ مَالَ له ولا حِرْفَة تقع منه موقعاً، زَمِناً كان أو غير زَمِن، والمسكين من كان له مال أو حرفة ولا يغنيه، سائلاً أو غير سائل. فالمسكين عنده أحسن حالاً من الفقير لأن الله تعالى قال: «أمّا السفينةُ فكانتْ لمساكين» (الكهف - ٧٩) أثبت لهم ملكاً مع اسم المسكنة.

وعند أصحاب الرأي: الفقير أحسن حالاً من المسكين.

وقال القتيبي: الفقير: الذي له البُلْغَة من العيش، والمسكين: الذي لا شيء له.

وقيل: الفقير من له المسكن والخادم، والمسكين من لا ملك له. وقالوا: كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنياً عن غيره، قال الله تعالى: «أنتم الفقراء إلى الله» (غافر - ١٥)، والمسكين المحتاج إلى كل شيء ألا ترى كيف حض على إطعامه، وجعل طعام الكفارة له ولا فاقة أشد من الحاجة إلى سدّ الجوعة.

وقال إبراهيم النخعي: الفقراء هم المهاجرون، والمساكين من لم يهاجروا من المسلمين.

وفي الجملة: الفقر والمسكنة عبارتان عن الحاجة وضعف الحال، فالفقير المحتاج الذي كسرت الحاجة فِقَار ظهره، والمسكين الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، حدثنا عبدالعزيز بن أحمد الخلّال، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا الربيع، أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان بن عيينة عن هشام، يعني: ابنَ عروة، عن أبيه، عن عبيدالله بن عدي بن الخِيَار: أن رجلين أخبراه أنهما أتيا رسول الله فسألاه عن الصدقة [فصعّد فيهما وصوّب][1]، فقال: «إنْ شئتما أعطيتُكما ولاحظَّ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب»[2].

واختلفوا في حدّ الغنى الذي يمنع أخذ الصدقة: فقال الأكثرون: حدُّه أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة، وهو قول مالك والشافعي.

وقال أصحاب الرأي: حدُّه أن يملك مائتي درهم.

---

(١) ما بين القوسين من مسند الشافعي.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب فيمن يعطي من الصدقة: ٢/٢٣٣، والنسائي في الزكاة، باب مسألة الغني المكتسب: ٥/٩٩-١٠٠، والشافعي في المسند: ١/٢٤٤، والطحاوي في شرح معاني الآثار: ٢/١٥، والمصنف في شرح السنة: ٦/٨١.
قال الإمام أحمد: ما أجوده من حديث! انظر: التلخيص الحبير: ٣/١٠٨.

وقال قوم: من ملك خمسين درهماً لا تحل له الصدقة، لِما روينا عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سأل النّاسَ وله ما يُغنيه جاءَ يومَ القيامةِ ومسألتُهُ في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح»، قيل: يارسول الله وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهماً أو قيمتُها من الذهب»[1]. وهو قول الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق. وقالوا لا يجوز أن يعطى الرجل من الزكاة أكثر من خمسين درهماً. وقيل: أربعون درهماً لِما رُوى أنّ النبي ﷺ قال: «من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً»[2].

قوله تعالى: ﴿والعاملين عليها﴾. وهم السُّعَاة الذين يتولون قبض الصدقات من أهلها ووضعها في حقها، فيُعطون من مال الصدقة، فقراء كانوا أو أغنياء، فيُعطَون أجر مثل عملهم.

وقال الضحاك ومجاهد: لهم الثمن من الصدقة.

﴿والمؤلّفةِ قلوبُهم﴾، فالصنف الرابع من المستحقين للصدقة هم: المؤلَّفَةُ قلوبُهم، وهم قسمان: قسم مسلمون، وقسم كفار. فأمّا المسلمون: فقسمان، قسم دخلوا في الإسلام ونيتهم ضعيفة فيه، فكان النبي ﷺ يعطيهم تألفاً كما أعطى عيينة بن بدر، والأقرع بن حابس، والعباس بن مرداس أو أسلموا ونيتهم قوية في الإسلام، وهم شرفاء في قومهم مثل: عدي بن حاتم، والزِّبْرِقان بن بدر، فكان يعطيهم تألفاً لقومهم وترغيباً لأمثالهم في الإسلام، فهؤلاء يجوز للإمام أن يعطيهم من خمس خمس الغنيمة، والفيء سهم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يعطيهم من ذلك ولا يعطيهم من الصدقات.

والقسم الثاني من مؤلفة المسلمين: أن يكون قوم من المسلمين بإزاء قوم كفار في موضع مُتَناطٍ[3]، لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بمؤنة كثيرة وهم لا يجاهدون، إمّا لضعف نيتهم أو لضعف حالهم، فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة. وقيل: من سهم المؤلفة. ومنهم قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة يأخذون منهم الزكاة يحملونها إلى الإمام، فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات. وقيل: من سهم سبيل الله.

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة وحدّ الغنى: ٢/٢٢٦، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء من تحلّ له الزكاة: ٣/٣١٣ - ٣١٤ وقال: حديث حسن، وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير من أجل هذا الحديث. وأخرجه النسائي في الزكاة، باب حد الغنى: ٥/٩٧، وابن ماجه في الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى، برقم (١٨٤٠): ١/٥٨٩، والمصنف في شرح السنة: ٦/٨٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب من يعطى من الصدقة: ٢/٢٢٨ - ٢٢٩، والنسائي في الزكاة، باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها: ٥/٩٨ - ٩٩، والمصنف في شرح السنة: ٦/٨٤.

(٣) متناط: متناءٍ بعيد.

رُوي أنّ عدي بن حاتم جاء أبا بكر الصديق بثلاثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيراً.

وأمّا الكفار من المؤلفة: فهم من يُخشى شرُّهُ منهم، أو يُرجى إسلامه، فيريد الإمام أن يُعطي

١٦٠/أ هذا حذراً من شره، أو يُعطي ذلك ترغيبا له في الإسلام، / فقد كان النبي ﷺ يعطيهم من خمس الخمس، كما أعطى صفوان بن أمية لِمَا يرى من ميله إلى الإسلام، أما اليوم فقد أعز الله الإسلام فله الحمد، وأغناه أن يُتَألف عليه رجالٌ، فلا يُعطى مشركٌ تألفاً بحال، وقد قال بهذا كثير من أهل العلم أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط. رُوي ذلك عن عكرمة، وهو قول الشعبي، وبه قال مالك والثوري، وأصحاب الرأي، وإسحاق بن راهوية.

وقال قوم: سهمهم ثابت، يُروى ذلك عن الحسن، وهو قول الزهري، وأبي جعفر محمد بن علي، وأبي ثور، وقال أحمد: يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك.

قوله تعالى: ﴿وفي الرِّقَاب﴾، والصنف الخامس: وهم الرقاب، وهم المكاتَبُون، لهم سهم من الصدقة، هذا قول أكثر الفقهاء، وبه قال سعيد بن جبير، والنخعي، والزهري، والليث بن سعد، والشافعي. وقال جماعة: يشترىٰ بسهم الرقاب عبيد فيُعتقون. وهذا قول الحسن، وبه قال مالك وأحمد وإسحاق.

قوله تعالى: ﴿والغَارِمِينَ﴾، الصنف السادس هم: الغارمون، وهم قسمان: قسم دانوا لأنفسهم في غير معصيته، فإنهم يعُطَون من الصدقة إذا لم يكن لهم من المال ما يفي بديونهم، فإن كان عندهم وفاءٌ فلا يُعطون، وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فإنهم يعُطَون من مال الصدقة ما يقضون به ديونهم، وإن كانوا أغنياء.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أنبأنا زاهر بن أحمد، أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَحِلُّ الصدقة لغني إلّا لخمسة: لغازٍ في سبيل الله، أو لغارمٍ، أو لرجلٍ اشتراها بماله، أو لرجلٍ له جارٌ مسكين فتصدق على المساكين فأهدى المسكين للغني، أو لعاملٍ عليها»[1].

ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ متصلاً بمعناه[2].

---

(١) رواه مرسلاً: مالك في الموطأ، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة ومن يجوز له أخذها: ١/٢٦٨، وأبو داود في الزكاة، باب من يجوز له أخذ الصدقة وهو غني: ٢/٢٣٤ - ٢٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود في الموضع السابق نفسه، وابن ماجه في الزكاة برقم (١٨٤١): ١/٥٩٠. والمصنف في شرح السنة: ٦/٨٩.

أما من كان دَينه في معصيةٍ فلا يُدفع إليه.

وقوله تعالى: ﴿وفي سبيلِ اللّهِ﴾، أراد بها: الغزاة، فلهم سهم من الصدقة، يُعطَون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو، وما يستعينون به على أمر الغزو من: النفقة، والكسوة، والسلاح، والحمولة، وإن كانوا أغنياء، ولا يُعطى منه شيء في الحج عند أكثر أهل العلم.

وقال قوم: يجوز أن يصرف سهم في سبيل الله إلى الحج. ويُروى ذلك عن ابن عباس، وهو قول الحسن، وأحمد، وإسحاق.

قوله تعالى: ﴿وابنِ السبيل﴾، الصنف الثامن: هم أبناء السبيل، فكل من يريد سفراً مباحاً ولم يكن له ما يقطع به المسافة يُعطى من الصدقة بقدر ما يقطع به تلك المسافة، سواء كان له في البلد المنتقل إليه مالٌ أو لم يكن.

وقال قتادة: ابن السبيل هو الضيف.

وقال فقهاء العراق: ابن السبيل الحاج المنقطع.

قوله تعالى: ﴿فريضةً﴾ أي: واجبةً ﴿مِّنَ اللّهِ﴾، وهو نصب على القطع، وقيل: على المصدر، أي: فرض الله هذه الأشياء فريضةً.

﴿واللّهُ عليمٌ حكيم﴾، اختلف الفقهاء في كيفية قسم الصدقات، وفي جواز صرفها إلى بعض الأصناف:

فذهب جماعة إلى أنه لا يجوز صرفها كلها إلى بعضهم مع وجود سائر الأصناف، وهو قول عكرمة، وبه قال الشافعي، قال: يجب أن تقسم زكاة كل صنف من ماله على الموجودين من الأصناف الستة، الذين سُهْمَانهم ثابتة قسمةً على السواء، لأن سهم المؤلفة ساقط، وسهم العامل إذا قسم بنفسه، ثم حصة كل صنف منهم لا يجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منهم ثلاثة أو أكثر، فلو فاوت بين أولئك الثلاث يجوز، فإن لم يوجد من بعض الأصناف إلا واحد صرف حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج عن حدّ الاستحقاق، فإن انتهتْ حاجتُه وفضل شيء رَدّه إلى الباقين.

وذهب جماعة إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف، أو إلى شخص واحد منهم يجوز، وإنّما سمّىٰ الله تعالى هذه الأصناف الثمانية إعلاماً منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه

الأصناف، لا إيجاباً لقسمها بينهم جميعاً. وهو قول عمر، وابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير وعطاء، وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي، وبه قال أحمد، قال: يجوز أن يضعها في صنف واحد وتفريقها أولى.

وقال إبراهيم: إن كان المال كثيراً يحتمل الإجزاء قسّمه على الأصناف، وإن كان قليلاً جاز وضعه في صنف واحد.

. وقال مالك: يتحرى موضع الحاجة منهم ويُقدم الأَوْلَىٰ فالأَوْلَىٰ من أهل الخُلَّة والحاجة، فإن رأى الخلة في الفقراء في عام أكثر قدّمهم، وإن رآها في عام في صنف آخر حوّلها إليهم.

وكلُّ من دُفعَ إليه شيءٌ من الصدقة لا يزيد على قدر الاستحقاق، فلا يزيد الفقير على قدر غناه، فإذا حصل أدنى اسم الغنى لا يُعطى بعده، فإن كان محترفاً لكنه لا يجد آلة حرفته: فيعطى قدر ما يحصل به آلة حرفته، ولا يزاد العامل على أجر عمله، والمُكاتب على قدر ما يُعتق به، وللغريم على قدر دينه، وللغازي على قدر نفقته للذهاب والرجوع والمقام في مغزاه وما يحتاج إليه من الفرس والسلاح، ولابن السبيل على قدر إتيانه مقصده أو مآله.

واختلفوا في نقل الصدقة عن بلد المال إلى موضع آخر. مع وجود السمتحقين فيه: فكرهه أكثر أهل العلم، لما أخبرنا أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الضبي، أنبأنا أبو محمد عبدالجبار بن محمد الجراحي، حدثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع، حدثنا زكريا بن إسحاق المكي، حدثنا يحيى بن عبدالله بن الصيفي عن أبي معبد عن ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال: «إنَّك تأتي قوماً أهل كتاب فادْعُهمْ إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلِمْهُمْ أنّ الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعْلِمْهم أنّ الله قد فرض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتّقِ دعوةَ المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١).

فهذا يدل على أن صدقة أغنياء كل قوم تُردّ على فقراء ذلك القوم.

واتفقوا على أنه إذا نقل من بلد إلى بلد آخر أُدِّي مع الكراهة، وسقط الفرض عن ذمته، إلا ما

---

(١) أخرجه الشيخان، وقد تقدم.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

حُكي / عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنه ردّ صدقة حملت من خراسان إلى الشام إلى مكانها ١٦٠/ ب
من خراسان.

﴿ومِنْهُمُ الذينَ يُؤذُونَ النّبيَّ ويقولُون هو أُذُنٌ﴾، نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يُؤذون النبي ﷺ، ويقولون ما لا ينبغي، فقال بعضهم: لا تفعلوا، فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا. فقال الجُلاس بن سُوَيْد منهم: بل نقول ما شئنا، ثم نأتيه فننكر ما قلنا، ونحلف فيصدقنا بما نقول، فإنّما محمدٌ أذُنٌ[1]، أي: أذنٌ سامعه، يقال: فلانٌ أُذُنٌ وأُذُنَةٌ على وزن فَعُلَة إذا كان يسمع كل ما قيل له ويقبله. وأصله من أذن يأذن أذناً أي: استمع. وقيل: هو أذن أي: ذو أذن سامعة.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث، وكان رجلاً أذلم، ثائر شعر الرأس، أحمر العينين، أسفع الخدين، مشوّه الخلقة، وقد قال النبي ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث»، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنما محمد أذن فمن حدثه شيئاً صدقه، فنقول ما شئنا، ثم نأتيه ونحلف بالله فيصدقنا. فأنزل الله تعالى هذه الآية[2].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم﴾، قرأه العامة بالإضافة، أي: مستمعُ خير وصلاح لكم، لا مستمع شر وفساد. وقرأ الأعمش والبُرْجُميّ عن أبي بكر: ﴿أذنٌ خيرٌ لكم﴾، مرفوعين منونين، يعني: أن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم، ثم كذّبهم فقال: ﴿يؤمنُ باللّهِ﴾، أي: لا، بل يؤمن بالله، ﴿ويُؤمنُ للمؤمنين﴾، أي: يصدِّق المؤمنين ويقبل منهم لا من المنافقين. يقال: أمنته وأمنت له بمعنى صدقته. ﴿ورحمةٌ﴾، قرأ حمزة: «ورحمةٍ» بالخفض على معنى أذن خير لكم، وأذن رحمة، وقرأ الآخرون: «ورحمة» بالرفع، أي: هو أذن خير، وهو رحمة ﴿للذين آمنوا مِنكم﴾، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين. ﴿والذينَ يُؤذُونَ رسولَ اللّهِ لهمْ عذابٌ أليم﴾.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص(٢٨٦)، سيرة ابن هشام: ١/ ٥٢١.

(٢) ذكره ابن إسحاق بلاغاً: ١/ ٥٢١، وانظر: الطبري: ١٤/ ٣٢٤، أسباب النزول ص(٢٨٦) والدر المنثور: ٤/ ٢٢٧.

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا
مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ
سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

﴿يحلفون بالله لكم لِيرضُوكم﴾، قال قتادة والسُّدِّي: اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجُلاس بن سُوَيْد، ووديعة بن ثابت، فوقعوا في النبي ﷺ، وقالوا: إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شرٌّ من الحمير، وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس، فحقروه وقالوا هذه المقالة، فغضب الغلام وقال: والله إن ما يقول محمد حقٌّ وأنتم شرٌّ من الحمير، ثم أتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فدعاهم وسألهم رسول الله ﷺ، فحلفوا أنّ عامراً كذاب. وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبي ﷺ، فجعل عامر يدعو ويقول: اللهم صدِّق الصادقَ وكذِّب الكاذبَ فأنزل الله تعالى هذه الآية(1).

وقال مقاتل والكلبي: نزلت في رهط من المنافقين تخلّفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون إليه ويحلفون، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يحلفون بالله لكم لِيُرْضُوكم، واللّهُ ورسولُه أحقُّ أن يُرضُوه إنْ كانُوا مؤمنين﴾.

﴿ألم يعلموا أنه من يُحَادِدِ اللّهَ ورسولَهُ﴾، يخالف الله ورسوله أن يكونوا في جانب واحد من الله ورسوله، ﴿فأنَّ له نارَ جهنَّمَ خالداً فيها ذلكَ الخِزيُ العظيم﴾، أي: الفضيحة العظيمة.

﴿يحذَرُ المنافقون﴾، أي: يخشى المنافقون، ﴿أن تُنزَّلَ عليهم﴾، أي: تنزل على المؤمنين، ﴿سُورةٌ تُنبئُهُم بما في قُلوبِهمْ﴾، أي: بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين، كانوا يقولون فيما بينهم ويُسرون ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم.

قال قتادة: هذه السورة تُسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم.

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة للمؤمنين، لئلا يعير بعضهم بعضاً، لأنّ أولادهم كانوا مؤمنين.

---

(1) انظر: الدر المنثور: ٤/٢٢٨، أسباب النزول ص(٢٨٧)، الطبري: ١٤/٣٢٩.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿قل استهزءوا إنّ اللهَ مُخرِجٌ﴾، مظهر ﴿ما تحذَرُون﴾.

قال ابن كيسان: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين، وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لمّا رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها، ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه، وتنكروا له في ليلة مظلمة، فأخبر جبريلُ رسولَ الله ﷺ بما قدّروا، وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحهلم، وعمار بن ياسر يقود برسول الله ﷺ راحلته، وحذيفة يسوق به، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم فضربها حتى نحاها، فلما نزل رسول الله ﷺ قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «فإنهم فلان وفلان حتى عدَّهم كلهم، فقال حذيفة: ألاَ تبعثُ إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب. لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدُّبَيْلَة»[1].

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عبادة قال: قلنا لعمّار أرأيتَ قتالكم أرأياً رأيتموه؟ فإن الرأي يُخطيء ويصيب، أو عهد عهده إليكم رسول الله ﷺ؟ فقال: ما عَهِدَ إلينا رسولُ الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة، وقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنّ في أمتي ـ قال شعبة وأحسبه قال: حدثني حذيفة قال في أمتي ـ اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها، حتى يَلِجَ الجمل في سَمِّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدُّبَيْلة، سراجٌ من النار يظهر في أكتافهم، حتى ينجم من صدورهم»[2].

قوله تعالى: ﴿ولئنْ سألتهم ليقولن إنّما كنّا نخوضُ ونلعبُ﴾ الآية، وسبب نزول هذه الآية على ما قال الكلبي ومقاتل وقتادة: أن النبي ﷺ كان يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين، اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول، والثالث يضحك.

قيل: كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك!

وقيل كانوا يقولون: إن محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن، وإنما هو قوله وكلامه، فأَطلعَ الله نبيه ﷺ على ذلك؛ فقال: احبسوا عليَّ الركب، فدعاهم وقال لهم: قلتم

---

(١) انظر: الدر المنثور: ٤/٢٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، برقم (٢٧٧٩): ٤/٢١٤٣.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

كذا وكذا، فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، أي كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب.

١٦١/ أ قال عمر[١] فلقد / رأيت عبدالله بن أُبي يشتد قدام رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه وهو يقول إنّما كنّا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: أبا للّهِ وآياته ورسولِه كنتم تستهزؤون، ما يلتفت إليه ولا يزيد عليه[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يامحمد ﴿أباللّهِ وآياتِه﴾، كتابه، ﴿ورسولِه كنتُم تستهزءون﴾.

﴿لا تعتذرُوا قد كفرتُم بعدَ إيمانِكم﴾، فإن قيل: كيف قال: كفرتم بعد إيمانكم، وهم لم يكونوا مؤمنين؟.

قيل: معناه: أظهرتم الكفر بعدما أظهرتم الإيمان.

﴿إن نَّعْفُ عن طائِفَةٍ منكم﴾، أي: نتب على طائفة منكم، وأراد بالطائفة واحداً، ﴿نُعذِّبْ طَائفةً بأنهم كانُوا مُجرِمين﴾، بالاستهزاء. قرأ عاصم: «نَعْفُ» بالنون وفتحها وضم الفاء، «نُعذِّب» بالنون وكسر الذال، ﴿طائفةً﴾ نصبٌ. وقرأ الآخرون: «يُعْفَ» بالياء وضمها وفتح الفاء، ﴿تُعذَّبْ﴾ بالتاء وفتح الدال، «طائفٌ» رفعٌ على غير تسمية الفاعل.

وقال محمد بن إسحاق: الذي عفا عنه رجلٌ واحد، هو مَخْشِيّ بن حُمَيِّر الأشجعي، يقال هو الذي كان يضحك ولا يخوض، وكان يمشي مجانباً لهم وينكر بعض ما يسمع، فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه، وقال: اللّهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ أُعْنَى بها تقشعرُّ الجلود منها، وتجب[٣] منها القلوب، اللّهم اجعلْ وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت، فأُصيب يومَ اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا عُرِفَ مصرعُه غيره[٤].

(١) هكذا في النسختين: «قال عمر». والصواب: «ابن عمر».
(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٤/٣٣٣ - ٣٣٤، أسباب النزول للواحدي ص(٢٨٨)، الدر المنثور: ٤/ ٢٣٠ - ٢٣١.
(٣) وَجَبَ قلبه يَجِبُ وَجِيْباً: خفق واضطرب.
(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٢٥. وفيه: مخشّن بن حمير، ويقال: مَخْشِيّ.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ

قوله تعالى: ﴿المُنافقون والمُنافِقاتُ بعضُهم مِّن بعضٍ﴾، أي: هم على دين واحد. وقيل: أمرهم واحد بالاجتماع على النفاق، ﴿يأمرون بالمنكر﴾، بالشرك والمعصية، ﴿وينهون عن المعروف﴾، أي عن الإيمان والطاعة، ﴿ويقبضون أيديهم﴾ أي: يمسكونَها عن الصدقة والإنفاق في سبيل الله ولا يبسطونها بخير، ﴿نَسُوا الله فنسيَهم﴾، تركوا طاعةَ الله، فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا، ومن رحمته في الآخرة، وتركهم في عذابه، ﴿إنّ المنافقين هُمُ الفاسِقُون﴾.

﴿وَعَدَ اللّهُ المُنافقِينَ والمُنافقاتِ والكُفّارَ نارَ جهنَّمَ خالدينَ فيها هي حَسْبُهُمْ﴾، كافيتهم جزاءً على كفرهم، ﴿ولعنَهمُ اللّهُ﴾، أبعدهم من رحمته، ﴿ولهمْ عذابٌ مُّقيمٌ﴾، دائم.

﴿كالّذينَ مِن قبلِكُم﴾، أي: فعلتم كفعل الذين من قبلكم بالعُدول عن أمر الله، فَلُعِنْتُم كما لُعِنُوا ﴿كانُوا أشدَّ منكم قُوّةً﴾، بُطشاً ومنعةً، ﴿وأكثرَ أموالاً وأولاداً فاسْتَمْتَعُوا بخلاقِهم﴾ فتمتعوا وانتفعوا بخلاقهم؛ بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا به عوضاً عن الآخرة، ﴿فاسْتمتَعْتُم بخلاقِكم﴾، أيّها الكفار والمنافقون، ﴿كما اسْتَمْتَعَ الذينَ من قبلِكُم بخلاَقِهم﴾، وسلكتُم سبيلهم، ﴿وخُضْتُم﴾ في الباطل والكذب على الله تعالى، وتكذيب رُسله، وبالاستهزاء بالمؤمنين، ﴿كالذي خاضُوا﴾، أي: كما خاضوا. وقيل: كالذي بمعنى كالذين خاضُوا، وذلك أن «الذي» اسم ناقص، مثل «ما» و «من» يُعبّر به عن الواحد والجميع، نظيره قوله تعالى: «كمثل الذي استوقد ناراً» ثم قال: «ذهبَ اللّهُ بنورهم» (البقرة - ١٧).

﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٦٩ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٧٠ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ﴾

﴿أولئـك حَبـطَتْ أعمـالُهم في الدنيا والآخرة وأولئكَ هُمُ الخاسِرُون﴾، أي: كما حبطت أعمالهم وخسروا كذلك حبطتْ أعمالُكم وخسرتُم.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن عبدالعزيز، حدثنا أبو عمر الصنعاني من اليمن، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُم شِبْراً بشبرٍ وذِراعاً بِذِراعٍ حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍ لا تَّبعتُموهُم»، قلنا: يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»؟ وفي رواية أبي هريرة: «فهلِ الناسُ إلاّ هُمْ»، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سَمْتاً وهَدْياً تتبعون عملهم حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ غيرَ أني لا أدري أتعبدُونَ العِجْلَ أمْ لا؟»[1].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يأتِهم﴾، يعني المنافقين، ﴿نبأُ﴾، خبر، ﴿الذين مِن قَبْلِهِمْ﴾، حين عصوا رُسلنا، وخالفوا أمرنا كيف عذبناهم وأهلكناهم. ثم ذكرهم، فقال: ﴿قوم نُوحٍ﴾، أُهلكوا بالطّوفان، ﴿وعـادٍ﴾، أُهْلِكُوا بالريح ﴿وثمودَ﴾، بالرجفة، ﴿وقوم إبراهيمَ﴾، بسلب النعمة وهلاك نمرود، ﴿وأصحَابِ مَدْيَن﴾، يعني قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظُّلَّة، ﴿والمُؤْتفِكَاتِ﴾ المنقلبات التي جعلنا عالِيها سافلها وهم قوم لوط، ﴿أتتهم رُسلهُم بالبينات﴾، فكذّبوهم وعصَوْهم كما فعلتم يامعشر الكفار، فاحذرُوا تعجيلَ النِّقْمة، ﴿فما كانَ اللّهُ ليظْلمَهُمْ ولكنْ كانُوا أنفسهم يظلمُون﴾.

قوله تعالى: ﴿والمؤمنُونَ والمُؤمِناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ﴾ في الدِّين واتفاق الكلمة والعون والنصـرة. ﴿يـأمرُونَ بالمعرُوف﴾، بالإيمان والطاعة والخير، ﴿ويَنْهوْنَ عَن المُنْكَر﴾، عن الشرك

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم..» ١٣/٣٠٠، ومسلم في العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، برقم (٢٦٦٩): ٤/٢٠٥٤، والمصنف في شرح السنة: ١٤/٣٩٢.

ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى
جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

والمعصية وما لا يُعرف في الشرع، ﴿ويُقيمُون الصَّلاةَ﴾، المفروضة، ﴿ويُؤتُون الزكاةَ ويُطيعُونَ اللّهَ ورسولَهُ أولئكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إنّ الله عزيزٌ حكيمٌ﴾.

﴿وَعَدَ اللّهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِها الأنْهارُ خالِدينَ فيها ومَساكِنَ طيّبة﴾، منازل طيبة، ﴿في جنّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: بساتين خلد وإقامة، يُقال: عدن بالمكان إذا أقام به.

قال ابن مسعود: هي بُطْنَان الجنة، أي: وسطها.

قال عبدالله بن عمرو بن العاص: إن في الجنة قصراً يقال له: «عَدْنٌ» حوله البروج والمروج، له خمسة آلاف باب لا يدخله إلّا نبيٌّ أو صديق أو شهيدٌ.

وقال الحسن: قصرٌ من ذهب لا يدخله إلا نبيٌّ أو صديقٌ أو شهيدٌ أو حَكَمٌ عدلٌ.

وقال عطاء بن السائب: «عدن» نهر في الجنة [جنانه][1] على حافتيه.

وقال مقاتل والكلبي: «عدن» أعلى درجة في الجنة، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها، محدقة بها، وهي مغطّاة من حين خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها: الأنبياءُ والصِّدِّيقون والشهداءُ والصالحون، ومن شاء الله، وفيها قصورُ الدُّرِّ واليواقيت والذهب، فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كُثْبَانُ المِسْكِ الأذفر الأبيض.

﴿ورِضْوَانٌ منَ اللّهِ أكبرُ﴾. أي: رضا الله عنهم أكبر من ذلك، ﴿ذلك هو الفوزُ العظيم﴾.
روينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «يقول الله عزّ وجلّ لأهلِ الجنّةِ يا أهلَ الجنّة هلْ رضيتُم؟ فيقولون: ربَّنا ما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تُعْطِهِ أحداً من خلقك، فيقول: أفَلا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولُونَ: ربَّنا وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحِلُّ عليكم رِضْوَاني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»[2].

---

(١) في «ب»: (جنباته).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة: ١٣/٤٨٧، وفي الرقاق أيضاً، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة برقم (٢٨٢٩) ٤/٢١٧٦، والمصنف في شرح السنة: ١٥/٢٣١ ـ ٢٣٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها النَّبيُّ جاهدِ الكُفَّارَ﴾: بالسيف والقتل، ﴿والمُنافِقينَ﴾، واختلفوا في صفة جهاد المنافقين، قال ابن / مسعود: بيده فإن لم يستطع فبلسانه وإن لم يستطع فبقلبه، وقال: لا تَلْقَ المنافقين إلَّا بوجه مكفهرّ[1]. وقال ابن عباس: باللسان وترك الرفق. وقال الضحاك: بتغليظ الكلام. وقال الحسن وقتادة: بإقامة الحدود عليهم. ﴿واغْلُظْ عليهم ومأوَاهُم﴾ في الآخرة. ﴿جهنَّمُ وبِئْسَ المصير﴾. قال عطاء: نسخت هذه الآية كلَّ شيء من العفو والصفح. ١٦١/ ب

قوله تعالى: ﴿يحلِفُون بالله ما قالوا﴾، قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل حجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسانٌ فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاء فلا تكلموه»، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «عَلَامَ تشتمني أنتَ وأصحابُك»؟ فانطلق الرجل، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله، ما قالوا، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية[2].

وقال الكلبي: نزلت في الجُلَاس بن سُوَيد، وذلك أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك، فذكر المنافقين وسمّاهم رجساً وعابهم، فقال جُلَاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير. فسمعه عامر بن قيس، فقال: أجل إنّ محمداً لصادقٌ وأنتم شرٌّ من الحمير، فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجُلاس، فقال الجلاس: كذب عليّ يارسول الله، وأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله، ولقد كذَبَ عليّ عامر، ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما

(١) أخرجه الطبري عن ابن مسعود: ٣٥٨/١٤. ومعنى: بوجه مكفهر: عابس منقبض، لا طلاقة فيه ولا بشر ولا انبساط.

(٢) أخرجه الطبري: ٣٦٣/١٤، وصحح الشيخ شاكر إسناده. وزاد السيوطي نسبته للطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه. الدر المنثور: ٢٤١/٤.

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

كذَبْتُ عليه، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم أنزل على نبيّك تصديق الصادق منّا، فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون: آمين. فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية، حتى بلغ: ﴿فإن يتوبوا يكُ خيراً لهم﴾، فقام الجلاس فقال: يارسول الله أسمعُ [اللّهَ عزّ وجلّ][2] قد عرضَ عليّ التوبة، صدق عامرُ بن قيس فيما قاله، لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه، فقبِلَ رسول الله ذلك منه وحَسُنَتْ توبته.

قوله تعالى: ﴿ولقدْ قالُوا كلمةَ الكُفْرِ وكفرُوا بعدَ إسلامِهم﴾، أي: أظهروا الكفر بعد إظهار الإيمان والإسلام. قيل: هي سبُّ النّبي ﷺ. وقيل: كلمة الكفر قول الجلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير. وقيل: كلمة الكفر قولهم «لئن رَّجَعْنَا إلى المدينةِ لَيُخْرِجَنّ الأعزُّ منها الأذلَّ»، (المنافقين - ٨) وستأتي تلك القصة [في موضعها في سورة المنافقين][1]، ﴿وهَمُّوا بما لَمْ ينالُوا﴾، قال مجاهد: هَمّ المنافقون بقتل المسلم الذي سمع قولهم: لنحن شر من الحمير، لكي لا يفشيه.

وقيل: هَمّ اثنا عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على العقبة في طريق تبوك ليفتكُوا برسول الله ﷺ، فجاء جبريل عليه السلام وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وُجُوهَ رَوَاحِلِهم، فأرسل حذيفة لذلك.

وقال السدي: قالوا إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبدالله بن أُبي تاجاً، فلم يصلوا إليه.

﴿وما نَقَمُوا﴾، وما كرهوا وما أنكروا منهم، ﴿إلاّ أنْ أغْنَاهُمُ اللّهُ ورسولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾. وذلك أن مولى الجُلاَس قُتل، فأمر رسول الله ﷺ بديته اثني عشر ألف درهم فاستغنى. وقال الكلبي: كانوا قبل قدوم النبي ﷺ في ضَنْكٍ من العيش، فلما قَدِمَ عليهم النبي ﷺ استغنوا بالغنائم.

﴿فإن يَتُوبُوا﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿يَكُ خيراً لهم وإن يَتولَّوا﴾، يعرضوا عن الإيمان، ﴿يُعذِّبْهُمُ اللّهُ عذاباً أليماً في الدنيا﴾، بالخزي، ﴿والآخرة﴾، أي: وفي الآخرة بالنار، ﴿ومالهم في الأرضِ مِنْ وَلِيٍّ ولا نصيرٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿ومنهمْ مَّنْ عاهَدَ اللّهَ لئن آتانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ الآية. أخبرنا أبو سعيد الشريحي، حدثنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرنا أبو عبدالله بن حامد الأصفهاني، حدثنا أحمد بن

(١) ساقط من «ب».
(٢) زيادة من المطبوع.

محمد بن إبراهيم السمرقندي، حدثنا محمد بن نصر، حدثني أبو الأزهر أحمد بن الأزهر، حدثنا مروان بن محمد بن شعيب حدثنا مُعَان[1] بن رفاعة عن علي بن يزيد[2]، عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبي أُمامة الباهلي قال: جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ادْعُ اللّٰهَ أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك ياثعلبة قليلٌ تُؤدي شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لاتُطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يارسول الله ادْعُ اللّٰهَ أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «أمَالَكَ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حسنة؟ والذي نفسي بيده لو أردتُ أن تسيَّر الجبال معي ذهباً وفضةً لسَارتْ» ثم أتاه بعد ذلك فقال: يارسول الله ادْعُ اللّٰهَ أن يرزقني مالاً فوالذي بعثك بالحق لئن رزقني اللّٰهُ مالاً لأعطين كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ ارْزُقْ ثعلبةَ مالاً».

قال: فاتخذ غنماً فَنَمتْ كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها وهي تنمو كالدود، فكان يصلي مع النبي ﷺ الظهر والعصر، ويصلي في غنمه سائر الصلوات، ثم كثُرتْ ونَمتْ حتى تباعد بها عن المدينة، فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كَثُرتْ فنَمتْ فتباعد أيضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة. فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقَّى الناسَ يسألهم عن الأخبار، فذكره ﷺ ذات يوم فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يارسول الله اتخذ ثعلبة غنماً ما يسعها وادٍ، فقال رسول الله ﷺ: «يا وَيْحَ ثعلبةَ يا وَيحَ ثعلبة يا ويحَ ثعلبة». فأنزل الله آية الصدقات، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من بني سليم ورجلاً من جُهينة وكتب لهما أسنان الصدقة، كيف يأخذان، وقال لهما: «مُرّا بثعلبة بن حاطب، و[بفلان]، رجلٍ من بني سليم فخذا صدقاتهما، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتابَ رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلّا أخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثمّ عُودا إليّ، فانطلقا وسمع بها السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا: ما هذه عليك. قال: خذاه فإن نفسي بذلك طيبة، فمرًا على الناس فأخذا الصدقات، ثم رجعَا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما فقرأه، ثم قال: ما هذه إلا أخت الجزية، اذهبا حتى أرى رأيي.

قال: فأقبلا فلما رآهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلّماه قال: يا وَيْحَ ثعلبة يا وَيْحَ ثعلبة، ثم دعا
للسُّلمي بخير، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ومنهم مَنْ عَاهَدَ الله لئِنْ آتَانَا مِنْ / ٦٢/١ أ
فَضْلِهِ لنصَّدَّقنَّ﴾ الآية، إلىٰ قوله: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة

(١) في «أ» (معاذ) (بالذال).

(٢) في الأصل: (زيد) وهو خطأ.

فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبيَّ ﷺ فسأله أن يقبل منه الصدقة، فقال: إن الله عزّ وجلّ منعني أن أقبل منك صدقتك، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك وقد أمرتُك فلم تطعني، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبض صدقته، رجع إلى منزله. وقُبض رسولُ الله ﷺ. ثم أتى أبا بكر فقال: اقبلْ صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسولُ الله ﷺ ثم أنا أقبلها؟ فقُبضَ أبو بكر ولم يقبلها. فلّما وَلِيَ عمرُ أتاه فقال: اقبلْ صدقتي، فقال: لم يقبلها منك رسولُ الله ولا أبو بكر، أنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها فلّما وَلِيَ عثمان أتاه فلم يقبلها منه، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان[1].

قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: أتى ثعلبة مجلساً من الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حقّ حقَّه، وتصدقت منه، ووصلت الرحم، وأحسنت إلى القرابة، فمات ابن عم له [فورِّثه][2] مالاً فلم يفِ بما قال، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

وقال الحسن ومجاهد: نزلت في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشير، وهما من بني عمرو بن عوف، خرجا على ملأ قعودٍ وقالا: والله لئن رزقنا اللّهُ [مالاً][4] لنصدقنّ، فلما رزقهما الله عزّ وجلّ بَخِلَا به[3] فقوله عزّ وجلّ: ﴿ومنهم﴾ يعني: المنافقين ﴿مَنْ عاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتانا مِن فَضْله لَنصدّقنّ﴾ ولنؤدينّ حقَّ الله منه. ﴿ولَنَكُونَنّ مِنَ الصّالحين﴾، نعمل بعمل أهل الصلاح فيه؛ من صلة الرحم والنفقة في الخير.

---

(١) أخرجه الطبري: ١٤/ ٣٧٠ـ ٣٧٢، والواحدي في أسباب النزول ص(٢٩٠ ـ ٢٩٢)، وابن الأثير في أسد الغابة: ١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥، وأشار إلى أنه مخرج عن ابن منده وأبي نعيم وابن عبدالبر في الاستيعاب ١٠/ ٢١٠، وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: «فيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك». وعزاه السيوطي في الدر: ٤/ ٢٤٦ والهيثمي في المجمع: ٧/ ٢١ للحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال وابن مردويه وأبي نعيم في معرفة الصحابة، وابن عساكر.

ومعان بن رفاعة السلمي: ليِّن الحديث، وعلي بن يزيد: ضعيف بمرة. فالخبر ضعيف. قال فيه ابن حجر: «وهذا إسناد ضعيف جداً» وقال الشيخ محمود شاكر: «هو ضعيف كل الضعف ـ ليس له شاهد من غيره ـ وفي بعض رواته ضعف شديد». وفي كون المراد بالآية ثعلبة بن حاطب. نظر. فإنه بدري. وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية» وحكى ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال لأهل بدر: (اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم) فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقاً في قلبه، وينزل فيه ما ينزل؟

وثعلبة بن حاطب رضي الله عنه، الذي شهد بدراً، قتل في غزوة أحد، وفي هذه الرواية أنه هلك في عهد عثمان رضي الله عنه، فتأكد أنه ليس هو ثعلبة بن حاطب البدري.

وانظر: الكافي الشاف ص(٧٧)، الإصابة: ١/ ٤٠١، الحاوي للفتاوى: ٢/ ١٨٣.

(٢) في (أ): فورث منه.

(٣) انظر: الطبري: ١٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤، الدر المنثور: ٤/ ٢٤٧.

(٤) ساقط من «أ».

(٣) الطبري: ١٤/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي
قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾
أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾
ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

﴿فلّما آتاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا به وتولَّوا وهمْ مُعْرِضُون﴾.

﴿فأعْقَبَهُم﴾، فأخلفهم، ﴿نِفَاقاً في قلوبهم﴾، أي: صيّر عاقبة أمرهم النفاق، يقال: أعقب فلاناً ندامةٌ إذا صيّر عاقبة أمره ذلك. وقيل: عاقبهم بنفاق قلوبهم. يُقال: عاقبتُه وأعقبته بمعنى واحد. ﴿إلى يوم يَلْقَوْنَه﴾، يريد حرمهم التوبة إلى يوم القيامة، ﴿بما أخلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وبما كانُوا يكذِبُون﴾.

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، حدثنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، حدثنا عبدالله بن عمر الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر أخبرنا أبو سهيل نافع بن مالك عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آيةُ المنافقِ ثلاث: إذا حدّثَ كذبَ، وإذا وعَدَ أخلف، وإذا ائتُمِنَ خان»(1).

قوله عز وجل: ﴿ألَمْ يعلمُوا أنّ الله يعلمُ سِرَّهُمْ ونَجْوَاهُمْ﴾، يعني: ما أضمروا في قلوبهم وما تناجوا به بينهم، ﴿وأنّ الله عَلّامُ الغُيُوبِ﴾.

قوله عز وجل: ﴿الذينَ يَلْمِزُون المُطَّوِّعِينَ مِنَ المُؤمنينَ في الصَّدَقَاتِ﴾ الآية.

قال أهل التفسير: حثّ رسولُ الله ﷺ على الصدقة، فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، وقال: يارسول الله مالي ثمانية آلاف جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله، وأمسكتُ أربعة آلاف لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ»، فبارك الله في

(1) أخرجه البخاري في الإيمان، باب علامات المنافق: ١/٨٩، ومسلم في الإيمان، باب خصال المنافق، برقم (٥٩): ١/٧٨، والمصنف في شرح السنة: ١/٧٢.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ

ماله حتى أنه خلّف امرأتين يوم مات فبلغ ثُمُنُ ماله لهما مائة وستين ألف درهم. وتصدّق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وَسْقٍ من تمر. وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحباب بصاع من تمر، وقال: يارسول الله بتُّ ليلتي أجر بالجرير الماءَ حتى نِلتُ صاعين من تمرٍ فأمسكتُ أحدهما لأهلي وأتيتُك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقة، فلمزهم المنافقون، فقالوا: ما أعطى عبدالرحمن وعاصم إلا رياءً، وإن الله ورسوله لغنيَّان عن صاع أبي عقيل، ولكنه أراد أن يُذكِّر بنفسه ليعطىٰ من الصدقة، فأنزل الله عزّ وجلّ:[(1)]

﴿الذينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ﴿المُطَّوِّعين﴾ المتبرعين ﴿من المؤمنينَ في الصدقات﴾ يعني: عبدالرحمن بن عوف وعاصماً. ﴿والذينَ لا يجدُونَ إلاّ جُهْدَهُم﴾، أي: طاقتهم، يعني: أبا عقيل. والجُهد: الطاقة، بالضم لغة قريش وأهل الحجاز. وقرأ الأعرج بالفتح. قال القتيبي: الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة. ﴿فيسخَرُونَ منهم﴾، يستهزؤون منهم، ﴿سَخِرَ اللّهُ منهم﴾. أي: جازاهم الله على السخرية، ﴿ولهم عذابٌ أليم﴾.

﴿اسْتَغْفِرْ لهم أو لاَ تَسْتَغْفِر لهم﴾، لفظه أمر، ومعناه خبر، تقديره: أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفرَ الله لهم. ﴿إنْ تستغفرْ لهم سبعينَ مرّة فلن يغفرَ اللّهُ لهم﴾، وذكر عدد السبعين للمبالغة في اليأس عن طمع المغفرة.

قال الضحاك: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله قد رخص لي فلأزيدنَّ على السبعين لعلّ الله أن يغفر لهم»، فأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿سواءٌ أستغفرتَ لهم أم لم تستغفرْ لهم لنْ يغفرَ الله لهم﴾[(2)].

﴿ذلك بأنهم كفرُوا باللّهِ ورسولِه واللّهُ لا يهدي القومَ الفاسقين﴾.

﴿فَرِحَ المُخلَّفُون﴾ عن غزوة تبوكٍ. والمخلف: المتروك ﴿بمقعدهم﴾ أي بقعودهم ﴿خلاف

(1) انظر: الطبري: ١٤/٣٨٣ ـ ٣٨٨، الدر المنثور: ٤/٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(2) الطبري: ١٤/٣٩٥، الدر المنثور: ٤/٢٥٣.

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾

رسول الله﴾، قال أبو عبيدة: أي بعد رسول الله ﷺ. وقيل: مخالفة لرسول الله ﷺ حين سار وأقاموا، ﴿وكرهُوا أنْ يُجاهِدُوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تَنْفِرُوا في الحرِّ﴾، وكانت غزوة تبوك في شدة الحرّ، ﴿قلْ نارُ جَهَنَّم أشـدُّ حرّاً لو كانُوا يفقهون﴾، يعلمون وكذلك هو في مصحف عبدالله بن مسعود.

﴿فليضْحَكُوا قليلاً﴾، في الدنيا، ﴿وليبكُوا كثيراً﴾، في الآخرة. تقديره: فليضحكوا قليلاً فسيبكون كثيراً، ﴿جزاءً بما كانُوا يكسِبُون﴾.

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنبأنا السيد أبو الحسن محمد بن الحسين العلوي قال: أخبرنا عبدالله بن محمد الحسين الشرقي، حدثنا عبدالله بن هاشم، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا شعبة عن موسى بن أنس عن أنس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «ولو تعلمون ما أعْلم لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيراً»(١).

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، حدثنا أبو طاهر محمد بن أحمد الحارث، حدثنا أبـو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي(٢) حدثنا عبدالله بن محمود، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك عن عمران بن زيد الثعلبي، حدثنا يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيّها الناس ابكوا، فإن لم تستطيعوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، ثم تنقطع الدموع، فتسيل الدماء فتقرّح العيون، فلو أن سُفُناً أُجريتْ فيها لَجَرْت»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: «ولا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَلكم تسؤكم»: ٨/٢٨٠، ومسلم في الفضائل، باب توقيره ﷺ، برقم (٢٣٥٩): ٤/١٨٣٢، والمصنف في شرح السنة: ١٤/٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٣) قال الهيثمي: رواه أبو يعلى، وأضعف من فيه يزيد الرقاشي، وقدوثّق على ضعفه. انظر: المجمع: ١٠/٣٩١، وأخرجه المصنف في شرح السنة: ١٥/٢٥٢.

قوله تعالى : ﴿فإنْ رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ أي: ردّك يامحمد من غزوة تبوك، ﴿إلى طائفةٍ منهم﴾، يعني: من المخلفين. وإنما قال: «طائفة منهم» لأنه ليس كل من تخلف عن غزوة تبوك كان منافقاً، ﴿فاستأذنوك للخُروجِ﴾، معك في غزوة أخرى، ﴿فقلْ﴾، لهم ﴿لنْ تخرجُوا معي أبداً﴾ في سفر، ﴿ولنْ تقاتلُوا معيَ عَدُوّاً إنَّكُم رَضِيتم بالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، في غزوة تبوك ﴿فاقعدُوا مع الخَالِفِينَ﴾، أي: مع النساء والصبيان، وقيل مع الزّمْنَى والمرضَى .

وقال / ابن عباس: مع الذين تخلفوا بغير عذر . ١٦٢/ب

وقيل : مع الخالفين. قال الفراء : يقال: صاحب خالف إذا كان مخالفاً .

﴿ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبداً﴾ الآية. قال أهل التفسير: بعث عبد الله بن أُبيّ بن سلول إلى رسول الله ﷺ وهو مريض، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال له أهلكك حبُّ اليهود؟ فقال: يارسول الله إني لم أبعث إليك لتؤنبني، إنما بعثت إليك لتستغفر لي، وسأله أن يكفنه في قميصه ويصلي عليه .

أخبرنا عبد الواحد المليحي، حدثنا أحمد بن عبدالله النعيمي، حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثني الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبدالله بن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أنه قال: لما مات عبدالله بن أُبيّ بن سلول دُعِيَ له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وَثَبْتُ إليه، فقلت: يارسول الله أتصلي على ابن أُبيٍّ بن سلول وقد قال يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ أعدِّد عليه قوله، فتبسّم رسولُ الله ﷺ وقال: «أخِّر عني ياعمر» فلما أكثرتُ عليه قال: إني خُيّرتُ فاخترتُ، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها، قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ولا تصلِ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ولا تَقُمْ على قبرهِ﴾، إلى قوله: ﴿وهم فاسقون﴾. قال: فعجبتُ بعدُ من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم(١).

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، حدثنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا سفيان قال عمرو: سمعتُ جابر بن عبدالله قال: أَتى رسولُ الله ﷺ عبدَ الله بنَ أُبيّ بعدما أُدخل في حفرته فأَمر به فأُخرج فوضعه على ركبتيه ونفث في فيه من ريقه وألبسه قميصه. فالله أعلم وكان كَسَا عبّاساً قَمِيصاً .

قال سفيان: وقال هارون: وكان على رسول الله ﷺ قميصان فقال ابن عبدالله: يارسول الله [ألبسْ أبي] قميصك الذي يلي جلدك(٢).

ورُوي عن جابر قال: لما كان يوم بدر أُتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب فوجدوا قميص عبدالله بن

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين.. ٣/٢٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب هل يخرج الميت من القبر واللحد لعلة؟ ٣/٢١٤.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟
وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى
ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ
ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾

أُبيّ يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ إياه، فلذلك نزع النبي ﷺ قميصه الذي ألبسه عبدالله. قال ابن عيينة: كانت له عند النبي ﷺ يَدٌ فأحبَّ أن يُكافئه[1].

ورُوي أن النبي ﷺ كُلّم فيما فعل بعبدِ الله بنِ أُبيّ فقال ﷺ: «وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله شيئاً والله إني كنتُ أرجو أنْ يُسلم به ألف من قومه»، ورُوى أنه أسلم به ألفٌ من قومه لمّا رأوه يتبرك بقميص النبي ﷺ[2].

قوله: ﴿ولا تصلِ على أحدٍ منهم ماتَ أبداً ولا تَقُمْ على قبرِه﴾ ولا تَقِفْ عليه، ولا تَتَولَّ دَفْنَه، من قولهم: قام فلان بأمر فلان: إذا كفاه أمره. ﴿إنّهم كفروا باللَّهِ ورسولِهِ وماتُوا وهم فاسِقُون﴾، فما صلى النبي ﷺ بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قُبِضَ.

قوله تعالى: ﴿ولا تُعجبْكَ أموالُهم وأولادُهم إنّما يريدُ اللَّهُ أنْ يُعذِّبَهم بها في الدنيا وتزهقَ أنفسُهم وهم كافرون﴾.

﴿وإذا أُنزلتْ سورةٌ أنْ آمنوا بالله وجاهدُوا معَ رسولِهِ استأذَنَكَ أُولوا الطَّوْلِ منهم﴾، ذوو الغنى والسَّعة منهم في القعود، ﴿وقالوا ذَرْنا نكنْ معَ القاعِدين﴾، في رحالهم.

﴿رَضُوا بأنْ يكونُوا معَ الخوالِف﴾، يعني النساء. وقيل: مع أدنياء الناس وسفلتهم. يقال: فلانٌ خَالِفَةُ قومه إذا كان دونهم. ﴿ وَطُبِعَ علىٰ قُلُوبِهم فهم لا يفقهون ﴾.

﴿لٰكِنِ الرسولُ والذينَ آمنُوا معه جاهدُوا بأموالِهم وأنفسِهم وأولئك لهم الخيراتُ﴾، يعني:

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الكسوة للأسارى: ٦/١٤٤.

(٢) أخرجه الطبري: ١٤/٤٠٩ــ٤١٠، والخازن: ٣/١٠٨، وعزاه السيوطي لأبي الشيخ. انظر: الدر المنثور: ٤/٢٥٩، أسباب النزول للواحدي ص (٢٩٥).

وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ
لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

الحسنات، وقيل: الجواري الحسان في الجنة. قال الله تعالى: (فيهنَّ خيراتٌ حِسَان)، جمع خَيْرَة[1]، وحكي عن ابن عباس: أنَّ [الخير][2] لا يعلم معناه إلا الله كما قال جلّ ذكرهُ: «فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفي لهم من قُرةِ أعين» (السجدة ـــ ١٧). ﴿وأولئك هُمُ المفلحون﴾ .

﴿أعدّ اللّهُ لهم جناتٍ تجري منْ تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ذلكَ الفوزُ العظيم﴾ .

قوله تعالى: ﴿وجاءَ المُعذِّرُونَ مِنَ الأعرابِ لِيُؤْذَنَ لهم﴾ الآية، قرأ يعقوب ومجاهد: ﴿المُعْذِرُونَ﴾ بالتخفيف وهم المبالغون في العذر، يقال في المَثَل: «لقد أُعذر من أنذر» أي: بالغ في العذر من قدم النذارة، وقرأ الآخرون ﴿المعذِّرون﴾ بالتشديد، أي: المقصرون، يقال: عَذَّرَ أي: قصر، وقال الفراء: المعذرون المعتذرون ادغمت التاء في الذال ونُقلت حركة التاء إلى العين.

وقال الضحاك: المعذرون هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا إلى رسول الله ﷺ دفاعاً عن أنفسهم فقالوا: يانبي الله إنْ نحنُ غزونا معك تغير أعراب طيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم»[3].

وقال ابن عباس: هم الذين تخلّفوا بعذر بإذن رسول الله ﷺ[4] .

﴿وقَعَدَ الذينَ كذَبُوا الله ورسوله﴾، يعني: المنافقين .

قال أبو عمرو بن العلاء: كلا الفريقين كان مسيئاً قوم تكلفوا عذراً بالباطل، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿وجاء المُعذِّرون﴾، وقوم تخلّفوا عن غير تكلّف عذر فقعدوا جرأةً على الله تعالى، وهم

(١) قال الطبري: «الخيرات»: هي خيرات الآخرة، وذلك، نساؤها، وجنّاتها، ونعيمها. واحدتها: «خَيْرَة»، كما قال الشاعر :
ولقد طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرَّبَلاتِ رَبَلاتِ هِنْدٍ خَيْرَةِ المَلِكَاتِ
و«الخيرة» من كل شيء، الفاضلة .
انظر: تفسير الطبري: ١٤/٤١٤ـ٤١٥ .
(٢) في «أ»: (الخيرات) .
(٣) انظر: البحر المحيط: ٥/٨٤ .
(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٤/٤١٨ .

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ
عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

المنافقون فأوعدهم الله بقوله: ﴿**سيُصِيبُ الذينَ كفرُوا منهم عذابٌ أليمٌ**﴾، ثم ذكر أهل العذر، فقال جلَّ ذكره:

﴿**ليسَ على الضّعفاءِ**﴾، قال ابن عباس: يعني الزَّمْنَى والمشايخ والعجزة. وقيل: هم الصبيان وقيل: النسوان، ﴿**ولا على المرضَى ولا على الذينَ لا يجدُونَ ما يُنفِقُونَ**﴾، يعني الفقراء ﴿**حَرَجٌ**﴾، مأثم. وقيل: ضيق في القعود عن الغزو، ﴿**إذا نَصَحُوا للَّهِ ورسولِه**﴾، في مغيبهم وأخلصُوا الإيمان والعمل لله وبايعُوا الرسول. ﴿**ما على المُحْسِنينَ من سبيل**﴾، أي: من طريق بالعقوبة، ﴿**واللهُ غفورٌ رحيم**﴾.

قال قتادة: نزلت في عائذ بن عمرو وأصحابه(١).

وقال الضحاك: نزلت في عبدالله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر(٢).

قوله تعالى: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملَهم﴾، معناه: أنه لا سبيل على الأولين ولا على هؤلاء الذين أتوك وهم سبعة نفر سُمّوا البكّائين: مَعْقِل بن يَسَار، وصَخْر بن خنساء، وعبدالله بن كعب الأنصاري، وعُلْبة(٣) بن زيد الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة(٤)، وعبدالله بن مُغَفَّل المزني، أَتَوْا رسولَ الله ﷺ فقالوا: يارسول الله إنّ الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا(٥).

واختلفوا في قوله: ﴿**لِتَحْمِلَهم**﴾ قال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب.

وقيل سألوه أن يحملهم على الخفاف المرقوعة والنعال / المخصوفة، ليغزوا معه فقال النبي ﷺ: «لا ١٦٣/أ
أجدُ ما أَحْمِلُكُم عليه» تولّوا، وهم يبكون، فذلك قوله تعالى: ﴿**تولَّوا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حزناً أنْ لا يجِدُوا ما يُنفِقُون**﴾.

---

(١) انظر: الطبري: ١٤/٤٢٠.

(٢) قارن بالدر المنثور: ٤/٢٦٢.

(٣) في الأصل: (عُلَيّة)، وفي المطبوع: (عَبْلَة). والتصويب من الروض الأنف للسهيلي: ٢/٣٢١.

(٤) في «أ» (عثمه).

(٥) أخرجه الطبري: ١٤/٤٢٣، وانظر: السيرة لابن هشام: ٢/٥١٨، أسباب النزول للواحدي ص (٢٩٦)، إمتاع الأسماع للمقريزي: ١/٤٤٨.

۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

﴿**إنما السبيلُ**﴾، بالعقوبة، ﴿**على الذينَ يستأذِنونَكَ**﴾، في التخلّف ﴿**وهمْ أغنياءُ رَضُوا بأنْ يكونُوا معَ الخَوالِفِ**﴾ مع النساء والصبيان، ﴿**وطَبَعَ اللَّهُ على قلوبِهم فهمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾.

﴿**يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم**﴾، يُروى أن المنافقين الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعةً وثمانين نفراً، فلما رجع رسول الله ﷺ جاؤوا يعتذرون بالباطل. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ لا تعتذِرُوا لنْ نُؤمنَ لكمْ**﴾، لن نصدقكم، ﴿**قد نبّأنا اللَّهُ مِنْ أخبارِكم**﴾، فيما سلف، ﴿**وسيَرى الله عملَكُمْ ورسولُه**﴾، في المستأنف أتتوبُون من نفاقكم أم تقيمون عليه؟ ﴿**ثمّ تردُّون إلى عالِمِ الغيبِ والشّهادَة فيُنبِّئُكم بما كنتم تعملُون**﴾.

﴿**سيَحْلِفُون بالله لكم إذا انقلبتُم إليهِم**﴾، إذا انصرفتم إليهم من غزوكم، ﴿**لِتُعْرِضُوا عنهم**﴾، لتصفحوا عنهم ولاتؤنبوهم، ﴿**فأعْرِضُوا عنهم**﴾، فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، ﴿**إنهم رِجْسٌ**﴾ نجس أي: إن عملَهم قبيح، ﴿**ومأْواهُمْ**﴾، في الآخرة، ﴿**جهنّمُ جزاءً بما كانُوا يكْسِبُونَ**﴾.

قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين. فقال النبي ﷺ حين قدم المدينة: «لا تُجالِسُوهم ولا تُكلموهم»(1).

وقال مقاتل: نزلت في عبدالله بن أُبيّ حَلَفَ للنبي ﷺ بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها، وطلب من النبي ﷺ أن يرضى عنه، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، ونزل: ﴿**يحلِفون لكم**

(1) انظر الرواية عن ابن عباس مطولة في: الطبري: ١٤/٤٢٦-٤٢٧. وقوله ﷺ: «لا تجالسوهم...» عزاه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ. انظر: الدر المنثور: ٤/٢٦٦.

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ
ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ
ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾

لِترضَوْا عنهم فإن ترضَوْا عنهم فإن الله لا يَرضى عنِ القومِ الفاسقين﴾[(١)] .

﴿الأعرابُ﴾، أي: أهل البدو، ﴿أشدُّ كفراً ونِفاقاً﴾، من أهل الحضر، ﴿وأجْدرُ﴾، أخلق وأحرى، ﴿ألّا يعلموا حُدودَ ما أنزلَ اللّهُ على رسولِه﴾، وذلك لبعدهم عن سماع القرآن ومعرفة السُّنن، ﴿والله عليم﴾ بما في قلوب خلقه ﴿حكيمٌ﴾ فيما فرض من فرائضه .

﴿ومِنَ الأعْرابِ مَنْ يتخذُ ما يُنفقُ مَغْرَماً﴾. قال عطاء: لا يرجو[(٢)] على إعطائه ثواباً، ولا يخاف على إمساكه عقاباً، إنما ينفق خوفاً أورياءً.والمغرم التزام مالا يلزم. ﴿ويَترَبّصُ﴾، وينتظر ﴿بكم الدّوائرَ﴾ يعني: صروف الزمان، التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر. وقال يمان بن رباب: يعني ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر المشركون، ﴿عليهم دائرةُ السَّوْءِ﴾ [عليهم][(٣)] يدور البلاء والحزن، ولا يرون في محمد ودينه إلّا ما يسوءهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرة السُّوء﴾ هاهنا وفي سورة الفتح، بضم السين، معناه: الضر والبلاء والمكروه. وقرأ الآخرون بفتح السين على المصدر. وقيل: بالفتح الردة والفساد، وبالضم الضر والمكروه .

﴿واللّهُ سميعٌ عليم﴾. نزلت في أعراب أسد وغطفان وتميم[(٤)]. ثم استثنى فقال:

﴿ومِنَ الأعراب مَن يُؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ﴾، قال مجاهد: هم بنو مُقَرِّن من مُزينة. وقال الكلبي: أسلم وغفار وجُهينة .

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٤/٨٩ــ٩٠ .

(٢) في «ب»: (يرجون... يخافون) .

(٣) ساقط من «أ» .

(٤) انظر: أسباب النزول للواحدي ص (٢٩٧)، الدر المنثور: ٤/٢٦٦ .

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطَّاهريُّ، أنبأنا جدي عبدالصمد بن عبدالرحمن البزار، أنبأنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبَريُّ، أنبأنا عبدالرزاق، حدثنا معمر، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أسلمُ وغفارٌ وشيءٌ من جُهينة ومُزينة خيرٌ عندَ اللَّهِ يومَ القيامة مِن تميمٍ وأسدِ بن خُزَيْمَةَ وهوازنَ وغطفانَ»(1) .

﴿ويتَّخِذُ ما يُنفق قُرُبات عند الله﴾، القربات جمع القربة، أي: يطلب القربة إلى الله تعالى، ﴿وصَلَواتِ الرسولِ﴾، أي: دعاءه واستغفاره، قال عطاء: يرغبون في دعاء النبي ﷺ. ﴿ألَا إنَّها قُرْبَةٌ لهم﴾. قرأ نافع برواية ورش «قُرُبة» بضم الراء، والباقون بسكونها. ﴿سَيُدْخِلُهُم اللَّهُ في رحمتِهِ﴾، في جنته، ﴿إنّ اللَّه غفورٌ رحيم﴾ .

﴿والسّابقُون الأوَّلُون مِنَ المهاجرينَ والأنصار﴾ الآية. قرأ يعقوب بالرفع عطفاً على قوله: «والسابقون» .

واختلفوا في السابقين الأولين، قال سعيد بن المسيب، وقتادة، وابن سيرين وجماعة: هم الذين صلّوا إلى القبلتين.

وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر .

وقال الشعبي: هم الذين شهدوا بيعة الرضوان، وكانت بيعة الرضوان بالحديبية .

واختلفوا في أول من آمن برسول الله ﷺ بعد امرأته خديجة، مع اتفاقهم على أنّها أوُل من آمن برسول الله ﷺ. فقال بعضهم: أول من آمن وصلّى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو قول جابر، وبه قال مجاهد وابن إسحاق، أسلم وهو ابن عشر سنين .

وقال بعضهم: أول من آمن بعد خديجة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو قول ابن عباس وإبراهيم النخعي والشعبي.

وقال بعضهم: أول من أسلم زيد بن حارثة، وهو قول الزهري وعروة بن الزبير .

وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الأقوال فيقول: أول من أسلم من الرجال أبو بكر

---

(1) أخرجه البخاري في المناقب، باب ذكر أسلم... ٦/٥٤٣، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل غفار، برقم (٢٥٢١): ٤/١٩٥٥، والمصنف في شرح السنة: ١٤/٦٥ .

رضي الله عنه، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن العبيد زيد بن حارثة .

قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله، وكان رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب قريش وأعلمها بما كان فيها، وكان تاجراً ذَا خُلقٍ ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر؛ لعلمه وحُسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه، فأسلم على يديه ـــ فيما بلغني ـــ : عثمان بن عفان، والزبير بن العوَّام، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلّوا، فكان هؤلاء الثمانية النفر الذين سبقوا إلى الإسلام[١]. ثم تتابع الناس في الدخول في الإسلام، أما السّابقون من الأنصار: فهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة، وكانوا ستة[٢] في العقبة الأولى، وسبعين في الثانية، والذين آمنوا حين قدم عليهم مُصعب بن عُمير يعلمهم القرآن، فأسلم معه خلق كثير وجماعة من النساء والصبيان .

قوله عزّ وجلّ: ﴿**والسّابقون الأوّلونَ مِنَ المهاجرين**﴾ الذينَ هاجرُوا قومَهم وعشيرتَهم وفارقوا أوطانهم. ﴿**والأنصارِ**﴾ أي: ومن الأنصار، وهم الذين نصروا رسول الله ﷺ على أعدائه من أهل
١٦٣/ب المدينة وآووا أصحابه، ﴿**والذين اتّبعُوهم بإحسان**﴾. قيل: هم بقية المهاجرين والأنصار سوى / السابقين الأوّلين.

وقيل: هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصرة إلى يوم القيامة .

وقال عطاء: هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحم والدعاء.

وقال أبو صخر حميد بن زياد: أتيتُ محمد بن كعب القرظي فقلت له: ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم، فقلت: من أين تقول هذا؟ فقال: ياهذا اقرأْ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿**والسّابِقُون الأولونَ مِنَ المهاجرِينَ والأنصارِ**﴾ إلى أن قال: ﴿**رَضِيَ اللّهُ عنهم ورَضُوا عنه**﴾، وقال: ﴿**والذين اتّبعُوهم بإحسان**﴾، شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة .

قال أبو صخر: فكأني لم أقرأْ هذه الآية قط[٣] .

روِّينا أن النبي ﷺ قال: «لا تَسبُّوا أصحابي فوالذي نفسي بيدِهِ لو أنّ أحدَكم أنفقَ مثلَ أُحدٍ ذَهباً

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام: ٢٤٩/١-٢٥٢ (طبعة الحلبي) .
(٢) في «أ»: (سبعة) .
(٣) عزاه السيوطي في الدر: ٢٧٢/٤ لأبي الشيخ وابن عساكر .

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

ما أدركَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصيفه»[١] .

ثم جمعهم الله عزّ وجلّ في الثواب فقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عنهم ورَضُوا عنه وأعدّ لهم جناتٍ تجري تحتَها الأنهار﴾، قرأ ابن كثير: (من تحتها الأنهار)، وكذلك هو في مصاحف أهل مكة، ﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوزُ العظيم﴾.

قوله تعالى: ﴿وممّن حولَكم مِّنَ الأعرابِ مُنافِقُون﴾، وهم من مُزينة وجُهينة وأشجع وأسلم وغفار، كانت منازلهم حول المدينة، يقول: من هؤلاء الأعراب منافقون، ﴿ومِنْ أهلِ المدينة﴾، أي: ومن أهل المدينة من الأوس والخزرج قوم منافقون، ﴿مَرَدُوا على النّفاقِ﴾، أي: مرنوا على النفاق، يقال: تمرد فلان على ربِّه أي: عتا ومرد على معصيته. أي: مرن وثبت عليها واعتادها. ومنه: المريد والمارد. قال ابن إسحاق: لجوا فيه وأبوا غيرَه .

وقال ابن زيد: أقاموا عليه ولم يتوبوا.

﴿لا تعلَمُهُمْ﴾، أنتَ يامحمد، ﴿نحنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مرّتين﴾، اختلفوا في هذين العذابين.

قال الكلبي والسدي: قام النبي ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخْرُجْ يافلان فإنّك منافق اخرج يافلان. أخرجَ ناساً من المسجد وفضحهم، فهذا هو العذاب الأول. والثاني: عذاب القبر»[٢] .

وقال مجاهد: الأول: القتل والسبي، والثاني: عذاب القبر. وعنه رواية اخرى: عُذِّبُوا بالجوع مرتين.

وقال قتادة: الدُّبَيْلة في الدنيا وعذاب القبر .

وقال ابن زيد: الأولى المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا، والأُخرى عذاب الآخرة .

وعن ابن عباس: الأولى إقامة الحدود عليهم، والأُخرى عذاب القبر.

وقال ابن إسحاق: هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسبة ثم عذاب القبر.

وقيل: إحداهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم، والأخرىٰ عذاب القبر .

وقيل الأولى إحراق مسجدهم، مسجد الضرار، والأخرى إحراقهم بنار جهنم[٣]. ﴿ثم يُرَدُّونَ إلى عذابٍ عظيمٍ﴾، أي: إلى عذاب جهنم يخلدون فيه .

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ «لو كنت متخذاً خليلاً....»: ٢١/٧، ومسلم في فضائل الصحابة، باب تحريم سبِّ الصحابة، برقم (٢٥٤١): ١٩٦٧/٤-١٩٦٨، والمصنف في شرح السنة: ٦٩/١٤ .

(٢) أخرجه الطبري من رواية السدي عن أبي مالك عن ابن عباس: ٤٤١/١٤-٤٤٢،وعزاه الهيثمي للطبراني في الأوسط أيضاً، وقال: فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد: ٣٤/٧ .

(٣) انظر هذه الأقوال في: الطبري: ٤٤١/١٤-٤٤٥، الدر المنثور: ٢٧٤/٤.

قال الطبري رحمه الله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال: إن الله أخبر أنه يعذِّب هؤلاء الذين مردوا على النفاق =

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾

قوله تعالى: ﴿وآخرونَ﴾، أي: ومن أهل المدينة، أو: من الأعراب آخرون، ولا يرجع هذا إلى المنافقين، ﴿اعْتَرفُوا﴾، أقرّوا، ﴿بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عملاً صالحاً﴾، وهو إقرارُهم بذنوبهم وتوبتُهم ﴿وآخر سيئاً﴾، أي: بعمل آخر سيء، وضع الواو موضع الباء، كما يُقال: خلطتُ الماءَ واللبن، أي: باللبن.

والعمل السيء: هو تخلّفهم عن رسول الله ﷺ.

والعمل الصالح: هو ندامتهم وربطهم أنفسهم بالسواري وقيل: غزواتُهم مع النبي ﷺ.

﴿عَسَى اللَّهُ أنْ يتوبَ عليهِمْ إنّ اللَّهَ غفورٌ رحيمٌ﴾، نزلت هذه الآية في قوم تخلّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، ثم ندِمُوا على ذلك، وقالوا: نكون في الظّلال مع النساء، ورسولُ الله ﷺ وأصحابه في الجهاد واللّأواء! فلما قرب رسول الله ﷺ من المدينة قالوا والله لَنُوثِقَنّ أنفسَنا بالسواري فلا نُطلقها حتى يكونَ رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها، ويعذُرُنا، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلما رجع رسول الله ﷺ مرَّ بهم فرآهم فقال: مَنْ هؤلاء؟ فقالوا هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدُوا اللَّهَ عزّ وجلّ أن لا يُطلقوا أنفسَهم حتى تكون أنت تطلقهم وترضى عنهم، فقال رسول الله ﷺ: وأنا أقسم بالله لا أطْلِقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم، رغبوا عني وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين! فأنزل الله هذه الآية فأرسل إليهم رسول الله ﷺ فأطلقهم وعذرهم، فلما أطلقوا قالوا: يارسول الله هذه أموالنا التي خلّفتْنا عنك فتصدقْ بها وطهرْنا واستغفرْ لنا فقال رسول الله ﷺ: «ما أُمرتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً»، فأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أموالهم صدقةً﴾ الآية(1).

واختلفوا في أعداد هؤلاء التائبين، فرُوي عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانوا عشرة منهم أبو لبابة. ورَوَى عطية عنه: أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة. وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية. وقال الضحاك وقتادة: كانوا سبعة. وقالوا جميعاً: أحدهم أبو لبابة(2).

وقال قوم: نزلت في أبي لبابة خاصة. واختلفوا في ذنبه، قال مجاهد: نزلت في أبي لبابة حين قال لقريظة: إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه(3).

= مرتين، ولم يضع لنا دليلاً يوصّل به إلى علم صفة ذينك العذابين ـ وجائز أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبئنا عنهم. وليس عندنا علم بأيّ ذلك من أيّ. غير أن في قوله جلّ ثناؤه: «ثم يردُّون إلى عذاب عظيم»، دلالة على أن العذاب في المرتين كلتيهما قبل دخولهم النار. والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر».

(1) انظر: تفسير الطبري: ١٤/٤٤٧ـ٤٥٠، أسباب النزول ص (٢٩٧ـ٢٩٨).

(2) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ١٤/٤٤٧ـ٤٥٠، الدر المنثور: ٤/٢٧٥ وما بعدها.

(3) الطبري: ١٤/٤٥١ـ٤٥٢.

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

وقال الزهري: نزلت في تخلّفه عن غزوة تبوك فربط نفسه بسارية، وقال والله لا أحلّ نفسي ولا أذوق طعاماً ولا شراباً، حتى أموتَ أو يتوبَ الله عليّ! فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرّ مغشيّاً عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقيل له: قد تِيْبَ عليك!، فقال: والله لا أحلّ نفسي حتى يكون رسولُ الله ﷺ هو الذي يحلني، فجاء النبي ﷺ فحلّه بيده، ثم قال أبو لبابة: يارسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: يُجزيك يا أبا لبابة الثلث[1] .

قالوا جميعاً: فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم، وترك الثلثين، لأن الله تعالى قال: ﴿خُذْ مِنْ أموالِهم﴾، ولم يقل: خذ أموالهم. قال الحسن وقتادة: هؤلاء سوى الثلاثة الذين خُلّفوا .

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أموالِهم صدقةً تُطهرُهُمْ﴾، بها من ذنوبهم، ﴿وتُزكِيْهِمْ بها﴾، أي: ترفعهم من منازل المنافقين إلى منازل المخلصين. وقيل: تنمّي أموالهم ﴿وصَلِّ عليهِمْ﴾، أي: آدْعُ لهم واستغفرْ لهم. وقيل: هو قول الساعي [للمصدّق][2] إذا أخذا الصدقة منه. آجرَكَ اللّهُ فيما أعطيتَ وبارَكَ لكَ فيما أبقيت. والصلاةُ في اللغة: الدعاء. ﴿إنّ صلاتَكَ﴾ قرأ حمزة والكسائي: / «صلاتَكَ» على التوحيد ١٦٤/ أ.
ونصب التاء هاهنا، وفي سورة هود «أصلاتك» وفي سورة المؤمنين «على صلاتهم» [كلهن على التوحيد][2]، وَافقَهُما حفصٌ هاهنا وفي سورة هود. وقرأ الآخرون بالجمع فيهن ويكسرون التاء هاهنا .

﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾، أي: إن دعاءك رحمة لهم. قاله ابن عباس. وقيل: طمأنينة لهم، وسكون لهم، أن الله عزّ وجلّ قد قَبِلَ منهم. وقال أبو عبيدة: تثبيتٌ لقلوبهم. ﴿والله سميعٌ عليمٌ﴾ .

واختلفوا في وجوب الدعاء على الإمام عند أخذ الصدقة: قال بعضهم: يجب. وقال بعضهم: يُستحب. وقال بعضهم: يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوع. وقيل يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبدالله ابن أبي أوْفَى ــ وكان من أصحاب الشجرة ــ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه قومُه بصدقةٍ قال: «اللّهمّ صلِّ عليهم»، فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللهمّ صلِّ على آل أبي أوْفى»[3] .

(١) الطبري: ١٤/٤٥٢ .
(٢) زيادة من المطبوع، يقتضيها السياق .
(٣) أخرجه البخاري في الزكاة، باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة: ٣/٣٦١، ومسلم في الزكاة، باب الدعاء لمن أتى بصدقة،

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ
ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

وقال ابن كيسان: ليس هذا في صدقة الفرض إنما هو في صدقة كفارة اليمين.

وقال عكرمة: هي صدقة الفرض، فلما نزلت توبة هؤلاء قال الذين لم يتوبوا من المتخلّفين: هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا [يُكلَّمونَ][1] ولا يُجالَسون، فما لهم؟ فقال تعالى:

﴿أَلَمْ يعلمُوا أنّ الله هو يَقبَلُ التوبةَ عن عبادِه ويأخُذُ الصّدَقاتِ﴾، أي: يقبلها، **﴿وأنّ اللّهَ هو التواب الرّحيمُ﴾**.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس محمد ابن يعقوب الأصم، أنبأنا الربيع بن سليمان، أنبأنا الشافعي، أنبأنا سفيان بن عيينة، عن ابن عجلان، عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: سمعتُ أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدّق بصدقةٍ من كسب طيّب، ولا يقبلُ اللّهُ إلا طيباً ولا يَصْعُدُ إلى السماءِ إلا طيّبٌ إلّا كأنما يضعها في يد الرحمن عزّ وجلّ فيربيها له كما يُربي أحدكم فَلُوَّه، حتى أنّ اللّقمةَ لتأتي يومَ القيامة وإنّها لمثلِ الجبلِ العظيم، ثم قرأ: **﴿إنّ اللّهَ هو يقبلُ التوبةَ عنْ عبادِهِ ويأخُذُ الصدقاتِ﴾**»[2].

قوله تعالى: **﴿وقل اعْمَلُوا فسَيَرى اللّهُ عملَكُمْ ورَسُولُهُ والمؤمنُون، وستُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيبِ والشّهادَةِ فيُنبِّئُكُمْ بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾**، قال مجاهد: هذا وعيد لهم. قيل: رؤية النبي ﷺ بإعلام الله تعالى إيّاه، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغضة هل الفساد.

قوله تعالى: **﴿وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمرِ اللّهِ إمّا يُعذِّبُهم وإمّا يتوبُ عليهم واللّهُ عليمٌ حكيمٌ﴾**. قرأ أهل المدينة والكوفة غير أبي بكر: «مرجون» بغير همز، والآخرون: بالهمز، والإرجاء: التأخير، مرجون: مؤخرون. لأمر الله: لحكم الله عزّ وجلّ فيهم، وهم الثلاثة الذين تأتي قصتهم من بعدُ: كعب بن مالك،

= برقم (١٠٧٨): ٢/٧٥٦-٧٥٧، والمصنف في شرح السنة: ٥/٤٨٥.

(١) في «ب»: يكالمون.

(٢) أخرجه الشافعي بإسناد حسن: المسند: ١/٢٢٠، والمصنف في شرح السنة: ٦/١٣١، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ٢/٣٣٥، وأصل معنى الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه. انظر: تعليق الشيخ شاكر على الطبري: ٦/١٨-٢٠.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٠٧﴾

وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة، فوقفهم رسول الله ﷺ خمسين ليلة ونهى الناس عن مكالمتهم[1] ومخالطتهم، حتى شقهم القلق وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، وكانوا من أهل بدر فجعل أناسٌ يقولون: هلكوا، وآخرون يقولون: عسى الله أن يغفر لهم، فصاروا مُرْجَئِيْنَ لأمر الله [لا يدرون][2] أيعذبهم أم يرحمهم، حتى نزلت توبتهم بعد خمسين ليلة[3] .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، قرأ: أهل المدينة والشام «الذين» بلا واو، وكذلك هو في مصاحفهم، وقرأ الآخرون: «والذين» بالواو. ﴿مسجداً ضِرَاراً﴾، نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين، بنوا مسجداً يضارّون به مسجدَ قباء، وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق: وديعة بن ثابت، وجذام بن خالد، ومن داره أُخْرِج هذا المسجد، وثعلبة بن حاطب، وجارية بن عامر، وابناه مجمع وزيد، ومعتب بن قشير، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف، وأبو حبيبة بن الأزعر، ونبتل بن الحارث، وبجاد ابن عثمان، ورجل يقال له: بَحْزَج،[4] بنوا هذا المسجد ضراراً، يعني: مضارةً للمؤمنين، ﴿وكُفْراً﴾، بالله ورسوله، ﴿وتَفْرِيقاً بينَ المؤمنين﴾؛ لأنهم كانوا جميعاً يصلُّون في مسجد قباء، فبنوا مسجد الضِّرار، ليصلي فيه بعضهم، فيؤدي ذلك إلى الإختلاف وافتراق الكلمة، وكان يصلي بهم مجمع بن جارية.

فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يارسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة، والليلة المَطِيْرة والليلة الشاتية، وإنّا نحب أن تأتينا وتصلي بنا فيه وتدعو لنا بالبركة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني على جناح سفرٍ، ولو قَدِمْنَا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه»[5] .

---

(١) في «أ»: (مخالطتهم) .
(٢) زيادة من «ب» .
(٣) انظر: الطبري: ٤٦٦/١٤، أسباب النزول ص (٢٩٨) .
(٤) في «أ»: (بخدج) وفي «ب»: «بخرج» والمثبت من الطبري: ٤٦٩/١٤، ٤٧١ مع تعليق الشيخ محمود شاكر .
(٥) انظر في قصة مسجد الضرار: الطبري: ٤٦٨/١٤–٤٧٥، أسباب النزول ص (٢٩٨–٣٠٠)، سيرة ابن هشام: ٥٣٠/٢، الدر المنثور: ٤٨٢/٤ وما بعدها، وضعفه الألباني في تخريج «فقه السيرة» للغزالي ص (٤٢٧) .
وقال ابن حجر: ذكره الثعلبي بغير إسناد...، وفي سياق الطبري: أن النبي ﷺ بعث مالك بن الدخشم ومعن بن عدي. ولم يذكر وحشياً وعامر بن السكن. ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق، قال: ذكر الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخي رهم أنه سمع أبا رهم الغفاري؛ فذكر نحوه . =

﴿وإرْصَاداً لمَنْ حاربَ اللّهَ ورسولَهُ مِنْ قبلُ﴾، أي: انتظاراً وإعداداً لمن حارب الله ورسوله. يقال: أرصدت له: إذا أعددت له. وهو أبو عامر الراهب وكان أبو عامر هذا رجلاً منهم، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان قد ترهَّب في الجاهلية وتنصَّر ولبس المُسُوح، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئتَ به؟ قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم، قال أبو عامر: فإنّا عليها، فقال النبي ﷺ: «إنك لستَ عليها»، قال: بلى ولكنّك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها، فقال النبي ﷺ: «ما فعلتُ ولكنّي جئتُ بها بيضاءَ نقية»، فقال أبو عامر: أمات الله الكاذبَ منّا طريداً وحيداً غريباً، فقال النبي ﷺ «آمين». وسماه أبا عامر الفاسق .

فلما كان يوم أُحد قال أبو عامر لرسول الله ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلّا قاتلتك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين، فلما انهزمت هوازن يئس وخرج هارباً إلى الشام فأرسل إلى المنافقين أنِ استعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، وابْنُوا لي مسجداً فإني ذاهبٌ إلى قيصر ملك الروم فآتِ بجندٍ من الروم، فأُخْرِج محمداً وأصحابه، فبنوا مسجدَ الضرار إلى جنب مسجد قباء، فذلك قوله تعالى: ﴿وإرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ ورسولَه﴾، وهو أبو عامر الفاسق، ليصلي فيه إذا رجع من الشام .

قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ يرجع إلى أبي عامر يعني حارب الله وسوله من قبل أي: من قبل بناء مسجد الضرار .

﴿ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أرَدْنَا﴾، ما أردنا ببنائه، ﴿إلّا الحُسْنَى﴾، إلا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ .

﴿واللّهُ يشهدُ إنّهم لكاذِبُون﴾، في قيلهم وحلفهم. رُوي أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك
١٦٤/ب ونزل بذي أوَان موضع قريب من المدينة أتوه فسألوه إتيان مسجدهم فدعا / بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبر مسجد الضرار وما همّوا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدُّخْشُم، ومعن بن عدي، وعامر بن السكن، ووحشياً قاتل حمزة، وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المساجد الظالم أهلُه فاهدمُوه واحرقوه، فخرجوا سريعاً حتى أتوا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدُّخْشُم، فقال مالك: أَنْظِرُونِي حتى أخرج إليكم بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سَعَفاً من النخل فأشعل فيه ناراً، ثم خرجوا يشتدُّون، حتى دخلوا المسجد وفيه أهله، فحرَّقوه وهدموه، وتفرق عنه أهله، وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقىٰ فيه الجِيَف والنتن والقمامة. ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيداً فريداً غريباً .

= وأما كونهم بنوه بسبب أبي عامر الراهب: فرواه ابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر: الكافي الشاف ص (٨١) .

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾

ورُوي أن بني عمرو بن عوف، الذين بنوا مسجد قباء، أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة فيؤمهم في مسجدهم، فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين: لا تعجل عليّ، فواللهِ لقد صليت فيه وإني لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمتُ ما صليتُ معهم فيه، كنتُ غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون القرآن فصليت ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله تعالى، ولم أعلم ما في أنفسهم، فعذره عمر وصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء.

قال عطاء: لما فتح الله على عمر الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد، وأمرهم أنْ لا يبنوا في مدينتهم مسجدين يضارّ أحدُهما صاحبَه .

قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾، قال ابن عباس: «لا تُصلِّ فيه» منعَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يصلي في مسجد الضّرار. ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقوى﴾، اللام لام الابتداء. وقيل: لام القسم، تقديره: واللّهِ لمسجدٌ أُسِّس، أي: بُني أصله على التقوى، ﴿مِنْ أَوَّلِ يومٍ﴾، أي: من أول يومٍ بُني ووضع أساسه، ﴿أحقُّ أنْ تقومَ فيهِ﴾، مصلياً.

واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى: فقال ابن عمر، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري: هو مسجد المدينة، مسجد الرسول ﷺ، والدليل عليه:

ما أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبد الغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن حاتم، حدثنا يحيى بن سعيد، عن حميد الخراط قال: سمعتُ أبا سلمة عبدالرحمن قال: مرَّ بي عبدالرحمن بن أبي سعيد، قال: فقلت له: كيف سمعتَ أباك يذكر في المسجد الذي أُسس على التقوى؟ فقال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ في بيت بعض نسائه فقلت: يارسول الله أيُّ المسجدين الذي أُسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من الحصباء فضرب به الأرض، ثم قال: هو مسجدكم هذا، مسجد المدينة، قال: فقلت: أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره(١).

وأخبرنا أبو الحسن الشِّيْرَزِيُّ، أنبأنا زاهر بن أحمد، أنبأنا أبو إسحاق الهاشمي، أنبأنا أبو مصعب، عن مالك عن خُبَيْب بن عبدالرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في الحج، باب بيان أن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي ﷺ بالمدينة، برقم (١٣٩٨): ٢/١٠١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر: ٣/٧٠، ومسلم في الحج، باب ما بين =

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

وذهب قوم إلى أنه مسجد قباء، وهو رواية عطية عن ابن عباس، وهو قول عروة بن الزبير [وسعيد بن جبير][(١)] وقتادة:

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبدالعزيز بن مسلم، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كلَّ سبت ماشياً وراكباً، وكان عبدالله بن عمر يفعله[(٢)].

وزاد نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ فيصلي فيه ركعتين[(٣)].

قوله تعالى: ﴿**فيه رجالٌ يُحبُّونَ أن يَتطهّروا**﴾، من الأحداث والجنابات والنجاسات. وقال عطاء: كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة.

أخبرنا أبو طاهر عمر بن عبدالعزيز القاشاني، أنبأنا أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبدالواحد الهاشمي، أنبأنا أبو علي محمد بن أحمد بن عمرو اللؤلؤي، حدثنا أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، أخبرنا محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن يونس بن الحارث، عن إبراهيم بن أبي ميمونة، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء»: ﴿**فيه رجالٌ يُحبّونَ أن يتطهّروا**﴾ قال: «كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية»[(٤)]. ﴿**واللهُ يُحبُّ المُطَّهِّرين**﴾، أي المتطهرين.

﴿**أفمَنْ أسَّسَ بُنْيانَه**﴾ قرأ نافع وابن عامر «أُسِّسَ» بضم الهمزة وكسر السين، «بنيانُه» برفع النون فيها جميعاً على غير تسمية الفاعل. وقرأ الآخرون «أَسَّسَ» فتح الهمزة والسين، «بنيانَه»: بنصب النون،

= القبر والمنبر روضة من رياض الجنة، برقم (١٣٩١): ١٠١١/٢. والمصنف في شرح السنة: ٣٣٨/٢.

(١) ساقط من «أ».

(٢) أخرجه البخاري، في الموضع السابق: ٦٩/٣، ومسلم في الحج، باب فضل مسجد قباء، برقم (١٣٩٩): ١٠١٦/٢-١٠١٧.

(٣) في رواية مسلم في الموضع السابق.

(٤) أخرجه أبو داوود في الطهارة، باب الاستنجاء بالماء: ٣٩/١، والترمذي في تفسير سورة التوبة: ٥٠٣/٨، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي أيوب وأنس بن مالك ومحمد بن عبدالله بن سلام، وأخرجه ابن ماجه في الطهارة، باب الاستنجاء بالماء، برقم (٣٥٧). وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٢٨٦).
وانظر: تلخيص الحبير: ١١٢/١-١١٣، خلاصة البدر المنير لابن الملقن: ٥٠/١.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

على تسمية الفاعل. ﴿على تقوى من الله ورضوانٍ خيرٌ﴾، أي: على طلب التقوى ورضا الله تعالى خيرٌ ﴿أم مَّن أسَّسَ بنيانه على شفا﴾: على شفير، ﴿جُرُفٍ﴾؟ قرأ أبو عمرو وحمزة وأبو بكر «جُرْف» ساكنة الراء، وقرأ الباقون بضم الراء وهما لغتان، وهي البئر التي لم تُطْوَ. قال أبو عبيدة: هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فينجرف[1] بالماء فيبقى واهياً، ﴿هارٍ﴾، أي: هائر وهو الساقط يقال: هار يهور فهو هائر، ثم يقلب فيقال: هار مثل شاك وشائك وعاق وعائق. وقيل: هو من يهار: إذا انهدم، ومعناه: الساقط الذي يتداعى بعضه في إثر بعض، كما ينهار الرمل والشيء الرخو. ﴿فانْهَارَ به﴾، أي: سقط بالباني ﴿في نارِ جهنّمَ﴾، يريد بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهلها فيها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد صيرهمُ النفاقُ إلى النار.

﴿والله لا يهدي القومَ الظالمين﴾، قال قتادة[2]: والله ما تناهى أن وقع في النار، وذكر لنا أنه حفرت بقعة فيه، فرُؤِيَ الدخان يخرج منها. وقال جابر بن عبدالله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار[3].

﴿لا يزالُ بُنيانُهُمُ الذي بَنَوْا رِيبَةً﴾، أي: شكاً ونفاقاً، ﴿في قُلُوبِهِم﴾، يحسبون أنهم كانوا في بنيانه مُحسنين كما حُبب العجل إلى قوم موسى. قال ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الكلبي: حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه. وقال السدي: لا يزال هدم بنائهم ريبة وحزازةً وغيظاً في قلوبهم.

﴿إلّا أنْ تَقَطّعَ قلوبُهم﴾، أي: تتصدّع قلوبهم فيموتوا. قرأ ابن عامر، وأبو جعفر، وحمزة، وحفص: «تَقطّع» بفتح التاء أي: تتقطع. والآخرون بضمّها. وقرأ يعقوب وحده: «إلى أن» خفيفٌ، على الغاية، «تُقطع» بضم التاء، خفيف، من القطع يدل عليه تفسيرُ الضحّاك وقتادةَ: لا يزالون في شك منه إلى أن

---

(١) في «ب» (فينحفر). أي: يصير فيها حفرة.

(٢) تفسير الطبري: ١٤/٤٩٢-٤٩٣.

(٣) أخرجه الطبري: ١٤/٤٩٥، وصححه الحاكم: ٤/٥٩٦ ووافقه الذهبي، وزاد السيوطي نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه. الدر المنثور: ٤/٢٩٢، وعزاه ابن حجر في المطالب العالية: ٣/٣٤٠ لمسدَّد بزيادة.

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾

يموتوا فيستيقنوا. ﴿واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إنّ اللَّهَ اشترَى مِنَ المؤمنينَ أنفُسَهُم وأموالَهم﴾ الآية. قال محمد بن كعب
١٦٥/ أ القرظي: لما بايعتِ الأنصارُ رسولَ الله ﷺ ليلة العقبة / بمكة وهم سبعون نفساً، قال عبدالله بن رواحة: يارسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت .

فقال: أشترط لربي عزّ وجلّ: أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي، أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسَكم وأموالكم .

قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟

قال: الجنة، قالوا: رَبِحَ البيعُ لانقيلُ ولا نستقيل[١] فنزلت: ﴿إنّ اللَّهَ اشترَى مِنَ المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهمُ الجنّةَ﴾[٢] .

وقرأ الأعمش: ﴿بالجنة﴾ .

﴿يُقاتِلونَ في سبيلِ الله فَيَقْتُلُونَ ويُقتَلُون﴾، قرأ حمزة والكسائي: «فيَقْتُلُون» بتقديم المفعول على الفاعل بمعنى يقتل بعضهم بعضاً، ويقتل الباقون. وقرأ الآخرون بتقديم الفاعل. ﴿وَعْداً عليهِ حقّاً﴾ أي: ثواب الجنة لهم وعدٌ وحقٌ ﴿في التوراة والإنجيل والقرآن﴾، يعني أنّ اللّهَ عزّ وجلّ وعدهم هذا الوعد، وبيَّنه في هذه الكتب. وقيل[٣] فيه دليل على أن أهل الملل كلهم أُمروا بالجهاد على ثواب الجنة، ثم هنَّأهم فقال: ﴿ومَنْ أوْفَى بعهدِه مِنَ اللهِ فاستبشرُوا﴾، فافرحوا ﴿ببيعِكُم الذي بايَعْتُم بهِ وذلكَ هو الفوزُ العظيمُ﴾، قال عمر رضي الله عنه: إنّ الله عزّ وجلّ بايعك وجعل الصفقتين لك .

وقال قتادة ثامَنَهُمُ اللّهُ عزّ وجلّ فأغْلَى لهم[٤] .

وقال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن. وعنه أنه قال: إن الله أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها .

ثم وصفهم فقال: ﴿التائِبُون﴾، قال الفرّاء: استُؤنِفَتْ بالرفع لتمام الآية وانقطاع الكلام. وقال

---

(١) «أقاله البيعَ يقيلُه إقالة» و«تقايل البيعان»: إذا فسخا البيع، وعاد المبيع إلى مالكه، والثمن إلى المشتري، إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما. وتكون «الإقالة» في البيعة والعهد. و«استقاله»: طلب إليه أن يقيله .

(٢) أخرجه الطبري: ٤٩٩/١٤. وانظر: الكافي الشاف ص (٨١) أسباب النزول ص (٣٠٠) .

(٣) قيل: ساقطة من «أ» .

(٤) «ثامنت الرجل في المبيع»: إذا قاولته في ثمنه وفاوضته، وساومته على بيعه واشترائه وانظر: الطبري: ٤٩٩/١٤ .

الزَّجَّاج: التائبون رفع للابتداء، وخبره مضمر. المعنى: التائبون ــ إلى آخر الآية ــ لهم الجنة أيضاً. أي: من لم يجاهد غير معاند ولا قاصد لترك الجهاد، لأنّ بعض المسلمين يُجزي عن بعض في الجهاد، [فمن كانت هذه صفته][1] فله الجنة أيضاً، وهذا أحسن، فكأنه وعدَ الجنَّةَ لجميع المؤمنين، كما قال: «وكلاً وعَدَ اللّهُ الحسنى» (النساء ــ ٩٥)، فمن جعله تابعاً للأول كان الوعد بالجنة خاصاً للمجاهدين الموصوفين بهذه الصفة[2] .

قوله تعالى: ﴿التائبون﴾ أي: الذين تابوا من الشرك وبرؤوا من النفاق، ﴿العابِدُون﴾ المطيعون الذين أخلصوا العبادة لله عزّ وجلّ ﴿الحامِدُون﴾، الذين يحمدون الله على كل حال في السراء والضراء.

وروينا عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «أول من يُدْعىٰ إلى الجنة يومَ القيامة الذين يحمدُون الله في السراء والضراء»[3]. ﴿السّائحُون﴾، قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: هم الصائمون[4] .

وقال سفيان بن عيينة: إنّما سُميَ الصائمُ سائحاً لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح .

وقال عطاء: السائحون الغزاة المجاهدون في سبيل الله. رُوي عن عثمان بن مظعون، رضي الله عنه، أنه قال: يارسول الله ائذن لي في السياحة، فقال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله»[5] .

وقال عكرمة: السائحون هم طلبة العلم.

﴿الرّاكِعُون الساجِدُون﴾، يعني: المصلين، ﴿الآمِرُونَ بالمعرُوف﴾، بالإيمان، ﴿والناهُونَ عن المُنكَرِ﴾ عن الشرك. وقيل: المعروف السنة والمنكر البدعة. ﴿والحافِظُونَ لحدودِ اللّهِ﴾، القائمون بأوامر الله. وقال الحسن: أهل الوفاء ببيعة الله. ﴿وبشّرِ المؤمنين﴾ .

---

(١) ما بين القوسين في «ب» .

(٢) في «ب»: الصفات .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٥٠٢/١ وصححه على شرط مسلم، وأبو نعيم في الحلية: ٦٩/٥، قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الثلاثة، بأسانيد، وفي أحدها: قيس بن الربيع: وثقه شعبة والثوري وغيرهما، وضعفه يحيى القطان وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه، وإسناده حسن» مجمع الزوائد: ٩٥/١٠. وأخرجه المصنف في شرح السنة: ٥٠/٥، وفي سنده حبيب بن أبي ثابت، مدلّس وقد عنعن .

(٤) روي مرفوعاً وموقوفاً. والموقوف صحيح. انظر: الطبري: ٥٠٢/١٤ــ٥٠٤، الدر المنثور: ٢٩٧/٤ــ٢٩٨، تفسير ابن كثير: ٣٩٣/٢ .

(٥) حديث ضعيف رواه الطبراني، وفيه: معلى بن هلال، وهو متروك. والمصنف في شرح السنة: ٣٧٠/٢-٣٧١، ورواه أبو داود في الجهاد من طريق أبي أمامة. وفي إسناده: رشدين بن سعد. وانظر: مجمع الزوائد: ٢٥٤/٤ فقد روى الهيثمي أوله، وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني: ٤٧٩/٣

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾

﴿ما كان للنبي والذينَ آمنُوا أنْ يستغفرُوا للمشركين﴾، اختلفوا في سبب نزول هذه الآية.

قال قوم: سبب نزولها: ما أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب، عن الزُّهري، حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه. قال: لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جاء رسول الله ﷺ، فوجد عنده أبا جهل، وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة. فقال: أيْ عمِّ قلْ: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُ لكَ بها عند الله. فقال أبو جهل، وعبدالله بن أبي أمية: أتَرْغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطلب؟ فلم يزلْ رسولُ الله ﷺ يَعْرِضُها عليه ويُعيدان بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على مِلّةِ عبدالمطلب، وأبى أنْ يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: والله لأستغفرنّ لك ما لم أُنْهَ عنكَ، فأنزل الله تعالى: **﴿ما كانَ للنبيِّ والذينَ آمنُوا أن يستغفرُوا للمشركينَ ولو كانُوا أُولي قُرْبَى مِنْ بعدِ مَا تبيّنَ لهم أنّهم أصحابُ الجَحِيم﴾**، وأنزل في أبي طالب: «إنّكَ لا تهدي من أحبَبْتَ ولكنَّ الله يهدي منْ يشاءُ»[1].

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني ومحمد بن حاتم بن ميمون، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا يزيد بن كيسان، حدثني أبو حازم الأشجعي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله لعمه: «قلْ لا إله إلا الله أشهدُ لكَ بها يوم القيامة» فقال: لولا أن تُعَيِّرني قريشٌ، فيقولون: إنّما حمله على ذلك الجَزَعُ، لأقررتُ بها عَيْنَكَ. فأنزل الله عزّ وجلّ: **﴿إنّكَ لا تهدي من أحببتَ ولكنّ اللّهَ يهدي مَنْ يشاءُ﴾**[2].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل [ثنا عبدالله بن يوسف][3] حدثني الليث حدثني يزيد بن الهاد عن عبدالله بن خباب عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّه سمع النبيَّ ﷺ، وذُكِرَ عنده عمُّه فقال: «لعلّه تنفعُه شفاعتي يومَ القيامة، فيُجْعَلَ في ضَحْضَاحٍ مِنَ النار يبلغُ كعبيه يغلي منه دِماغُه»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله: ٢٢٢/٣، وفي مناقب الأنصار: ١٩٣/٧، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع، برقم (٢٤): ٥٤/١، والمصنف في شرح السنة: ٥٥/٥.

(٢) أخرجه مسلم، في الموضع السابق: ٥٥/١.

(٣) ساقط من «أ» واستدركناه من الصحيح.

(٤) أخرجه البخاري في فضائل الأنصار، باب قصة أبي طالب: ١٩٣/١، وفي الرقاق: ٤١٧/١١، ومسلم في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب... برقم (٢١٠): ١٩٥/١، والمصنف في شرح السنة: ٢٤١/١٥.

وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

وقال أبو هريرة وبريدة: لما قدم رسول الله ﷺ مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت: ﴿**ما كان للنبيِّ والذينَ آمنُوا أنْ يستغفرُوا للمشركين**﴾[1] الآية .

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، حدثنا عبدالغافر بن محمد، حدثنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، أنبأنا محمد بن عبيد، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: زار النبيُّ ﷺ قبرَ أُمّه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنتُ ربي عزّ وجلّ في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذِنَ لي فزوروا القبور، فإنها تُذكرّ الموت»[2] .

قال قتادة قال النبيُّ ﷺ: «لأستغفرنّ لأبي. كما استغفرَ إبراهيم لأبيه» فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿**ما كان للنبيِّ والذينَ آمنُوا أنْ يستغفرُوا للمشركين ولو كانُوا أُولي قُرْبَى منْ بعدِ ما تبيّنَ لهم أنّهم أصحابُ الجحيم**﴾[3] .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لما أنزل الله عزّ وجلّ خبراً عن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه: «سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربّي» سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان، فقلت له: / تستغفر لهما وهما ١٦٥/ ب
مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فأتيت النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له فأنزل الله عزّ وجلّ: «قدْ كانَتْ لكم أُسْوَةٌ حسنةٌ في إبراهيم»، إلى قوله: «إلّا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنّ لك»[4] (الممتحنة ــ ٤).

قوله تعالى: ﴿**وما كانَ استغفارُ إبراهيم لأبيه إلّا عَنْ مَوعِدةٍ وعدَهَا إيّاه**﴾، قال بعضهم: الهاء في إياه عائدة إلى إبراهيم عليه السلام. والوعد كان من أبيه، وذلك أن أباه كان وعده أن يسلم، فقال له إبراهيم سأستغفر لك ربي يعني إذا أسلمتَ .

وقال بعضهم: الهاء راجعة إلى الأب، وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه. وهو قوله: «سأستغفُر لكَ ربّي». يدل عليه قراءة الحسن: «وعدها أباه»، بالباء الموحدة .

---

(١) أخرجه الطبري عن سليمان بن بريدة عن أبيه: ١٤/٥١٢، والإمام أحمد في المسند: ٥/٣٥٩ مطولاً وبغير هذا اللفظ .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، برقم (٩٧٧): ٢/٦٧٢ .

(٣) أخرجه الطبري مطولاً: ١٤/٥١٣ .

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير، سورة التوبة: ٨/٥٠٥، وقال: هذا حديث حسن، وفيه: فنزلت: ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا...﴾ وصححه الحاكم: ٢/٣٣٥، وأخرجه أحمد والنسائي وابن أبي شيبة وأبو يعلي والبزار. انظر: الكافي الشاف ص (٨٢) تحفة الأحوذي: ٨/٥٠٥ .

والدليل على أن الوعد من إبراهيم، وكان الاستغفار في حال شرك الأب، قوله تعالى: «قد كانتْ لكم أُسْوَةٌ حسنةٌ في إبراهيم»، إلى أن قال: «إلّا قولَ إبراهيمَ لأبيه لأستغفرنّ لك» (الممتحنة ــ ٤) فصرَّح أن إبراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار، وإنما استغفر له وهو مشرك لمكان الوعد رجاء أن يسلم .

﴿فلّما تبيّنَ له أنّهُ عدوٌّ للّهِ﴾، لموته على الكفر، ﴿تبرأ منه﴾، وقيل: فلما تبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه [أي: يتبرأ منه](١)، وذلك ما:

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن عبدالله، حدثني أخي عبدالحميد عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المَقْبُري، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيمُ أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرةٌ وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لكَ لا تَعْصِني؟! فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم عليه السلام: يارب إنّك وعدتني أن لا تُخزِيَني يومَ يُبعثون، فأيُّ خزيٍ أخزَى مَنْ أبي الأبْعَدَ؟ فيقول الله تعالى إني حَرَّمْتُ الجنّةَ على الكافرين. ثم يقال يا إبراهيم: ما تحتَ رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذِبح(٢) مُلْتَطِخٍ، فيُؤخذُ بقوائمهِ فيُلقَىٰ في النار»(٣) وفي رواية: يتبرأ منه يومئذ .

قوله تعالى: ﴿إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم﴾، اختلفوا في معنى الأوّاه، جاء في الحديث: «إن الأوّاه الخاشعُ المتضرع»(٤).

وقال عبدالله بن مسعود: الأوّاه الدَّعَّاء .

وعن ابن عباس قال: هو المؤمن التواب.

وقال الحسن وقتادة: الأوّاه الرحيم بعباد الله.

وقال مجاهد: الأوّاه الموقن .

وقال عكرمة: هو المستيقن بلغة الحبشة .

وقال كعب الأحبار: هو الذي يكثر التأوّه، وكان إبراهيم عليه السلام يكثر أن يقول: آهٍ من النار، قبل أن لا ينفع آه .

وقيل: هو الذي يتأوه من الذنوب .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ» .

(٢) هكذا في الأصل. وفي البخاري «بذيخ» وهو كذلك في شرح السنة. والذّيخ: الضّبُع الذكر .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب واتخذ الله إبراهيم خليلاً: ٦/٣٨٦ـ٣٨٧، وفي تفسير سورة الشعراء، والمصنف في شرح السنة: ١٥/١١٨ـ١١٩ .

(٤) أخرجه الطبري: ١٤/٥٣١، ٥٣٢، وعزاه السيوطي أيضاً لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن شداد بن الهاد. وهو تابعي ثقة، فالحديث مرسل، وفي سند الحديث: عبدالحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، وهو ثقة، متكلم في روايته عن شهر. انظر: تعليق محمود شاكر على الطبري: ١٤/٥٣٢ .

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ١١٥﴾

وقال عقبة بن عامر: الأوّاه الكثير الذكر لله تعالى.

وعن سعيد بن جبير قال: الأواه المسبّح. ورُوي عنه: الأوّاه: المعلم للخير.

وقال النخعي: هو الفقيه.

وقال عطاء: هو الراجع عن كل ما يكره الله. وقال أيضاً: هو الخائف من النار.

وقال أبو عبيدة: هو المتأوّه شَفَقاً وفَرَقاً المتضرع يقيناً. يريد أن يكون تضرعه يقيناً ولزوماً للطاعة.

قال الزجاج: قد انتظم في قول أبي عبيدة أكثر ما قيل في الأوّاه.

وأصله: من التأوّهِ وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء، والفعل منه أوّه وتأوّه، والحليم الصفوح عمن سبَّه أو ناله بالمكروه، كما قال لأبيه، عند وعيده، وقوله: «لئنْ لمْ تنتهِ لأرجمنّك واهجرني ملياً سلامٌ عليكَ سأستغفرُ لكَ ربّي» (مريم — ٤٦).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الحليم السيد[١].

قوله تعالى: ﴿وما كانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قوماً بعد إذْ هَداهُمْ﴾ الآية. معناه: ما كان الله ليحكم عليكم بالضلالة بترك الأوامر باستغفاركم للمشركين، ﴿حتّى يبيّن لهم ما يتّقون﴾، يريد حتى يتقدم إليكم بالنهي، فإذا تبيّن ولم تأخذوا به فعند ذلك تَستَحِقّون الضلال.

قال مجاهد[٢]: بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصةً، وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا.

وقال الضحاك: ما كان الله ليعذّبَ قوماً حتى يبيّن لهم ما يأتون وما يذَرُون.

وقال مقاتل والكلبي: هذا في المنسوخ وذلك أن قوماً قدموا على النبي ﷺ فأسلموا، ولم تكن الخمر حراماً، ولا القبلة مصروفة إلى الكعبة، فرجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة، ولا علم لهم بذلك، ثم قدموا بعد ذلك المدينة فوجدوا الخمر قد حُرّمت والقبلة قد صُرفت، فقالوا: يارسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن ضُلّال؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وما كانَ اللّهُ لِيُضلَّ قوماً بعد إذْ هداهم﴾[٣]، يعني: ما كان الله ليبطل عمل قوم قد علموا بالمنسوخ حتى يتبيّن[٤] لهم الناسخ. ﴿إنّ الله بكلّ شيءٍ عليمٌ﴾، ثم عظّم نفسه فقال:

---

(١) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ٥٢٣/١٤ وما بعدها ــ وقد رجح أن الصواب هو ما قاله عبدالله بن مسعود الذي رواه عنه زرٌّ: أنه الدعّاء ــ والدر المنثور: ٣٠٥/٤ــ٣٠٧.

(٢) الطبري: ٥٣٦/١٤ــ٥٣٧.

(٣) انظر: زاد المسير: ٥١٠/٣، البحر المحيط: ١٠٦/٥.

(٤) في «ب» (يبين).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

﴿إنّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ﴾، يَحكم بما يشاء، **﴿يُحي ويُميتُ وما لكم من دُونِ اللّهِ من وليٍّ ولا نصيرٍ﴾** .

قوله عزّ وجلّ : **﴿لقدْ تابَ الله على النبيِّ﴾** الآية، تاب الله أي: تجاوز وصفح. ومعنى توبته على النبي ﷺ بإذنه للمنافقين بالتخلّف عنه. وقيل: افتتح الكلام به لأنه كان سبب توبتهم، فذكره معهم، كقوله تعالى: «فأنّ للّهِ خُمُسَهُ وللرَّسُولِ» (الأنفال ــ ٤١)، ونحوه. **﴿والمهاجرين والأنصار الذينَ اتّبعُوهُ في ساعةِ العُسْرَةِ﴾**، أي: في وقت العسرة، ولم يرد ساعةً بعينها، وكانت غزوة تبوك تُسمى غزوة العسرة، والجيش يسمى جيش العسرة. والعسرة: الشدة، وكانت عليهم غزوة عسرة في الظّهر والزاد والماء .

قال الحسن: كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه، يركب الرجل ساعةً، ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك، وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير، وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلّا التمرات بينهم، فإذا بلغ الجوع من أحدهما أخذ التمرة فلاكَها حتى يجد طعمَها ثم يعطيها صاحبه فيمصها، ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم، ولا يبقى من التمرة إلا النواة، فمضوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك على صِدْقِهم ويقينهم(١) .

وقال عمر بن الخطاب: خرجنا مع النبي ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب فيلتمس الماء فلا يرجع حتى نظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يارسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادْعُ اللّهَ لنا.. قال: «أتحبُّ ذلك؟» قل: نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماءُ فأظلّتْ ثم سَكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت(٢) العسكر(٣). **﴿مِنْ بعدِ مَا كادَ يَزِيغُ﴾** قرأ حمزة وحفص: «يزيغ» بالياء لقوله: «كاد»

---

(١) انظر: البحر المحيط: ١٠٨/٥، المحرر الوجيز: ٦٩/٧ .

(٢) في «ب»: (حادت) .

(٣) أخرجه الطبري: ٥٤١/١٤، وصححه الحاكم على شرط الشيخين: ١٥٩/١، وأبو نعيم في دلائل النبوة ص (١٩٠) باب ذكر ما كان في غزوة تبوك . =

ولم يقل: كادتْ. وقرأ الآخرون بالتاء. والزيغ: الميل، أي: من بعد ما/كاد تميل، ﴿قلوبُ فريقٍ منهم﴾، ١٦٦/أ
أي: قلوب بعضهم، ولم يُردِ الميلَ عن الدين، بل أراد الميل إلى التخلّف والانصراف للشدّة التي عليهم.
قال الكلبي: هَمّ ناسٌ بالتخلّف ثم لحقوه .

﴿ثم تابَ عليهم﴾، فإن قيل: كيف أعاد ذكر التوبة وقد قال في أول الآية: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾؟.

قيل: ذكر التوبة في أول الآية قبل ذكر الذنب، وهو محض الفضل من الله عزّ وجلّ، فلما ذكر الذنب أعاد ذكر التوبة، والمراد منه قبولها.

﴿إنه بهمْ رَؤُفٌ رحيمٌ﴾. قال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبداً .

قوله عزّ وجلّ: ﴿وعلى الثلاثةِ الذينَ خُلِّفوا﴾، أي خُلّفوا عن غزوة تبوك. وقيل: خُلّفوا أي: أُرجىء أمرهم، عن توبة أبي لُبَابة وأصحابه، وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك الشاعر، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، كلهم من الأنصار .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك أن عبدالله بن كعب بن مالك ــ وكان قائد كعب من بنيه حين عَمِيَ ــ قال: سمعتُ كعبَ بن مالك يحدّث حين تخلّف عن [غزوة][1] تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلّفت عن غزوة بدر، ولم يُعاتب أحداً تخلّف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عِيرَ قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أنّ لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرٌ أذْكَرَ في الناس منها، وكان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوةً إلّا وَرّىٰ بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فَجَلَى للمسلمين أمرهم ليتأهّبُوا أُهْبَة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ــ يريد الديوان ــ قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلّا ظنّ أنّ ذلك سيخفىٰ له ما لم ينزل فيه وحي من الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون

= وقال الهيثمي في المجمع: ١٩٤/٦ـ١٩٥: «رواه البزار، والطبراني في الأوسط، ورجال البزار ثقات». وزاد السيوطي نسبته لابن خزيمة، وابن حبان، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، والضياء في المختارة. انظر: الدر المنثور: ٣٠٨/٤ .

(١) في «أ»: (قصة) .

معه، فطفقت أغْدُو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر عليه إذا أردت، فلم يزل يتمادَى بي الأمْرُ حتى اشتد بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أنْ فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوت ثم رجعْتُ ولم أقضِ شيئاً فلم يزل يتمادَى بي حتى أسرعُوا، وتفارط الغزو، وهممتُ أن أرتحل فأُدرِكهم، وليتني فعلتُ، فلم يُقدّرْ لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم أحزنني أني لا أرى لي أسوة إلّا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عَذَرَ الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعبٌ؟» فقال رجلٌ من بني سَلِمَة: يارسول الله حبسه بُرْدَاه ونَظَرُهُ في عِطْفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسَ ما قلتَ، واللّهِ يارسولَ الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكتَ رسولُ الله ﷺ .

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجَّه قَافِلاً حضرني هَمِّي، فطفقتُ أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سَخَطِه غداً؟ واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطلُ، وعرفتُ أني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعتُ صِدْقَهُ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقَبِلَ منهم رسولُ الله ﷺ علانيتَهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووَكَلَ سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمتُ عليه تبسَّم تَبَسُّم المُغْضَبِ، ثم قال: تعالَ، فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلَّفَك ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» فقلت: بلى يارسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جَدَلاً، ولكنّي واللّهِ لقد علمت لئن حدثْتُك اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني ليوشكنّ الله أن يُسْخِطَك عليَّ، ولئن حدثْتُك حديثَ صدقٍ تجدُ علي فيه، إني لأرجو فيه عفوَ اللّهِ، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ أقوَى قطُّ ولا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: أمّا هذا فقد صدق، فَقُمْ حتى يقضيَ الله فيك .

فقمتُ وثارَ رجالٌ من بني سلمة فاتّبعوني فقالوا لي: واللّهِ ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت في أنْ لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلّفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ، فوالله مازالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع وأُكذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما قالوا: مُرارةُ بن الربيع العَمْري، وهلال بن أمية الواقفيّ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلّف عنه، فاجتنبنا

الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أَشَبَّ القوم وأَجْلَدَهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هلْ حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟. ثم أصلي قريباً منه وأُسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمتُ عليه / فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشُدُك بالله هل تعلمني أُحِبُّ اللّهَ ورسولَه؟ فسكتَ، فعدتُ له فنشدتُه فسكتَ، فعدتُ فنشدتُه فقال: اللّهُ ورسولُه أعلم. ففاضت عيناي، وتولّيْتُ حتى تسوَّرْتُ الجدار.

قال:: فبينا أَنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطيٌّ من أنباط الشام ممّن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له نحوي، حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فقرأته فإذا فيه: أما بَعْدُ: فإنه قد بلغني أنّ صاحبَك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بنا نُواسِكَ، فقلتُ لما قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت به التنور فسجرته .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولٌ لرسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلتُ: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا بل اعتزلها ولاتقربها، وارسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي إلحقي بأهلك وكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

قال كعب: فجاءت امرأةُ هلال بن أمية رسولَ الله ﷺ فقالت: يارسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك»، قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال كعب: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول لي رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، فلبثتُ بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقتْ عليّ نفسي وضاقتْ عليّ الأرضُ بمَا رَحُبَتْ سمعتُ صوتَ صارخٍ أوْفَى على جبلِ سَلْعٍ، يقول بأعلى صوته: ياكعبَ بنَ مالكٍ أبشرْ. فخررتُ لله ساجداً وعرفتُ أنه قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحِبَيَّ مبشّرون، وركض رجل إليّ فرساً وسعى ساع من أسلم، فأوْفَى على الجبل فكان الصوتُ أسرعَ من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشّرني نزعتُ له ثوبيَّ فكسوته إيَّاهما

ببشراه، ووالله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يُهنئونني بالتوبة ويقولون: لِيَهنِكَ توبةُ اللّهِ عليك قال كعب: حتى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يُهَرْوِلُ حتى صافحني وهنّأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة .

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور: «أَبْشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليكَ منذُ ولدتْك أمك»! قال قلت: أَمِنْ عندِكَ يارسولَ الله أَمْ مِنْ عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهُهُ حتى كأنه قطعة قمر، وكنّا نعرف ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه قلت: [يارسول الله][(1)] إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: أمسِكْ عليكَ بعضَ مالِك فهو خيرٌ لك، قلت: فإني أُمسك سهمي الذي بخيبر .

فقلت: يارسول الله إنّما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتي ألّا أحدث إلّا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، ما تعمدت منذُ ذَكَرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله: ﴿**لقد تابَ اللّهُ على النبيِّ والمهاجرينَ والأنصار**﴾، إلى قوله: ﴿**وكونُوا معَ الصادقين**﴾[(2)] .

وروى إسحاق بن راشد عن الزهري بهذا الإسناد عن كعب، قال: نهى رسول الله ﷺ عن كلامي وكلام صاحبَيَّ، فلبثتُ كذلك حتى طال عليّ الأمر، وما من شيء أهم إليّ من أن أموت ولا يُصلي عليّ رسول الله ﷺ، أو يموت رسولُ الله ﷺ فأكونَ من الناس بتلك المنزلة، فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي عليّ! وأنزل الله توبتنا على نبيه ﷺ حين بقى الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة وكانت أم سلمة محسنة في شأني، معينة في أمري، فقال رسول الله ﷺ: «يا أُمَّ سلمة تِيبَ على كعب»، قالت: أفلا أرسل إليه فأبشره؟ قال: إذًا يحطمكم الناس، فيمنعونكم النوم سائر الليلة، حتى إذا صلّىٰ ﷺ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا[(3)] .

---

(١) ساقطة من « أ » والمثبت من «ب» وصحيح البخاري .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك...: ٨/١١٣-١١٦، ومسلم في التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، برقم (٢٧٦٩): ٤/٢١٢٠-٢١٢٨ .

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/٥٣٤-٥٣٥ .

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿**وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقتْ عليهمُ الأرضُ بِمَا رَحُبَتْ**﴾، اتسعت، ﴿**وضاقتْ عليهم أنفُسُهم**﴾، غماً وهماً، ﴿**وظنّوا**﴾، أي: تيقنوا، ﴿**أنْ لا ملجأ مِنَ الله**﴾، لا مفزع من الله، ﴿**إلّا إليهِ ثمَّ تابَ عليهم لِيَتوبُوا**﴾، أي: ليستقيموا على التوبة فإن توبتهم قد سبقت. ﴿**إنّ الله هو التوابُ الرحيم**﴾ .

﴿**يا أيّها الذينَ آمنوا اتّقُوا الله وكونُوا معَ الصّادِقين**﴾، قال نافع: مع محمد وأصحابه. وقال سعيد ابن جبير: مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال ابن جريج: مع المهاجرين، لقوله تعالى: «للفقراءِ المهاجرين» إلى قوله «أولئك هُمُ الصادقون» (الحشر ــ ٨). وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك بإخلاص نية. وقيل: مع الذين صدقوا في الإعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة

وكان ابن مسعود يقرأ: ﴿**وكونُوا مع الصادقين**﴾ وقال ابن مسعود: إن الكذب لا يصلح في جِدٍّ ولا هزل، ولا أن يعد أحدكم صبيَّه شيئاً ثم لا ينجز له، اقرؤا إن شئتم وقرأ هذه الآية .

قوله تعالى: ﴿**ما كانَ لأهلِ المدينةِ**﴾ ظاهره خَبَرٌ، ومعناه نهي، كقوله تعالى: «وما كانَ لكم أنْ تُؤذُوا / رسول الله» (الأحزاب ــ ٥٣) ﴿**ومَنْ حولَهم مّنَ الأعراب**﴾، سكان البوادي: مُزينة، وجُهينة، وأشجع، وأسلم، وغِفار. ﴿**أنْ يتخلّفُوا عنْ رسول الله**﴾، إذا غزا. ﴿**ولا يَرْغَبُوا**﴾، أي: ولا أن يرغبُوا، ﴿**بأنفسهم عن نفسِهِ**﴾، في مصاحبته ومعاونته والجهاد معه. قال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم ١٦٧/أ

﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

من الشدائد فيختاروا الخفض والدَّعة، ورسول الله ﷺ في مشقة السفر ومقاساة التعب. **﴿ذلك بأنهم لا يُصيبهم﴾**، في سفرهم، **﴿ظمأ﴾**، عطش، **﴿ولا نصبٌ﴾**، تعب، **﴿ولا مَخمصةٌ﴾**، مجاعة، **﴿في سبيل اللهِ ولا يطئون مَوْطِئاً﴾**، أرضاً، **﴿يَغيظُ الكُفّار﴾**، وطؤهم إياه **﴿ولا ينالُون من عدوٍّ نيلاً﴾**، أي: لا يصيبون من عدوهم قتلاً أو أسراً أو غنيمةً أو هزيمةً، **﴿إلّا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ إنّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنين﴾** .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا يزيد بن أبي مريم، حدثنا عباية بن رفاعة قال: أدركني أبو عبس وأنا ذاهب إلى الجمعة فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ اغبرَّتْ قدماه في سبيل اللهِ حرّمهما اللهُ على النار»[١] .

واختلفوا في حكم هذه الآية، قال قتادة: هذه خاصة لرسول الله ﷺ، إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلّف عنه إلّا بعذر، فأمّا غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المسلمين أن يتخلّف عنه إذا لم يكن بالمسلمين إليه ضرورة[٢] .

وقال الوليد بن مسلم: سمعتُ الأوزاعي، وابنَ المبارك، وابنَ جابر، وعمر[٣] بن عبدالعزيز يقولون في هذه الآية: إنها لأوّلِ هذه الأمة وآخرها[٤].

وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً، فلما كثروا نسخها الله تعالى وأباح التخلّف لمن يشاء، فقال: **﴿وما كان المؤمنون لِيَنفِرُوا كافّة﴾**[٥] .

قوله تعالى: **﴿ولا يُنفِقُون نفقةً﴾**، أي: في سبيل الله، **﴿صغيرةً ولا كبيرةً﴾**، ولو عِلَاقَةَ[٦] سوط، **﴿ولا يقطعُون وادياً﴾**، لا يجاوزون وادياً في مسيرهم مقبلين أو مدبرين. **﴿إلّا كُتِبَ لهم﴾**، يعني: آثارهم وخطاهم، **﴿ليجزيَهمُ اللهُ أحسنَ ما كانُوا يعملون﴾**. رُوي عن خُرَيْم بن فاتِكٍ قال: قال رسول

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، باب المشي إلى الجمعة...: ٢/٣٩٠، والمصنف في شرح السنة: ١٠/٣٥٣ .

(٢) انظر: الطبري: ١٤/٥٦٢، المحرر الوجيز: ٧/٧٦، البحر المحيط: ٥/١١٢ .

(٣) في الطبري: «سعيد بن عبدالعزيز» .

(٤) الطبري: ١٤/٥٦٣، والمراجع السابقة .

(٥) المراجع السابقة. وقد ردَّ الطبري رحمه الله دعوى النسخ. انظر: التفسير: ١٤/٥٦٣-٥٦٤ .

(٦) العِلاقة: ما يعلق به السيف ونحوه .

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٢٢)

الله ﷺ: «من أنفق نفقةً في سبيل الله كُتِبَ له سبعُمائةِ ضِعْفٍ»(١).

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أخبرنا عبدالغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي، أخبرنا جرير، عن الأعمش، عن أبي عمرو الشيباني، عن أبي مسعود الأنصاري قال: جاء رجلٌ بناقةٍ مخطومة فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعُمائةِ ناقة كلها مخطومة»(٢).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا أبو معمر، حدثنا عبدالوارث، حدثنا الحسين [حدثني يحيى بن أبي كثير](٣) حدثني أبو سلمة، حدثني بُسْر بن سعيد، حدثني زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جهز غازياً في سبيل الله فقدْ غزا، ومن خَلَفَ غازياً في سبيل الله بخيرٍ فقدْ غزا»(٤).

قوله عزّ وجلّ: ﴿وما كانَ المؤمنونَ لِينفِرُوا كافةً﴾ الآية. قال ابن عباس في رواية الكلبي: لما أنزل الله عزّ وجلّ عيوب المنافقين في غزوة تبوك كان النبي ﷺ يبعث السرايا فكان المسلمون ينفرون جميعاً إلى الغزو ويتركون النبي ﷺ وحده، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية(٥). وهذا نفي بمعنى النهي.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كلِّ فِرْقَةٍ منهم طائفةٌ﴾، أي: فهلّا خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعةٌ [ويبقى مع رسول الله ﷺ جماعةٌ](٦) ﴿لِيتفقّهُوا في الدِّين﴾، يعني الفرقة القاعدين، يتعلمون القرآن والسُّنَنَ والفرائضَ والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أُنزل بعدهم، فتمكث السرايا يتعلمون ما نزل بعدهم، وتبعث سرايا أخر، فذلك قوله: ﴿ولِيُنذِروا قومَهم﴾، وليعلموهم بالقرآن ويخوفوهم به، ﴿إذا رَجَعُوا إليهم لعلّهم يَحذرُون﴾ لا يعملون بخلافه.

وقال الحسن: هذا التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة، ومعناه: هلّا نفرَ فرقةٌ ليتفقهوا، أي: ليتبصروا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين، ولينذروا قومَهم من الكفار إذا رجعوا إليهم

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل النفقة في سبيل الله: ٢٥٤/٥ وقال هذا حديث حسن، والنسائي في الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله: ٤٩/٦، وصححه ابن حبان (٣٩٦) من الموارد والحاكم: ٨٧٢/٢، وقال الألباني في تعليقه على المشكاة: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله، برقم (١٨٩٢): ١٥٠٥/٣، والمصنف في شرح السنة: ٣٥٩/١٠.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٤) رواه البخاري في الجهاد. باب: فضل من جهز غازيا أو خلفه بخير: ٤٩/٦، ومسلم في الإمارة: باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله... من طريق بكير بن الأشج عن بسر بن سعيد عن زيد بن خالد الجهني برقم (١٨٩٥): ١٥٠٧/٣ والمصنف في شرح السنة ٣٥٩/١٠.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص (٣٠٤).

(٦) ساقط من «أ».

من الجهاد فيخبروهم بنصر الله رسولَه ﷺ والمؤمنين لعلّهم يحذرون أن يُعادُوا النبيَّ ﷺ، فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار(١) .

وقال الكلبي: لها وجه آخر وهو أن أحياء من بني أسد من خزيمة أصابتهم سنة شديدة فأقبلوا بالذراري حتى نزلوا المدينة فأفسدُوا طُرقها بالعذرات وأَغْلَوا أسعارها فنزل قوله: ﴿**وما كان المؤمنون لينفِرُوا كافةً فلولا نفرَ من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ**﴾(٢)، أي: لم يكن لهم أن ينفروا كافة ولكن من كل قبيلة طائفة ليتفقهوا في الدين .

وقال مجاهد: نزلت في ناس خرجوا في البوادي ابتغاء الخير من أهلها فأصابوا منهم معروفاً، ودَعَوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم ما نراكم إلّا وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً، وأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، أي: هلّا نَفَر من كل فرقة طائفةٌ ليتفقهوا في الدين ويستمعوا ما أُنزل بعدهم ولينذروا قومهم، يعني: الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الله، لعلّهم يحذرون بأس الله ونقمته، وقعدت طائفة يبتغون الخير(٣) .

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخرقي، أنبأنا أبو الحسن الطيسفوني، حدثنا عبدالله بن عمر الجوهري، حدثنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن جعفر، حدثنا عبدالله بن أبي سعيد بن أبي هند عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللّهُ به خيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين»(٤) .

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، حدثنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعيّ، أنبأنا سفيان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تجدون الناسَ معادنَ كمعادنِ الذهبِ والفضةِ، فخيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا»(٥) .

والفقه: هو معرفة أحكام الدين، وهو ينقسم إلى فرض عين وفرض كفاية، ففرض العين مثل: علم الطهارة، والصلاة، والصوم، فعلى كل مكلف معرفته، قال النبي ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ

(١) وهذا المعنى الذي رجحه الإمام الطبري ووجهه توجيهاً سديداً: التفسير: ١٤/٥٧٣-٥٧٤ .

(٢) انظر: الطبري: ١٤/٥٦٩، الدر المنثور: ٤/٣٢٣ .

(٣) الطبري: ١٤/٥٦٦ .

(٤) أخرجه البخاري في العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين: ١/١٦٤، وفي المناقب، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة برقم (١٠٣٧): ٢/٧١٨، والمصنف في شرح السنة: ١/٢٨٥ .

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» ٦/٥٢٥-٥٢٦، ومسلم في فضائل الصحابة، باب خيار الناس، برقم (٢٥٢٦): ٤/١٩٥٨، والمصنف في شرح السنة: ١/٢٨٦ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾

مسلم»(1). وكذلك كل عبادة أوجبها الشرع على كل واحد، يجب عليه معرفة علمها، مثل: علم الزكاة إن كان له مال، وعلم الحج إن وجب عليه.

١٦٧/ ب وأما فرض الكفاية فهو: أن يتعلم حتى يبلغ درجة / الاجتهاد ورتبة الفتيا، فإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعاً، وإذا قام من كل بلد واحد فتعلَّمه سقط الفرض عن الآخرين، وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث، روى أبو أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلُ العَالِمِ على العابد كفضلي على أدناكم»(2).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد»(3).

قال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

قوله عزّ وجلّ: ﴿يا أيها الذينَ آمنُوا قَاتِلُوا الذينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الكُفّار﴾ الآية، أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب، قال ابن عباس رضي الله عنهما مثل بني قريظة والنضير وخيبر ونحوها.

---

(1) في «ب»: (ومسلمة). والحديث رواه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، برقم (٢٢٤): ٨١/١. قال في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف حفص بن سلمان. وعزاه في كنز العمال: ١٣٠/١٠-١٣١ لابن عدي والبيهقي والطبراني والخطيب.
وقد روي الحديث من طرق كثيرة عن عدد من الصحابة، وكل طريق منها لايخلو من ضعف، ولكنها لكثرتها تقوي الحديث، لذلك حسنه المزي وابن القطان، وصححه السيوطي لغيره، وذكره في الأحاديث المتواترة.
وقال في المقاصد الحسنة: قد ألحق بعض المصنفين بهذا الحديث: «ومسلمة» وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحاً.
انظر: تمييز الطيب من الخبيث لابن الديبع: ص (١١٦)، كشف الخفاء: ٥٦/٢-٥٧، نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني ص (٣٥-٣٧).

(2) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: ٤٥٦/٧-٤٥٧، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. والدارمي عن مكحول مرسلاً بسند حسن في المقدمة، باب من قال: العلم الخشية وتقوى الله: ٨٨/١، وأخرجه أيضاً عن الحسن مرفوعاً في باب فضل العلم والعالم: ٩٧/١-٩٨. والمصنف في شرح السنة: ٢٧٨/١، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم: ٤٦/١.
وانظر: تعليق الألباني على المشكاة: ٧٤/١-٧٥.

(3) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة: ٤٥٠/٧ وقال: هذا حديث غريب، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم برقم (٢٢٢): ٨١/١. وفيه رَوْح بن جناح، وهو ضعيف جداً، متهم بالوضع.
وأخرجه ابن عبدالبر عن ابن عباس، وعن أبي هريرة أيضاً في جامع بيان العلم: ٥٢/١-٥٣. وفيه: يزيد بن عياض، وهو كذاب.
انظر: تعليق الألباني على المشكاة: ٧٥/١، وشرح السنة: ٢٧٨/١.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ
يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾

وقيل: أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام [وكان الشام][1] أقرب إلى المدينة من العراق، ﴿وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً﴾، شِدّةً وحمية. قال الحسن: صبراً على جهادهم، ﴿واعْلَمُوا أنّ اللّهَ معَ المتّقين﴾، بالعون والنصرة .

قوله تعالى: ﴿وإذا ما أُنزِلَتْ سورةٌ فمنهُمْ مَّنَ يقولُ أيكم زادتْهُ هذهِ إيماناً﴾، يقيناً. كان المنافقون يقولون هذا استهزاء، قال الله تعالى: ﴿فأمّا الذينَ آمنوا فزادتْهم إيماناً﴾ يقيناً وتصديقاً، ﴿وهم يستبشِرُون﴾، يفرحون بنزول القرآن .

﴿وأما الذين في قلوبهم مرضٌ﴾، شكٌّ ونفاق، ﴿فزادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ﴾، أي: كفراً إلى كفرهم، فعند نزول كل سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها.

قال مجاهد: هذه الآية إشارة إلى الإيمان: يزيد وينقص .

وكان عمر: يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول تعالوا حتى نزداد إيماناً .

وقال علي بن أبي طالب: إن الإيمان يبدو لُمْظَة[2] بيضاء في القلب، فكلّما ازْدَادَ الإيمان عِظَماً ازداد ذلك البياضُ حتى يَبْيَضَّ القلبُ كله، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب فكلما ازدادَ النفاقُ ازدادَ ذلك السوادُ حتى يسودَّ القلبُ كله، وأَيْمُ الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود[3] .

قوله: ﴿وماتُوا وهُمْ كافرون﴾ .

قوله: ﴿أوَ لا يرَوْنَ﴾، قرأ حمزة ويعقوب: «ترون» بالتاء على خطاب المؤمنين، وقرأ الآخرون بالياء، خبرٌ عن المنافقين المذكورين. ﴿أنهم يُفتَنُونَ﴾ يُبتلون ﴿في كلّ عامٍ مرّةً أو مرتين﴾، بالأمراض

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) في النهاية لابن الأثير: يبدأ لمظة. واللُّمْظَةُ: ـ بالضم ـ: مثل النكتة، من البياض .

(٣) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث: ٣/٤٦٠، وابن المبارك في الزهد، وخشيش في الاستقامة، والبيهقي، واللالكائي في السنة، والأصبهاني في المحجة .
انظر: كنز العمال: ١/٤٠٦-٤٠٧ .

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ﴾

والشدائد. وقال مجاهد: بالقحط والشدة. وقال قتادة: بالغزو والجهاد. وقال مقاتل بن حيان: يفضحون بإظهار نفاقهم. وقال عكرمة: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون. وقال يمان: ينقضون عهدهم في السنة مرّةً أو مرتين. ﴿ثم لا يتوبون﴾، من نقض العهد ولا يرجعون إلى الله من النفاق، ﴿ولا هم يذكّرون﴾، أي: لا يتعظون بما يرون من تصديق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين.

﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾، فيها عيب المنافقين وتوبيخهم، ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾، يريدون الهرب يقول بعضهم لبعض إشارة، ﴿هل يراكم من أحد﴾، أي: أحد من المؤمنين، إن قمتم، فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد، وإن علموا أن أحداً يراهم أقاموا وثبتوا، ﴿ثم انصرفوا﴾، عن الإيمان بها. وقيل: انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها، ﴿صرف الله قلوبهم﴾، عن الإيمان. قال أبو إسحاق الزجاج: أضلّهمُ اللّهُ مجازاةً على فعلهم ذلك، ﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾، عن الله دينه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا إذا صليتم انصرفنا من الصلاة فإنّ قوماً انصرفُوا فصرفَ اللّهُ قلوبَهم، ولكنْ قُولُوا قد قضينا الصلاة»(١).

قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ تعرفون نسبه وحسبه، قال السدي: من العرب، من بني إسماعيل. قال ابن عباس: ليس من العرب قبيل إلّا وقد ولدت النبي ﷺ، وله فيهم نسب.

وقال جعفر بن محمد الصادق: لم يصبه شيء من ولاد الجاهلية من زمان آدم عليه السلام.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا عبدالله بن حامد، حدثنا حامد بن محمد، أخبرنا علي بن عبدالعزيز، حدثنا محمد بن أبي نعيم، حدثنا هشيم، حدثني المدني ـــ يعني: أبا معشر ـــ عن أبي الحويرث، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ولَدَني من سفاح أهل الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاحٌ كنكاح الإسلام»(٢).

وقرأ ابن عباس والزهري وابن محيصن «من أَنْفَسكم» بفتح الفاء، أي: من أشرفكم وأفضلكم. ﴿عزيز عليه﴾، شديد عليه، ﴿ما عنتم﴾، قيل «ما» صلة أي: عنتكم، وهو دخول المشقة والمضرة

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ١٤/٥٨٣، وصححه الحاكم: ٢/٣٣٨، ووافقه الذهبي.

(٢) قال الهيثمي في المجمع ٨/٢١٤: «رواه الطبراني عن المديني عن أبي الحويرث، ولم أعرف المديني ولا شيخه، وبقية رجاله وثّقوا». وعزاه في كنز العمال ١١/٤٣٠ أيضاً للبيهقي وابن عساكر.

﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾

عليكم. وقال القتيبي: ما أعنتكم وضركّم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ضللتم.
وقال الضحاك والكلبي: ما أثمتم.

﴿**حريصٌ عليكم**﴾، أي: على إيمانِكم وصلاحِكم. وقال قتادة: حريص عليكم أي: على ضالّكم أن يهديه الله، ﴿**بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ**﴾، قيل: رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين، ﴿**فإن تولَّوْا**﴾، إن أعرضوا عن الإيمان وناصبوك الحرب ﴿**فقلْ حسبيَ اللّهُ لا إله إلّا هُوَ عليهِ توكلْتُ وهو ربُّ العرشِ العظيمِ**﴾.

روي عن أبي بن كعب قال: آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان ﴿**لقدْ جاءَكم رسولٌ من أنفسِكم**﴾ إلى آخر السورة. وقال: هما أحدث الآيات بالله عهداً[1].

(١) أخرجه الحاكم: ٣٣٨/٢، والإمام عبدالله بن أحمد في زوائد المسند: ١١٧/٥، وعزاه ابن حجر في المطالب العالية: ٣٣٧/٣ لإسحاق بن راهوية، كلهم دون قوله: «هما أحدث الآيات...».
وقال الهيثمي في المجمع: ٣٦/٧: «رواه عبدالله بن أحمد، والطبراني، وفيه علي بن زيد بن جدعان، وهو ثقة سيء الحفظ، وبقية رجاله ثقات».

سُورَةُ يُونُسَ

سُورَةُ يُونُسَ

سورة يونس عليه الصلاة والسلام مكيّة إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿**فإنْ كنتَ في شكٍّ ممّا أنزلنا إليك**﴾ إلى آخرها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿**الر**﴾ و«المر» قرأ أهل الحجاز والشام وحفص: بفتح الراء فيهما. وقرأ الآخرون: بالإمالة .

قال ابن عباس والضحاك: «الر» أنا الله أرى، و«المر» أنا الله أعلم وأرى .

وقال سعيد بن جبير «الر» و«حم» و«ن» حروف اسم الرحمن، وقد سبق الكلام في حروف التهجي[(١)] .

﴿**تِلْكَ آياتُ الكتابِ الحكيم**﴾، أي: هذه، وأراد بالكتاب الحكيم القرآن. وقيل: أراد بها الآيات التي أنزلها من قبل ذلك، ولذلك قال: «تلك»، وتلك إشارة إلى غائب مؤنث، والحكيم: المحكم بالحلال والحرام، والحدود والأحكام، فعيل بمعنى مُفْعَل، بدليل قوله: «كتابٌ أُحكمتْ آياتُه» (هود ــ ١).

وقيل: هو بمعنى الحاكم، فعيل بمعنى فاعل، دليله قوله عزّ وجلّ: «وأنزل معهم الكتابَ بالحق ليحكم بين الناس» (البقرة ــ ٢١٣) .

وقيل: هو بمعنى المحكوم، فعيل بمعنى المفعول. قال الحسن: حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وبالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه .

---

(١) راجع فيما سبق: ١/٥٨-٥٩ . وانظر هذه الأقوال كلها في: الطبري: ١/٢٠٥-٢٢٤ .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ
رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿أكانَ للناسِ عجباً﴾، العَجَبُ: حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة .

١٦٨/ أ وسبب نزول الآية: / أن الله عزّ وجلّ لما بعث محمداً ﷺ رسولاً، قال المشركون: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. فقال تعالى: ﴿أكانَ للناسِ﴾[١] يعني: أهل مكة، الألِفُ فيه للتوبيخ، ﴿عجباً أنْ أوْحَيْنا إلى رجل منهم﴾، يعني محمداً ﷺ، ﴿أن أنذرِ الناسَ﴾، أي: أعلِمْهم مع التخويف، ﴿وبشرِ الذين آمنوا أنّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربِّهم﴾، واختلفوا فيه: قال ابن عباس: أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم. قال الضحاك: ثواب صدق. وقال الحسن: عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه. وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هو السعادة في الذكر الأول. وقال زيد بن أسلم: هو شفاعة الرسول ﷺ. وقال عطاء: مقام صدق لا زوال له، ولابؤس فيه. وقيل: منزلة رفيعة[٢] .

وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته، كقولهم مسجد الجامع، وحب الحصيد، وقال أبو عبيدة: كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم، يقال: لفلان قدم في الإسلام، وله عندي قدم صدق وقدم سوء، وهو يؤنث فيقال: قدم حسنة، وقدم صالحة. ﴿قال الكافِرون إنّ هذا لَساحِرٌ مُّبين﴾. قرأ نافع وأهل البصرة والشام: «لسحر» بغير ألف يعنون القرآن، وقرأ ابن كثير وأهل الكوفة: «لساحر» بالألف يعنون محمداً ﷺ .

قوله عزّ وجلّ: ﴿إنّ ربَّكمُ اللَّهُ الذي خَلقَ السماوات والأرض في ستةِ أيّامٍ ثُمَّ استوَى على العرشِ يُدبِّرُ الأمْرَ﴾، يقضيه وحده، ﴿مَا مِن شفيعٍ إلّا مِنْ بعدِ إذْنِهِ﴾، معناه: أن الشفعاء لا يشفعون

---

(١) أخرجه الطبري عن ابن عباس: ١٣/١٥، وانظر: أسباب النزول ص (٣٠٥)، الدر المنثور: ٣٤٠/٤ وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه مطولاً .

(٢) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ١٣/١٥ ـ ١٦ وقال: «وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قولُ من قال: معناه: أن لهم أعمالاً صالحة عند الله يستوجبون بها منه الثواب» ثم ساق على ذلك شواهد من الشعر .

إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ
أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا
وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ
يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥﴾

إلا بإذنه، وهذا رَدّ على النَّضْر بن الحارث فإنه كان يقول: إذا كان يوم القيامة تشفعني اللات والعزى.

قوله تعالى: ﴿**ذلِكُم اللّهُ ربُّكم**﴾، يعني: الذي فعل هذه الأشياء ربكم لا ربّ لكم غيره، ﴿**فاعْبُدوه أفلاَ تَذَكَّرُون**﴾، تتعظون .

﴿**إليهِ مَرْجِعُكم جميعاً وَعْدَ اللّهِ حقّاً**﴾، صدقاً لا خلف فيه. نصب على المصدر، أي: وعدكم وعداً حقاً ﴿**إنّه يبدأ الخلقَ ثم يعيده**﴾، أي: يُحييهم ابتداء ثم يُميتهم ثم يُحييهم، قراءة العامة: ﴿**إنه**﴾بكسر الألف على الاستئناف، وقرأ أبو جعفر «أنه» بالفتح على معنى بأنه ﴿**لِيَجزي الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصَّالِحَاتِ بالقِسْطِ**﴾، بالعدل، ﴿**والذينَ كفرُوا لهُمْ شرابٌ من حَمِيمٍ**﴾، ماءٌ حارٌّ انتهى حرُّه، ﴿**وعذابٌ أليم بما كانُوا يكفرون**﴾ .

﴿**هو الذي جعلَ الشمسَ ضياءً**﴾، بالنهار، ﴿**والقمرَ نُوراً**﴾ بالليل. وقيل: جعل الشمس ذات ضياء، والقمرَ ذَا نُور، ﴿**وقدّرَه منازِلَ**﴾أي: قدَّر له، يعني: هيأ له منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، ولم يقل: قَدَّرهما.

قيل: تقدير المنازل ينصرف إليهما غير أنه اكتفى بذكر أحدهما، كما قال: «واللّهُ ورسولُهُ أحقُّ أن يُرضوه» (التوبة ــ ٦٢) .

وقيل: هو ينصرف إلى القمر خاصة لأن القمر يُعرف به انقضاء الشهور والسنين، لا بالشمس .

ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً، وأسماؤها: الشرطين، والبطين، والثرياء، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنسر، والطوف، والجبهة، والزبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعايم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرع الدلو المقدم، وفرع الدلو المؤخر، وبطن الحوت .

وهذه المنازل مقسومة على البروج، وهي اثنا عشر برجاً: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت .

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَتَّقُونَ ۝٦ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝٧ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
۝٨ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾

ولكل برج منزلان وثلث منزل، فينزل القمر كل ليلة منزلاً منها، ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين، وإن كان تسعاً وعشرين فليلة واحدة، فيكون تلك المنازل ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوماً، فيكون انقضاء السنة مع انقضائها .

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾، أي: قدَّر المنازل «لتعلموا عددَ السنينَ» دخولها وانقضاءها، ﴿والحِسَابَ﴾، يعني: حساب الشهور والأيام والساعات. ﴿ما خَلَقَ اللَّهُ ذلكَ﴾ ردّه إلى الخلق والتقدير، ولو ردَّه الأعيان المذكورة لقال: تلك. ﴿إلاَّ بالحقِّ﴾، أي: لم يخلقه باطلاً بل إظهاراً لصنعه ودلالةً على قدرته. ﴿يُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمُونَ﴾، قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص ويعقوب: «يفصل» بالياء، لقوله: «ما خلق» وقرأ الباقون: «نفصل» بالنون على التعظيم .

﴿إنّ في اختِلافِ اللّيلِ والنّهارِ وما خلَقَ اللّهُ في السّمواتِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يتّقونَ﴾ يؤمنون .

﴿إنّ الذين لا يرجون لقاءَنا﴾، أي: لا يخافون عقابنا ولا يرجون ثوابنا. والرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، ﴿ورَضُوا بالحياةِ الدنيا﴾، فاختاروها وعملوا لها، ﴿واطمأنُّوا بِها﴾: سكنوا إليها. ﴿والذينَ هُمْ عن آياتِنا غافِلُونَ﴾، أي: عن أدلتنا غافلون لا يعتبرون. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عن آياتنا عن محمدٍ ﷺ والقرآنِ غافلون معرضون .

﴿أولئكَ مأوَاهُمُ النارُ بما كانُوا يكْسِبُونَ﴾، من الكفر والتكذيب .

قوله تعالى: ﴿إنّ الذينَ آمنُوا وعمِلُوا الصّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ ربُّهم بإيمانهم﴾، فيه إضمار، أي: يرشدهم ربهم بإيمانهم إلى جنة، ﴿تجري من تحتِهمُ الأنهارُ﴾. قال مجاهد: يهديهم على الصراط إلى الجنة، يجعل لهم نوراً يمشون به .

وقيل: «يهديهم» معناه يثيبهم ويجزيهم .

وقيل: معناه بإيمانهم يهديهم ربهم لدينه، أي: بتصديقهم هداهم «تجري من تحتهم الأنهار» أي: بين

دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

أيديهم، كقوله عزّ وجلّ: «قدْ جعلَ ربُّكِ تحتكِ سرياً» (مريم ـــ ٢٤) لم يُرِدْ به أنه تحتها وهي قاعدة عليه، بل أراد بين يديها.

وقيل: تجري من تحتهم أي: بأمرهم، ﴿في جنّاتِ النعيم﴾ .

﴿دعْوَاهم﴾، أي: قولهم وكلامهم. وقيل: دعاؤهم. ﴿فيها سُبْحَانَكَ اللّهمّ﴾، وهي كلمة تنزيه، تنزه الله من كل سوء. وروينا: «أن أهل الجنةِ يلهمون الحمدَ والتسبيح، كما يُلهمون النَّفَسَ»[1] .

قال أهل التفسير: هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا أرادوا الطعام قالوا: سُبْحَانَكَ اللّهمّ، فأتوهم في الوقت بما يشتهون على الموائد، كل مائدة مِيلٌ في مِيل، على كل مائدة سبعون ألف صَحْفَة، وفي كل صَحْفة لون من الطعام لا يشبه بعضُها بعضاً، فإذا فرغوا من الطعام حمدوا الله، فذلك، قولُه تعالى: / ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُم أنِ الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين﴾[2] . ١٦٨/ ب

قوله تعالى: ﴿وتحيتُهم فيها سَلَامٌ﴾ أي: يحيّ بعضهم بعضاً بالسلام. وقيل: تحية الملائكة لهم بالسلام .

وقيل: تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام .

﴿وآخِرُ دَعْوَاهم أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾، يريد: يفتتحون كلامهم بالتسبيح، ويختمونه بالتحميد .

قوله عزّ وجلّ: ﴿ولو يعجلُ اللّهُ للناسِ الشرَّ استعجالَهم بالخير﴾، قال ابن عباس: هذا في قول الرجل عند الغضب لأهله وولده: لعنكم الله، ولا بارك الله فيكم. قال قتادة: هو دعاء الرجل على نفسه وأهله وماله بما يكره أن يستجاب. معناه: لو يعجل الله الناس إجابة دعائهم في الشر والمكروه استعجالهم

---

(١) عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفِلُون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جُشَاءٌ ورَشْحٌ كرشح المسك. يُلْهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النَّفَس».
رواه مسلم، في الجنة وصفة نعيمها، باب في صفات الجنة وأهلها.. (٢٨٣٥): ٢١٨٠/٤-٢١٨١ .

(٢) ساق السيوطي عدة روايات في ذلك. الدر المنثور: ٣٤٥/٤-٣٤٦ .

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ
كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟
لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

بالخير، أي: كما يحبون استعجالهم بالخير، ﴿لَقُضِيَ إليهم أجلُهم﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب: «لقَضَى» بفتح القاف والضاد، ﴿أجلَهم﴾ نصب، أي: لأهلك من دعا عليه وأماته. وقال الآخرون: «لقُضي» بضم القاف وكسر الضاد «أجلُهم» رفع، أي: لفرغ من هلاكهم ومَاتوا جميعاً.

وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث حين قال: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء»[(١)] الآية (الأنفال ــ ٣٢) يدل عليه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَنذرُ الذينَ لا يرجونَ لقاءَنا﴾، لا يخافون البعث والحساب، ﴿في طُغْيانِهم يعمَهُونَ﴾.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبدالله بن بشران، حدثنا أبو علي إسماعيل بن محمد الصفار، أنبأنا أحمد بن منصور الزيادي، حدثنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، عن همام بن منبِّه، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني اتخذتُ عندك عهداً لن تُخْلِفَنِيْه، فإنما أنا بشر فيصدر مني ما يصدر من البشر، فأيّ المؤمنين آذيتُه، أو شتمته، أو جلدتُه، أو لعنته فاجعلها له صلاةً وزكاةً وقربةً، تقرّبه بها إليك يوم القيامة»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ﴾، الجَهْد والشدة، ﴿دعانا لِجَنْبِه﴾، أي: على جنبه مضطجعاً، ﴿أو قاعداً أو قائماً﴾، يريد في جميع حالاته، لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات. ﴿فلمّا كشفنَا﴾، دفعنا ﴿عنه ضُرَّهُ مرَّ كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾، أي استمر على طريقته الأولى قبل أن يصيبه الضر، ونسي ما كان فيه من الجهد والبلاء، كأنه لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسّه أي: لم يطلب منا كشف ضُرٍّ مَسّه. ﴿كذلك زُيّن للمُسْرِفينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الكفرِ والمعصية، ﴿ماكانوا يعملون﴾، من العصيان. قال ابن جريج: كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون من الدعاء عند البلاء وترك الشكر عند الرخاء. وقيل: معناه كما زَيّن لكم أعمالكم زيّن للمسرفين الذين كانوا من قبلكم أعمالهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ولقد أهلكنا القُرونَ مِن قبلِكم لمّا ظلمُوا﴾ أشركوا، ﴿وجاءَتهم رسُلُهم

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ٧/١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: «من آذيته فاجعله له زكاة ورحمة»: ١١/١٧١، ومسلم في البر والصلة، باب من لعنه النبيُّ ﷺ أو سبَّه... برقم (٢٦٠١): ٤/٢٠٠٨، والمصنف في شرح السنة: ٥/٨.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَى
عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا
أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى
إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ
عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

بالبينات وما كانوا لِيُؤمِنُوا كذلك﴾، أي: كما أهلكناهم بكفرهم، ﴿**نجزي**﴾ نعاقب ونهلك، ﴿**القومَ المُجرمين**﴾، الكافرين بتكذيبهم محمداً ﷺ، يخوّف كفار مكة بعذابِ الأمم الخالية المكذبة.

﴿**ثمّ جعلناكم خلائِفَ**﴾، أي: خلفاء، ﴿**في الأرضِ من بعدِهم**﴾، أي: من بعد القرون التي أهلكناهم، ﴿**لِنَنظُرَ كيفَ تعملُون**﴾، وهو أعلم بهم. وروينا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا إنّ هذه الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ وإنّ اللّهَ مستخلفُكم فيها، فناظرٌ كيفَ تعملون»[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿**وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بينات**﴾، قال قتادة[2]: يعني مشركي مكة. وقال مقاتل[3]: هم خمسة نفر: عبدالله بن أمية المخزومي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبدالله بن أبي قيس العامري، والعاص بن عامر بن هاشم. ﴿**قالَ الذينَ لا يَرجُون لقاءَنا**﴾، هم السابق ذكرهم قالوا للنبي ﷺ: إن كنت تريد أن نؤمن بك ﴿**ائْتِ بقرآنٍ غير هذا**﴾، ليس فيه ترك عبادة اللّاتِ والعُزّى ومناة، وليس فيه عيبها، وإن لم ينزلها الله فقلْ أنت من عند نفسك، ﴿**أو بدِّلْهُ**﴾، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة، أو مكان حرام حلالاً، أو مكان حلالٍ حراماً، ﴿**قلْ**﴾ لهم يامحمد، ﴿**ما يكونُ لي أن أبدِّلَه من تلقاء نفسي**﴾، من قِبَلِ نفسي ﴿**إنْ أتبعُ إلّا ما يُوحى إليّ**﴾، أي: ما أتبع إلّا ما يُوحي إليّ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿**إني أخافُ إنْ عصيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ**﴾.

﴿**قلْ لو شاءَ الله ما تلوتُه عليكم**﴾، يعني: لو شاء الله ما أنزل القرآن عليّ. ﴿**ولا أدْرَاكم بهِ**﴾، أي: ولا أعلمكم الله. قرأ البزي عن ابن كثير: «ولَأدراكم به» بالقصر به على الإيجاب، يريد: ولا علّمكم

---

(١) أخرجه مسلم في الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء... برقم (٢٧٤٢): ٢٠٩٨/٤، والمصنف في شرح السنة: ١٢/٩.
(٢) في أسباب النزول للواحدي ص (٣٠٥): مجاهد. وانظر: الدر المنثور: ٣٤٧/٤.
(٣) أسباب النزول ص (٣٠٥).

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً
وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

به من غير قراءتي عليكم. وقرأ ابن عباس: «ولا أنذرتُكم بِهِ» من الانذار. ﴿**فقد لبثتُ فيكم عُمُراً**﴾، حيناً وهو أربعون سنة، ﴿**من قبله**﴾، من قبل نزول القرآن ولم آتكم بشيء. ﴿**أفلا تعقِلون**﴾، أنه ليس من قِبَلي، ولبث النبي ﷺ فيهم قبل الوحي أربعين سنة ثم أوحى الله إليه فأقام بمكة بعد الوحي ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وروى أنسٌ: أنه أقام بمكة بعد الوحي عشر سنين وبالمدينة عشر سنين، وتوفي وهو ابن ستين سنة. والأول أشهر وأظهر(١).

قوله تعالى: ﴿**فمنْ أظلمُ ممَّنِ افترى على اللّهِ كذباً**﴾، فزعم أن له شريكاً أو ولداً ﴿**أو كذّب بآياتِه**﴾، بمحمد ﷺ وبالقرآن، ﴿**إنّه لا يُفلح المُجْرِمُون**﴾، لا ينجو المشركون.

﴿**ويعبدون من دونِ اللّهِ مالا يضرُّهم**﴾، إن عصوه وتركوا عبادته، ﴿**ولا ينفعهُم**﴾، إن عبدوه، يعني: الأصنام، ﴿**ويقولون هؤلاءِ شفعاؤنا عند اللّهِ قلْ أتنبئونَ اللّهَ**﴾ أتخبرون الله، ﴿**بما لَا يعلم**﴾، اللهُ صحتَه. ومعنى الآية: أتُخْبِرُونَ الله أن له شريكاً، أو عنده شفيعاً بغير إذنه، ولا يعلم الله لنفسه شريكاً؟! ﴿**في السمواتِ ولَا في الأرض سُبْحانه وتعالَى عمّا يُشْرِكُون**﴾، قرأ حمزة والكسائي: «تشركون» بالتاء، هاهنا وفي سورة النحل موضعين، وفي سورة الروم، وقرأ الآخرون كلها بالياء.

قوله تعالى: ﴿**وما كانَ الناسُ إلّا أمّةً واحدةً**﴾، أي: على الإسلام. وقد ذكرنا الاختلاف فيه في سورة البقرة(٢). ﴿**فاختلفوا**﴾، وتفرقوا إلى مؤمن وكافر، ﴿**ولَوْلَا كلمةٌ سبقتْ مِن رَبِّك**﴾، بأن جعل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٣/٥٤، ١٤/٢٩١، وابن سعد في الطبقات: ٢/٣٠٨، وعبدالرزاق: ٣/٥٩٩. وانظر: الدر المنثور: ٤/٣٤٨-٣٤٩، كنز العمال: رقم (٤٧٥٠).

(٢) انظر فيما سبق: ١/٢٤٣-٢٤٤.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾

لكل أمّة أجلاً. وقال الكلبي: هي إمهال هذه الأمة وأنه لا يهلكهم بالعذاب في الدنيا، ﴿لَقُضِيَ بينهم﴾، بنزول العذاب وتعجيل العقوبة للمكذبين، وكان ذلك فصلاً بينهم، ﴿فيما فيه يختلفون﴾، وقال الحسن: ولولا كلمة سبقت من ربك، مضت في حكمه أنه: لا يقضي بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة، لقضي بينهم في الدنيا فأدخل المؤمن الجنة والكافر النار، ولكنه سبق من الله الأجل فجعل موعدهم يوم القيامة .

﴿ويقولون﴾، يعني: أهل مكة، ﴿لولا أنزلَ عليه﴾، أي: على محمد ﷺ ﴿آيةٌ من ربِّه﴾، على ما نقترحه، ﴿فقلْ إنما الغيبُ لله﴾، يعني: قل إنما سألتموني الغيب وإنما الغيب لله، لا يعلم أحد لِمَ لمْ يفعلْ ذلك ولا يعلمه إلا هو. وقيل: الغيب نزول الآية / لا يعلم متى ينزلُ أحدٌ غيره، ﴿فانتظروا﴾ نزولها ١٦٩/ أ
﴿إني معكم منَ المنتظرين﴾، وقيل: فانتظروا قضاء الله بيننا بالحق بإظهار المحق على المبطل .

قوله عزّ وجلّ : ﴿وإذا أذقْنا النّاس﴾، يعني: الكفار، ﴿رحمةً منْ بعدِ ضرّاء﴾، أي: راحة ورخاء من بعد شدة وبلاء. وقيل: القطر بعد القحط، ﴿مَسّتهم﴾، أي: أصابتهم، ﴿إذا لهم مكرٌ في آياتنا﴾، قال مجاهد: تكذيب واستهزاء. وقال مقاتل بن حيان: لا يقولون: هذا رزقُ الله، إنما يقولون: سُقِينا بِنَوْءِ كذا، وهو قوله: «وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون» (الواقعة ــ ٨٢) .

﴿قُلِ اللّهُ أسرعُ مكراً﴾، أعجل عقوبة وأشد أخذاً وأقدر على الجزاء، يريد عذابه في إهلاككم أسرع إليكم مما يأتي منكم في دفع الحق، ﴿إنَّ رُسُلَنَا﴾، حفظتنا، ﴿يكتبُون ما تمكرُون﴾، وقرأ يعقوب: «يمكرون» بالياء .

قوله تعالى: ﴿هو الذي يُسيّركم﴾، يجريكم ويحملكم، وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «ينشركم» بالنون والشين من النشر وهو البسط والبث، ﴿في البرِّ﴾، على ظهور الدواب، ﴿و﴾ في ﴿البحر﴾، على

فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا
يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ
قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ
بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

الفلك، ﴿حتى إذا كنتم في الفُلْك﴾، أي: في السفن، تكون واحداً وجمعاً ﴿وجَرَيْنَ بهم﴾، يعني: جرت السفن بالناس، رجع من الخطاب إلى الخبر، ﴿بريح طيبةٍ﴾ لينّة، ﴿وفَرِحُوا بها﴾، أي: بالريح، ﴿جاءَتْها ريحٌ﴾، أي: جاءت الفلك ريح، ﴿عاصفٌ﴾، شديدة الهبوب، ولم يقل ريح عاصفة، لاختصاص الريح بالعصوف. وقيل: الريح تُذكرّ وتؤنث. ﴿وجاءَهم﴾، يعني: ركبانَ السفينة، ﴿الموجُ﴾، وهو حركة الماء واختلاطه، ﴿مِنْ كلِّ مكانٍ وظنّوا﴾، أيقنوا ﴿أنهم أُحيطَ بِهم﴾، دَنوا من الهلكة، أي: أحاط بهم الهلاك، ﴿دَعَوُا اللّهَ مخلصِينَ لهُ الدِّين﴾، أي: أخلصوا في الدعاء لله ولم يدعوا أحداً سوى الله. وقالوا ﴿لئنْ أنجيتنا﴾، ياربنا، ﴿مِنْ هذه﴾، الريح العاصف، ﴿لنكونَنّ مِنَ الشاكِرين﴾، لك بالإيمان والطاعة .

﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض﴾، يظلمون ويتجاوزون إلى غير أمر الله عزّ وجلّ في الأرض، ﴿بغيرِ الحقِّ﴾، أي: بالفساد. ﴿يا أيها الناس إنّما بغيكم على أنفسكم﴾، لأن وباله راجع عليها، ثم ابتدأ فقال: ﴿متاعُ الحياةِ الدنيا﴾، أي: هذا متاع الحياة الدنيا، خبرُ ابتداءٍ مضمر، كقوله: «لم يَلْبَثُوا إلّا ساعةً من نهارٍ بلاغ» (الأحقاف ـ ٣٥)، أي: هذا بلاغ. وقيل: هو كلام متصل، والبغي: ابتداء، ومتاعٌ: خبره.

ومعناه: إنما بغيكم متاع الحياة الدنيا، لا يصلح [زاداً لمعادٍ][1] لأنكم تستوجبون به غضب الله .

وقرأ حفص: «متاع» بالنصب، أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ﴿ثم إلينا مَرْجِعُكم فَنُنَبِّئُكم بما كنتم تعملون﴾ .

قوله عزّ وجلّ : ﴿إنّما مَثَلُ الحياةِ الدنيا﴾، في فنائها وزوالها، ﴿كماءٍ أنزلناهُ مِنَ السماءِ فاختَلَطَ

(١) في « أ » (لزاد المعاد) .

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

به﴾، أي: بالمطر، ﴿نباتُ الأرض﴾، قال ابن عباس: نبت بالماء من كل لون، ﴿ممّا يأكُل الناسُ﴾، من الحبوب والثمار، ﴿والأنعام﴾، من الحشيش، ﴿حتى إذا أخذَتِ الأرضُ زُخرُفَها﴾، حسنَها وبهجتَها وظهر الزهرُ أخضرٌ وأحمر وأصفر وأبيض ﴿وازّيّنتْ﴾، أي: تزينت، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود: «تزينت». ﴿وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها﴾، على جذاذِها وقطافِها وحصادِها، ردّ الكناية إلى الأرض. والمراد: النبات إذ كان مفهوماً، وقيل: ردّها إلى الغلّة. وقيل: إلى الزينة. ﴿أتاها أمرُنا﴾، قضاؤنا، بإهلاكها، ﴿ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً﴾، أي: محصودة مقطوعة، ﴿كأن لَمْ تغنَ بالأمسِ﴾، كأن لم تكن بالأمس، وأصله من غني بالمكان إذا أقام به. وقال قتادة: معناه إن المتشبّث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون. ﴿كذلك نُفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يتفكّرُون﴾ .

قوله تعالى: ﴿واللّهُ يَدْعُو إلى دارِ السلام﴾، قال قتادة: السلام هو الله، وداره: الجنة. وقيل: السلام بمعنى السلامة، سُميت الجنة دارَ السلام لأنّ من دخلها سَلِمَ من الآفات. وقيل: المراد بالسلام التحية سُميت الجنة دار السلام، لأنّ أهلها يحيّي بعضُهم بعضاً بالسلام والملائكة تسلم عليهم. قال الله تعالى: «والملائكةُ يدخلُون عليهمْ مِّن كلِّ بابٍ سلامٌ عليكم» (الرعد ــ ٢٣) .

وروينا عن جابر قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم [فقال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضُهم إنّ العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا:][1] إن لصاحبكم هذا مثلاً. قال: فاضربوا له مثلاً. فقال بعضهم: مثله كمثل رجل بنَى داراً، وجعل فيها مأدُبةً، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي: دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومنْ لمْ يُجبِ الداعي: لم يدخل الدار ولم يأكلْ من المأدبة، [فقالوا أوّلُوهَا له يَفْقَهْهَا، قال بعضُهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العينَ نائمةٌ والقلب يقظان، فقالوا:][1] فالدارُ الجنة والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فرّق بين الناس»[2] .

﴿ويهدي منْ يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم﴾، فالصراط المستقيم هو الإسلام، عمَّ بالدعوة لإظهار الحجة، وخُصّ بالهداية استغناءً عن الخلق .

---

(١) ما بين القوسين من صحيح البخاري وشرح السنة للمصنف، وهو أيضاً في المطبوع .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: ١٣/٢٤٩، والمصنف في شرح السنة: ١/١٩٢ .

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿للذين أحسنُوا الحُسنَى وزيادة﴾، أي: للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنَى، وهي الجنة، وزيادة: وهي النظر إلى وجه الله الكريم، هذا قول جماعة من الصحابة، منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحذيفة، وأبو موسى، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم، وهو قول الحسن، وعكرمة، وعطاء، ومقاتل، والضحاك، والسدي .

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن [محمد بن](١) العباس الحُمَيْدِيُّ، أنبأنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ، أنبأنا أبو العباس محمد بن يعقوب إملاءً، حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق الصَّغاني، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت ــ يعني البناني ــ عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، عن صُهيب رضي الله عنه قال: قرأ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿للذين أحسنُوا الحُسنَى وزيادة﴾، قال: إذا دخلَ أهلُ الجنّةِ الجنّةَ وأهلُ النّارِ النّارَ نادَى منادٍ: يا أهلَ الجنةِ إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزَكُمُوه، قالوا: ما هذا الموعود؟(٢) ألَمْ يثقِّلْ موازيننا، ويبيِّضْ وجوهَنا، ويدخلْنا الجنةَ، ويُجِرْنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب فينظرون إلى وجه الله عزّ وجلّ. قال: فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه»(٣) .

ورُوي عن ابن عباس: أنّ الحُسنَى هي: أنّ الحسنة بمثلها والزيادة هي التضعيف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف(٤). وقال مجاهد: الحُسنَى: حسنة مثل حسنة، والزيادة المغفرة والرضوان(٥) .

﴿ولا يَرْهَقُ﴾، لا يغشى ﴿وجوهَهُمْ قَتَرٌ﴾، غبار، جمع قترة. قال ابن عباس وقتادة: سواد الوجه، ﴿ولا ذِلَّةٌ﴾، هَوَانٌ. قال قتادة: كآبة. قال ابن أبي ليلى: هذا بعد نظرهم إلى ربهم. ﴿أولئك أصحابُ الجنّةِ هُمْ فيها خالدُون﴾ .

(١) ساقط من «ب» .

(٢) في «ب»: (الموعد) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان، باب اثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، برقم (١٨١-١٨٢): ١/١٦٣، والمصنف في شرح السنة: ١٥/٢٣٠ .

(٤) أخرجه الطبري عن ابن عباس: ١٥/٧٠ .

(٥) الطبري: ١٥/٧١. وقال رحمه الله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وَعَد المحسنين من عباده على إحسانهم الحسنى، أن يجزيهم على طاعتهم إيّاه الجنة، وأن تبيِّض وجوههم، ووعدهم مع الحسنى الزيادةَ عليها. ومن الزيادة على إدخالهم الجنة: أن يكرمهم بالنظر إليه، وأن يعطيهم غُرَفاً من لآلىء، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً. كل ذلك من زيادات عطاء الله إياهم على الحسنى التي جعلها الله لأهل جناته. وعمَّ ربُّنا جل ثناؤه بقوله: «وزيادة» الزيادات على «الحسنى» فلم يخصص منها شيئاً دون شيء. وغير مُستَنكَر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله. فأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يُعَمَّ، كما عمَّه عز ذكره» .

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿والذينَ كَسَبُوا السّيئاتِ جزاءُ / سيئةٍ بمثلها﴾، أي: لهم مثلها، كما قال: «ومَن جاءَ بالسيئةِ فلا يُجزَى إلّا مثلَها» (الأنعام ـــ ١٦٠). ﴿وتَرْهَقُهُمْ ذِلّةٌ ما لهم مِّنَ اللهِ مِن عاصمٍ﴾، و«من» صلة، أي: ما لهم من الله عاصم، ﴿كأنما أُغْشِيَتْ﴾، ألبست، ﴿وُجُوهُهُم قِطَعاً﴾، جمع قطعة، ﴿مِّنَ الليلِ مُظلِماً﴾، نصبت على الحال دون النعت، ولذلك لم يقل: مظلمة، تقديره: قِطَعاً من الليل في حال ظلمته، أو قطعاً من الليل المظلم. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: «قِطْعاً» ساكنة الطاء، أي بعضاً، كقوله: «بِقِطْعٍ من الليل» (هود ـــ ٨١). ﴿أولئك أصحابُ النارِ هُمْ فيها خالدُون﴾. ١٦٩/ب

قوله تعالى: ﴿ويومَ نحشُرهم جميعاً ثم نقولُ للذينَ أشركُوا مكانكم﴾، [أي: الزمُوا مكانَكم]،(١) ﴿أنتم وشركاؤكم﴾، يعني: الأوثان، معناه: ثم نقول للذين أشركوا: الزمُوا أنتم وشركاؤكم مكانكم، ولا تبرحوا. ﴿فزَيَّلْنا﴾ ميّزنا وفرّقنا ﴿بينهم﴾، أي: بين المشركين وشركائهم، وقطَعْنا ما كان بينهم من التواصل في الدنيا، وذلك حين يتبرأ كلُّ معبودٍ من دون الله ممن عبده، ﴿وقال شركاؤُهم﴾، يعني: الأصنام، ﴿ما كنتم إيّانا تعبدون﴾، بطلبتنا فيقولون: بلى، كنا نعبدكم، فتقول الأصنام:

﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إنْ كنّا عن عبادتِكم لغافلين﴾، أي: ما كنا عن عبادتكم إيّانا إلا غافلين، ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نعقل.

قال الله تعالى: ﴿هُنالِكَ تَبْلُوا﴾، أي: تُختبر. وقيل: معناه: تعلم وتقف عليه، وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب: «تتلو» بتاءين، أي: تقرأ، ﴿كل نفسٍ﴾، صحيفتَها. وقيل: معناه تتبع كل نفس ﴿ما

(١) ساقط من «أ».

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ
ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ
فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

﴿أسلفتْ﴾، ما قدّمتْ من خير أو شر. وقيل: معناه تعاين، ﴿وردُّوا إلى الله﴾، إلى حكمه فيتفرد فيهم بالحكم، ﴿مولاهُمُ الحقِّ﴾، الذي يتولى ويملك أمورهم: فإن قيل: أليس قد قال: «وأن الكافرين لَا مولى لهم» (محمد ـــ ١١)؟ قيل: المولى هناك بمعنى الناصر، وهاهنا بمعنى: المالك، ﴿وضلَّ عنهم﴾، زال عنهم وبطل، ﴿ما كانوا يفترون﴾، في الدنيا من التكذيب .

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يرزُقُكم مِّنَ السماءِ والأرضِ﴾، أي: من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، ﴿أمْ من يملِكُ السّمعَ والأبصارَ﴾، أي: من إعطائكم السمع والأبصار، ﴿ومَنْ يُخرِجُ الحيَّ من الميت ويُخرجُ الميتَ من الحيِّ﴾ يخرج الحي من النطفة والنطفة من الحي، ﴿ومَنْ يُدبِّرُ الأمْرَ﴾؟ أي: يقضي الأمر، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾، هو الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿فقل: أفلا تتقون﴾؟ أفلا تخافون عقابه في شرككم؟ وقيل: أفلا تتقون الشرك مع هذا الإقرار؟ .

﴿فذلكُم اللهُ ربُّكم﴾، الذي يفعل هذه الأشياء هو ربكم، ﴿الحقُّ فماذا بعدَ الحقِّ إلّا الضلالُ فأنّى تُصْرَفُون﴾؟ أي: فأين تصرفون عن عبادته وأنتم مقرون به؟ .

﴿كذلِكَ﴾. قال الكلبي: هكذا، ﴿حقّتْ﴾، وجبتْ، ﴿كلمةُ ربِّكَ﴾، حكمه السابق، ﴿على الذين فسَقُوا﴾، كفروا، ﴿أنهم لا يُؤمنُون﴾، قرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر «كلماتُ ربِّكَ» بالجمع هاهنا موضعين، وفي المؤمن، والآخرون على التوحيد .

قوله: ﴿قُلْ هلْ مِنْ شُركائِكم﴾، أوثانكم ﴿من يَبدَؤُا الخلقَ﴾، ينشيء الخلق من غير أصل ولا مثال، ﴿ثمّ يُعيدُه﴾، ثم يحييه من بعد الموت كهيئته، فإن أجابوك وإلا فـ ﴿قُلْ﴾ أنتَ: ﴿اللهُ يَبْدَؤُا الخلقَ ثم يُعيدُهُ فأنّى تُؤفَكُون﴾؟ أي: تصرفون عن قصد السبيل .

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

﴿قُلْ هلْ مِن شُركائِكُمْ مَن يهدي﴾، يرشد، ﴿إلى الحقّ﴾، فإذا قالوا: لا ــ ولابدّ لهم من ذلك ــ ﴿قُلِ اللّهُ يهدي للحقّ﴾، أي إلى الحق .

﴿أفمنْ يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يُتَّبع أمَّن لا يَهِدِّي﴾، قرأ حمزة والكسائي: ساكنة الهاء، خفيفة الدال، وقرأ الآخرون: بتشديد الدال، ثم قرأ أبو جعفر، وقالون: بسكون الهاء، وأبو عمرو بِرَوْمِ الهاء بين الفتح والسكون، وقرأ حفص: بفتح الياء وكسر الهاء، وأبو بكر بكسرهما، والباقون بفتحهما، ومعناه: يهتدي ــ في جميعها ــ فمن خفَّف الدال، قال: يقال: هديته فهدى، أي: اهتدى، ومن شدّد الدال أدغم التاء في الدال، ثم أبو عمرو يروم على مذهبه في إيثار التخفيف، ومن سكّن الهاء تركها على حالتها كما فعل في «تعدوا» و«يخصمون»، ومن فتح الهاء نقل فتحة التاء المدغمة إلى الهاء، ومن كسر الهاء فلالتقاء الساكنين، وقال الجزم يُحرّكُ إلى الكسر، ومن كسر الياء، مع الهاء أتبع الكسرةَ الكسرةَ .

قوله تعالى: ﴿إلّا أنْ يُهدى﴾، معنى الآية: الله الذي يهدي إلى الحق أحقُّ بالاتباع أمِ الصنم الذي لا يهتدي إلا أن يُهدَى؟ .

فإن قيل: كيف قال: «إلا أنْ يُهدَى»، والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يُهدَى؟ .

قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تُحمل وتُنقل، يَتَبَيَّنُ به عجز الأصنام.

وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لمّا اتخذوا الأصنام آلهةً وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبّر عنها بما يُعبّر عمن يعلم ويعقل، ووُصِفَتْ بصفة من يعقل .

﴿فما لَكُمْ كيفَ تَحْكُمون﴾، كيف تقضون حين زعمتم أن لله شريكاً .

قوله تعالى: ﴿وما يَتَّبِعُ أكثرهم إلّا ظَنّاً﴾، منهم يقولون: إن الأصنام آلهة، وإنها تشفع لهم في الآخرة ظناً منهم، لم يَرِدْ بهِ كتابٌ ولا رسول، وأراد بالأكثر: جميع من يقول ذلك، ﴿إنّ الظنّ لا يُغني مِنَ الحقِّ شيئاً﴾، أي: لا يدفع عنهم من عذاب الله شيئاً. وقيل: لايقوم مقام العلم، ﴿إنّ اللّهَ عليمٌ بما يفعلون﴾ .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿**وما كانَ هذا القرآنُ أنْ يُفترَى مِنْ دُونِ الله**﴾، قال الفرَّاء: معناه: وما ينبغي لمثل هذا القرآن أنْ يُفترَى من دون الله، كقوله تعالى: «وما كان لنبي أن يَغُلّ» (آل عمران ـ ١٦١) .

وقيل: «أنْ» بمعنى اللام، أي: وما كان هذا القرآنُ لِيُفترَى من دُونِ اللّهِ .

قوله: ﴿**ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يَدَيْه**﴾، أي: بين يدي القرآن من التوراة والإنجيل .

وقيل: تصديق الذي بين يدي القرآن من القيامة والبعث، ﴿**وتفصيل الكتابِ**﴾، تبيين ما في الكتاب من الحلال والحرام والفرائض والأحكام، ﴿**لا رَيْبَ فيه مِن رَّبِّ العالمين**﴾ .

﴿**أمْ يقولُون**﴾، قال أبو عبيدة: «أم» بمعنى الواو، أي: ويقولون، ﴿**افْتراهُ**﴾، اختلق محمد القرآن من قِبَلِ نفسه، ﴿**قلْ فأتُوا بسورةٍ مِّثْلِهِ**﴾، شبه القرآن ﴿**وادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتم**﴾، ممن تعبدون، ﴿**مِن دُونِ اللّهِ**﴾ لِيُعِينُوكم على ذلك، ﴿**إن كنتُم صادِقين**﴾، أن محمداً افتراه ثم قال :

﴿**بلْ كذّبوا بما لم يُحيطُوا بعلمه**﴾، يعني: القرآن، كذبوا به ولم يحيطوا بعلمه، ﴿**ولمّا يأتِهم تأويلُهُ**﴾، أي: عاقبة ما وعد اللّهُ في القرآن، أنه يؤول إليه أمرهم من العقوبة، يريد: أنهم لم يعلموا ما يؤول إليه عاقبة أمرهم. ﴿**كذلِكَ كذّبَ الذينَ مِن قبلِهم**﴾، أي: كما كذب هؤلاء الكفار بالقرآن كذلك كذَّب الذين من قبلهم من كفار الأمم الخالية، ﴿**فانْظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ الظالمين**﴾، آخر أمر المشركين بالهلاك .

﴿**ومنهم مَن يُؤمنُ بهِ**﴾، أي: من قومك من يؤمن بالقرآن، ﴿**ومنهم مَّن لَّا يُؤمنُ بهِ**﴾، لعلم الله
١٧٠/ أ السابق فيهم، ﴿**وربُّكَ / أعلمُ بالمفسدين**﴾، الذين لا يُؤمنُون .

﴿**وإنْ كذّبُوكَ**﴾، يامحمد، ﴿**فقلْ لي عملي**﴾، وجزاؤه، ﴿**ولكم عملُكم**﴾، وجزاؤه، ﴿**أنتُمْ بريئون مما أعملُ وأنا بريءٌ مما تعملُون**﴾، هذا كقوله تعالى: «لنا أعمالُنا ولكم أعمالُكم» (القصص ـ ٥٥)،

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾
إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

«لكم دينُكم ولِيَ دين» (الكافرون ـــ ٦) .

قال الكلبي ومقاتل: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد(١) .

ثم أخبر أن التوفيق للإيمان به لا بغيره :

فقال: ﴿**ومنهم مَّنْ يستمعُون إليك**﴾ بأسماعِهم الظاهرة فلا ينفعهم، ﴿**أفأنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ**﴾، يريد: سَمَعَ القلبِ، ﴿**ولو كانُوا لا يعقِلُون**﴾ .

﴿**ومنهمْ مَّنْ يَنْظُرُ إليك**﴾، بأبصارهم الظاهرة، ﴿**أفَأَنْتَ تهدي العُمْيَ**﴾، يريد عمى القلب، ﴿**ولو كانُوا لا يُبْصِرُون**﴾، وهذا تسلية من الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ، يقول: إنك لا تقدر أن تُسمعَ من سلبتُه السمعَ، ولا أن تهديَ من سلبتُه البصرَ، ولا أن تُوفق للإيمان من حكمتُ عليه أن لا يُؤمن .

﴿**إنّ اللّهَ لا يظلمُ الناسَ شيئاً**﴾، لأنه في جميع أفعاله مُتفضّل عادل، ﴿**ولكنّ الناسَ أنفسَهم يظلِمُون**﴾، بالكفر والمعصية .

قوله تعالى: ﴿**ويومَ يحشرُهم**﴾، قرأ حفص بالياء، والآخرون بالنون، ﴿**كأن لَّمْ يَلْبَثُوا إلّا ساعةً مِّنَ النّهار**﴾، قال الضحاك: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار. وقال ابن عباس: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلاَّ قدر ساعة من النهار، ﴿**يتَعَارَفُونَ بينهم**﴾، يعرف بعضُهم بعضاً حين بعثوا من القبور كمعرفتهم في الدنيا، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال القيامة. وفي بعض الآثار: أن الإنسان يعرف يوم القيامة مَنْ بجنبه ولا يُكلمه هيبةً وخشية .(٢)

﴿**قد خَسِرَ الذينَ كذَّبُوا بلقاءِ اللّهِ وما كانُوا مُهتدين**﴾، والمراد من الخسران: خسران النفس، ولا شيء أعظم منه.

---

(١) ورواه الطبري أيضاً عن ابن زيد: ٩٥/١٥ . وانظر: الدر المنثور: ٣٦٤/٤. وانظر فيما سبق: ٣٢/٣ تعليق (١).

(٢) عزاه السيوطي لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن الحسن. الدر المنثور: ٣٦٥/٤ .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ
﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ
أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ
مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿**وإمّا نُرِيَنّكَ**﴾ يامحمد، ﴿**بعضَ الذي نَعِدُهم**﴾ في حياتك مِنَ العذاب، ﴿**أو نَتوفَّينَّكَ**﴾، قبل تعذيبهم، ﴿**فإلينا مَرْجِعُهم**﴾ في الآخرة، ﴿**ثمّ اللّهُ شهيدٌ على ما يفعلون**﴾، فيجزيهم به، «ثم» بمعنى الواو، تقديره: والله شهيدٌ. قال مجاهد: فكان البعض الذي أراه قتلهم ببدر، وسائر أنواع العذاب بعد موتهم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿**ولكلّ أمةٍ رسولٌ فإذا جاءَ رسولُهم**﴾، وكذبوه، ﴿**قُضِيَ بينهم بالقسطِ**﴾، أي عُذّبوا في الدنيا وأُهلكوا بالعذاب، يعني: قبل مجيء الرسول، لا ثواب ولا عقاب. وقال مجاهد ومقاتل: فإذا جاء رسولهم الذي أُرسل إليهم يوم القيامة قُضِيَ بينه وبينهم بالقسط، ﴿**وهم لا يُظلمون**﴾، لا يعذبون بغير ذنب ولا يُؤاخذون بغير حجة ولا ينقص من حسناتهم ولا يزاد على سيئاتهم.

﴿**ويقولُون**﴾، أي: ويقول المشركون: ﴿**متى هذا الوَعْدُ**﴾ الذي تعدنا يامحمد من العذاب. وقيل: قيام الساعة، ﴿**إنْ كنتمُ صادقين**﴾، أنتَ يامحمدُ وأتباعُك.

﴿**قُل لّا أملِكُ لنفسي**﴾، لا أقدر لها على شيء، ﴿**ضرّاً ولا نفعاً**﴾، أي: دفع ضر ولا جلب نفع، ﴿**إلا ما شاءَ اللّهُ**﴾، أن أملكه، ﴿**لكلّ أمّةٍ أجلٌ**﴾، مدة مضروبة، ﴿**إذا جاءَ أجلُهم**﴾، وقت فناء أعمارهم، ﴿**فلا يستأخِرُونَ ساعةً ولا يستقدِمُون**﴾، أي: لا يتأخرون ولا يتقدمون.

قوله تعالى: ﴿**قُل أرأيتُم إنْ أتاكم عذابُه بياتاً**﴾، ليلاً، ﴿**أو نهاراً ماذا يستعجلُ منه المجرمون**﴾، أي: ماذا يستعجل من الله المشركون. وقيل: ماذا يستعجل من العذاب المجرمون، وقد وقعوا فيه. وحقيقة المعنى: أنهم كانوا يستعجلون العذاب، فيقولون: «اللهم إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطرْ علينا حجارةً مِّنَ السماءِ أو ائتنا بعذابٍ أليم» (الأنفال ــ ٣٢). فيقول الله تعالى: ﴿**ماذا يستعجلُ**﴾ يعني: أيش[1] يعلم

---

(١) أي شي؟.

أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾
۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ
أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ
وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

المجرمون ماذا يستعجلون ويطلبون، كالرجل يقول لغيره وقد فعل قبيحاً ماذا جنيت على نفسك .

﴿أَثُمّ إذَا مَا وَقَعَ﴾، قيل: معناه أهنالك؟ وحينئذ، وليس بحرف عطف، «إذا ما وقع» نزل العذاب، ﴿آمنتُم به﴾، أي بالله في وقت اليأس. وقيل: آمنتم به أي صدقتم بالعذاب وقت نزوله، ﴿آلآن﴾، فيه إضمار، أي: يقال لكم: آلآن تُؤمنون حين وقع العذاب؟ ﴿وقَدْ كُنْتُم بِهِ تستعجِلُون﴾، تكذيباً واستهزاءً .

﴿ثم قيلَ للذين ظلمُوا﴾، أشركوا، ﴿ذوقُوا عذابَ الخُلدِ هلْ تُجزَوْنَ إلّا بما كنتم تكسِبُون﴾، في الدنيا .

﴿ويَسْتَنبؤُنَكَ﴾، أي: يستخبرونك يامحمد، ﴿أحقٌّ هُو﴾، أي ما تعدنا من العذاب وقيام الساعة، ﴿قُلْ إيْ ورَبِّي﴾، أي: نعم وربِّي، ﴿إنّه لحقٌّ﴾، لا شك فيه، ﴿وما أنتُم بمعجزِين﴾، أي: بفائتين من العذاب، لأن من عجز عن شيء فقدْ فاته .

﴿ولو أنّ لكلّ نفسٍ ظلمتْ﴾، أي: أشركت، ﴿ما في الأرضِ لافْتَدَتْ بهِ﴾، يوم القيامة، والافتداء ها هنا: بذل ما ينجو به من العذاب. ﴿وأسرُّوا النّدامَة﴾، قال أبو عبيدة: معناه: أظهرُوا الندامة، لأنه ليس ذلك اليوم يوم تصبّر وتصنّع. وقيل: معناه أخفوا أي أخفىٰ الرؤساء الندامةَ من الضعفاءِ، خوفاً من ملامتهم وتعييرهم، ﴿لمّا رَأَوُا العذابَ وقُضِيَ بينهمْ بالقِسْطِ﴾، فرغ من عذابهم، ﴿وهم لا يُظلمون﴾ .

﴿ألَا إنّ للهِ مافي السمواتِ والأرضِ ألَا إنّ وَعْدَ اللّهِ حقٌّ ولكنّ أكثرَهم لا يعلمُون﴾ .

﴿هو يحيي ويُميتُ وإليهِ تُرْجَعُون﴾ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾

قوله تعالى: **﴿يا أيها النّاسُ قد جاءَتْكم موعظةٌ﴾**، تذكرة، **﴿مِن ربِّكم وشفاءٌ لِّما في الصّدورِ﴾**، أي: دواء للجهل، لما في الصدور. أي: شفاء لعَمَى القلوب، والصدر: موضع القلب، وهو أعز موضع في الإنسان لجوار القلب، **﴿وهُدىً﴾**، من الضلالة، **﴿ورحمةٌ للمؤمنين﴾**، والرحمة هي النعمة على المحتاج، فإنه لو اهدى ملك إلى ملك شيئاً لا يقال قد رحمه، وإن كان ذلك نعمة لأنه لم يضعها في محتاج.

قوله تعالى: **﴿قلْ بفضلِ اللهِ وبرحمتِه﴾**، قال مجاهد وقتادة: فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن(1). وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله(2).

وقال ابن عمر: فضل الله: الإسلام، ورحمته: تزيينه في القلب.

وقال خالد بن معدان: فضل الله: الإسلام، ورحمته: السُّنن.

وقيل: فضل الله: الإيمان، ورحمته: الجنة.

﴿فبذلك فلْيفرَحُوا﴾، أي: ليفرح المؤمنون أن جعلهم الله من أهله، **﴿هو خيرٌ مما يجمعُون﴾**، أي: مما يجمعه الكفار من الأموال. وقيل: كلاهما خبر عن الكفار.

وقرأ أبو جعفر وابن عامر: «فليفرحُوا» بالياء، و«تجمعون» بالتاء، وقرأ يعقوب كلاهما بالتاء مختلف عنه خطاباً للمؤمنين.

﴿قلْ﴾ يامحمد لكفار مكة، **﴿أرأيتُم ما أنزلَ الله لكمْ مِّن رِّزْقٍ﴾**، عبّر عن الخَلْق بالإنزال، لأن ما في الأرض من خير، فمما أُنزل من السماء من رزق، من زرع وضرع، **﴿فجعلتُم منه حراماً وحلالاً﴾**، هو ما حرموا من الحرث ومن الأنعام كالبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام. قال الضحاك: ١٧٠/ب هو قوله تعالى: «وجعلوا/للهِ ممّا ذَرَأ مِنَ الحرثِ والأنعام نصيباً» (الأنعام — ١٣٦). **﴿قلْ آللهُ أذِنَ لكُمْ﴾**، في هذا التحريم والتحليل، **﴿أمْ﴾** بل، **﴿على الله تَفْتَرُون﴾**، وهو قولهم: «واللّهُ أمرَنا بِها».

---

(١) انظر: الطبري: ١٥/١٠٧.

(٢) الطبري: ١٥/١٠٦ وانظر الدر المنثور: ٤/٣٦٧–٣٦٨، وفيهما سائر الأقوال.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن
رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى
كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

﴿وما ظنُّ الذينَ يفترُون على اللهِ الكذبَ يومَ القيامةِ﴾، أيحسبون أنّ الله لا يؤاخذهم به ولا يعاقبهم عليه، ﴿إنّ اللهَ لذو فضلٍ على الناسِ ولكنّ أكثرَهم لا يشكرُون﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وما تكُونُ﴾. يامحمد، ﴿في شأنٍ﴾، عمل من الأعمال، وجمعه شؤون، ﴿وما تتْلُوا منه﴾، من الله، ﴿مِنْ قرآن﴾، نازلٍ، وقيل: منه أي من الشأن من قرآن، نزل فيه ثم خاطبه وأمته فقال: ﴿ولا تعملُون مِنْ عملٍ إلّا كنّا عليكم شهوداً إذْ تُفِيضُون فيه﴾، أي: تدخلون وتخوضون فيه، الهاء عائدة إلى العمل، والإفاضة: الدخول في العمل. وقال ابن الأنباري: تندفعون فيه. وقيل: تُكْثِرون فيه. والإفاضة: الدفع بكثرة.

﴿وما يَعْزُبُ عن ربِّك﴾، يغيب عن ربك، وقرأ الكسائي «يَعْزِب» بكسر الزاي، وقرأ الآخرون بضمها، وهما لغتان. ﴿مِنْ مِّثقالِ ذرّةٍ﴾، أي: مثقال ذرة، و«من» صلة، والذرة هي: النملة الحميراء الصغيرة. ﴿في الأرضِ ولا في السماءِ ولا أصغرَ من ذلك﴾، أي: من الذرة، ﴿ولا أكبرَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب: برفع الراء فيهما، عطفاً على موضع المثقال قبل دخول «من»، وقرأ الآخرون: بنصبهما، إرادة للكسرة، عطفاً على الذرة في الكسر. ﴿إلّا في كتابٍ مبينٍ﴾. وهو اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿ألَا إنّ أولياءَ اللهِ لا خوفٌ عليهمْ ولا همْ يَحْزَنُون﴾ واختلفوا فيمن يستحق هذا الاسم. قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله تعالى فقال:

﴿الذينَ آمنُوا وكانُوا يتّقُون﴾، وقال قوم: هم المتحابّون في الله عزّ وجلّ.

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفّار، حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن [ابن][1] أبي حسين

(١) من «شرح السنة» و«مصنف عبدالرزاق»، و«مسند الإمام أحمد».

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

عن شهر بن حوشب، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فقال: «إنّ للّهِ عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيّون والشهداء لقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة»، قال: وفي ناحية القوم أعرابي فجثا على ركبتيه ورمى بيديه ثم قال: حدِّثنا يارسول الله عنهم من هم؟ قال: فرأيتُ في وجه النبي ﷺ البِشْرَ، فقال: «هُمْ عبادٌ مِنَ عبادِ اللّهِ من بلدانٍ شتّى وقبائل، لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوههم نوراً، ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدام الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون»[1] .

ورواه عبدالله بن المبارك عن عبدالحميد بن بهرام قال: حدثنا شهر بن حوشب، حدثني عبدالرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري، عن النبي ﷺ سئل! مَنْ أولياءُ الله؟ فقال: الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله»[2] .

ويُروَى عن النبي ﷺ: قال الله تعالى: «إن أوليائي من عبادي الذين يُذْكَرُون بذكري وأُذْكَرُ بذكرِهم»[3] .

﴿لهم البُشْرَى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾، اختلفوا في هذه البشرى: روي عن عبادة بن الصامت قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: «لهم البُشْرَى في الحياة الدنيا»، قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له»[4] .

---

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ١١/٢٠١–٢٠٢، والطبري: ١٥/١٢٢، والإمام أحمد في المسند: ٥/٣٤١،٣٤٣، والمصنف في شرح السنة: ١٣/٥٠، وذكره في المصابيح: ٣/٣٧٩، وله شاهد من حديث ابن عمر أخرجه الحاكم وصححه: ٤/١٧٠–١٧١ وأقره الذهبي، ومن حديث أبي هريرة عند ابن حبان برقم (٢٥٠٨) ص (٦٢١) من موارد الظمآن. ومن حديث عمر رضي الله عنه أخرجه أبو داود، وإسحاق بن راهويه، وهناد ١/٥٦٤، وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه، وأبو نعيم. والبيهقي في الشعب. انظر: الدر المنثور: ٤/٣٧٢، الكافي الشاف ص (٨٤)، مجمع الزوائد: ١٠/٢٧٦–٢٧٩، الزهد للإمام هناد بن السري: ١/٥٦٤–٥٦٥ مع تعليق المحقق. والحديث اسناده صحيح بشواهده.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد، ص (٢٤٨–٢٤٩) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٣/٤٣٠. قال الهيثمي في المجمع: ١/٥٨ «رواه أحمد، وفيه رشدين بن سعد، وهو ضعيف، وذكره أيضاً: ١/٨٩ من رواية الطبراني في الكبير، وقال: «فيه رشدين، وهو ضعيف» .
وانظر: الدر المنثور: ٤/٣٧١ .

(٤) أخرجه الترمذي في الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات: ٦/٥٥٤، وابن ماجه في الرؤيا، برقم (٣٨٩٨): ٢/١٢٨٣، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: ٢/٣٤٠، ٤/٣٩١، والدارمي في الرؤيا: ٢/١٢٣، والإمام أحمد في المسند: ٥/٣١٥، ٣٢١، والطيالسي ص (٧٩) .
قال ابن حجر: في فتح الباري: «ورواته ثقات إلا أن أبا سلمة لم يسمعه من عبادة». وانظر: الكافي الشاف ص (٨٤).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري، حدثني سعيد بن المسيب، أن أبا هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لمْ يَبْقَ من النبوةِ إلّا المُبَشِّرات»، قالوا: وما المبشراتُ؟ قال: «الرؤيا الصالحةُ»(١) .

وقيل: البشرى في الدنيا هي: الثناء الحسن وفي الآخرة: الجنة .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا عبدالرزاق بن أبي شريح، أخبرنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة عن أبي عمران الجوني قال: سمعتُ عبدالله بن الصامت قال: قال أبو ذر: يارسول الله الرجل يعمل لنفسه ويحبه الناس؟ قال: «تلكَ عاجِلُ بُشْرَى المؤمن»(٢). وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث عن يحيى بن يحيى عن حماد بن زيد عن أبي عمران، وقال: «ويحمده الناس عليه»(٣) .

وقال الزهري وقتادة: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله تعالى عند الموت، قال الله تعالى: «تتنزل عليهم الملائكة أنْ لا تخافُوا ولا تحزنوا وأبْشِرُوا بالجنة التي كنتُم تُوعَدُون» (فصلت ـ ٣٠) .

وقال عطاء عن ابن عباس: البشرى في الدنيا، يريد: عند الموت تأتيهم الملائكة بالبشارة، وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن، يُعْرَجُ بها إلى الله، ويُبشَّر برضوان الله.

وقال الحسن: هي ما بشَّر الله المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه، كقوله: «وبَشِّرِ الذينَ آمنُوا وعملوا الصالحات» (البقرة ـ ٢٥)، «وبَشِّرِ المؤمنين» (الأحزاب ـ ٤٧) «وأبْشِرُوا بالجنة» (فصِّلت ـ ٣٠) .

وقيل: بشّرهم في الدنيا بالكتاب والرسول أنهم أولياء الله، ويبشرهم في القبور وفي كتب أعمالهم بالجنة(٤) .

﴿لا تبديلَ لكلمات الله﴾، لا تغييرَ لقوله، ولا خُلْفَ لوعدِه. ﴿ذلكَ هُوَ الفَوْزُ العظيم﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير، باب المبشرات: ١٢/٣٧٥، والمصنف في شرح السنة: ١٢/٢٠٢ .

(٢) شرح السنة للبغوي: ١٤/٣٢٧ .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى لا تضرّه، برقم (٢٦٤٢): ٤/٢٠٣٤-٢٠٣٥، والمصنف في شرح السنة: ١٤/٣٢٨ .

(٤) ساق الإمام الطبري رحمه الله، الأقوال في تفسير «البشرى» التي بشرَّ الله بها هؤلاء القوم، ثم قال: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أن لأوليائه المتقين، البشرى في الحياة الدنيا. ومن البشارة في الحياة الدنيا: الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له، ومنها بشرى الملائكة إياه، عند خروج نفسه، برحمة الله، كما روي عن النبي ﷺ...، ومنها بشرى الله إياه ما وعده في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ من الثواب الجزيل... وكل هذه المعاني من بشرى الله إياه في الحياة الدنيا بشَّره بها، ولم يخصص الله من ذلك معنىً دون معنى، فذلك مما عمَّه جل ثناؤه: أن لهم البشرى في الحياة الدنيا. وأما في الآخرة فالجنة» انظر: تفسير الطبري: ١٥/١٤٠-١٤١ .

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ
لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ
اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي
جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ولا يَحْزُنْكَ قولُهم﴾، يعني: قول المشركين تمَّ الكلام هاهنا ثم ابتدأ، فقال: **﴿إنّ العِزّةَ للّهِ﴾**، يعني الغلبة والقدرة لله **﴿جميعاً﴾** هو ناصرك، وناصر دينك، والمنتقم منهم .

قال سعيد بن المسيب: إنّ العزّةَ للّهِ جميعاً يعني: إن الله يعزّ من يشاء، كما قال في آية أخرى: «وللّهِ العِزّةُ ولرسولِه وللمؤمنين» (المنافقون ــ ٨)، وعزة الرسول والمؤمنين بالله فهي كلها لله.

﴿هو السميعُ العليمُ﴾ .

﴿ألَا إنّ للّهِ مَن في السمواتِ ومَن في الأرض وما يَتّبعُ الذينَ يدعُون من دُونِ الله شُركاءَ﴾، هو استفهام معناه: وأيّ شيء يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟

وقيل: وما يتبعون حقيقة، لأنهم يعبدونها على ظن أنهم شركاء فيشفعون لنا، وليس على ما يظنون. **﴿إنْ يتّبعُونَ إلّا الظنَّ﴾**، يظنون أنها تُقرّبهم إلى الله تعالى، **﴿وإنْ هم إلّا يخرصُونَ﴾**، يكذبون .

﴿هو الذي جعل لكم الليلَ لتسكنُوا فيه والنّهارَ مبصراً﴾، مضيئاً يبصر فيه، كقولهم: ليل نائم وعيشة راضيةٌ. قال قُطرب: تقول العرب: أظلم الليل وأضاء النهار وأبصر، أي: صار ذا ظلمة وضياء وبصر، **﴿إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعُون﴾**، سمعَ الاعتبار أنه مما لا يقدر عليه إلّا عالم قادر .

﴿قالوا﴾، يعني: المشركين، **﴿اتّخذَ اللّهُ ولداً﴾**، وهو قولهم الملائكة بنات الله، **﴿سبحانه هو الغني﴾**، عن خلقه، **﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾**، عبيداً وملكاً، **﴿إنْ عندكم﴾**، ما عندكم، **﴿مِن سُلطانٍ﴾**، حجة وبرهان، و«من» صلة، **﴿بهذا أتقولُون على اللّهِ مالَا تعلمون﴾** .

﴿قلْ إنّ الذينَ يفترُونَ على / اللّهِ الكذبَ لا يُفلِحُون﴾، لا ينجون، وقيل: لا يبقون في الدنيا ولكن: ١٧١/ أ

مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ
يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم
مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا
يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم
مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾

﴿متاعٌ﴾، قليل يتمتعون به وبلاغ ينتفعون به إلى إنقضاء آجالهم، و«متاع» رفع بإضمار، أي: هو متاع، **﴿في الدنيا ثم إلينا مَرْجِعُهُم ثمّ نُذيقُهُمُ العذابَ الشديد بما كانُوا يكفرُون﴾** .

قوله تعالى: **﴿واتلُ عليهمْ نبأ نوح﴾**، أي: اقرأ يامحمد على أهل مكة خبر نوح **﴿إذْ قالَ لقومِهِ﴾**، وهم ولد قابيل، **﴿ياقومِ إنْ كانَ كَبُرَ عليكم﴾**، عَظُم وثَقُلَ عليكم، **﴿مقامي﴾** طول مكثي فيكم **﴿وتذْكِيري﴾**، ووَعْظي إيّاكم **﴿بآياتِ اللهِ﴾**، بحججه وبيناته، فعزمتم على قتلي وطردي **﴿فعلى اللهِ توكلتُ فأجمِعُوا أمرَكُم﴾**، أي: أحكموا أمركم واعزِمُوا عليه، **﴿وشركاءَكُم﴾**، أي: وادعوا شركاءكم، أي: آلهتكم، فاستعينوا بها لتجتمع معكم .

وقال الزجاج: معناه: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، فلما ترك «مع» انتصب. وقرأ يعقوب: «وشركاؤكم» رفعٌ، أي: فأجمعوا أمركم أنتم وشركاؤهم .

﴿ثم لا يكنْ أمرُكم عليكم غُمّةً﴾، أي: خفيّاً مبهماً، من قولهم: غمَّ الهلال على الناس، أي: أشكل عليهم، **﴿ثمّ اقْضُوا إليّ﴾**، أي: أَمضُوا ما في أنفسكم وافرغوا منه، يقال: قضى فلان إذا مات ومضى وقضى دينه إذا فرغ منه .

وقيل: معناه: توجهوا إليّ بالقتل والمكروه .

وقيل فاقضوا ما أنتم قاضون، وهذا مثل قول السحرة لفرعون: «فاقْضِ ما أنتَ قاضٍ» (طه ــ ٧٢)، أي: اعمل ما أنت عامل .

﴿ولا تُنظِرُون﴾، ولا تؤخرون وهذا على طريق التعجيز، أخبر الله عن نوح أنه كان واثقاً بنصر الله تعالى غير خائف من كيد قومه، علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضر إلا أن يشاء الله .

﴿فإنْ توليتُم﴾ أعرضتم عن قولي وقَبولِ نصحي، **﴿فما سألتُكم﴾**، على تبليغ الرسالة والدعوة، **﴿مِنْ أجرٍ﴾**، جُعْلٍ وعِوَض، **﴿إن أجْرِيَ﴾**، ما أجرى وثوابي، **﴿إلّا على اللّهِ، وَأُمِرْتُ أن أكون مِنَ المسلمين﴾**، أي: من المؤمنين. وقيل: من المستسلمين لأمر الله .

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ
فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ
قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ
بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ
هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ
ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ
فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

﴿**فكذّبوه**﴾، يعني نوحاً ﴿**فنجّيناه ومَن معه في الفُلْكِ وجعلناهم خلائف**﴾، أي: جعلنا الذين معه في الفلك سكان الأرض خلفاء عن الهالكين. ﴿**وأغرقْنا الذينَ كذَّبوا بآياتِنا فانظرْ كيفَ كانَ عاقبةُ المنذَرين**﴾، أي: آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا .

﴿**ثمّ بعثنا مِنْ بعدِه رُسلاً**﴾، أي: من بعد نوح رسلاً. ﴿**إلى قومهم فجاءوهم بالبيّناتِ**﴾ بالدلالات الواضحات، ﴿**فما كانوا لِيؤْمِنُوا بما كذَّبُوا بِهِ مِن قبل**﴾، أي: بما كذب به قوم نوح من قبل، ﴿**كذلك نطبع**﴾، أي: نختم، ﴿**على قلوبِ المُعتدين**﴾ .

﴿**ثمّ بعثنا مِنْ بعدِهم موسى وهارون إلى فرعونَ ومَلَئِهِ**﴾، يعني: أشراف قومه، ﴿**بآياتِنا فاستكبَرُوا وكانوا قوماً مجرمين**﴾ .

﴿**فلما جاءَهم**﴾، يعني: جاء فرعون وقومه، ﴿**الحقُّ من عندِنا قالوا إنَّ هذا لسحرٌ مبين**﴾ .

﴿**قالَ موسى أتقولُونَ للحقِّ لمّا جاءَكم أسِحْرٌ هذا**﴾، تقدير الكلام أتقولون للحقِّ لما جاءكم سحر أسحر هذا فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه. ﴿**ولا يُفلِحُ السّاحِرُون**﴾ .

﴿**قالوا**﴾، يعني: فرعون وقومه لموسى، ﴿**أجئتنا لِتَلْفِتَنا**﴾، لتصرفنا. وقال قتادة لتلوينا، ﴿**عمّا وجدْنا عليه آباءَنا وتكون لكما الكبرياء**﴾، الملك والسلطان، ﴿**في الأرض**﴾، أرض مصر وقرأ أبو بكر: «ويكون» بالياء، ﴿**وما نحن لكما بمؤمنين**﴾، بمصدّقين .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟
مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

﴿وقالَ فرعونُ ائتوني بكلِّ ساحرٍ عليم﴾ .

﴿فلمّا جاءَ السحرةُ قال لهم موسى ألقُوا ما أنتُمْ مُلْقونَ﴾ .

﴿فلمّا ألقَوْا قال موسى ما جئتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾، قرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «آلسحر» بالمدّ على الاستفهام وقرأ الآخرون بلا مدٍّ، يدل عليه قراءة ابن مسعود «ما جئتُم بِهِ سحرٌ» بغير الألف واللام.

﴿إنّ اللّهَ سيُبْطِلُه إنّ اللهَ لا يُصلِحُ عملَ المفسدين﴾ .

﴿ويُحِقُّ اللّهُ الحقَّ بكلماتِه﴾، بآياته، **﴿ولو كَرِهَ المجرمون﴾** .

﴿فما آمنَ لموسى﴾، لم يصدِّق موسىٰ مع ما آتاهم به من الآيات، **﴿إلّا ذريةٌ من قومِهِ﴾**، اختلفوا في الهاء التي في «قومه»، قيل: هي راجعة إلى موسى، وأراد بهم مؤمني بني إسرائيل الذين كانوا بمصر وخرجوا معه. قال مجاهد: كانوا أولاد الذين أرسل إليهم موسى من بني إسرائيل، هلك الآباء وبقي الأبناء.

وقال الآخرون: الهاء راجعة إلى فرعون. روى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم ناسٌ يسيرٌ من قوم فرعون آمنوا، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وماشطته، وعن ابن عباس رواية أخرى: أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون، وأمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله .

وقيل: هم قوم نجوا من قتل فرعون، وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة، من بني إسرائيل إذا ولدت ابناً وهبته لقبطية خوفاً من القتل، فنشؤوا عند القبط، وأسلموا في اليوم الذي غُلِبَت السحرة .

قال الفرّاء: سُمّوا ذرية؛ لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن: الأبناء، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

﴿**على خوف من فرعون وملئهم**﴾، قيل: أراد بفرعون آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون وملئهم، كما قال: «واسئل القرية» (يوسف ــ ٨٢) أي: أهل القرية. وقيل: إنما قال: «وملئهم» وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر يفهم منه هو وأصحابه، كما يُقال قدم الخليفة يُراد هو ومن معه. وقيل: أراد ملأ الذرية، فإن ملأهم كانوا من قوم فرعون. ﴿**أنْ يفتِنَهم**﴾. أي: يصرفهم عن دينهم ولم يقل يفتنوهم لأنه أخبر عن فرعون وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون، ﴿**وإنّ فرعونَ لعالٍ**﴾، لمتكبر، ﴿**في الأرض وإنّه لمن المسرفين**﴾، المجاوزين الحدّ، لأنه كان عبداً فادّعى الربوبية .

﴿**وقال موسى**﴾، لمؤمني قومه، ﴿**ياقوم إنْ كنتُمْ آمنتُمْ باللّهِ فعليهِ توكَّلوُا إنْ كنتُمْ مسلمين**﴾ .

﴿**فقالوا على اللّهِ توكّلنا**﴾، اعتمدنا، ثم دعوا فقالوا، ﴿**ربَّنا لا تجعلْنا فتنةً للقوم الظالمين**﴾، أي: لا تُظهرْهُم علينا ولا تُهلكنا بأيديهم، فيظنوا أنا لم نكن على الحق فيزدادوا طغياناً. وقال مجاهد: لاتعذبنا بعذابٍ من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على الحق لما عُذّبوا ويظنوا أنهم خير منّا فيُفتتنوا .

﴿**ونجّنا برحمتِكَ مِنَ القومِ الكافرين**﴾ .

قوله تعالى: ﴿**وأوحينا إلى موسى وأخيه**﴾، هارون، ﴿**أنْ تبوّآ لقومِكُمَا بمصرَ بُيوتاً**﴾ يقال: تبوّأ فلان لنفسه بيتاً ومضجعاً إذا اتخذه، وبوّأته أنا إذا اتخذتُه له، ﴿**واجْعَلُوا بيوتَكم قِبْلَةً**﴾، قال أكثر
١٧١/ب المفسرين: / كانت بنو إسرائيل لا يصلون إلا في كنائسهم وبِيَعِهم، وكانت ظاهرة، فلما أُرسل موسى أمر فرعون بتخريبها ومنعهم من الصلاة فأُمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون، هذا قول إبراهيم وعكرمة عن ابن عباس .

وقال مجاهد: خاف موسى ومن معه من فرعون أن يصلوا في الكنائس الجامعة، فأُمروا بأن يجعلوا في بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سرّاً. معناه: واجعلوا بيوتكم إلى القبلة.

وروى ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت الكعبة قِبْلَةَ موسى ومن معه.

﴿**وأقيموا الصلاة وبشّرِ المؤمنين**﴾، يامحمد .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا
لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ
يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى: ﴿**وقال موسى ربَّنا إنّك آتيتَ فرعونَ وملأهُ زينةً**﴾، من متاع الدنيا، ﴿**وأموالاً في الحياةِ الدّنيا ربَّنا لِيُضِلُّوا عن سَبِيلِك**﴾، اختلفوا في هذه اللام، قيل: هي لامُ كي، معناه: آتيتهم كي تفتنهم فيضلوا ويضلوا، كقوله: «لأسقيناهم ماءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهمْ فيه» (الجن ــ ١٦) .

وقيل: هي لام العاقبة يعني: فيضلوا وتكون عاقبة أمرهم الضلال، كقوله: «فالْتَقَطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدوّاً وحَزَناً» (القصص ــ ٨) .

قوله: ﴿**ربَّنا اطْمِسْ على أموالِهم**﴾، قال مجاهد: أهلِكْها، والطمس: المَحْق.

وقال أكثر أهل التفسير: امسخها وغيِّرها عن هيئتها .

وقال قتادة: صارت أموالهم وحروثُهم وزروعُهم وجواهرهم حجارةً .

وقال محمد بن كعب: جعل سكرَّهم حجارة[1]، وكان الرجل مع أهله في فراشه فصارا حجرين، والمرأة قائمة تخبز فصارت حجراً .

قال ابن عباس رضي الله عنه: بلغنا أن الدارهم والدنانير صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً .

ودعا عمر بن عبدالعزيز بخريطة فيها أشياء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة مشقوقة وإنها لحجر .

قال السدي: مسخ الله أموالهم حجارة، والنخيل والثمار والدقيق والأطعمة، فكانت إحدى الآيات التسع.

﴿**واشْدُدْ على قلوبهم**﴾، أي: أقْسِهَا واطبعْ عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، ﴿**فلا يُؤمنوا**﴾، قيل: هو نصب بجواب الدعاء بالفاء. وقيل: هو عطف على قوله «ليضلوا» أي: ليضلوا فلا يؤمنوا . وقال الفراء: هو دعاء محله جزم، فكأنه قال: اللهم فلا يؤمنوا، ﴿**حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ**﴾، وهو الغرق. قال السدي: معناه أَمِتْهُم على الكفر .

﴿**قالَ**﴾ الله تعالى لموسى وهارون، ﴿**قد أُجِيبَتْ دعوتُكما**﴾، إنما نسب إليهما والدعاء كان من موسى لأنه رُوي أن موسى كان يدعو وهارون يؤمِّن، والتأمين دعاء. وفي بعض القصص: كان بين دعاء

---

(١) انظر: الطبري: ١٥/١٧٩ـ١٨٢، الدر المنثور: ٤/٣٨٤ .

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

موسى وإجابته أربعون سنة[1]. ﴿فاستقيما﴾، على الرسالة والدعوة، وامضيا لأمري إلى أن يأتيهم العذاب ﴿ولا تتبعانِّ﴾، نهي بالنون الثقيلة، ومحله جزم، يقال في الواحد لا تتبعنَّ بفتح النون لالتقاء الساكنين، وبكسر النون في التثنية لهذه العلة. وقرأ ابن عامر بتخفيف النون لأن نون التوكيد تثقَّل وتخفف، ﴿سبيلَ الذينَ لا يعلمُون﴾، يعني: ولاتسلكا طريق الذين يجهلون حقيقة وَعْدي، فإن وعدي لا خُلْفَ فيه، ووعيدي نازل بفرعونَ وقومِه .

﴿وجَاوَزْنَا بني إسرائيل البحرَ﴾، عبرنا بهم ﴿فأتْبَعَهُمْ﴾، لحقهم وأدركهم، ﴿فرعونُ وجنودُهُ﴾، يقال: «أتبعه وتَبِعه» إذا أدركه ولحقه، و«اتّبعه» بالتشديد إذا سار خلفه واقتدى به. وقيل: هما واحد. ﴿بغياً وعَدْواً﴾ أي: ظلماً واعتداءً. وقيل: بغياً في القول وعدواً في الفعل. وكان البحر قد انفلق لموسى وقومه، فلما وصل فرعون بجنوده إلى البحر هابوا دخوله فتقدمهم جبريل على فرس وَدِيْق[2] وخاض البحر، فاقتحمت الخيول خلفه، فلما دخل آخرهم وهمَّ أولهم أن يخرج انطبق عليهم الماء. وقوله تعالى: ﴿حتى إذا أدْرَكَه الغرقُ﴾، أي: غمره الماء وقرب هلاكه، ﴿قال آمنتُ أنه﴾، قرأ حمزة والكسائي «إنه» بكسر الألف أي: آمنت وقلت إنه. وقرأ الآخرون «أنه» بالفتح على وقوع آمنت عليها ﴿لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيلَ وأنا مِنَ المسلمين﴾، فدسّ جبريل عليه السلام في فِيْهِ مِنْ حمأة البحر .

وقال: ﴿آلآنَ وقدْ عصيتَ قَبْلُ وكنتَ مِنَ المُفسدين﴾. ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل عليه السلام: يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حال[3] البحر فأدسّه في فِيْهِ مخافةَ أن تدركه[4] الرحمة»[5]. فلما أخبر موسى قومه بهلاك فرعون وقومه قالت بنو إسرائيل ما مات فرعون فأمر الله البحر

---

(١) انظر: الطبري: ١٥/١٨٧ .

(٢) يقال: أتانٌ وفَرَسٌ ودُوق ووَدِيْق، وودقَتْ وَدَاقاً: أرادت الفحل .

(٣) في «ب» (حمأ) .

(٤) في « أ »: (يدركه جانب الرحمة) .

(٥) أخرجه الترمذي في تفسير سورة يونس: ٨/٢٢٥، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي: ١/٥٧، ٤/٢٤٩، وابن حبان ص (٤٣٢)، والطبري: ١٤/١٩٠-١٩٢، والطيالسي ص (٣٤١) والإمام أحمد في المسند: ١/٣٤٠. وانظر: الكافي الشاف ص (٨٥) .
=

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيراً كأنّه ثور فرآه بنو إسرائيل فمن ذلك الوقت لا يقبل الماءُ مَيْتاً، فذلك قوله :

﴿فاليوم نُنجّيك﴾، أي نُلقيك على نجوة من الأرض، وهي: المكان المرتفع. وقرأ يعقوب «نُنجِيْك» بالتخفيف، ﴿ببدنِك﴾، بجسدك لا روح فيه. وقيل: ببدنك: بدرعك، وكان له درع مشهور مرصّع بالجواهر، فرأوه في درعه فصدّقوا. ﴿لتكونَ لِمَنْ خلفَك آيةً﴾، عِبرةً وعظةً، ﴿وإنّ كثيراً من الناس عنْ آياتنا لغافِلون﴾ .

﴿ولقدْ بَوّأْنا بني إسرائيلَ﴾ [أنزلنا بني إسرائيل][(1)] بعد هلاك فرعون، ﴿مُبوَّأَ صدقٍ﴾، منزل صدق، يعني: مصر. وقيل الأردن وفلسطين، وهي الأرض المقدسة التي كتبَ اللّهُ [ميراثاً][(2)] لإبراهيم وذريته. قال الضحاك: هي مصر والشام، ﴿ورزقْناهم منَ الطيباتِ﴾، الحلالات، ﴿فما اختلفُوا﴾ يعني

= وقد زعم الزمخشري في «الكشاف» أن ما جاء في الحديث من قول جبريل عليه السلام: «خشية أن تدركه الرحمة» «من زيادات الباهتين لله وملائكته. وفيه جهالتان: إحداهما أن الإيمان بالقلب، كإيمان الأخرس، فحالُ البحر لا يمنعه. والأخرى: أن من كره إيمان الكافر وأحبَّ بقاءه على الكفر فهو كافر، لأن الرضى بالكفر كفر». الكشاف: ٢/٢٠٢ .

وردَّ عليه الحافظ ابن حجر فقال: «وهذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والغضّ من أهله، فإن الحديث صحيح الزيادات، وقد أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي، وابن حبان، والحاكم، وإسحاق، والبزار، وأبو داوود الطيالسي كلهم من رواية شعبة... ثم ساق الروايات بأسانيدها ـ ثم قال:

وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري، فللحديث توجيه وجيه، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشري، وذلك أن فرعون كان كافراً كفر عناد.. ألا ترى إلى قصته حيث توقف النيل، وكيف توجه منفرداً وأظهر أنه مخلص، فأجرى له النيل، ثم تمادى على طغيانه وكفره، فخشي جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الإخلاص بلسانه فتدركه رحمة الله فيؤخره في الدنيا، فيستمر في غيّه وطغيانه فدسَّ في فمه الطين، ليمنعه التكلم بما يقتضي ذلك. هذا وجه الحديث، ولا يلزم منه جهل ولا رضىً بكفر. بل الجهل كل الجهل ممن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد .

وأيضاً: فإن إيمانه في تلك الحالة ـ على تقدير أنه كان صادقاً ـ بقلبه لا يقبل، لأنه وقع في حال الاضطرار، ولذلك عقب في الآية بقوله: «آلآن وقد عصيت قبل» وفيه إشارة في قوله تعالى: «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» .

انظر: الكافي الشاف ص (٨٥ـ٨٦) .

(١) ساقط من: «أ» .

(٢) زيادة من «ب» .

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ
جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

اليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ في تصديقه وأنه نبي، ﴿حتى جاءهُمُ العلمُ﴾، يعني: القرآن والبيان بأنّه رسولُ [الله][1] صدق ودينُه حق .

وقيل: حتى جاءهم معلومهم، وهو محمد ﷺ، لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه، فالعلم بمعنى المعلوم كما يقال للمخلوق: خَلْقٌ، قال الله تعالى: «هذا خلقُ اللّهِ» (لقمان ــ ١١)، ويقال: هذا الدرهم ضَرْبُ الأمير، أي: مضروبُه .

﴿إنّ ربَّك يقضي بينهم يومَ القيامةِ فيما كانُوا فيه يختلفُون﴾، من الدين .

قوله تعالى: ﴿فإن كنتَ في شكٍ مما أنزلنا إليك﴾، يعني: القرآن ﴿فاسألِ الذينَ يَقْرَءُون الكتابَ من قَبلِكَ﴾، فيخبرونك أنه مكتوب عندهم في التوراة .

قيل: هذا خطاب للرسول ﷺ والمراد به غيره على عادة العرب، فإنهم يخاطبون الرجل ويريدون به
غيره، كقوله تعالى: «ياأيها النبي اتقِ الله»/(الأحزاب ــ ١)، خاطب النبي ﷺ والمراد به المؤمنون، بدليل أنه ١٧٢/ أ
قال: «إن اللّهَ كان بما تعملون خبيراً» و لم يقل: «بما تعمل» وقال: «ياأيها النبي إذا طلقتم النساء» (الطلاق ــ ١).

وقيل: كان الناس على عهد النبي ﷺ بين مصدق ومكذب وشاك، فهذا الخطاب مع أهل الشك، معناه: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان رسولنا محمد، فاسأل الذين يقرؤون الكتابَ من قبلك .

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: يعني من آمن من أهل الكتاب؛ كعبد الله بن سلام وأصحابه، فيشهدون على صدق محمد ﷺ ويخبرونك بنبوته .

قال الفرّاء: عَلِمَ الله سبحانه وتعالى أن رسوله غيرُ شاكٍّ، لكنه ذكره على عادة العرب، يقول الواحد منهم لعبده: إن كنت عبدي فأطعني، ويقول لولده: افعل كذا وكذا إنْ كنتَ ابني، ولا يكون بذلك على وجه الشك.

﴿لقدْ جاءَكَ الحقُّ مِن رَّبِّك فلا تكونَنَّ مِنَ المُمتَرِين﴾، من الشاكين .

﴿ولا تكونَنّ مِنَ الذين كذَّبُوا بآياتِ اللّهِ فتكونَ مِنَ الخاسِرِين﴾، وهذا كله خطاب مع النبي ﷺ والمراد منه غيره .

---

(١) زيادة من «ب» .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ
ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ
إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ
حِينٖ ٩٨﴾

قوله تعالى: ﴿إنّ الذينَ حَقّتْ عليهم﴾، وجبتْ عليهم، ﴿كلمةُ ربِّك﴾، قيل: لعنته. وقال قتادة سخط الله. وقيل: «الكلمة» هي قوله: هؤلاء في النار ولا أُبالي. ﴿لا يؤمنون﴾.

﴿ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ﴾، دلالة، ﴿حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾، قال الأخفش: أَنَّث فِعْلَ «كل» لأنه مضاف إلى المؤنث وهي قوله: «آية» ولفظ «كل» للمذكر والمؤنث سواء.

قوله تعالى: ﴿فلولا كانتْ﴾ أي: فهلا كانت، ﴿قريةٌ﴾، ومعناه: فلم تكن قرية لأن في الاستفهام ضرباً من الجحد، أي: أهل قرية، ﴿آمنتْ﴾، عند معاينة العذاب، ﴿فنَفَعَها إيمانُها﴾، في [حالة البأس][(1)] ﴿إلّا قومَ يُونُسَ﴾، فإنه نفعهم إيمانهم في ذلك الوقت. و«قوم» نصبٌ على الاستثناء المنقطع، تقديره: ولكن قوم يونس، ﴿لمّا آمنُوا كشفنا عنهم عذابَ الخِزي في الحياة الدنيا ومتَّعْناهم إلى حين﴾، وهو وقت انقضاء آجالهم.

واختلفوا في أنهم هل رأوا العذاب عياناً أم لا؟ فقال بعضهم: رأوا دليل العذاب؟ والأكثرون على أنهم رأوا العذاب عياناً بدليل قوله: «كَشَفْنَا عنهم عذابَ الخزي» والكشف يكون بعد الوقوع أو إذا قَرُب.

وقصة الآية ـ على ما ذكره عبدالله بن مسعود، وسعيد بن جبير، ووهب وغيرهم[(2)] ـ أن قوم يونس كانوا بنينوى، من أرض الموصل، فأرسل الله اليهم يونس يدعوهم إلى الإيمان فدعاهم فأبوا، فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث، فأخبرهم بذلك، فقالوا: إنا لم نجرب عليه كذباً فانظرُوا فإن بات فيكم تلك الليلة فليس بشيء، وإن لم يبت فاعلموا أن العذاب مصبحكم، فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس من بين أظهرهم، فلما أصبحوا تغشاهم العذاب فكان فوق رؤوسهم قدر ميل.

وقال وهب غامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخاناً شديداً، فهبط حتى [تغشّاهم في

---

(1) في «ب»: (في حال اليأس).

(2) انظر: تفسير الطبري: ١٥/٢٠٧ـ٢١٠، الدر المنثور: ٤/٣٩٢ـ٣٩٣، البداية والنهاية لابن كثير: ١/٢٣١ وما بعدها، تفسير ابن كثير: ٢/٤٣٤.

مدينتهم][1] واسودت سطوحهم، فلما رأوا ذلك أيقنوا بالهلاك، فطلبوا يونس نبيهم فلم يجدوه، وقذف الله في قلوبهم التوبة، فخرجوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم [وصبيانهم][2] ودوابهم، ولبسوا المسوح وأظهروا الإيمان والتوبة، وأخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والأنعام فحنَّ بعضُها إلى بعض، وعلتِ أصواتها، واختلطتْ أصواتُها بأصواتهم، وعجُّوا وتضرعوا إلى الله عزّ وجلّ، وقالوا آمنا بما جاء به يونس، فرحمهم ربهم فاستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب بعد ما أضلهم، وذلك يوم عاشوراء، وكان يونس قد خرج فأقام ينتظر العذاب وهلاك قومه فلم يرَ شيئاً، وكان مَنْ كذَّب ولم تكن له بينة قتل، فقال يونس: كيف أرجع إلى قومي وقد كذبتهم؟ فانطلق عاتباً على ربِّه مغاضباً لقومه، فأتى البحر فإذا قوم يركبون سفينة، فعرفوه فحملوه بغير أجر، فلما دخلها وتوسطت بهم ولججت، وقفت السفينة لا ترجع ولا تتقدم، قال أهل السفينة: إن لسفينتنا لشأناً، قال يونس: قد عرفت شأنها ركبها رجل ذو خطيئة عظيمة، قالوا ومن هو؟ قال: أنا، اقذفوني في البحر، قالوا: ما كنا لنطرحك من بيننا حتى نعذر في شأنك، واستَهَمُوا فاقترعُوا ثلاثَ مرات فأدحض سهمه، والحوت عند رِجْل السفينة فاغراً فاه ينتظر أمر ربِّه فيه، فقال يونس: إنكم والله لتهلكُنَّ جميعاً أو لَتطْرَحُنَّني فيها، فقذفوه فيه وانطلقوا وأخذه الحوت.

ورُوي: أن الله تعالى أوحى إلى حوتٍ عظيم حتى قصد السفينة، فلما رآه أهل السفينة مثل الجبل العظيم وقد فغر فاه ينظر إلى مَنْ في السفينة كأنه يطلب شيئاً خافوا منه، ولما رآه يونس زجّ نفسه في الماء.

وعن ابن عباس: أنه خرج مغاضباً لقومه فأتى بحر الروم فإذا سفينة مشحونة، فركبها فلما لججت السفينة، تكفَّأت حتى كادوا أن يغرقوا، فقال الملَّاحون: هاهنا رجل عاصٍ أو عبد آبق، وهذا رسم السفينة إذا كان فيها آبق لا تجري، ومن رسمنا أن نقترع في مثل هذا فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر، ولأنْ يغرق واحد خير من أن تغرق السفينة بما فيها، فاقترعوا ثلاثَ مرات، فوقعت القرعة في كلها على يونس، فقال يونس: أنا الرجل العاصي والعبد الآبق، فألقى نفسه في المـاء فابتلعه حوت، ثم جاء حوت آخر أكبر منه وابتلع هذا الحوت، وأوحى الله إلى الحوت لا تؤذي منه شعرة، فإني جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعاماً لك.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نُودي الحوت: إنّا لم نجعل يونس لك قوتاً، إنما جعلنا بطنك له حرزاً ومسجداً.

ورُوي: أنه قام قبل القرعة فقال: أنا العبد العاصي والآبق، قالوا: من أنت؟ قال: أنا يونس بن متى، فعرفوه فقالوا: لا نلقيك يارسول الله، ولكن نُساهِمْ فخرجتِ القرعةُ عليه، فألقىٰ نفسه في الماء.

---

(١) في «ب»: (غشي مدينتهم).
(٢) ليست في «أ».

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ابتلعه الحوت فأهوى به إلى قرار الأرض السابعة، وكان في بطنه أربعين ليلة فسمع تسبيح الحصى، فنادى في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ مِنَ الظالمين، فأجاب الله له فأمر الحوت، فنبذه على ساحل البحر، وهو كالفرخ الممعط، فأنبت الله عليه شجرةً من يقطين، وهو الدباء، فجعل يستظل تحتها ووكل به وعلة يشرب من / لبنها، فيبست الشجرة، فبكى عليها ١٧٢/ ب
فأوحى الله إليه: تبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون وأردت أن أهلكهم، فخرج يونس فإذا هو بغلام يرعى، فقال: من أنت ياغلام؟ قال: من قوم يونس، قال: إذا رجعتَ إليهم فأخبرهم أني لقيت يونس، فقال الغلام: قد تعلم أنه إن لم تكن لي بينة قُتِلتُ، قال يونس عليه السلام: تشهد لك هذه البقعة وهذه الشجرة، فقال له الغلام: فمُرْها، فقال يونس: إذا جاءكما هذا الغلام فاشهدا له، قالتا: نعم، فرجع الغلام، فقال للملك: إني لقيت يونس فأمر الملك بقتله، فقال: إنّ لي بينة، فأرسلوا معي، فأتى البقعة والشجرة، فقال: أنشدكما بالله هل أشهدكما يونس؟ قالتا: نعم، فرجع القوم مذعورين، وقالوا للملك: شهد له الشجرة والأرض، فأخذ الملك بيد الغلام وأجلسه في مجلسه، وقال: أنت أحق بهذا المكان مني، فأقام لهم أمرهم ذلك الغلامُ أربعين سنة .

قوله تعالى: ﴿**ولو شاءَ ربُّك**﴾، يامحمد، ﴿**لآمَنَ مَنْ في الأرض كلُّهُمْ جميعاً أفأنت تُكْرِهُ الناسَ حتّى يكونُوا مؤمنين**﴾، هذه تسلية للنبي ﷺ، وذلك أنه كان حريصاً على أن يؤمن جميع الناس، فأخبره الله جلّ ذكره: أنه لا يؤمن إلّا من قد سبق له من الله السعادة، ولا يضل إلّا من سبق له الشقاوة .

﴿**وما كانَ لنفسٍ**﴾، وما ينبغي لنفس. وقيل: ما كانت نفس، ﴿**أن تُؤمنَ إلّا بإذنِ اللّهِ**﴾، قال ابن عباس: بأمر الله. وقال عطاء: بمشيئة الله. وقيل: بعلم الله. ﴿**ويجعلُ الرِّجسَ**﴾، قرأ أبو بكر: «ونجعل» بالنون، والباقون بالياء، أي: ويجعل الله الرجسَ أي: العذاب وهو الرجز، ﴿**على الذينَ لا يعقلُون**﴾، عن الله أمره ونهيه .

﴿**قُلِ انظرُوا**﴾، أي: قلْ للمشركين الذين يسألونك الآيات انظروا، ﴿**ماذا في السمواتِ والأرضِ**﴾، من الآيات والدلائل والعبر، ففي السموات الشمس والقمر والنجوم وغيرها، وفي الأرض

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾

الجبال والبحار والأنهار والأشجار وغيرها، ﴿**وما تُغني الآياتُ والنُّذر**﴾، الرسل، ﴿**عن قومٍ لا يؤمنون**﴾، وهذا في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون .

﴿**فهلْ ينتظِرُون**﴾، يعني: مشركي مكة، ﴿**إلّا مِثْلَ أيّامِ الذينَ خلَوْا**﴾، مضوا، ﴿**من قبلِهم**﴾، من مكذبي الأمم، قال قتادة: يعني وقائع الله في قوم نوح وعاد وثمود. والعرب تسمي العذاب أياماً، والنعيم أياماً، كقوله: «وذكرهم بأيام الله» (إبراهيم ــ ٥)، وكل ما مضى عليك من خير وشر فهو أيام، ﴿**قلْ فانتظِرُوا إني معكم من المنتظِرين**﴾ .

﴿**ثم نُنجّي رُسلَنا**﴾، قرأ يعقوب «نُنجي» خفيف مختلف عنه، ﴿**والذينَ آمنُوا**﴾، معهم عند نزول العذاب معناه: نجينا، مستقبلٌ بمعنى الماضي، ﴿**كذلك**﴾، كما نجيناهم، ﴿**حقّاً**﴾، واجباً، ﴿**علينا نُنجِ المؤمنين**﴾، قرأ الكسائي وحفص ويعقوب «ننجي» بالتخفيف والآخرون بالتشديد، ونَجّا وأنجى بمعنى واحد .

قوله تعالى: ﴿**قلْ يا أيها الناس إنْ كنتُمْ في شكٍّ مّن دِيني**﴾، الذي أدعوكم إليه .

فإن قيل: كيف قال: إن كنتم في شك، وهم كانوا يعتقدون بطلان ما جاء به؟ .

قيل: كان فيهم شاكّون، فهم المراد بالآية، أو أنهم لما رأوا الآيات اضطربوا وشكوا في أمرهم وأمر النبي ﷺ .

قوله عزّ وجلّ: ﴿**فلا أعبدُ الذينَ تعبدُون مِنْ دُونِ اللّهِ**﴾، من الأوثان، ﴿**ولكنْ أعبُدُ اللّهَ الذي يتوفّاكم**﴾، يُميتكم ويقبض أرواحكم، ﴿**وأُمرتُ أن أكونَ مِنَ المؤمنين**﴾ .

قوله: ﴿**وأنْ أقِمْ وجهَكَ للدّينِ حنيفاً**﴾، قال ابن عباس: عملك. وقيل: استقم على الدين حنيفاً. ﴿**ولا تكونَنّ مِنَ المشركين**﴾ .

وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ
لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿ولا تَدْعُ﴾، ولا تعبد، **﴿مِنْ دُونِ اللّهِ ما لَا ينفعُكَ﴾**، إن أطعته، **﴿ولا يضرُّكَ﴾**، إن عصيته، **﴿فإنْ فعلتَ﴾**، فعبدت غيرَ اللّه، **﴿فإنّك إذاً مِّنَ الظالمين﴾**، الضارين لأنفسهم الواضعين للعبادة في غير موضعها.

﴿وإنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بضُرٍّ﴾، أي: يصبك بشدة وبلاء، **﴿فلا كاشِفَ له﴾**، فلا دافع له، **﴿إلّا هُوَ وإنْ يُرِدْكَ بخيرٍ﴾**، رخاء ونعمة وسَعة، **﴿فلا رادّ لِفضْلِهِ﴾**، فلا مانع لرزقه، **﴿يُصيبُ بهِ﴾**، بكل واحد من الضر والخير، **﴿مَنْ يشاءُ من عبادِهِ وهو الغفُورُ الرحيمُ﴾**.

﴿قُلْ يا أيها الناسُ قدْ جاءَكُم الحقُّ مِن ربِّكم﴾، يعني: القرآن والإسلام، **﴿فمن اهْتَدى فإنّما يهتدي لنفسهِ ومَن ضَلَّ فإنّما يَضِلُّ عليها﴾**، أي: على نفسه، ووباله عليه، **﴿وما أنا عليكُمْ بوكيلٍ﴾**، بكفيل، أحفظ أعمالكم. قال ابن عباس: نسختها آية القتال(١).

﴿واتَّبِعْ ما يُوحَى إليكَ واصْبِرْ حتى يحكمَ اللهُ﴾، بنصرك وقهر عدوك وإظهار دينه، **﴿وهو خيرُ الحاكمين﴾**، فحكم بقتال المشركين وبالجزية على أهل الكتاب يعطونها عن يَدٍ وهم صاغرون.

(١) انظر فيما سبق: ٣/٣٢ تعليق (١)، الفوز الكبير للدهلوي ص (٥٣، ٦٠).

سُورَةُ هُودٍ

کلیهٔ [illegible]

سُورَةُ هُودٍ

مكيّة إلا قوله : ﴿وأقِمِ الصلاةَ طَرَفي النّهارِ﴾ وهي مائة وثلاث وعشرون آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ
إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا
حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

﴿**الر كِتابٌ**﴾، أي: هذا كتاب، ﴿**أُحْكِمَتْ آياتُه**﴾، قال ابن عباس: لم ينسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع به، ﴿**ثم فُصِّلَتْ**﴾، بُيِّنَتْ بالأحكام والحلال والحرام. وقال الحسن: أحكمت بالأمر والنهي، ثم فُصلتْ بالوعد والوعيد. قال قتادة: أحكمت أحكمها الله فليس فيها اختلاف ولا تناقض وقال مجاهد: فُصلتْ أي: فُسرت. وقيل: فصلتْ أي: أنزلت شيئاً فشيئاً، ﴿**مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ**﴾ .

﴿**ألّا تعبدُوا إلّا اللّهَ**﴾، أي: وفي ذلك الكتاب: أنْ لا تعبدوا إلّا الله، ويكون محل «أن» رفعاً. وقيل: محله خَفْضٌ، تقديره: بأن لا تعبدوا إلّا الله، ﴿**إنني لكم منه**﴾ أي: من الله ﴿**نذيرٌ**﴾، للعاصين، ﴿**وبشيرٌ**﴾، للمطيعين .

﴿**وأنِ**﴾، عطف على الأول، ﴿**استغفرُوا ربَّكم ثم تُوبُوا إليه**﴾، أي: ارجعوا إليه بالطاعة. قال الفرَّاء: «ثم» هنا بمعنى الواو، أي: وتوبوا إليه، لأن الاستغفار هو التوبة والتوبة هي الاستغفار.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾

وقيل: أن استغفروا [ربكم من المعاصي ثم توبوا][1] إليه في المستأنف[2].

﴿يمتعكُمْ مَّتاعاً حسناً﴾، يعيشكم عيشاً [حسناً في خفض ودعة وأمن وسعة][3]. قال بعضهم: العيش الحسن هو الرضى بالميسور والصبر على المقدور.

﴿إلى أجلٍ مسمّىً﴾، إلى حين الموت، ﴿ويُؤتِ كلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾، أي: ويؤت كل ذي عمل صالح في الدنيا أجره وثوابه في الآخرة. وقال أبو العالية: من كثرت طاعته في الدنيا زادت درجاته في الآخرة [في الجنة][4]، لأن الدرجات تكون بالأعمال.

وقال ابن عباس: من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب[5] الأعراف، ثم يدخل الجنة بعد.

وقيل: يؤت كل ذي فضل فضله / يعني: من عمل لله عزّ وجلّ وفّقه الله فيما يستقبل على طاعته. ١٧٣/أ

﴿وإنْ تَوَلَّوا﴾، أعرضوا، ﴿فإني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ كبيرٍ﴾، وهو يوم القيامة.

﴿إلى اللهِ مَرْجِعُكم وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ألَا إنهم يَثْنونَ صدورَهم﴾، قال ابن عباس[6]: نزلت في الأخنس بن شُريق وكان رجلاً حلو الكلام حلو المنظر، يَلْقَىٰ رسولَ الله ﷺ بما يحب، وينطوي بقلبه على ما يكره.

قوله: «يثنون صدورهم» أي: يُخفون[7] ما في صدورهم من الشحناء والعداوة.

قال عبدالله بن شداد: نزلت في بعض المنافقين كان إذا مَرَّ برسول الله ﷺ ثنى صدره وظهره، وطأطأ رأسه، وغطّى وجهه كي لا يراه النبي ﷺ[8].

(١) زيادة من «ب».
(٢) في «ب»: (المستقبل).
(٣) في «ب» (في سعة ودَعَةٍ وأمن).
(٤) ساقط من «ب».
(٥) زيادة من «ب».
(٦) انظر: أسباب النزول للواحدي ص (٣٠٦)، القرطبي: ٩/٥.
(٧) في «ب»: (يجمعون).
(٨) انظر: تفسير الطبري: ١٥/٢٣٣-٢٣٤.

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾

وقال قتادة: كانوا يَحْنُون صدورهم كي لا يسمعوا كتاب[1] الله تعالى ولا ذكره[2].

وقيل: كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويحني ظهره ويتغشى بثوبه. ويقول: هل يعلم الله ما في قلبي.

وقال السدي: يثنون أي: يعرضون بقلوبهم، من قولهم: ثنيت عناني. وقيل: يعطفون، ومنه ثني الثوب.

وقرأ ابن عباس: «يَثْنَوْني»[3] على وزن «يَحْلَوْ لِي» جعل الفعل للمصدر، ومعناه المبالغة في الثني.

﴿لِيَسْتَخْفُوا منه﴾، أي: من رسول الله ﷺ. قال مجاهد: ليستخفوا من الله إن استطاعوا، ﴿ألا حين يستغشون ثيابَهم﴾، يغطون رؤوسهم بثيابهم، ﴿يعلمُ ما يُسرون وما يُعلنون إنّه عليمٌ بذاتِ الصدور﴾، قال الأزهري: معنى الآية من أولها إلى آخرها: إن الذين أضمروا عداوة رسول الله ﷺ لا يخفى علينا حالهم.

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا الحسن[4] بن محمد بن صبَّاح، حدثنا حجاج قال: قال ابن جريج أخبرني محمد بن عبَّاد بن جعفر أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: ﴿ألَا إنّهم يَثْنُون صدورَهم﴾، فقال: سألته عنها قال: كان أناس يستحيون أن يتخلَّوا فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم[5].

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دابّةٍ فِي الأَرْضِ﴾، أي: ليس دابة، «من» صلة، والدابة: كل حيوان يدب على وجه الأرض.

وقوله: ﴿إلّا على اللّهِ رِزْقُها﴾، أي: هو المتكفل بذلك فضلاً، وهو إلى مشيئته إن شاء رزق وإن شاء لم يرزق.

وقيل: «على» بمعنى: «من» أي: من الله رزقها.

---

(١) في «ب»: (كلام).
(٢) انظر: الطبري: ١٥/٢٣٥.
(٣) في الطبري: (تَثْنَوْني) بالتاء الفوقية، على مثال: «تَحْلَوْلي الثمرة»، «تَفْعَوْعِل».
(٤) في «ب»: (الحسين)، وكذلك في الطبري: والمثبت من «أ» وهو كذلك في البخاري.
(٥) أخرجه البخاري في التفسير، باب: «ألا إنهم يثنون صدورهم...» ٨/٣٤٩.
وانظر الطبري: ١٥/٢٣٦-٢٣٧.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾

وقال مجاهد[(١)]: ما جاءها من رزق فمن الله عزّ وجلّ، وربما لم يرزقها حتى تموت جوعاً.

﴿**ويعلمُ مستقرَّها ومستودَعها**﴾، قال ابن مقسم[(٢)]: ويُروَى ذلك عن ابن عباس، مستقرها: المكان الذي تأوي إليه، وتستقر فيه ليلاً ونهاراً، ومستودعها: الموضع الذي تدفن فيه إذا ماتت.

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه[(٣)]: المستقر أرحام الأمهات والمستودع [المكان الذي تموت فيه][(٤)] [وقال عطاء: المستقر أرحام الأمهات والمستودع أصلاب الآباء][(٥)].

ورواه سعيد بن جبير، وعلي بن أبي طلحة، وعكرمة عن ابن عباس[(٦)].

وقيل: المستقر: الجنة أو النار، والمستودع القبر، لقوله تعالى في صفة الجنة والنار: «حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً ومُقَاماً» (الفرقان ـــ ٧٦).

﴿**كلٌ في كتاب مبين**﴾، أي: كل مثبت في اللوح المحفوظ قبل أن خلقها.

قوله تعالى: ﴿**وهو الذي خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ وكانَ عرشُه على الماءِ**﴾، قبل أن خلق [السماءَوالأرض][(٧)] وكان ذلك الماء على متن الريح[(٨)].

قال كعب:[(٩)] خلق الله عزّ وجلّ ياقوتةً خضراء، ثم نظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد، ثم خلق الريح، فجعل الماء على متنها، ثم وضع العرش على الماء.

---

(١) الطبري: ١٥/٢٤٠.

(٢) الطبري: ١٥/٢٤١ـ٢٤٢.

(٣) المرجع السابق.

(٤) في «ب»: (أصلاب الآباء).

(٥) ساقط من «ب».

(٦) الطبري: ١٥/٢٤٢. والذي رجحه أن قوله تعالى: «ويعلم مستقرها» حيث تستقر فيه،وذلك مأواها الذي تأوي إليه ليلاً أو نهاراً «ومستودعها» الموضع الذي يودعها، إما بموتها فيه أو دفنها... لأن الله جل ثناؤه أخبر أن ما رُزقت الدوابُّ من رزق فمنه، فأولى أن يتبع ذلك أنه يعلم مثواها ومستقرها، دون الخبر عن علمه بما تتضمنه الأصلاب والأرحام. انظر: الطبري ١٥/٢٤١ و٢٤٣.

(٧) في «ب»: (السماء).

(٨) أخرج ذلك عن ابن عباس: الطبري: ١٥/٣٤٩ وفي التاريخ كذلك: ١/٢١، وصححه الحاكم في المستدرك: ٢/٣٤١ ووافقه الذهبي.

(٩) كعب الأحبار من رواة الاسرائيليات، ولم نجد من ذكر هذا غيره.

وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ
لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ
مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾

قال ضمرة: إن الله تعالى كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض، وخلق القلم فكتب به ما هو خالق وما هو كائن من خلقه، ثم إن ذلك الكتاب سبح الله ومجّده ألف عام قبل أن يخلق شيئاً من خلقه(١) .

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، ليختبركم، وهو أعلم، ﴿أيّكم أحسنُ عملاً﴾، أعْمَلُ بطاعة الله، وأَوْرَعُ عن محارم الله تعالى. ﴿ولَئِنْ قلتَ﴾، يامحمد، ﴿إنّكم مبعوثون﴾ أي: ﴿من بعد الموتِ لَيقولَنّ الذين كفرُوا إنْ هذا إلّا سحرٌ مبين﴾، يعنون القرآن .

وقرأ حمزة والكسائي: «ساحر» يعنون محمداً ﷺ .

﴿ولَئِنْ أخّرْنا عنهمُ العذاب إلى أُمّةٍ معدودةٍ﴾، إلى أجل محدود، وأصل الأُمة: الجماعة، فكأنه قال: إلى انقراض أمة ومجيء أمة أخرى ﴿لَيَقُولُنّ ما يَحْبِسُه﴾، أيُّ شيء يحبسه؟ يقولونه استعجالاً للعذاب واستهزاءً، يعنون: أنه ليس بشيء .

قال الله تعالى: ﴿ألا يومَ يأتيهم﴾، يعني: العذاب، ﴿ليسَ مصروفاً عنهم﴾، لا يكون مصروفاً عنهم، ﴿وحَاقَ بهم﴾، نزل بهم، ﴿ما كانُوا به يستهزؤون﴾، أي: وبال استهزائهم .

قوله تعالى: ﴿ولَئِنْ أذقْنا الإنسان منّا رحمةً﴾، نعمة وسعة، ﴿ثمّ نزعنَاها منه﴾، أي: سلبناها منه، ﴿إنه لَيَؤُسٌ﴾، قنوط في الشدة، ﴿كفورٌ﴾ في النعمة .

---

(١) أخرجه الطبري: ١٥/٢٤٩ .
وقد ساق الحافظ ابن كثير رحمه الله بعض الأحاديث في تفسير الآية منها حديث الإمام أحمد والشيخين عن عمران بن حصين.. وفيه «كان الله ولم يكن شيء قبله ـ وفي رواية: غيره ـ وفي رواية معه ـ وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض» .
وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض، بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء» .
وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن لقيط بن عامر قال: قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك» .
انظر: تفسير ابن كثير: ٢/٤٣٨ .

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ
فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن
يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿ولئن أذقْناه نعماءَ بعد ضرّاءَ مَسّتهُ﴾، بعد بلاء أصابه، **﴿لَيقولَنَّ ذهبَ السيئاتُ عنّي﴾**، زالت الشدائد عني، **﴿إنه لَفَرِحٌ فخورٌ﴾**، أَشِرٌ بَطِرٌ، والفرح: لذة في القلب بنيل المشتهى، والفخر: هو التطاول على الناس بتعديد المناقب، وذلك منهيٌّ عنه .

﴿إلّا الذين صبرُوا﴾، قال الفرّاء: هذا استثناء منقطع، معناه: لكنّ الذين صبرُوا **﴿وعملوا الصالحات﴾**، فإنهم إن نالتهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا، **﴿أولئك لهم مغفرةٌ﴾**، لذنوبهم، **﴿وأجرٌ كبير﴾**، وهو الجنة .

﴿فلعلّك﴾، يامحمد، **﴿تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك﴾**، فلا تبلّغه إياهم. وذلك أن كفار مكة لما قالوا: «ائتِ بقرآن غير هذا» (يونس ــ ١٥) ليس فيه سب آلهتنا همَّ النبيُّ ﷺ أن يَدَعَ آلهتهم ظاهراً، فأنزل الله تعالى:
﴿فلعلّك تاركٌ بعض ما يُوحَى إليك﴾[(١)] يعني: سب الآلهة، **﴿وضائقٌ بهِ صَدْرُك﴾**، أي: فلعلك يضيق صدرك **﴿أنْ يقولوا﴾**، أي: لأن يقولوا، **﴿لولا أُنزل عليه كنْزٌ﴾** ينفقه **﴿أو جاءَ معه مَلَكٌ﴾**، يصدقه، قاله عبدالله بن أبي أمية المخزومي .

قال الله تعالى: **﴿إنّما أنتَ نذيرٌ﴾** ليس عليك إلّا البلاغ، **﴿والله على كلِّ شيءٍ وكيلٌ﴾** حافظ .

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٢٤٩/٧ ـ وقال بعد أن ذكر سبب النزول: «فخاطب الله تعالى نبيه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقيفاً راداً على أقوالهم ومبطلاً لها، وليس المعنى أنه ﷺ همّ بشيء من هذا فزجر عنه. فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوحي إليه، ولا ضاق صدره، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم وبُعدهم عن الإيمان» .
ثم قال بعد ذلك «...ويحتمل أن يكون النبي ﷺ قد عَظُم عليه ما يلقى من الشدة فمال إلى أن يكون من الله تعالى إذْنٌ في مساهلة الكفار بعض المساهلة، ونحو ذلك من الاعتقادات التي تليق به ﷺ كما جاءت بذلك آيات الموادعة» .

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

﴿أم يقولون افتراه﴾، بل يقولون اختلقه، **﴿قُلْ فأتوا بعشرِ سُورٍ مثلِهِ مُفترياتٍ﴾** .

فإن قيلَ: قد قال في سورة يونس: «فأتوا بسورةٍ مثلِهِ»، وقد عجزوا عنه فكيف قال: **﴿فأتوا بعشرِ سورٍ﴾**، فهو كرجل يقول لآخر: أعطِني درهماً فيعجز، فيقول: أعطِني عشرة؟ .

الجواب: قد قيل سورة / هود نزلت أولاً . ١٧٢/ ب

وأنكر المبرد هذا، وقال: بل نزلت سورة يونس أولاً، وقال: معنى قوله في سورة يونس: «فأتوا بسورةٍ مثلِهِ»، أي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، [فعجزوا فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعيد][1] فأتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة[2]، **﴿وادْعُوا مَنِ استطعتُم﴾**، واستعينوا بمن استطعتم، **﴿مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كنتُم صادقين﴾** .

﴿فإن لم يستجيبُوا لكم﴾، يا أصحاب محمد. وقيل: لفظه جمع والمراد به الرسول ﷺ وحده. **﴿فاعلموا﴾**، قيل: هذا خطاب مع المؤمنين. وقيل: مع المشركين، **﴿أنّما أُنزِلَ بعلمِ اللهِ﴾**، يعني: القرآن. وقيل: أنزله وفيه علمه، **﴿وأنْ لا إله إلا هو﴾** أي: فاعلموا أن لا إله إلا هو، **﴿فهل أنتم مسلمون﴾**، لفظه استفهام ومعناه أمر، أي: أسلموا .

قوله تعالى: **﴿مَن كانَ يُريدُ الحياةَ الدنيا﴾**، أي: من كان يريد بعمله الحياة الدنيا، **﴿وزينتَها﴾**، نزلت في كل من عمل عملاً يريد به غير الله عزّ وجلّ[3] **﴿نُوفِّ إليهم أعمالَهم فيها﴾**، أي: نُوفِّ لهم

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) وقال ابن الزبير الغرناطي في ملاك التأويل: ٣٩/١ «... لما قيل هنا: مفتريات، فوسَّع عليهم، ناسبه التوسعة في العدد المطلوب؛ لأن الكلام المُفْتَرَىٰ أسهل فناسبته التوسعة. أما الوارد في السورتين قبلُ ـ سورة البقرة الآية ٢٣، وسورة يونس الآية ٣٨ ـ فلم يذكر لهم فيهما أن يكون مفترى عليه، بل السابق من الآيتين: المماثلة مطلقاً، وذلك أصعب وأشق عليهم مع عجزهم في كل حال، فوقع الطلب حيث التضييق بسورة واحدة، وحيث التوسعة بعشر سور مناسبة جليلة واضحة وقد جاوب بما هذا معناه بعضُ المفسرين» .
وانظر: الكشاف : ٤٨/١ـ٥٠ .

(٣) وهذا مروي بسند صحيح عن سعيد بن جبير في الآية، قال: «من عمل للدنيا نوفيه في الدنيا» .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾

أجور أعمالهم في الدنيا بسعة الرزق ودفع المكاره وما أشبهها. ﴿وهم فيها لا يُبْخسُونَ﴾، أي: في الدنيا لا ينقص حظهم.

﴿أولئك الذين ليسَ لهم في الآخرةِ إلّا النارُ وحَبِطَ ما صنَعُوا فيها﴾ [أي: في الدنيا][1] ﴿وباطِلٌ﴾، ﴿ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

اختلفوا في معنى هذه الآية[2]: قال مجاهد: هم أهل الرياء. وروينا أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ أخوفَ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ»، قالوا: يارسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: «الرياء»[3].

قيل: هذا في الكفار[4]، وأما المؤمن: فيريد الدنيا والآخرة، وإرادته الآخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة.

وروينا عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله عزّ وجلّ لايظلم المؤمنَ حسنةً، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزَىٰ بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكنْ له حسنة يُعطى بها خيراً»[5].

قوله تعالى: ﴿أفمنْ كانَ على بينةٍ﴾، بيان، ﴿من ربِّه﴾، قيل: في الآية حذف، ومعناه: أفمن كان

= أخرجه هناد في الزهد: ٢/٢٧٤، وابن أبي شيبة في المصنف: ١٣/٥١٩ بلفظ «وُفّيه في الدنيا» والطبري: ١٥/٢٦٣. وعزاه السيوطي أيضاً لابن أبي حاتم بلفظ: «هو الرجل يعمل للدنيا، لا يريد به الله».

(١) زيادة من «ب».

(٢) في «ب»: (المعني بهذه الآية).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٥/٤٢٨-٤٢٩، والمصنف في شرح السنة: ١٤/٣٢٤.
قال الهيثمي في المجمع: ١/١٠٢ «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح» وقال المنذري في الترغيب والترهيب: ١/٦٩: «ورواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا والبيهقي في الزهد وغيره» ثم قال: «وقد رواه الطبراني بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج. وقيل: إن حديث محمود هو الصواب دون ذكر رافع بن خديج فيه. والله أعلم».
وانظر: النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد ص (٤٦).

(٤) انظر: الطبري: ١٥/٢٦٥.

(٥) أخرجه مسلم في صفات المنافقين، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة، برقم (٢٨٠٨): ٤/٢١٦١، والمصنف في شرح السنة: ١٤/٣١٠.

على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها، أو مَنْ كان على بينة من ربه كمن هو في الضلالة والجهالة، والمراد بالذي هو على بينة من ربه: النبيُّ ﷺ .

﴿ويتْلوهُ شاهدٌ منه﴾، أي: يتبعه من يشهد به بصدقه. واختلفوا في هذا الشاهد[1]: فقال ابن عباس، وعلقمة، وإبراهيم، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وأكثر أهل التفسير: إنه جبريل عليه السلام .

وقال الحسن وقتادة: هو لسان رسول الله ﷺ .

وروى ابن جريج عن مجاهد قال: هو ملك يحفظه ويسدده .

وقال الحسين بن الفضل: هو القرآن ونظمه وإعجازه .

وقيل: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال علي: ما من رجل من قريش إلا وقد نزلت فيه آية من القرآن، فقال له رجل: وأنت أيُّ شيءٍ نزل فيك؟ قال: ﴿ويتلوه شاهد منه﴾[2] .

وقيل: شاهد منه هو الإنجيل[3] .

﴿ومن قبلِهِ﴾، أي: ومن قبل مجيء محمد ﷺ. وقيل: من قبل نزول القرآن. ﴿كتابُ موسى﴾، أي: كان كتاب موسى، ﴿إماماً ورحمةً﴾، لمن اتبعها، يعني: التوراة، وهي مصدقة للقرآن، شاهدة للنبي ﷺ، ﴿أولئك يُؤمنون بهِ﴾، يعني: أصحاب محمد ﷺ. وقيل: أراد الذين أسلموا من أهل الكتاب .

﴿ومَن يكفرْ بهِ﴾أي: بمحمد ﷺ. وقيل: بالقرآن، ﴿مِنَ الأحزاب﴾، من الكفار من أهل الملل كلها، ﴿فالنارُ موعِدُه﴾ .

أخبرنا حسان بن سعيد المنيعي، أخبرنا أبو طاهر الزيادي، أخبرنا محمد بن الحسين القطان، أخبرنا أحمد بن يوسف السلمي، أخبرنا عبدالرزاق، أخبرنا معمر، عن همام بن منبه، حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة، ولا يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمنْ بالذي أُرسلتُ به إلّا كان من أصحاب النار»[4] .

---

(١) انظر هذه الأقوال الآتية في : الطبري: ١٥/٢٧٠-٢٧٦ .

(٢) أخرجه الطبري بسندٍ فيه جابر الجعفي، وهو ضعيف، وكان رافضياً من أتباع عبدالله بن سبأ، وكذلك ضعّف هذا القول ابن كثير في التفسير: ٢/٤٤١ وقال: «هو ضعيف لا يثبت له قائل» .

(٣) ورجح الطبري رحمه الله أن أولى الأقوال في تأويل قوله تعالى: «ويتلوه شاهد منه» هو قول من قال: «هو جبريل» لدلالة قوله: «ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة» على صحة ذلك. التفسير: ١٥/٢٧٦ .

وقال ابن كثير رحمه الله: هو ما أوحاه الله إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعي والسدي وغير واحد في قوله تعالى: «ويتلوه شاهد منه»: إنه جبريل عليه السلام وعن علي رضي الله عنه والحسن وقتادة هو محمد ﷺ. وكلاهما قريب في المعنى لأن كلاً من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلّغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة» التفسير: ٢/٤٤١ .

(٤) أخرجه مسلم من وجه آخر عن أبي هريرة، بلفظ «... من هذه الأمة يهودي ولا نصرانيٌّ...» كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، برقم (١٥٣): ١/١٣٤، والمصنف باللفظ أعلاه، شرح السنة: ١/١٠٤ وهو كذلك عند أبي عوانة: =

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿**فلا تكُ في مريةٍ منه**﴾، أي: في شك منه، ﴿**إنّه الحقُّ مِن ربِّك ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنُون**﴾.

﴿**ومَنْ أظلمُ ممنِ افترَى على الله كذباً**﴾، فزعم أنَّ له ولداً أو شريكاً، أي: لا أحد أظلم منه، ﴿**أولئك**﴾، يعني: الكاذبين والمكذبين، ﴿**يُعرضُون على ربِّهم**﴾، فيسألهم عن أعمالهم.

﴿**ويقولُ الأشهادُ**﴾، يعني: الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم، قاله مجاهد(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما. إنهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وهو قول الضحاك(١).

وقال قتادة: الخلائق كلهم.

وروينا عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «إنّ الله يدني المؤمن فيضع عليه كَنَفَهُ ويستُره، فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعم أيْ ربِّ، حتى إذا قرّرَهُ بذنوبِهِ ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى كتابَ حسناته»، وأما الكفار والمنافقون [فينادي بهم على رؤوس الخلائق](٢)، ﴿**هؤلاءِ الذينَ كَذَبوا على ربِّهم ألَا لعنةُ اللهِ على الظالمين**﴾(٣).

= ١٠٤/١ والإمام أحمد في المسند برقم (٨١٨٨) طبعة الحلبي، وهمام بن منبه في الصحيفة برقم (٩١) ص (٤٠٩).
والمراد بالأمة في هذا الحديث: كل من أُرسل إليه محمد ﷺ ولزمته حجته، سواء صدَّقه أو لم يصدقه. وعلى هذا يتناول اللفظُ جميع أمة الدعوة، من هو موجود في زمنه ﷺ، ومن يتجدد وجوده بعده إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته ﷺ.
وقوله: ولا يهودي ولا نصراني: من عطف الخاص على العام، وإنما ذكر تنبيهاً على من سواهما... وقال القرطبي: إذا كانت الرواية من غير عطف «يهودي» و «نصراني» فهما بدل من الأمة.
أما بالعطف ـ كما في رواية البغوي هنا ـ فلا يدخل اليهودي ولا النصراني في الأمة المذكورة.
وقال العراقي: ويحتمل أن يراد بهذه الأمة: العرب الذين هم عبدة الأوثان، وحينئذ فعطف اليهودي والنصراني على بابه، لعدم دخولهما فيما تقدم، وقوله في روايتنا: «ولا يهودي ولا نصراني» يوافق ذلك.
انظر: صحيفة همام بن منبّه عن أبي هريرة رضي الله عنه، بتحقيق وشرح الدكتور رفعت فوزي عبدالمطلب ص (٤٠٩-٤١٠) والمراجع مشار إليها.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٨٣/١٥، الدر المنثور: ٤١٢/٤-٤١٣.
(٢) في «ب»: «فيقول الأشهاد» والمثبت من «أ» وهو الموافق لرواية البخاري.
(٣) أخرجه البخاري في المظالم، باب قول الله تعالى: «ألا لعنة الله على الظالمين» ٩٦/٥، وفي التوحيد، وفي الرقاق. وأخرجه مسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، برقم (٢٧٦٦): ٢١٢٠/٤، والمصنف في شرح السنة: ١٣٢/١٥-١٣٣. =

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿الذين يصدُّونَ عَن سبيلِ الله﴾، يمنعون عن دين الله، ﴿ويبغونها عِوَجاً وهم بالآخرة هم كافرون﴾ .

﴿أولئك لم يكونُوا معجزين﴾، قال ابن عباس: سابقين. قال قتادة: هاربين. وقال مقاتل: فائتين. ﴿في الأرض وما كان لهم مِن دُونِ الله مِنْ أولياءَ﴾، يعني أنصاراً وأعواناً يحفظونهم من عذابنا، ﴿يُضاعفُ لهمُ العذابُ﴾، أي: يزاد في عذابهم. قيل: يضاعف العذاب عليهم لإضلالهم الغير واقتداء الاتباع بهم .

﴿ما كانُوا يستطيعُون السمعَ وما كانُوا يُبصِرُون﴾، قال قتادة: صُمٌّ عن سماع الحق فلا يسمعونه، وما كانوا يبصرون الهُدَى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: أخبر الله عزّ وجلّ أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا قال: «ما كانوا يستطيعون السمعَ» وهو طاعتُه، وفي الآخرة قال: «فلا يستطيعون»، خاشعة أبصارهم .

﴿أولئك الذينَ خسِرُوا أنفسَهم﴾، غَبَنُوا أنفسهم، ﴿وضلَّ عنهم مَّا كانُوا يَفْتَرُون﴾، يزعمون من شفاعة / الملائكة والأصنام . /١٧٤

﴿لا جَرَمَ﴾، أي: حقاً. وقيل: بلى. وقال الفراء: لا محالة، ﴿أنهم في الآخرةِ هُمُ الأخسَرُون﴾، يعني: من غيرهم، وإن كان الكل في الخسار[1] .

= وقوله في الحديث: «فيضع عليه كنفه» بفتح الكاف والنون، بعدها فاء ـ المراد بالكنف: الستر، وقد جاء مفسراً بذلك في رواية عبدالله بن المبارك عن محمد بن سواء عن قتادة فقال في آخر الحديث: قال عبدالله بن المبارك: كنفه: ستره. أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» .

والمعنى: أنه تحيط به عنايته التامة. ومن رواه بالمثناة المكسورة ـ كتِفه ـ فقد صحّف، على ما جزم به جمع من العلماء . انظر: فتح الباري: ١٣/٤٧٧ .

(١) في «ب»: (الخسارة) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

﴿إنّ الذين آمنُوا وعمِلُوا الصالحاتِ وأخبَتُوا﴾، قال ابن عباس: خافوا. قال قتادة: أنابوا. قال مجاهد: اطمأنوا. وقيل: خشعوا. وقوله: ﴿إلى ربِّهم﴾، أي: لربهم. ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾.

﴿مثل الفريقين﴾، المؤمن والكافر، ﴿كالأعمى والأصمِّ والبصير والسميع هل يستويَانِ مثلاً﴾، قال الفراء: لم يقل هل يستوون، لأن الأعمى والأصم في حيِّزٍ كأنهما واحد؛ لأنهما من وصف الكافر، والبصير والسميع في حيز كأنهما واحد، لأنهما من وصف المؤمن، ﴿أفلا تذكّرون﴾، أي[1]: تتعظون.

قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبين﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب[2] «أني» بفتح الهمزة أي: بأني، وقرأ الباقون بكسرها، أي: فقال إني، لأن في الإرسال معنى القول: إني لكم نذير مبين.

﴿أنْ لا تعبُدُوا إلّا اللَّهَ إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ أليم﴾، أي: مؤلم. قال ابن عباس: بُعِث نوح عليه السلام بعد أربعين سنة، ولبث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان ستين سنة، وكان عمره ألفاً وخمسين سنة.

وقال مقاتل: بعث وهو ابن مائة سنة.

وقيل: بُعث وهو ابن خمسين سنة.

وقيل: بعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة، ومكث يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة، وعاش بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة قال الله تعالى: «فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً» (العنكبوت ـــ ١٤) أي: فلبث فيهم داعياً.

---

(١) في «ب»: [أفلا].

(٢) ساقطة من «ب».

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فقال الملأُ الذينَ كفرُوا مِن قومِهِ﴾: والملأ هم الأشراف والرؤساء. **﴿ ما نَراكَ﴾**، يانوح، **﴿إلّا بشراً﴾**، آدمياً، **﴿مِثْلنا وما نَراكَ اتَّبعَكَ إلّا الذينَ هُمْ أرَاذِلُنا﴾**، سَفَلَتُنا، والرذل: الدُّون من كل شي، والجمع: أرْذُل، ثم يجمع على أراذل، مثل: كَلْب وأَكْلُب وأكالِب، وقال في سورة الشعراء: «واتّبعك الأرْذَلُون» يعني: السفلة. وقال عكرمة: الحاكة والأساكفة، **﴿بادِىَ الرأيِ﴾**، قرأ أبو عمرو «بادىء» بالهمز، أي: أول الرأي، يريدون أنهم اتبعوك في أول الرأي من غير روية وتفكر، ولو تفكروا لم يتبعوك. وقرأ الآخرون بغير همز، أي ظاهر الرأي من قولهم: بدا الشيء: إذا ظهر، معناه: اتبعوك ظاهراً من غير أن يتدبروا ويتفكروا باطناً. قال مجاهد: رأي العين، **﴿وما نرَى لكُم علينَا مِن فَضْلٍ بلْ نظنكم كاذبينَ﴾** .

﴿قالَ﴾، نوح، **﴿ياقومِ أرأيتُمْ إن كُنْتُ على بينةٍ مِن رَّبّي﴾** أي: بيان مِن رَّبّي **﴿وآتاني رحمَةً﴾**، أي: هدى ومعرفة، **﴿مِنْ عندِه فعُمِّيَتْ عليكُم﴾**، أي: خفيت والتبست عليكم. وقرأ حمزة والكسائي وحفص: «فعُمِّيت عليكم» بضم العين وتشديد الميم، أي: شُبهت ولُبِّست عليكم. **﴿أنُلزِمُكُمُوها﴾**، أي: أنلزمكم البينة والرحمة، **﴿وأنتم لها كارِهُونَ﴾**، لا تريدونها. قال قتادة: لو قدر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن يُلزموا [قومَهم الإيمان لألزموهم][1] ولكن لم يقدروا .

قوله: **﴿وياقومِ لا أسألُكُمْ عليهِ مالاً﴾**، أي: على الوحي وتبليغ الرسالة، كناية عن غير مذكور، **﴿إنْ أجْرِيَ﴾**، ما ثوابي، **﴿إلّا على اللّهِ وما أنا بطاردِ الذين آمَنوا﴾**، هذا دليل على أنهم طلبوا منه طرد المؤمنين، **﴿إنهمْ مُلاقُوا ربِّهم﴾**، [أي: صائرون إلى][2] ربهم في المعاد فيجزي مَن طردهم، **﴿ولكنّي أراكُمْ قوماً تجهلونَ﴾** .

---

(١) في «ب»: (قومهم لألزموا) .

(٢) ساقط من « أ » .

وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ
لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ
يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾

﴿ويا قومِ مَن ينصُرُني مِنَ اللهِ﴾، من يمنعني من عذاب الله، **﴿إنْ طردتُهم أفلا تذكّرون﴾**، تتعظون .

﴿ولا أقولُ لكم عندي خزائنُ اللهِ﴾، فآتي منها ما تطلبون، **﴿ولا أعلمُ الغيبَ﴾**، فأخبركم بما تريدون وقيل: إنهم لما قالوا لِنُوح: إن الذين آمنوا بِكَ إنما اتّبعوك في ظاهر ما ترى منهم، قال نوح مجيباً لهم: ولا أقول لكم: عندي خزائن غيوب الله، التي يعلم منها ما يضمر الناس، ولا أعلم الغيب، فأعلم ما يسترونه في نفوسهم، فسبيلي قَبُول ما ظهر من إيمانهم، **﴿ولا أقولُ إني مَلَكٌ﴾**، هذا جواب قولهم: «ما نراك إلا بشراً مثلَنا». **﴿ولا أقول للذينَ تزدري أعينُكم﴾**، أي: تحتقره وتستصغره أعينكم، يعني: المؤمنين، وذلك أنهم قالوا: هم أراذلنا، **﴿لن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خيراً﴾** أي: توفيقاً وإيماناً وأجراً، **﴿اللهُ أعلم بما في أنفسهم﴾**، من الخير والشر مني، **﴿إني إذاً لَّمِنَ الظالمين﴾**، لو قلتُ هذا .

﴿قالوا يانوحُ قد جادلْتنا﴾، خاصمتنا، **﴿فأكثرت جدالَنا فأْتِنا بما تَعِدُنا﴾**، من العذاب **﴿إنْ كنتَ مِنَ الصادقين﴾** .

﴿قال إنّما يأتيكم بِهِ اللهُ إنْ شاء﴾، يعني: بالعذاب، **﴿وما أنتم بمعجزين﴾** بِفائِتِين .

﴿ولا ينفعُكم نُصحي﴾، أي نصيحتي، **﴿إنْ أردتُ أنْ أنصحَ لكم إن كانَ اللّهُ يريد أنْ يُغْوِيَكم﴾**، يضلكم، **﴿هو ربُّكم﴾**، له الحكم والأمر **﴿وإليه تُرجَعُون﴾**، فيجزيكم بأعمالكم .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أمْ يقولُون افتراه﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني نوحاً عليه السلام. وقال مقاتل: يعني محمداً ﷺ. ﴿قُلْ إنِ افتريتُه فعليّ إجْرَامي﴾، أي: إثمي ووبال جُرْمي. والإجرام: كسب الذنب. ﴿وأنا بريءٌ ممّا تُجْرِمُون﴾، لا أؤاخذُ بذنوبكم.

قوله تعالى: ﴿وأوحي إلى نوحٍ أنه لن يُؤمنَ من قومِكَ إلّا مَن قَدْ آمَنَ﴾، روى الضحاك عن ابن عباس: أن قوم نوح عليه السلام كانوا يضربون نوحاً حتى يسقط، فيلقونه في لَبِدٍ[1]، ويلقونه في قعر بيت، يظنون أنه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم إلى الله عزّ وجلّ.

رُوي أنّ شيخاً منهم جاء يتوكأ على عصا، ومعه ابنه، فقال: يابني لا يغرنك هذا الشيخ المجنون، فقال له: يا أبت أمكني من العصا، فأخذ العصا من أبيه، فضرب نوحاً حتى شجَّه شجة منكرة، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه[2]: ﴿أنه لن يُؤمنَ من قومِك إلّا مَن قدْ آمَنَ﴾، ﴿فلا تَبْتَئِسْ﴾ أي: فلا تحزن، ﴿بما كانوا يفعلون﴾، فإنّي مهلكهم ومنقذك منهم فحينئذ دعا نوح عليهم: «فقالَ ربِّ لا تذرْ على الأرض مِنَ الكافرين ديّاراً» (نوح ــ ٢٦).

وحكى محمد بن إسحاق عن عبيد بن عمير الليثي أنه بلغه[3]. أنهم كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: ربِّ اغفرْ لقومي فإنّهم لا يعلمون، حتى إذا تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء، وانتظر الجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلّا كان أخبث من الذي قبله حتى إن كان الآخر منهم ليقول: قد كان هذا مع آبائنا وأجدادنا هكذا مجنوناً لا يقبلون منه شيئاً، فشكا إلى الله تعالى فقال: / «ربِّ إنّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً» إلى أن قال: «ربِّ لا تذرْ على الأرضِ مِنَ الكافرين ديّاراً»، ١٧٤/ ب
فأوحى الله تعالى إليه:

﴿واصنع الفُلْكَ بأعْيُنِنا﴾، قال ابن عباس بمرأىً منّا. وقال مقاتل: بعلمنا. وقيل: بحفظنا.

---

(١) اللَّبَد: الصوف، ويقال: ماله سَبَدٌ ولا لَبَدٌ: لا شعر له ولا صوف. أي: ماله قليل ولا كثير.

(٢) عزاه السيوطي لإسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس: ٤١٧/٤، وما يتفرد به ابن عساكر وأمثاله: ضعيف.

(٣) انظر: الطبري: ٣١٣/١٥-٣١٤، وهو أيضاً في التاريخ للطبري: ٩٢/١-٩٣.

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾

﴿ووَحْيِنا﴾، بأمرنا. ﴿ولا تُخاطبني في الذين ظلمُوا إنّهم مُغرقون﴾، بالطوفان، قيل: معناه لا تخاطبني في إمهال[١] الكفار، فإني قد حكمت بإغراقهم. وقيل: لا تخاطبني في ابنك كنعان وامرأتك وَاعِلة فإنهما هالكانْ مع القوم.

وفي القصةِ[٢] أن جبريل أتى نوحاً عليه السلام فقال: إن ربّك عزّ وجلّ يأمرك أن تصنع الفلك، قال: كيف أصنع ولستُ بنجارٍ؟ فقال: إن ربّك يقول اصنع فإنك بعيني، فأخذ القدوم وجعل يصنع ولا يخطىء. وقيل: أوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ[٣] الطائر.

قوله تعالى: ﴿ويَصْنَعُ الفُلْكَ﴾ فلما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك أقبل نوح عليه السلام على عمل الفلك ولَهَا عن قومه، وجعل يقطع الخشب ويضرب الحديد ويهيء عدة الفلك من القارّ وغيره، وجعل قومه يمُرون به وهو في عمله ويسخرون منه، ويقولون: يانوح قد صرت نجاراً بعد النبوة؟ وأعقم الله أرحام نسائهم فلا يولد لهم ولد[٤].

وزعم أهل التوراة[٥]: أن الله أمره أن يصنع الفلك من خشب الساج، وأن يصنعه أَزْوَر[٦]، وأن يطليه بالقار[٧] من داخله وخارجه، وأن يجعل طوله ثمانين ذراعاً وعرضه خمسين ذراعاً وطوله في السماء ثلاثين ذراعاً، والذراع إلى المنكب، وأن يجعله ثلاثة أطباق سفلى ووسطى وعليا ويجعل فيه كوى، ففعله نوح كما أمره الله عزّ وجلّ.

وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن

---

(١) في «ب»: (إهلاك).

(٢) التي رواها الطبري كما سبق.

(٣) في «ب»: (خرطوم).

(٤) من القصة السابقة عن ابن إسحاق في رواية الطبري.

(٥) زعم أهل التوراة! وزعم مطية الكذب، ونحن متعبدون بتصديق ما في الكتاب الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(٦) «أزْوَر» من «الزَّوْر» ـ بفتح فسكون ـ وهو الصدر، و«الزَّوَر» بفتحتين ـ وهوعوج الصدر، وهو أن يستدقّ جوشن الصدر، ويخرج الكلكل، كأنه عُصِر من جانبيه. انظر: حاشية الطبري: ١٥/٣١٤.

(٧) القار: الزفت، قال في القاموس: شيء أسود تطلى به الإبل والسفن، أو هو الزفت.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٩﴾

الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد .

وقال قتادة: كان بابها في عرضها .

وروى عن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ست مائة ذراع. والمعروف الأول: أن طولها ثلثمائة ذراع .

وعن زيد بن أسلم قال: مكث نوح عليه السلام مائة سنة يغرس الأشجار ويقطعها، ومائة سنة يعمل الفلك .

وقيل: غرس الشجر أربعين سنة وجفّفه أربعين سنة .

وعن كعب الأحبار أن نوحاً عمل السفينة في ثلاثين سنة، وروى أنها كانت ثلاث طبقات، الطبقة السفلى للدواب والوحوش، والطبقة الوسطى فيها الإنس، والطبقة العليا فيها الطير، فلما كثرت أرواث الدواب أوحى الله إلى نوح أنِ اغْمِزْ ذنبَ الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث، فلما وقع الفار بجوف السفينة فجعل يقرضها ويقرض حبالها، فأوحى الله تعالى إليه أن اضربْ بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفار(١) .

قوله تعالى: ﴿**وكُلّما مرَّ عليه ملأٌ من قومه سخرُوا منه**﴾، كانوا يقولون: إنّ هذا الذي يزعم أنه نبي قد صار نجاراً، ورُوي أنهم كانوا يقولون له: يانوح ماذا تصنع؟ فيقول أصنع بيتاً يمشي على الماء، فيضحكون منه، ﴿**قال إنْ تسخرُوا مِنّا فإنّا نسخرُ مِنْكُم**﴾، إذا عاينتم عذاب الله، ﴿**كما تَسْخرُون**﴾، فإن قيل: كيف تجوز السخرية من النبي؟ قيل: هذا على ازدواج الكلام، يعني إن تستجهلوني فإني استجهلكم إذا نزل العذاب بكم. وقيل: معناه إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم .

﴿**فسوف تعلمُون من يأتِيه عذابٌ يُخزِيه**﴾، يهينه، ﴿**ويَحِلُّ عليه**﴾، يجب عليه، ﴿**عذابٌ مقيم**﴾، دائم .

---

(١) هذه التفصيلات عن السفينة وطولها وطبقاتها وما حمل فيها، وعن المخلوقات وكيفية خلقها من بعضها... إلخ ذكرها الطبري والسيوطي أيضاً، وهي من الاسرائيليات التي اختلقها اليهود وأضرابهم على مر العصور، وكانت شائعة مشهورة في الجاهلية، فلما جاء الإسلام نشرها أهل الكتاب الذين أسلموا بين المسلمين، وهؤلاء رووها بحسن نية، ولم يزيّفوها اعتماداً على أن ظاهرها البطلان. وقد أشار ابن كثير رحمه الله إلى غرابة رواية ابن إسحاق التي سلفت عند البغوي .
انظر: الاسرائيليات والموضوعات، للشيخ محمد أبي شهبة ص (٣٠١-٣٠٥)، تفسير ابن كثير: ٢/٤٤٥-٤٤٦ .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾

﴿حتى إذا جاءَ أمرُنا﴾ عذابنا، ﴿وفارَ التنّورُ﴾، اختلفوا في التنور[1]: قال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح: إذا رأيتَ الماء فارَ على وجه الأرض فاركبِ السفينة.

ورُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: فار التنور أي: طلع الفجر ونورح الصبح.

وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي يخبز فيه، وهو قول أكثر المفسرين[2].

ورواية عطية عن ابن عباس قال الحسن: كان تنوراً من حجارة، كانت حواء تخبز فيه فصار إلى نوح عليه السلام، فقيل لنوح: إذا رأيتَ الماءَ يفور من التنور فاركب انتَ وأصحابُك.

واختلفوا في موضعه[3]، قال مجاهد والشعبي: كان في ناحية الكوفة، [وكان الشعبي يحلف: ما فار التنور إلاّ من ناحية الكوفة][4]. وقال: اتخذ نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة. وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة، وكان فورانُ الماء منه عَلَماً لنوح عليه السلام.

وقال مقاتل: كان ذلك تنور آدم، وكان بالشام بموضع يقال له: عين وردة.

ورُوي عن ابن عباس: أنه كان بالهند.

والفوران: الغليان.

قوله تعالى: ﴿قلنا احمِلْ فيها﴾، أي في السفينة، ﴿مِنْ كل زوجين اثنين﴾، الزوجان: كل اثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر، يقال لكل واحد منهما زوج، يقال: زوج خف وزوج نعل، والمراد بالزوجين هاهنا: الذكر والأنثى.

قرأ حفص هاهنا وفي سورة المؤمنين: «مِن كُلٍّ» بالتنوين أي: من كل صنف زوجين اثنين، ذكَّره تأكيداً.

وفي القصة: أن نوحاً عليه الصلاة والسلام قال: ياربِّ كيفَ أحمل من كل زوجين اثنين؟ فحشر الله إليه السباعَ والطير، فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والأنثى في يده اليسرى، فيحملها في السفينة.

﴿وأهْلَكَ﴾، أي: واحملْ أهلكَ، أي: ولدك وعيالك، ﴿إلاّ مَنْ سبقَ عليهِ القولُ﴾، بالهلاك،

---

(١) انظر في هذا: الطبري: ١٥/٣١٨-٣٢١.
(٢) ورجح هذا الطبري فقال: «وأولى الأقوال عندنا بتأويل قوله: «التنور» قول من قال: «هو التنور الذي يخبز فيه»، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب. وكلام الله لا يُوَجَّه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك، فيسلم لها. وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به». الطبري: ١٥/٣٢١.
(٣) انظر: الطبري: ١٥/٣٢٠-٣٢١.
(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

يعني: امرأته وَاعِلة وابنه كنعان، ﴿وَمَنْ آمنَ﴾ يعني: واحمل من آمن بك، كما قال الله تعالى: ﴿وما آمن معه إلاّ قليلٌ﴾، واختلفوا في عددهم[1]: قال قتادة وابن جريج ومحمد بن كعب القرظي: لم يكن في السفينة إلا ثمانية نفر: نوح، وامرأته[2]، وثلاثة بنين له سام وحام ويافث، ونساؤهم.

[وقال الأعمش: كانوا سبعة نوح وثلاثة بنين له، وثلاث كنائن له][3].

وقال ابن إسحاق: كانوا عشرة سوى نسائهم، نوح وبنوه سام وحام ويافث وستة أناس ممن كان آمن به وأزواجهم جميعاً.

وقال مقاتل: كانوا اثنين وسبعين نفراً رجلاً وامرأةً وبنيه الثلاثة ونساءَهم، فجميعهم ثمانية وسبعون، نصفهم رجال ونصفهم نساء.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في سفينة نوح ثمانون رجلاً أحدهم جرهم.

قال مقاتل: / حمل نوح معه جسد آدم فجعله معترضاً بين الرجال والنساء وقصد نوحاً جميعُ ١٧٥/ أ الدواب والطيور ليحملها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما حمل نوح الدرة وآخر ما حمل الحمار، فلما دخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس بذنبه، فلم يستقل رجلاه، فجعل نوح يقول: ويحك ادخل: فينهض فلم يَسْتطع، حتى قال نوح: ويحك ادْخلْ وإن الشيطان معك كلمة زلت على لسانه، فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان، فقال له نوح: ما أدخلك عليَّ ياعدو الله؟ قال: ألم تقل ادخل وإن كان الشيطان معك، قال: اخرج عني ياعدو الله، قال: مالك بدّ من ان تحملني معك، فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك.

وروي عن بعضهم: أن الحية والعقرب أتيا نوحاً فقالتا: احملنا، فقال: إنكما سبب الضر والبلاء، فلا أحملكما، فقالتا له: احملنا ونحن نضمن لك أن لا نضر أحداً ذكرك فمن قرأ حين خاف مضرتهما سلام على نوح في العالمين ما ضرتاه.

قال الحسن: لم يحمل نوح في السفينة إلا ما يلد ويبيض، فأما ما يتولد من الطين من حشرات الأرض كالبق والبعوض فلم يحمل منه شيئاً[4].

---

(١) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ١٥/٣٢٥ـ٣٢٧ وقال: «والصواب من القول في ذلك أن يقال كما قال الله: «وما آمن معه إلا قليل»، يصفهم بأنهم كانوا قليلاً، ولم يَحُدَّ عددهم بمقدار، ولا خبر عن رسول الله ﷺ صحيح. فلا ينبغي أن يُتجاوز في ذلك حدُّ الله، إذا لم يكن لمبلغ عدد ذلك حدٌّ من كتاب الله، أو أثر عن رسول الله ﷺ».

(٢) قال ابن كثير رحمه الله: «وقيل: بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة. وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت، لأنها كانت على دين قومها، فأصابها ما أصابهم، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم» التفسير: ٤٤٦/٢.

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٤) هذه القصص وأمثالها، ذكرها السيوطي في الدر: ٤٢٣/٤ وما بعدها.
قال ابن عطية في المحرر الوجيز: ٢٩٥/٧ «... وهذا كله قصص لا يصح إلا لو استند، والله أعلم كيف كان». وانظر فيما سبق ص (١٧٥) تعليق (١).

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿**وقالَ ارْكَبُوا فيها**﴾، أي: وقال لهم نوح اركبوا فيها أي في السفينة، ﴿**بسم اللهِ مَجْريٰها ومُرْسَاهَا**﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: «مَجْريٰها» بفتح الميم أي: جَرْيها «ومُرساها» [بضمها][1]، وقرأ محمد بن محيصن «مَجْريٰها ومَرساها بفتح الميمين من جرت ورست، أي: [بسم الله][2] جريها ورسوها، وهما مصدران. وقرأ الآخرون: «مُجراها ومُرساها» بضم الميمين من أجريت وأرسيت، أي: بسم الله إجراؤُها وإرساؤُها [وهما أيضاً مصدران][3]، كقوله: «أنزلني مُنزلاً مباركاً» (المؤمنون ــ ٢٩) و«أدْخلني مُدخلَ صِدقٍ وأخرجني مُخرجَ صدق» (الإسراء ــ ٨٠) والمراد منها: الإنزال والإدخال والإخراج. ﴿**إنّ ربّي لغفورٌ رحيم**﴾، قال الضحاك: كان نوح إذا أراد أن تجري السفينة قال: بسم الله، فجرت، وإذا أراد أن ترسوَ قال: بسم الله، فرست .

﴿**وهي تجري بهم في موج كالجبال**﴾، والموج ما ارتفع من الماء إذا اشتدت عليه الريح، شبّهه بالجبال في عظمه وإرتفاعه على الماء. ﴿**ونادَى نوحٌ ابْنَه**﴾، كنعان، وقال عبيد بن عمير: سام، وكان كافراً، ﴿**وكان في معزل**﴾، **عنه لم يركب في السفينة:** ﴿**يابُنيَّ اركبْ معَنا**﴾، [قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب][4] بإظهار الباء، والآخرون يدغمونها في الميم، ﴿**ولا تكن معَ الكافرين**﴾، فتهلك .

﴿**قال**﴾ له ابنه ﴿**سآوي**﴾، سأصير وألتجيء، ﴿**إلى جبل يعصمُني من الماء**﴾، يمنعني من الغرق، ﴿**قال**﴾ له نوح ﴿**لا عاصِمَ اليومَ من أمرِ الله**﴾، من عذاب الله، ﴿**إلّا مَن رَّحِمَ**﴾، قيل: «من» في محل الرفع، أي لا مانع من عذاب الله إلا الله الراحم. وقيل: «من» في محل النصب، معناه لا معصوم إلا من رحمه الله، كقوله: «في عِيشَةٍ راضية» (الحاقة ــ ٢١) أي: مرضية، ﴿**وحال بينهما الموجُ فكان**﴾، فصار، ﴿**من المغرقين**﴾ .

---

(١) ساقط من: « أ » .

(٢) ساقط من: «ب» .

(٣) ساقط من « أ ». وانظر في هذه القراءات وتوجيهها: الطبري ١٥/٣٢٧ـ٣٣٠ .

(٤) ساقط من: « أ » .

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾

وروي أن الماء علا رؤوس الجبال قدر أربعين ذراعاً. [وقيل: خمسة عشر ذراعاً][1].

وروي: أنه لما كثر الماء في السكك خشيت أمٌ لصبيٍّ عليه، وكانت تحبه حباً شديداً، فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها ذهبت حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بها الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي[2].

﴿وقيل﴾، يعني: بعدما تناهى أمر الطوفان: ﴿يا أرضُ ابلعي﴾، تَشَرَّبي، ﴿ماءَك ويا سماءُ أقلعي﴾، أمسكي، ﴿وغيْضَ الماءُ﴾، نقص ونضب، يقال: غاض الماء يغيض غيضاً إذا نقص، وغاضه الله أي أنقصه، ﴿وقُضِيَ الأمرُ﴾ فرغ من الأمر وهو هلاك القوم ﴿واستوتْ﴾، يعني السفينة استقرت، ﴿على الجُودي﴾، وهو جبل بالجزيرة بقرب الموصل، ﴿وقيلَ بُعْداً﴾، هلاكاً، ﴿للقوم الظالمين﴾.

ورُوي أن نوحاً عليه السلام بعث الغراب ليأتيه بخبر الأرض فوقع على جيفة فلم يرجع فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها بالطين، فعلم نوح أن الماء قد نضب، فقيل إنه دعا على الغراب بالخوف فلذلك لا يألف البيوت، وطوق الحمامة الخضرة التي في عنقها ودعا لها بالأمان، فمن ثم تأمن وتألف البيوت[3].

ورُوي: أن نوحاً عليه السلام ركب السفينة لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة أشهر، ومرت بالبيت فطافت به سبعاً[4] وقدْ رفعَه الله من الغرق وبقي موضعه، وهبطوا يوم عاشوراء، فصام نوح، وأمر جميع من معه بالصوم شكراً لله عزّ وجلّ.

---

(١) ساقط من: «ب».

(٢) أخرجه الحاكم: ٢/٣٤٢ وصححه وقال الذهبي إسناده مظلم، وموسى ليس بذاك.
وقد ذكر في القصة أن الله تعالى أيبس أصلاب الآباء وأعقم أرحام النساء قبل العذاب بأربعين سَنة، وقيل: بسبعين سنة، ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب، لقوله تعالى «وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم»، فلم يوجد التكذيب من الأطفال، فحكاية أم الصبي عجيبة.
ويمكن أن يقال: يجوز أن سنَّ بلوغهم فوق السبعين لطول أعمارهم فكان فيهم الصبيان فعمّهم العذاب.
وقد يقال إن في ذلك روايتين: الأولى أنه أيبس أصلاب آبائهم وأعقم أرحام نسائهم قبل العذاب بأربعين سنة أو سبعين، ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب. وفي رواية لم يكن ذلك الإيباس والإعقام، فيوجد فيهم الصبيان وقت العذاب تبعاً لآبائهم المكذبين في عذاب الدنيا، أما في عذاب الآخرة ففيه مذهبان وقولان: فعند البعض هم في الآخرة مع آبائهم المكذبين، وعند البعض هم في الجنة، وهو الأصح والأقوى. انتهى ملتقطاً من حاشية « أ » بشيء من التصرف.

(٣) انظر فيما سلف ص (١٧٧) تعليق (٤).

(٤) قال الساجي: حدثنا الربيع، حدثنا الشافعي قال: قيل لعبد الرحمن بن زيد: حدثك أبوك عن جدك أن رسول الله ﷺ قال: إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصلّت خلف المقام ركعتين؟ قال نعم. =

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

وقيل: ما نجا من الكفار من الغرق غير عُوج بن عُنُق كان الماء إلى حجزته، وكان سبب نجاته أن نوحاً احتاج إلى خشب ساج للسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج إليه من الشام، فنجاه الله تعالى من الغرق لذلك[1] .

قوله تعالى: ﴿ونادَى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ إنّ ابني من أهلي﴾، وَقدْ وعدتني أن تنجيني وأهلي؟ ﴿وإنّ وعدَك الحقُّ﴾، لا خلف فيه، ﴿وأنتَ أحكَمُ الحاكمين﴾، حكمت على قوم بالنجاة وعلى قوم بالهلاك .

﴿قال﴾ اللهُ عزّ وجلّ ﴿يانوحُ إنّه ليس مِنْ أهلِكَ إنّه عملٌ غيرُ صالح﴾، قرأ الكسائي ويعقوب: «عمِلَ» بكسر الميم وفتح اللام «غيرَ» بنصب الراء على الفعل، أي: عمل الشرك والتكذيب. وقرأ الآخرون بفتح الميم ورفع اللام وتنوينه، «غير» برفع الراء معناه: أن سؤالك إيّاي أن أنجيه عمل غير صالح، ﴿فلا تَسْألْنِ﴾، يانوح، ﴿ما ليسَ لكَ بهِ عِلْمٌ﴾ .

قرأ أهل الحجاز والشام «فلا تسألَنَّ»[2] بفتح اللام وتشديد النون، ويكسرون النون غير ابن كثير فإنه يفتحها، وقرأ الآخرون بجزم اللام وكسر النون خفيفة، ويُثبت أبو جعفر وأبوعمرو وورش ويعقوب الياء في الوصل .

﴿إني أعظُك أن تكون من الجاهلين﴾ .

= قال الساجي: وهو منكر الحديث، وقال الطحاوي: حديثه عند أهل العلم بالحديث في النهاية من الضعف، وقال الحاكم وأبو نعيم: روى عن أبيه أحاديث موضوعة. انظر: التهذيب: ٦/١٦٢، والتعليق السابق .

(١) قال العلامة ابن القيم، رحمه الله، وقد ذكر حديث عوج بن عنق مثالاً على ما قامت الشواهد الصحيحة على بطلانه: «... وليس العجب من جرأة مثل هذا الكذّاب على الله، إنما العجب ممن يُدْخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير وغيره، ولا يبيّن أمره. وهذا عندهم من ذرية نوح، وقد قال الله تعالى: «وجعلنا ذريته هم الباقين» (الصافات ٣٧) فأخبر أن كل من بقي على وجه الأرض فهو من ذرية نوح، فلو كان لعوج ـ هذا ـ وجود لم يبق بعد نوح. المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص (٧٧)، وانظر: رسالة السيوطي بعنوان: الأوج في خبر عوج، ضمن الحاوي للفتاوى: ٢/٥٧٣ـ٥٧٨، البداية والنهاية لابن كثير: ١/١١٤، الأسرار المرفوعة لملا علي القاري ص (٤٢٥ـ٤٢٧) مع تعليق المحقق .

(٢) في «ب»: (فلا تسألَنّي) .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ
أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ
مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

واختلفوا في هذا الابن؛[١] قال مجاهد والحسن: كان ولد خنث[٢] من غير نوح، ولم يعلم بذلك نوح، ولذلك قال: ﴿ما ليس لك به علم﴾ وقرأ الحسن «فخانتاهما» (التحريم ـــ ١٠).

وقال أبو جعفر الباقر: كان ابن امرأته وكان يعلمه نوح ولذلك قال «من أهلي» ولم يقل مني .

وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والأكثرون[٣]: إنه كان ابن نوح عليه السلام من صلبه. وقال ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط. وقوله: ﴿إنّه ليسَ من أهلك﴾ أي: من أهل الدين[٤] /، لأنه كان مخالفاً له في الدين، وقوله: «فخانتاهما» أي: في الدين والعمل الصالح لا في الفراش . ١٧٥/ب

وقوله: ﴿إني أعظُكَ أن تكونَ مِنَ الجاهلين﴾، يعني: أن تدعو بهلاك الكفار ثم تسأل نجاة كافر .

﴿قال﴾نوح ﴿ربِّ إنّي أعوذُ بِكَ أنْ أسألَكَ ما ليسَ لي بِهِ علمٌ وإلّا تغفرْ لي وترحمني أكُنْ مِّنَ الخاسرين﴾ .

﴿قيلَ يانوحُ اهْبِطْ﴾ إنزل من السفينة، ﴿بسلامٍ مِّنّا﴾، أي [بأمن وسلامة منّا][٥]، ﴿وبركات

---

(١) انظر في هذه الأقوال: الطبري: ١٥/٣٤٠ــ٣٤٦ .

(٢) في « أ »: (خبيث). و«الخنث» (بكسر الخاء وسكون النون): الذنب والمعصية. وفي الحديث: «يكثر فيهم أولاد الخنث» أي: أولاد الزنا. ويروى: «الخبث» (بالخاء مضمومة والثاء) من «الخبث» وهو الفساد والفجور .
وفي الحديث: «إذا كثر الخبث كان كذا وكذا...» أي: الفسق والفجور. وفي الحديث: «أنه أُتي برجل مخدج سقيم، وجد مع أَمَةٍ يخبث بها» أي: يزني بها ويقال: «هو ابن خبثة» لابن الزنية، ولد لغير رشدة .
انظر: تعليق الشيخ محمود شاكر على الطبري: ١٥/٣٤٠ .

(٣) وهو ما رجحه الطبري، قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، لأنه كان لدينك مخالفاً وبي كافراً = وكان ابنه، لأن الله تعالى ذكره قد أخبر نبيه محمداً ﷺ أنه ابنه فقال: «ونادى نوح ابنه»، وغير جائز أن يخبر أنه «ابنه» فيكون بخلاف ما أخبر. وليس في قوله: «إنه ليس من أهلك» دلالة على أنه ليس بابنه، إذ كان قوله «ليس من أهلك» محتملاً من المعنى ما ذكرنا، ومحتملاً «إنه ليس من أهل دينك» ثم يحذف «الدين» فيقال: «إنه ليس من أهلك» كما قيل: «واسأل القرية التي كنا فيها» (يوسف ــ ٨٢) .
انظر: الطبري: ١٥/٣٤٦ .

(٤) في «ب»: (دينك) .

(٥) ساقط من «ب» .

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٤٩ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾

عليك﴾، البركة هي: ثبوت الخير، ومنه: بروك البعير. وقيل: البركة هاهنا هي: أن الله تعالى جعل ذريته هُمُ الباقين إلى يوم القيامة، **﴿وعلى أُمم مِّمَّن مَّعَكَ﴾**، أي: على ذرية أمم ممن كان معك في السفينة، يعني على قرون تجيء من بعدك، من ذرية من معك، من ولدك وهم المؤمنون، قال محمد بن كعب القرظي: دخل فيه كل مؤمن إلى قيام الساعة **﴿وأُمم سَنُمَتِّعُهُمْ﴾**، هذا ابتداء، أي: أمم سنمتعهم في الدنيا، **﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عذابٌ أليمٌ﴾**، وهم الكافرون وأهل الشقاوة .

﴿تلكَ مِنْ أنباءِ الغيبِ﴾، أخبار الغيب، **﴿نُوحيها إليكَ ما كنتَ تعلمها أنتَ ولا قومُكَ مِن قبلِ هذا﴾**، من قبل نزول القرآن، **﴿فاصْبِرْ﴾**، على القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة وما تلقى من أذى الكفار كما صبر نوح، **﴿إنَّ العاقبةَ﴾** آخر الأمر بالسعادة والنصرة **﴿للمتَّقين﴾** .

قوله تعالى: **﴿وإلى عادٍ﴾** أي: وأرسلنا إلى عاد، **﴿أخاهم هوداً﴾**، في النسب لا في الدين، **﴿قال ياقومِ اعبدُوا اللهَ﴾**، [وحّدُوا الله][1] **﴿ما لكم من إلهٍ غيرُهُ إنْ أنتم إلّا مُفترون﴾**، ما أنتم [في إشراككم][2] إلّا كاذبون .

﴿ياقومِ لا أسئلُكم عليه﴾، أي: على تبليغ الرسالة، **﴿أجراً﴾**، جُعْلاً، **﴿إنْ أجْريَ﴾**، ما ثوابي، **﴿إلّا على الذي فطرني﴾**، خلقني، **﴿أفلا تَعْقِلُون﴾** .

﴿وياقومِ استغفرُوا ربَّكم﴾، أي: آمنوا به، والإستغفار ها هنا بمعنى الإيمان، **﴿ثم تُوبُوا إليه﴾**، من عبادة غيره ومن سالف ذنوبكم، **﴿يُرْسِلِ السماءَ عليكم مِّدْرَاراً﴾**، أي: يرسل المطر عليكم متتابعاً، مرة بعد أخرى في أوقات الحاجة، **﴿ويَزِدْكُم قُوَّةً إلى قُوَّتكم﴾**، أي: شدة مع شدتكم. وذلك أن الله عزّ وجلّ

---

(١) ساقط من «ب» .

(٢) ساقط من «ب» .

قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

حبس عنهم القطر ثلاث سنين، وأعقم أرحام نسائهم فلمْ يلدن، فقال لهم هود عليه السلام: إن آمنتم أرسل الله عليكم المطر، فتزدادون مالاً، ويعيد أرحام الأمهات إلى ما كانت، فيلدن فتزدادون قوة بالأموال والأولاد. وقيل: تزدادون قوة في الدين إلى قوة البدن. ﴿**ولا تتولّوا مُجرمين**﴾، أي: لا تدبروا مشركين .

﴿**قالوا ياهودُ ما جئتنا ببيّنةٍ**﴾، أي: ببرهان وحجة واضحة على ما تقول، ﴿**وما نحنُ بتاركي آلهتنا عن قولكَ**﴾، أي: بقولك، ﴿**وما نحنُ لك بمؤمنين**﴾، بمصدقين .

﴿**إنْ نقولُ إلّا اعتراكَ بعضُ آلهتِنا**﴾ أي: أصابك ﴿**بسوءٍ**﴾ يعني: لست تتعاطى ما نتعاطاه من مخالفتنا وسبِّ آلهتنا إلّا أن[(١)] بعض آلهتنا، اعتراك، أي: أصابك بسُوء بخبل وجنون، وذلك أنك سببت آلهتنا فانتقموا منك بالتخبيل لا نحمل أمرك إلا على هذا، ﴿**قال**﴾، لهم هود، ﴿**إني أُشْهِدُ اللهَ**﴾، على نفسي، ﴿**واشْهَدُوا**﴾، ياقوم ﴿**إني بريء ممّا تُشركون**﴾ .

﴿**مِنْ دُونِهِ**﴾، يعني: الأوثان، ﴿**فَكِيدُوني جميعاً**﴾، فاحتالوا في مكركم[(٢)] وضري أنتم وأوثانكم، ﴿**ثم لا تُنظِرُون**﴾ [لا تؤخرون ولا تمهلون][(٣)] .

﴿**إني توكلتُ**﴾ أي: اعتمدتُ ﴿**على اللهِ ربّي وربِّكُمْ ما مِنْ دَابّةٍ إلّا هو آخذٌ بناصيتِها**﴾ قال الضحاك: يحييها ويميتها .

قال الفرّاء: مالكها والقادر عليها .

وقال القتيبي: يقهرها، لأن من أخذت بناصيته فقد قهرته .

وقيل: إنما خصّ الناصية بالذكر لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنساناً بالذلة، فتقول: ناصية فلان بيد فلان، وكانوا إذا أسروا إنساناً وأرادوا إطلاقه والمَنَّ عليه جزوا ناصيته ليعتدّوا بذلك فخراً عليه، فخاطبهم الله بما يعرفون .

---

(١) في «ب»: (إلا لأن) .

(٢) في «ب»: (مكري) .

(٣) زيادة من المطبوع .

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ
شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٥٨ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ٥٩ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ٦٠﴾

﴿إنّ ربّي على صراطٍ مستقيم﴾، يعني: إن ربي وإن كان قادراً عليهم فإنه لا يظلمهم ولا يعمل إلّا بالإحسان والعدل، فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بعصيانه. وقيل: معناه إن دين ربي إلى صراط مستقيم.

وقيل[1]: فيه إضمار، أي: إن ربي يحثكم ويحملكم على صراط مستقيم.

﴿فإنْ تولّوا﴾، أي: تتولوا، يعني: تعرضوا عمّا دعوتُكم إليه، ﴿فقد أبلغتُكم ما أُرسلتُ به إليكم ويَسْتَخْلِفُ ربّي قوماً غيرَكم﴾، أي: إن أعرضتم يهلككم الله عزّ وجلّ ويستبدل بكم قوماً غيركم أطوع منكم، يوحّدُونه ويعبدونه، ﴿ولا تَضُرُّونَه شيئاً﴾، بتوليكم وإعراضكم، إنما تضرون أنفسكم. وقيل: لاتنقصونه شيئاً إذا أهلككم لأن وجودكم وعدمكم عنده سواء، ﴿إنَّ ربّي على كلِّ شيءٍ حفيظٌ﴾، أي: لكل شيء حافظ، يحفظني من أن تنالوني بسوء.

قوله تعالى: ﴿ولما جاءَ أمرُنا﴾، عذابنا، ﴿نجّينا هوداً والذينَ آمنُوا معه﴾، وكانوا أربعة آلاف. ﴿برحمةٍ﴾ بنعمة ﴿منّا ونجّيناهُم مِّنْ عذابٍ غليظٍ﴾، وهو الريح التي أهلك بها عاداً، وقيل: العذاب الغليظ: عذاب يوم القيامة، أي: كما نجيناهم في الدنيا من العذاب كذلك نجيناهم في الآخرة.

﴿وتلْكَ عادٌ﴾، رده إلى القبيلة، ﴿جَحَدُوا بآياتِ ربِّهم وعَصَوْا رُسُلَهُ﴾، يعني: هوداً وَحْدَهُ، ذكره بلفظ الجمع لأن من كذّب رسولاً كان كمن كذب جميع الرسل، ﴿واتّبَعُوا أمرَ كلِّ جبارٍ عنيدٍ﴾ أي: واتبع السفلة والسقاط أهل التكبر والعناد، والجبار: المتكبر، والعنيد: الذي لايقبل الحقّ، يقال: عَنَدَ الرجلُ يعند عنوداً إذا أبى أن يقبل الشيء وإن عرفه. قال أبو عبيدة[2]: العنيد والعاند والعنود والمعاند: المعارض لك بالخلاف.

﴿وأُتْبِعُوا في هذهِ الدّنيا لعنةً﴾، أي: أُرْدِفُوا لعنة تلحقهم وتنصرف معهم، واللعنة: هي الإبعاد والطَّرد عن الرحمة، ﴿ويومَ القيامة﴾، أي: وفي يوم القيامة أيضاً لعنوا كما لعنوا في الدنيا والآخرة، ﴿ألا إنّ

(١) ساقط من «ب».

(٢) في «ب»: (عبيد).

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾

عاداً كفرُوا ربَّهم﴾، أي: بربهم، [يقال: كفرته وكفرت به، كما](1) يقال: شكرتُه وشكرتُ له ونصحتُه ونصحتُ له. **﴿ألاَ بُعْداً لعادٍ قومِ هُودٍ﴾**، قيل: بعداً من رحمة الله. وقيل: هلاكاً. ولِلبُعْد معنيان: أحدهما ضد القرب، يقال منه: بَعُدَ يبعُدُ بُعْداً، [والآخر: بمعنى الهلاك، يقال: منه بَعِدَ يبعِدُ بَعْداً وبُعْداً](2).

قوله تعالى: **﴿وإلى ثمودَ أخاهم صالحاً﴾**، أي: أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً في النسب [لا في الدين](3)، **﴿قال ياقومِ اعْبُدُوا اللهَ﴾** وحّدُوا الله عزّ وجلّ(4)، **﴿ما لكمْ مِّنْ إلهٍ غيرُهُ هو أنشأكُم من الأرضِ﴾**، ابتدأ خلقَكُم، **﴿مِّنَ الأرضِ﴾**، وذلك أنهم من آدم عليه السلام وآدم خُلق من الأرض، **﴿واسْتَعْمَرَكُم فيها﴾**، أي: جعلكم عُمّارَها وسُكّانَها، قال الضحاك: أطال عمركم فيها حتى كان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة إلى ألف سنة، وكذلك / قوم عاد . ١٧٦/ أ

قال مجاهد: أعمَرَكُم من العُمري، أي: جعلها لكم ما عشتم. وقال قتادة: أسكنكم فيها .

﴿فاستَغْفِرُوه ثمّ تُوبُوا إليه إنّ ربِّي قريبٌ﴾، من المؤمنين، **﴿مُّجيبٌ﴾** لدعائهم .

﴿قالوا﴾، يعني ثمود، **﴿يا صالحُ قدْ كنتَ فينا مرجُوّاً قبلَ هذا﴾**، القول، [أي: كنا نرجوا](5) أن تكون سيداً فينا. وقيل: كنا نرجوا أن تعود إلى ديننا، وذلك أنهم كانوا يرجون رجوعه إلى دين عشيرته، فلما أظهر دعاءهم إلى الله عزّ وجلّ وترك الأصنام زعموا أن رجاءهم انقطع عنه، فقالوا **﴿أتنهانا أن نعبدَ ما يعبُدُ آباؤُنا﴾** [من قَبْلُ](6)، من الآلهة، **﴿وإنّنا لفي شكٍّ مِّمّا تدعونا إليه مُريب﴾**، موقع للريبة والتهمة، يقال: أربتُه إرابةً إذا فعلتُ به فعلاً يوجب له الريبة .

---

(١) ساقط من «ب» .
(٢) ساقط من «ب» .
(٣) ساقط من «ب» .
(٤) في «ب»: (وحِّدوه) .
(٥) ساقط من «ب» .
(٦) ساقط من «ب» .

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

﴿**قالَ ياقومِ أرأيتُم إنْ كنتُ على بَيِّنةٍ منْ ربّي وآتاني منه رحمةً**﴾، نبوة وحكمة، ﴿**فَمَنْ ينصُرُني مِنَ اللهِ**﴾، أي: من يمنعني من [عذاب][1] الله، ﴿**إنْ عصيتُه فما تَزِيدُونني غيرَ تَخْسِيرٍ**﴾، قال ابن عباس: معناه: غير بصارة في خسارتكم .

قال الحسين[2] بن الفضل: لم يكن صالح عليه السلام في خسارة حتى قال: «فما تزيدونني غير تخسير»، وإنما المعنى: ما تزيدونني بما تقولون إلا نسبتي إيّاكم إلى الخسارة .

والتفسيق والتفجير في اللغة هو: النسبة إلى الفسق والفجور، وكذلك التخسير هو: النسبة إلى الخسران .

﴿**وياقومِ هذهِ ناقةُ اللهِ لكم آيةً**﴾، نصب على الحال والقطع، وذلك أن قومَهُ طلبوا منه أن يخرج ناقةً عُشَراء من هذه الصخرة، وأشاروا إلى صخرة، فدعا صالح عليه السلام فخرجت منها ناقة وولدت في الحال ولداً مثلها[3]، فهذا معنى قوله: ﴿**هذه ناقةُ اللهِ لكم آيةً فَذَرُوهَا تأكُلْ في أرضِ اللهِ**﴾، من العشب والنبات فليست عليكم مؤونتها، ﴿**ولَا تَمَسُّوهَا بسوءٍ**﴾: ولا تصيبوها بعقر، ﴿**فيأخُذَكمْ**﴾، إن قتلتموها، ﴿**عذابٌ قريبٌ**﴾ .

﴿**فعقَرُوها فقال**﴾، لهم صالح، ﴿**تَمَتَّعُوا**﴾، عيشوا[4]، ﴿**في دارِكُمْ**﴾، أي: في دياركم، ﴿**ثلاثةَ أيّامٍ**﴾، ثم تهلكون، ﴿**ذلك وَعْدٌ غيرُ مكذُوبٍ**﴾، أي: غير كذب .

رُوي أنه قال لهم: يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتُصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مُصْفَرَّة، وفي اليوم الثاني مُحْمَرَّة، وفي اليوم الثالث مسودَّة، فكان كما قال، وأتاهم العذاب اليوم الرابع .

(١) ساقط من «ب» .
(٢) في «ب»: (الحسن) .
(٣) انظر فيما سبق، سورة الأعراف : ٣/٢٤٩-٢٥٠ .
(٤) في «ب»: (تعيشوا) .

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿**فلمّا جاءَ أمرُنا نجّينا صالحاً والذينَ آمنُوا معه برحمةٍ منّا**﴾، بنعمة منّا، ﴿**ومِنْ خِزْيِ يومئِذٍ**﴾، أي: من عذابه وهوانه. قرأ أبو جعفر ونافع والكسائي: «خزي يومَئذ» و«عذاب يومَئذ» بفتح الميم. وقرأ الباقون بالكسر. ﴿**إنّ ربّكَ هو القوي العزيز**﴾ .

﴿**وأخذَ الذينَ ظلمُوا**﴾، كفروا، ﴿**الصيحةُ**﴾، وذلك أنّ جبريل عليه السلام صاح عليهم صيحة واحدة فهلكوا جميعاً. وقيل: أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الأرض، فتقطعت قلوبهم في صدورهم. وإنما قال: «وأخذ» الصيحةُ مؤنثة، لأن الصيحة بمعنى الصياح. ﴿**فأصبحُوا في دِيارِهم جاثمين**﴾، صَرْعَى هلكَى .

﴿**كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها**﴾، يقيموا ويكونوا فيها ﴿**ألَا إنّ ثمودَاْ كفرُوا ربَّهم ألَا بُعْداً لثمودَ**﴾، قرأ حمزة وحفص ويعقوب: «ثمودَ» غير منون، وكذلك في سورة الفرقان والعنكبوت والنجم، ووافق أبو بكر في النجم، وقرأ الباقون بالتنوين، وقرأ الكسائي: «لثمودٍ» بخفض الدال والتنوين، والباقون بنصب الدال، فمن جرّه فلأنه اسم مذكر، ومن لم يجرّه جعله إسماً للقبيلة .

قوله تعالى: ﴿**ولقدْ جاءتْ رُسلُنا إبراهيم بالبُشْرَى**﴾، أراد بالرسل الملائكة. واختلفوا في عددهم[1]، فقال ابن عباس وعطاء: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

وقال الضحاك: كانوا تسعة .

وقال مقاتل: كانوا إثنى عشر مَلَكاً .

وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه سبعة .

وقال السدي: كانوا أحد عشر مَلَكاً على صورة الغلمان الوضاء وجوههم .

﴿**بالبشرى**﴾ بالبشارة بإسحاق ويعقوب. وقيل: بإهلاك قوم لوط .

---

(١) انظر في هذه الأقوال: البحر المحيط: ٥/٢٤١ .

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾

﴿قالوا سلاماً﴾، أي: سلّموا سلاماً، ﴿قال﴾ إبراهيم ﴿سلامٌ﴾، أي: عليكم سلام: وقيل: هو رفع على الحكاية، كقوله تعالى: «وقولُوا حِطةٌ» (البقرة ٨٥ والأعراف ١٦١)، وقرأ حمزة والكسائي «سِلْم» هاهنا وفي سورة الذاريات بكسر السين بلا ألف. قيل: هو بمعنى السلام. كما يقال: حِل وحَلال، وحِرم وحَرام. وقيل: هو بمعنى الصلح، أي: نحن سلم أي صلح لكم غير حرب.

﴿فما لبثَ أن جاءَ بعجلٍ حَنيذٍ﴾، والحنيذ والمحنوذ: هو المشوي على الحجارة في خَدٍّ من الأرض، وكان سميناً يسيل دسماً، كما قال في موضع آخر: «فجاء بِعِجْلٍ سمين» (الذاريات ــ ٢٦): قال قتادة: كان عامة مال إبراهيم البقر.

﴿فلمّا رأى أيدِيَهم لاتصلُ إليه﴾، أي: إلى العجل، ﴿نكِرَهم﴾، أنكرهم، ﴿وأوْجَسَ﴾، أضمر، ﴿منهم خِيفَةً﴾، خوفاً. قال مقاتل: وقع في قلبه، وأصل الوجوس: الدخول، كان الخوف دخل قلبه. وقال قتادة: وذلك أنهم كانوا إذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأتِ بخيرٍ وإنما جاء بِشَرٍّ. ﴿قالُوا لَا تخفْ﴾، يا إبراهيم [إنا رسل رَبك. يعني:][1]، ﴿إنّا﴾ ملائكة الله ﴿أُرْسِلْنا إلى قومِ لُوطٍ﴾.

﴿وامرأتُهُ﴾ سارة بنت هاران بن أحور[2] وهي ابنة عم إبراهيم. ﴿قائمةٌ﴾ من وراء الستر تسمع كلامهم. وقيل: كانت قائمة تخدم الرسل، وإبراهيم جالس معهم. ﴿فضَحِكتْ﴾، قال مجاهد وعكرمة: ضحكتْ أي: حاضت في الوقت، تقول العرب: ضحكت الأرنب، أي: حاضت والأكثرون على أن المراد منه الضحك المعروف.

واختلفوا في سبب ضحكها، قيل: ضحكت لزوال الخوف عنها وعن إبراهيم حين قالوا لا تخف. وقال السدي: لما قرّب إبراهيم الطعام إليهم فلم يأكلوا خاف إبراهيم وظنهم لصوصاً فقال لهم: ألا تأكلون؟ قالوا: إنّا لا نأكل طعاماً إلّا بثمن، قال إبراهيم: فإن له ثمناً، قالوا وما ثمنه؟ قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره، فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال: حقّ لهذا أن يتخذه ربُّه خليلاً. فلما رأى إبراهيم وسارة أيديهم لا تصل إليه ضحكت سارة، وقالت: ياعجباً لأضيافنا إنا نخدمهم بأنفسنا تكرمةً لهم وهم لا يأكلون طعامنا.

(١) زيادة من «ب».

(٢) في «ب»: (ماخوذ).

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٧٢ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾

وقال قتادة: ضحكت من غفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم .

وقال مقاتل والكلبي: ضحكت من خوف إبراهيم من ثلاثة [في بيته][1] وهو فيما بين خدمه وحشمه .

وقيل: ضحكت سروراً بالبشارة .

وقال ابن عباس ووهب: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنّها وسنّ زوجها .

وعلى هذا القول تكون الآية على التقديم والتأخير، تقديره: وأمرأته قائمةٌ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، فضحكتْ، وقالت: ياويلتى أألِدُ وأنا عجوزٌ؟ .

قوله تعالى: ﴿فبشَّرناها بإسحاقَ ومِنْ وراءِ إسحاقَ﴾، أي: من بعد إسحاق، ﴿يعقوبَ﴾، أراد به والدا لولد فبشرت أنها تعيش حتى / ترى ولد ولدها قرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب بنصب الباء، ١٧٦/ب
أي: من وراء إسحاق يعقوب. وقيل: بإضمار فعل، أي: ووهبنا له [من وراء][2] يعقوب. وقرأ الباقون بالرفع على حذف حرف الصفة. وقيل: ومن بعد إسحاق يحدث يعقوب، فلما بشرت بالولد ضحكت فصكت وجهها، أي: ضربت وجهها تعجباً .

﴿قالَتْ ياوَيْلَتا﴾، نداء ندبة[3] وهي كلمة يقولها الإنسان عند رؤية ما يتعجب منه، أي: يا عجباً. والأصل ياويلتاه. ﴿أألِدُ وأنا عجوزٌ﴾، وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن إسحاق. وقال مجاهد: تسعاً وتسعين سنة. ﴿وهذا بَعْلِي﴾، زوجي، سمي بذلك لأنَّه قيّم أمرها، ﴿شيخاً﴾؛ نصب على الحال، وكان سنُّ إبراهيم مائة وعشرين سنة في قول ابن إسحاق. وقال مجاهد: مائة سنة، وكان بين البشارة والولادة سنة، ﴿إنَّ هذا لَشيءٌ عجيبٌ﴾ .

﴿قالوا﴾، يعني الملائكة، ﴿أتعجبينَ من أمرِ اللّهِ﴾، معناه: لا تعجبي من أمر الله، فإنَّ اللّهَ عَزّ وجلّ إذا أراد شيئاً كان. ﴿رحمةُ اللّهِ وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ﴾، أي: بيت إبراهيم عليه السلام. قيل: هذا على معنى الدعاء من الملائكة، وقيل: معنى الخير والرحمة والنعمة .

---

(١) ساقط من «ب» .
(٢) ساقط من «ب» .
(٣) في «ب»: (تعجب) .

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

والبركاتُ جمع البركة، وهي ثبوت الخير. وفيه دليلِ على أن الأزواج من أهل البيت.

﴿إنّه حَميدٌ مجيدٌ﴾، فالحميد: المحمود في أفعاله، والمجيد: الكريم، وأصل المجد الرفعة.

﴿فلمّا ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعُ﴾، الخوف، ﴿وجاءَتْهُ البُشْرَى﴾، بإسحاق ويعقوب، ﴿يُجادِلُنا في قومِ لوطٍ﴾، فيه إضمار، أي: أخذ وظل يجادلنا.

قيل: معناه يكلمنا لأن إبراهيم عليه السلام لايجادل ربَّه عزّ وجلّ إنما يسأله ويطلب إليه.

وقال عامة أهل التفسير: معناه يجادل رسلنا، وكانت مجادلته أنه قال للملائكة: أرأيتم لو كان في مدائن لوط خمسون من المؤمنين أتهلكونهم؟ قالوا: لا، قال: أو أربعون؟ قالوا: لا، قال: أو ثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسةً، [قالوا: لا](1)، قال: أرأيتُم إنْ كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، قال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: إن فيها لوطاً. قالوا: نحن أعلم بمن فيها، لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

﴿إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ أوّاهٌ مُنيبٌ﴾، قال ابن جريج: وكان في قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف، فقالت الرسل عند ذلك لإبراهيم.

﴿يا إبراهيمُ أعرِضْ عن هذا﴾، أي: أعرض عن هذا المقال ودعْ عنك الجدال، ﴿إنه قدْ جاءَ أمرُ ربِّكَ﴾، أي، عذاب ربِّك [وحكم ربّك](1)، ﴿وإنَّهم آتيهم﴾، نازل بهم، ﴿عذابٌ غيرُ مردُودٍ﴾، أي: غير مصروف عنهم.

قوله تعالى: ﴿ولما جاءَتْ رسُلُنا﴾، يعني: هؤلاء الملائكة، ﴿لوطاً﴾، على صورة غلمان مرد حسان الوجوه، ﴿سِيءَ بهم﴾، أي: حزن لوط بمجيئهم، يقال: سؤته فسيء، كما يقال: سررته فسر. ﴿وضاقَ بهم ذَرْعاً﴾، أي: قلباً. يقال: ضاق ذرع فلان بكذا: إذا وقع في مكروه لا يطيق الخروج منه، وذلك أن لوطاً عليه السلام لما نظر إلى حسن وجوههم وطيب روائحهم أشفق عليهم من قومه أن يقصدوهم بالفاحشة، وعلم أنه سيحتاج إلى المدافعة عنهم.

﴿وقالَ هذا يومٌ عصيبٌ﴾، أي: شديد كأنه عصب به الشر والبلاء، أي: شدَّ.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

قال قتادة والسدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام نحو قرية لوط فأتوا لوطاً نصف النهار، وهو في أرض له يعمل فيها .

وقيل: إنه كان يحتطب. وقد قال الله تعالى لهم: لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فاستضافوه فانطلق بهم، فلما مشىٰ ساعة قال لهم: ما بلغكم أمر أهل هذه القرية؟ قالوا: وما أمرهم؟ قال: أشهد بالله إنها لشرُّ قرية في الأرض عملاً. يقول ذلك أربع مرات، فدخلوا معه منزله .

ورُوي: أنه حمل الحطب وتبعته الملائكة فمرّ على جماعة من قومه فغمزوا فيما بينهم، فقال لوط: إن قومي شر خلق الله، ثم مرّ على قوم آخرين، فغمزوا، فقال مثله، ثم مرّ بقومٍ آخرين فقال مثله، فكان كلما قال لوط هذا القول قال جبريل للملائكة: اشهدوا، حتى أتى منزله .

ورُوي: أن الملائكة جاؤوا إلى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك أحد إلّا أهل بيت لوط، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، وقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيتُ مثل وجوههم قط(١) .

﴿**وجاءَه قومُه يُهرعُون إليه**﴾، قال ابن عباس [وقتادة](٢): يسرعون إليه. وقال مجاهد: يهرولون، وقال الحسن: **مشي** بين مشيتين. وقال شمر بن عطية: بين الهرولة [والجمز](٣) .

﴿**ومن قَبْلُ**﴾، أي: من قبل مجيئهم إلى لوط، ﴿**كانُوا يعملُون السيئاتِ**﴾، كانوا يأتون الرجال في أدبارهم. ﴿**قال**﴾، لهم لوط حين قصدوا أضيافه وظنوا أنهم غلمان، ﴿**ياقومِ هؤلاء بناتي هُنّ أطهر لكم**﴾، يعني: بالتزويج، وفي(٤) أضيافه ببناته، وكان في ذلك الوقت، تزويج المسلمة من الكافر جائزاً كما زوج النبي ﷺ ابنته من عتبة بن أبي لهب، وأبي العاص بن الربيع قبل الوحي، وكانا كافرين(٥) .

وقال الحسين بن الفضل: عرض بناته عليهم بشرط الإسلام .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: قوله: ﴿**هؤلاء بناتي**﴾، أراد: نساءهم، وأضاف إلى نفسه لأنّ كلّ

---

(١) انظر: الطبري: ١٥/٤٠٨-٤٠٩، ٤٢٤-٤٢٥، الدر المنثور: ٤/٤٥٧ وما بعدها .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) في «ب»: (الخبب) .

(٤) هكذا في الأصل، ولعلها «وقى» .

(٥) ذكره ابن هشام والطبراني والبيهقي في الدلائل انظر: الكافي الشاف ص (٨٦-٨٧) .

قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً
أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ
إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾

نبي أبو أمته. وفي قراءة أبيّ بن كعب: «النبيُّ أَوْلَى بالمؤمنينَ مِنْ أنفسهم وأزواجهُ أُمهاتُهم» (الأحزاب ـ ٦) وهو أب لهم.

وقيل: ذكر ذلك على سبيل الدفع لا على التحقيق، ولم يرضوا هذا.

﴿**فاتّقوا اللّهَ ولا تُخزونِ في ضيفي**﴾، [أي: خافُوا اللّهَ ولا تخزونِ في ضيفي](١)، أي: لا تَسُوؤُني ولا تفضحُوني في أضيافي. ﴿**أليسَ مِنْكُم رجلٌ رَّشيدٌ**﴾، صالح سديد. قال عكرمة: رجل يقول لاإله إلا الله. وقال ابن إسحاق: رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

﴿**قالوا لقدْ علمتَ**﴾، يالوط، ﴿**مَا لَنا في بناتِكَ مِنْ حقٍّ**﴾، أي: لسن أزواجاً لنا فنستحقهن بالنكاح. وقيل: معناه مَالَنا فيهن من حاجة وشهوة. ﴿**وإنَّكَ لتعلمُ ما نُريد**﴾، من إتيان الرجال.

﴿**قال**﴾، لهم لوط عند ذلك: ﴿**لو أن لي بكم قوّة**﴾، أراد قوة البدن، أو القوة بالأتباع، ﴿**أو آوي إلى رُكنٍ شديدٍ**﴾، أي: انضم إلى عشيرةٍ مانعة. وجواب «لو» مضمر أي لقاتلناكم وحُلْنا بينكم وبينهم قال أبو هريرة: ما بعث الله بعده نبياً إلا في منعة من عشيرته.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، أنبأنا أبو اليمان، أنبأنا شعيب بن أبي حمزة، أنبأنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «يغفرُ اللّهُ للوطٍ إنْ كانَ لَيأوي إلى رُكنٍ شديدٍ»(٢).

قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار، وهو يناظرهم ويناشدهم من
وراء الباب /، وهم يعالجون تسوّرَ الجدار، فلما رأتِ الملائكة ما يلقى لوطٌ بسببهم: ١٧٧/ أ

﴿**قالوا يالوطُ**﴾، إن رُكنك لشديد، ﴿**إنَّا رُسلُ ربِّك لنْ يصلُوا إليك**﴾، فافتح الباب ودعنا وإيَّاهم، ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربَّه عزّ وجلّ في عقوبتهم، فأذن له، فقام في الصورة التي

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب «ولوطاً إذ قال لقومه: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون» : ٦/٤١٥.

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ

يكون فيها فنشر جناحه وعليه وشاح من دُرٍّ منظوم، وهو برَّاق الثنايا، أجلَى الجبين، ورأسه حُبُك(1) مثل المرجان، كأنه الثلج بياضاً وقدماه إلى الخضرة، فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولايهتدون إلى بيوتهم فانصرفوا وهم يقولون النجاء النجاء، فإن في بيت لوط أسحر قوم في الأرض سحرونا، وجعلوا يقولون: يالوط كما أنت حتى تصبح فسترى ما تلقى منّا غداً. يُوعِدُونه، فقال(2) لوط للملائكة: متى موعد إهلاكهم؟ فقالوا: الصبح، قال: أريد أسرع من ذلك فلو أهلكتموهم الآن، فقالوا ﴿أليس الصبحُ بقريب﴾؟ ثم قالوا، ﴿فأسرِ﴾، يا لوط، ﴿بأهلِك﴾ .

قرأ أهل الحجاز «فاسْرِ وأنِ اسْرِ» بوصل الألف [حيث وقع في القرآن](3) من سرى يسري، وقرأ الباقون بقطع الألف من أسرى يسري، ومعناهما واحد وهو المسير بالليل .

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ الليلِ﴾، قال ابن عباس: بطائفة من الليل. وقال الضحاك: ببقية. وقال قتادة: بعد مُضيٍّ أوله وقيل: إنه السحر الأول .

﴿ولا يلتفتْ منكم أحدٌ إلّا امرأتُك﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «امرأتُك» برفع التاء على الاستثناء من الالتفات، أي: لا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتُك فإنها تلتفت فتهلك، وكان لوط قد أخرجها معه، ونهى من تبعه، ممن أسرى بهم أن يلتفت، سوى(4) زوجته، فإنها لما سمعت هدة العذاب التفتت، وقالت: يا قوماه، فأدركها حجر فقتلها .

وقرأ الآخرون: بنصب التاء على الاستثناء من الإسراء، أي: فأسر بأهلك إلا امرأتك فلا تَسْرِ بِهَا وخلِّفْها مع قومها، فإنّ هَوَاهَا إليهم، وتصديقُه قراءة ابن مسعود «فأسْر بأهلك بقطع من الليل إلّا امرأتك ولا يلتفتْ منكم أحد» .

﴿إنه مُصيبُها ما أصابَهم﴾، من العذاب، ﴿إنَّ موعدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، أي: موعد هلاكهم وقت الصبح، فقال لوط: أريد أسرع من ذلك، فقالوا ﴿أليسَ الصُّبْحُ بقريب﴾ .

قوله: ﴿فلما جاء أمرُنا﴾ عذابُنا، ﴿جعلنَا عاليهَا سافلَها﴾، وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط المؤتفكات وهي خمس مدائن، وفيها أربعمائة ألف. وقيل: أربعة آلاف ألف، فرفع المدائن كلها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب، فلم يُكفأ لهم إناءٌ ولم ينتبه نائمٌ، ثم قَلَبها فجعل عاليها سافلها. ﴿وأمطرنَا عليها﴾، أي على شذاذها ومسافريها. وقيل: بعدما قلبها أمطر

(1) يعني «حبك الشعر» وهو الجعد المتكسر منه. وانظر: الطبري: ١٥/٤٣٠ مع التعليق عليه .
(2) هكذا في المخطوط. وفي المطبوع جاء قبل قول لوط: «قالت الملائكة: لا تخف، إنا أُرسلنا لإهلاكهم، فقال لوط..» .
(3) ساقط من «ب» .
(4) هكذا في الأصل وفي المطبوع ولعلها: فلم يلتفت سوى زوجته ـ كما جاء في هامش «أ» .

﴿مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤﴾

عليها، ﴿**حجارةً مِّن سِجِّيل**﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير: (سنك وكل) فارسي معرب .

وقال قتادة وعكرمة: السجيل الطين، دليله قوله عزّ وجلّ: «لِنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طين» (الذاريات ــ ٣٣) .

قال مجاهد(١): أولها حجر وآخرها طين .

وقال الحسن: كان أصل الحجارة طيناً فشددت .

وقال الضحاك: يعني الآجر .

وقيل: السجيل اسم السماء الدنيا(٢) .

وقيل: هو جبال في السماء، قال الله تعالى: «وينزِّل من السماءِ مِنْ جبالٍ فيها مِنْ بَرَد» (النور ــ ٤٣).

قوله تعالى: ﴿**منضُودٍ**﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: متتابع، يتبع بعضها بعضاً، مفعول من النضد، وهو وضع الشيء بعضه فوق بعض .

﴿**مُسوّمةً**﴾، من نعت الحجاة، وهي نصب على الحال، ومعناها معلمة: قال ابن جريج: عليها سيما لاتُشَاكِلُ حجارة الأرض .

وقال قتادة وعكرمة: عليها خطوط حمر على هيئة الجزع .

وقال الحسن والسدي: كانت مختومة عليها أمثال الخواتيم.

وقيل: مكتوب على كل حجر اسم من رمي به.

﴿**عِنْد ربِّك وما هي**﴾، يعني: تلك الحجارة، ﴿**مِنَ الظالمين**﴾، أي: من مشركي مكة، ﴿**بِبَعِيد**﴾، وقال قتادة وعكرمة: يعني ظالمي هذه الأمة، واللّهِ ما أجار اللّهُ منها ظالماً بعدُ .

وفي بعض الآثار: «مَا مِنْ ظالمٍ إلّا وهو بعرضِ حجرٍ يسقط عليه من ساعة إلى ساعة» .

ورُوي: أن الحجر اتّبع شذاذهم ومسافريهم أين كانوا في البلاد، ودخل رجل منهم الحرم فكان الحجر معلقاً في السماء أربعين يوماً حتى خرج فأصابه فأهلكه .

قوله عزّ وجلّ: ﴿**وإلى مَدْيَنَ**﴾، أي: وأرسلنا إلى ولد مدين، ﴿**أخاهم شعيباً قال ياقَوْمِ اعْبُدوا**

(١) في «ب»: قال ابن عباس .

(٢) قاله أبو العالية وابن زيد. وهذا ضعيف، لوصفه بـ «منضود». انظر: البحر المحيط: ٢٤٩/٥ .

وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ
وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ
وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

اللّهَ ما لكم مِن إلهٍ غيرُهُ ولا تَنقُصُوا المكيالَ والميزانَ﴾، أي: لا تبخسوا، وهم كانوا يُطففون مع شِرْكهم، **﴿إنّي أراكُم بخيرٍ﴾**، قال ابن عباس: موسرين في نعمة. وقال مجاهد: في خصب وسعة، فحذّرهم زوال النعمة، وغلاء السعر، وحلول النقمة، إن لم يتوبوا. فقال: **﴿وَإِنّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مُحيطٍ﴾**، يحيط بكم فيهلككم.

﴿ويا قوم أوفُوا المكيالَ والميزانَ﴾، أتموهما، **﴿بالقِسْطِ﴾**، بالعدل. وقيل: بتقويم لسان الميزان، **﴿ولا تَبْخسُوا﴾**، لا تنقصوا، **﴿الناسَ أشياءَهم ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفْسِدين﴾**.

﴿بقيّتُ اللّهِ خيرٌ لكم إن كنتُمْ مُؤْمنين﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني ما أبقى الله لكم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن خيرٌ مما تأخذونه بالتطفيف. وقال مجاهد: بقية الله: أي طاعة الله، خير لكم إن كنتم مؤمنين بأن ما عندكم من رزق الله وعطائه. **﴿وما أنا عليكم بحفيظٍ﴾**، بوكيل. وقيل: إنما قال ذلك لأنه لم يؤمر بقتالهم.

﴿قالوا يا شعيبُ أصلاتُك تَأْمُرك أنْ نترك ما يعبدُ آباؤُنا﴾، من الأوثان. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان شعيب عليه السلام كثير الصلاة. لذلك قالوا هذا. وقال الأعمش: يعني: أقراءتك. **﴿أو أنْ نفعلَ في أموالِنا ما نشاء﴾** من الزيادة والنقصان.

وقيل: كان شعيب عليه السلام نهاهم عن قطع الدنانير والدراهم وزعم أنه محرم عليهم، فقالوا: أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء من قطعها[1].

﴿إنّك لأنتَ الحليمُ الرشيدُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: أرادوا: السفيه الغاوي، والعرب تصف الشيء بضده فتقول: للديغ سليم وللفلاة مفازة. [وقيل][2]: قالوه على وجه الاستهزاء.

وقيل: معناه الحليم الرشيد بزعمك.

وقيل: هو على الصحة أي إنك ياشعيب فينا حليم رشيد، لا يجمل بك شق عصا قومك ومخالفة دينهم، كما قال قوم صالح عليه السلام: «قَدْ كنتَ فينا مَرْجُوّاً قبل هذا» (هود — ٦٢).

---

(١) انظر: الطبري: ١٥/٤٥٠–٤٥١.

(٢) في «ب»: (وقد) وهو أليق بالسياق.

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾

﴿قال ياقوم أرأيتم إن كنتُ على بيّنةٍ﴾، بصيرة وبيان، ﴿من ربي ورزقني منه رِزْقاً حسناً﴾، حلالاً. وقيل: كثيراً. وكان شعيب / عليه السلام كثير المال. وقيل: الرزق الحسن: العلم والمعرفة. ﴿وما أريدُ أنْ أخالِفَكم إلى ما أنْهَاكُم عنه﴾، أي: ما أريد أن أنهاكم عن شيء ثم أرتكبه. ﴿إنْ أريد﴾، ما أريد فيما [آمركم به وأنهاكم عنه][1] ﴿إلّا الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقي إلّا بالله﴾، والتوفيق: تسهيل سبيل الخير والطاعة. ﴿عليه توكّلتُ﴾، اعتمدتُ، ﴿وإليه أُنيب﴾، أرجع فيما ينزل بي من النوائب. وقيل: في المعاد . ١٧٧/ ب

﴿وياقومِ لا يجْرِمَنَّكم﴾، لا يحملنّكم، ﴿شِقَاقي﴾، خلافي ﴿أنْ يُصيبكم﴾، أي: على فعل ما أنهاكم عنه، ﴿مِثلَ ما أصابَ قومَ نوحٍ﴾، من الغرق، ﴿أو قومَ هُودٍ﴾، من الريح، ﴿أو قومَ صالحٍ﴾، من الصيحة، ﴿وما قومُ لُوطٍ منكم ببعيدٍ﴾، وذلك أنهم كانوا [حديثي عهد بهلاك][2] قوم لوط .

[وقيل معناه وما دار قوم لوط منكم ببعيد، وذلك أنهم كانوا جيران قوم لوط][3] .

﴿واستغفِروا ربّكم ثمّ تُوبوا إليه إنّ ربّي رحيمٌ وَدُودٌ﴾، وللودود[4] معنيان: أحدهما، أنه محب للمؤمنين، وقيل: هو بمعنى المودود أي محبوب المؤمنين. وجاء في الخبر: إن شعيباً عليه السلام كان خطيب الأنبياء عليهم السلام[5] .

---

(١) في «ب»: (أمرتكم به إلى ما أنهاكم عنه) .
(٢) في «ب»: (جيران) .
(٣) ساقط من «ب» .
(٤) في «ب» (وللود...) .
(٥) ذكره أبو الشيخ عن سفيان. انظر: فتح القدير للشوكاني: ٢/٥٢٢ .

﴿قَالُوا يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ
لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ
كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤﴾

﴿قالوا ياشعيبُ ما نَفْقَهُ﴾، ما نفهم، ﴿كثيراً ممّا تقول وإنّا لَنَراكَ فينا ضَعِيفاً﴾، وذلك أنه كان ضرير البصر، فأرادوا ضعف البصر[1]، ﴿ولولا رَهْطُكَ﴾، عشيرتُك وكان في منعة من قومه، ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾، لَقَتَلناك. والرجم: أقبح القتل. ﴿وما أنتَ علينا﴾، عندنا، ﴿بعزيز﴾ .

﴿قالَ ياقومِ أرَهْطِي أعزُّ عليكمْ مِّنَ اللّهِ﴾ أي: مكان رهطي أهيب عندكم من الله، أي: إن تركتم قتلي لمكان رهطي فالأولى أن تحفظوني في الله. ﴿واتخذتُموه وراءَكم ظِهْرِيّاً﴾، أي: نبذتم أمر الله وراء ظهوركم وتركتموه، ﴿إنَّ ربّي بما تعملُونَ محيطٌ﴾ .

﴿وياقومِ اعملُوا على مكانَتِكم﴾، أي: على تؤدتكم وتمكنكم. يقال: فلان يعمل على مكانته إذا عمل على تؤدة وتمكن. ﴿إنّي عَامِلٌ﴾، على تمكني، ﴿سوف تعلمون﴾، أيُّنا الجاني على نفسه، والمخطيء في فعله، فذلك قوله: ﴿مَنْ يأتيه عذابٌ يُخزيه﴾ يذلّه ﴿ومَنْ هو كاذبٌ﴾، قيل: «من» في محل النصب، أي: فسوف تعلمون الكاذب. وقيل: محله رفع، تقديره: ومن هو كاذب يعلم كذبه ويذوق وبال أمره. ﴿وارْتَقِبُوا﴾، وانتظروا العذابَ ﴿إنّي معكم رقيبٌ﴾، منتظر .

﴿ولمّا جاءَ أمرُنا نجّينا شعيباً والذين آمنُوا معه برحمةٍ منّا وأخذتِ الذينَ ظلمُوا الصيحة﴾، قيل: إن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم. وقيل: أتتهم صيحة من السماء فأهلكتهم. ﴿فأصبحُوا في دِيَارِهم جاثمين﴾، ميتين .

(١) قال ابن عطية رحمه الله: وهذا ضعيف لا تقوم عليه حجة، بضعف بصره أو بدنه، والظاهر من قولهم: «ضعيفاً» أنه ضعيف الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة كانوا يراعون فيه .
وقال أبو روق: إن الله لم يبعث نبياً أعمى، ولانبياً به زمانة .
انظر: المحرر الوجيز: ٣٨٤/٧، البحر المحيط: ٢٥٦/٥ .

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ
بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ
﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ
ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ
رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ

﴿كأنْ لم يَغْنَوْا﴾ أي: كأن لم [يقيموا ولم يكونوا](1) **﴿فيها ألا بُعْداً﴾**، هلاكاً، **﴿لِمَدْيَنَ كما بَعِدَتْ﴾**، هلكت **﴿ثمودُ﴾** .

قوله عزّ وجلّ: **﴿ولقدْ أرسلنا موسى بآياتِنا وسلطانٍ مُّبين﴾**، حجة بينة .

﴿إلى فرعونَ ومَلَئِهِ فاتَّبعُوا أمْرَ فرعونَ وما أمْرُ فرعونَ برشيدٍ﴾، بسديد .

﴿يَقْدُمُ قومَهُ﴾، يتقدمهم، **﴿يومَ القيامةِ فأوْرَدَهم﴾** فأدخلهم **﴿النّارَ وبئسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ﴾**، أي: بئس المدخل المدخول فيه .

﴿وأُتْبِعُوا في هذه﴾، أي: في هذه الدنيا، **﴿لعنةً ويومَ القيامةِ بئسَ الرِّفْدُ المَرْفُودُ﴾**، أي: العون المعان. وقيل: العطاء المعطى، وذلك أنهم ترادفت عليهم اللعنتان، لعنة في الدنيا ولعنة في الآخرة .

﴿ذلك من أنباءِ القُرَى نَقُصُّهُ عليكَ منها قائمٌ﴾، عامر، **﴿وحصيدٌ﴾**، خراب. وقيل: منها قائم بقيت الحيطان وسقطت السقوف. وحصيد أي: انمحى أثره. وقال مقاتل: قائم يرى له أثر وحصيد لا يُرى له أثر، وحصيد بمعنى محصود .

﴿وما ظلمناهم﴾، بالعذاب والهلاك، **﴿ولكنْ ظَلَمُوا أنفسَهم﴾**، بالكفر والمعصية. **﴿فما أغنتْ عنهم آلهتُهم التي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شيءٍ لمّا جاءَ أمْرُ ربِّك﴾**، عذاب ربك، **﴿وما زادُوهم غيرَ تتبيبٍ﴾**، أي: غير تخسير، وقيل: تدمير .

﴿وكذلكَ﴾، وهكذا، **﴿أخْذُ ربِّكَ إذا أخذ القُرَى وهي ظالمةٌ إنّ أخذَه أليمٌ شديدٌ﴾**، أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالنعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا

---

(١) في «ب»: (يكونوا فيها) .

﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥﴾

صدقة بن الفضل، أنبأنا أبو معاوية، أنبأنا يزيد بن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لَيُملي للظالِمِ حتى إذا أخذه لم يفلتْهُ»، قال: ثم قرأ: ﴿**وكذلك أخْذُ ربِّك إذا أخذَ القُرَى وهي ظالمة**﴾(1) الآية .

قوله عزّ وجلّ: ﴿**إنّ في ذلك لآيةً**﴾، لعِبْرَةً، ﴿**لمَنْ خاف عذابَ الآخرةِ ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ**﴾، يعني يوم القيامة، ﴿**وذلك يومٌ مشهودٌ**﴾، أي: يشهده أهل السماء والأرض.

﴿**وما نُؤخِّرُهُ**﴾، أي: وما نُؤخر ذلك اليوم، فلا نقيم عليكم القيامة [وقرأ يعقوب، وما يُؤخره بالياء](2)، ﴿**إلّا لأجلٍ معْدُودٍ**﴾، [معلوم](2) عند الله .

﴿**يومَ يأتِ**﴾ قرىء بإثباتِ الياء وحذفها، ﴿**لا تَكلَّمُ**﴾، أي: لا تتكلم ﴿**نفسٌ إلّا بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيدٌ**﴾، أي: فمنهم من سبقت له الشقاوة ومنهم من سبقت له السعادة .

أخبرنا أبو سعيد عبدالله بن أحمد الطاهري، أنبأنا جدي أبو سهل عبدالصمد بن عبدالرحمن البزار، أنبأنا أبو بكر محمد بن زكريا العُذَافِريّ، أنبأنا إسحاق بن إبراهيم بن عباد الدَّبَرِيّ، أنبأنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، عن منصور، عن سعيد بن عبيدة عن أبي عبدالرحمن السُّلَمِيّ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: خرجنا على جنازة فبينا نحن بالبقيع إذْ خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ وبيده مِخْصَرَةٌ، فجاء فجلس، ثم نكتَ بها الأرض ساعة، ثم قال: «ما من نفسٍ منفوسةٍ إلّا قدْ كُتِبَ مكانُها من الجنة أو النار، وإلّا وقدْ كُتِبَتْ شقيةً أو سعيدةً»، قال: فقال رجل: أفلا نتكل على كتابنا يارسول الله وندعُ العملَ؟ قال: «لا، ولكن اعْملُوا فكلٌّ ميسرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أما أهل الشقاء فييَسَّرون لعمل أهل الشقاء، وأما أهل السعادة فييسّرون لعمل أهل السعادة»، قال: ثم تلا: «فأما من أعطَى واتّقَى وصدَّقَ بالحسنى فسنيسره لليُسرى، وأما مَنْ بخلَ واستغنَى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى»(3) (الليل —

---

(1) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود، باب «وكذلك أخذ ربك...» ٨/٣٥٤، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٨٣): ٤/١٩٩٧-١٩٩٨. والمصنف في شرح السنة: ١٤/٣٥٨ .

(2) ساقط من «ب» .

(3) أخرجه البخاري في الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله: ٣/٢٢٥، وفي تفسير سورة «والليل إذا يغشى» وفي الأدب وفي القدر، وأخرجه مسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، برقم (٢٦٤٧): ٤/٢٠٣٩-٢٠٤٠، والمصنف في شرح السنة: ١/١٣١-١٣٢ .

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾

قوله: ﴿فأمّا الذين شقُوا ففي النّارِ لهمْ فيها زَفيرٌ وشهيق﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما الزفير: الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف. وقال الضحاك ومقاتل: الزفير أول نهيق الحمار، والشهيق آخره إذا ردده في جوفه. وقال أبو العالية: الزفير في الحلق والشهيق في الصدر.

﴿خالدين فيها﴾، لابثين مقيمين فيها، ﴿ما دَامَتِ السّمواتُ والأرض﴾، قال الضحاك: ما دامت سموات الجنة والنار وأرضهما وكلُّ ما علاكَ وأظلّكَ فهو سماء، وكل ما استقرت عليه قدمك فهو أرض.

قال أهل المعاني: هذا عبارة عن التأبيد على عادة العرب، يقولون لا آتيك ما دامت السمواتُ والأرض، ولايكون كذا ما اختلف الليل والنهار، يعنون: أبداً.

قوله تعالى: ﴿إلّا ما شاءَ ربُّك﴾.

اختلفوا في هذين الاستثنائين، فقال بعضُهم: الاستثناء في أهل الشقاء يرجع إلى قوم من المؤمنين
١٧٨/أ يدخلهم الله النار بذنوب اقترفوها، ثم يخرجهم منها فيكون ذلك / استثناء من غير الجنس، لأن الذين أخرجوا من النار سعداء استثناهم [الله من جملة الأشقياء][1]، وهذا كما:

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا حفص بن عمر، حدثنا هشام، عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لَيُصِيبَنَّ أقواماً سَفْعٌ من النار بذنوبٍ أصابوها، عقوبةً، ثم يدخلهم الله الجنةَ بفضلِ رحمتِهِ، فيقال لهم: الجَهَنَّمِيُّونَ»[2].

وأخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، قال: أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا مسدد، أخبرنا يحيى، عن الحسن بن ذكوان، أنبأنا أبو رجاء، حدثني عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرج قومٌ من النار بشفاعةِ محمدٍ، فيدخلون الجنة، ويسمون الجهنميين»[3].

وأما الاستثناء في أهل السعادة فيرجع إلى مدة لبثهم في النار قبل دخول الجنة.

---

(١) في «ب»: (من الأشقياء).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار: ٤١٦/١١، وفي التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: «إن رحمة الله قريب من المحسنين»: ٤٣٤/١٣، والمصنف في شرح السنة: ١٨٣/١٥.
وسَفع من النار؛ أي: سواد من لفح النار، أو علامة منها.

(٣) أخرجه البخاري في الموضع السابق: ٤١٨/١١، والمصنف في شرح السنة: ١٨٣/١٥ــ١٨٤.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

وقيل: إلا ما شاء ربك من الفريقين من تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ ما بين الموت والبعث، قبل مصيرهم إلى الجنة أو النار. يعني: هم خالدون في الجنة أو النار إلا هذا المقدار.

وقيل: إلا ما شاء ربك: سوى ما شاء ربك، [معناه خالدين فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك](١) من الزيادة على قدر مدة بقاء السموات والأرض، وذلك هو الخلود فيها، كما تقول: لفلان عليّ ألف إلا الألفين، أي: سوى الألفين اللتين تقدمتا.

وقيل: إلّا بمعنى الواو، أي: وقد شاء ربُّك خلود هؤلاء في النار وهؤلاء في الجنة، كقوله: «لئلا يكونَ للناسِ عليكم حُجّةٌ إلّا الذين ظلموا» (البقرة ــ ١٥٠)، أي: ولا الذين ظلموا.

وقيل: معناه لو شاء ربك لأخرجهم منها ولكنه لا يشاء أنه حكم لهم بالخلود.

قال الفراء: هذا الاستثناء استثناه الله ولا يفعله، كقولك: والله لاضربنّك إلا أن أرى غير ذلك وعزيمتك أن تضربه(٢).

﴿إنّ ربَّك فعّالٌ لِّما يُريد﴾.

﴿وأمّا الذينَ سُعِدُوا﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿سُعِدُوا﴾ بضم السين [وكسر العين](١)، أي: رُزقوا السعادة، وسُعِدَ وأُسْعِدَ بمعنىً واحد. وقرأ الآخرون بفتح السين قياساً على «شقُوا». ﴿ففي الجنّةِ خالدين فيها ما دامتِ السمواتُ والأرضُ إلّا ما شاءَ ربُّك﴾، قال الضحاك: إلا ما مكثوا في النار حتى أدخلوا الجنة. قال قتادة: الله أعلم بثنياه. ﴿عطاءً غير مَجْذُوذ﴾، أي غير مقطوع. قال ابن زيد: أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لأهل الجنة، فقال: ﴿عطاءً غير مَجْذُوذ﴾، ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) قال الطبري رحمه الله: وأولى الأقوال في تأويل هذه الآية بالصواب، القولُ الذي ذكرناه عن قتادة والضحاك: من أن ذلك استثناء في أهل التوحيد من أهل الكبائر، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبداً، إلا ما شاء من تركهم فيها أقلّ من ذلك، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة. وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال بالصحة في ذلك: لأن الله جل ثناؤه أوعد أهلَ الشرك به الخلودَ في النار، وتظاهرت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ، فغير جائز أن يكون استثناءً في أهل الشرك، وأن الأخبار قد تواترت عن رسول الله ﷺ أن الله يدخل قوماً من أهل الإيمان بذنوب أصابوها النارَ، ثم يخرجهم منها فيدخلهم الجنة. فغير جائز أن يكون ذلك استثناء في أهل التوحيد قبل دخولها، مع صحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا =وأنا إن جعلناه استثناء في ذلك كنا قد دخلنا في قول من يقول: «لا يدخل الجنة فاسق، ولا النار مؤمن» وذلك خلاف مذهب أهل العلم، وما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ فإذا فسد هذان الوجهان، فلا قول قال به القدوة من أهل العلم إلا الثالث ــ أي هذا الراجح ــ انظر: الطبري: ١٥/٤٨٤ـ٤٨٥.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا
لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ١٠٩ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ١١٠ وَإِنَّ
كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١١١﴾

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ليأتين على جهنّم زمان ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقاباً[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مثله[(٢)] .

ومعناه عند أهل السنة إن ثبت: أن لايبقى فيها أحد من أهل الإيمان. وأما مواضع الكفار فممتلئة أبداً.

﴿فلا تكُ في مِرْيَةٍ﴾، في شك، **﴿ممّا يعبد هؤلاء﴾**، أنهم ضُلَّال، **﴿ما يعبدُون إلّا كما يعبد﴾**، فيه إضمار، أي: كما كان يعبد، **﴿آباؤُهُمْ مِّن قبلُ وإنّا لموفُّوهم نصيبَهم﴾** حظهم من الجزاء. **﴿غير منقوصٍ﴾**.

﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ﴾، التوراة، **﴿فاخْتُلِفَ فيهِ﴾** فَمن مصدق به ومكذب، كما فعل قومك بالقرآن، يُعزِّي نبيه ﷺ **﴿ولَولَا كلمةٌ سبقتْ مِن ربِّكَ﴾** في تأخير العذاب عنهم، **﴿لقُضِيَ بينهم﴾**، أي: لعُذِّبوا في الحال وفُرِغ من عذابهم وإهلاكهم، **﴿وإنّهم لفي شكٍّ منه مُرِيبٍ﴾**، موقع في الريبة والتهمة .

﴿وإنَّ كلًّا﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر: «وإنْ كلًّا» ساكنة النون على تخفيف إن الثقيلة، والباقون بتشديدها، **﴿لمّا﴾** شدَّدها هنا وفي يسٓ والطارق: ابن عامر وعاصم وحمزة، [وافق أبو جعفر هاهنا، وفي الطارق وفي الزخرف، بالتشديد عاصم وحمزة][(٣)] والباقون بالتخفيف، فمن شدد قال الأصل فيه: **﴿وإنّ كلاً﴾** [لمن ما، فوصلت من الجارة بما، فانقلبت النون ميماً للإدغام، فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت إحداهن، فبقيت لما بالتشديد، و«ما» هاهنا بمعنى: مَنْ، هو اسم لجماعة من الناس، كما قال تعالى: «فانكِحُوا مَا طَابَ لكم» (النساء ــ ٣)، أي: من طاب لكم، والمعنى وإنّ كلاً لمن جماعة ليوفينّهم][(٣)] .

ومن قرأ بالتخفيف قال: «ما» صلة [زيدت بين اللامين ليفصل بينهما كراهة اجتماعهما، والمعنى][(٣)]: وإن كلًّا ليوفينّهم .

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني: ٥٢٧/٢ .

(٢) عزاه السيوطي لإسحاق بن راهوية. الدر المنثور: ٤٧٨/٤، وانظر: فتح القدير، الموضع نفسه، وفيه ردّه على الزمخشري .

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

وقيل «ما» بمعنى مَنْ، تقدير: لمن ليوفينهم، واللام في «لما» لام التأكيد [التي تدخل على خبر إن][1]، وفي ليوفينّهم لام القسم، [والقسم مضمر][1] تقديره والله، ﴿ليوفينّهم ربُّك أعمالهم﴾، أي: جزاء أعمالهم، ﴿إنه بما يعملون خبير﴾ .

قوله عزّ وجلّ ﴿فاستَقِمْ كما أُمرْتَ﴾، أي: استقم على دين ربك، والعمل به، والدعاء إليه كما أُمرتَ، ﴿ومَنْ تابَ معكَ﴾، أي: ومن آمن معك فليستقيموا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعلب[2] .

أخبرنا الإمام الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان، أخبرنا والدي إملاء، حدثنا أبو بكر محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن العلاء بن كريب، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن سفيان بن عبدالله الثقفي قال: قلتُ، يارسول الله قلْ لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قلْ آمنتُ باللهِ ثم استقم»[3] .

﴿ولا تَطْغَوْا﴾ لا تجاوزوا أمري ولا تعصوني، وقيل: معناه ولا تغلوا فتزيدوا على ما أمرتُ ونهيتُ .

﴿إنّه بما تعملُون بصيرٌ﴾، لا يخفى عليه من أعمالكم شيء. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشدُّ عليه من هذه الآية، ولذلك قال: «شيّبتني هودٌ وأخواتُها»[4] .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد ابن إسماعيل، حدثنا عبدالسلام بن مُطَهَّر ثنا عُمر بن علي، عن معن بن محمد الغفاري، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُرِيّ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الدين يُسْرٌ ولنْ يشادّ الدينَ أحدٌ إلّا غلبه، فسدّدُوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلْجة»[5] .

قوله عز وجل: ﴿ولا تَرْكَنُوا إلى الذينَ ظلمُوا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولاتميلوا. والركون:

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) عزاه في كنز العمال: ٤٩٥/٢ لسعيد بن منصور وابن المبارك وأحمد في الزهد وعبد بن حميد والحاكم وابن المنذر ورسته في الإيمان والصابوني في المائتين .

(٣) اخرجه مسلم في الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، برقم (٣٨): ٦٥/١، والمصنف في شرح السنة: ٣١/١ .

(٤) سيأتي تخريجه قريباً في ختام السورة .

(٥) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الدين يسر: ٩٣/١، والمصنف في شرح السنة: ٤٩/٤-٥٠ .
والدّلجة: هي السير آخر الليل، وقيل: الليل كله .

﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

هو المحبة والميل بالقلب. وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم. قال السدي: لا تداهنوا الظلمة. وعن عكرمة: لا تطيعوهم. وقيل: لاتسكنوا إلى الذين ظلموا. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾، فتصيبكم، ﴿النارُ وما لكمْ مِّن دُونِ الله من أولياءَ﴾، أي: أعوان يمنعونكم من عذابه، ﴿ثم لا تُنصَرُون﴾ .

قوله عزّ وجلّ: ﴿وأقِمِ الصلاةَ طَرَفَيِ النّهارِ﴾، أي: الغداة والعشي. [يعني: صلاة الصبح والمغرب][(1)]، قال مجاهد: طرفا النهار صلاة [الصّبح][(1)] والظهر والعصر. «وزُلَفاً مِّنَ الليلِ»، صلاة المغرب والعشاء .

وقال مقاتل: صلاة الفجر والظهر طرف، وصلاة العصر والمغرب طرف، وزلفاً من الليل، يعني: صلاة العشاء.

وقال الحسن: طرفا النهار. الصبح والعصر، وزُلَفاً من الليل: المغرب والعشاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: طرفا النهار الغداة والعشي، يعني صلاة الصبح والمغرب .

١٧٨/ ب قوله: ﴿وزلفاً من الليل﴾ أي /: ساعاته واحدتها زلفة وقرأ أبو جعفر «زُلُفاً» بضم اللام .

﴿إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ﴾، يعني: إن الصلوات الخمس يذهبن الخطيئات .

رُوي أنها نزلت في أبي اليَسَر، قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلتُ لها إن في البيت تمراً أطيب منه فدخلت معي البيت، فأهويتُ إليها فقبلتها، فأتيتُ أبا بكر رضي الله عنه فذكرت ذلك له فقال: استرْ على نفسك وتُبْ، فأتيتُ عمر رضي الله عنه فذكرت ذلك له، فقال: استرْ على نفسك وتبْ، فلم أصبر فأتيتُ رسولَ الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «أخلفتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا، حتى ظن أنه من أهل النار؟ فأطرق رسول الله ﷺ حتى أوحى الله إليه: ﴿وأقِمِ الصلاةَ طرفي النهار وزُلفاً من الليل﴾، الآية، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: أهذا خاصةً أم للناس عامةً؟ قال: «بلْ للناس عامةً»[(2)] .

---

(١) ساقط من «ب» .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة هود، عن أبي اليسر: ٨/٥٣٨-٥٣٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب... وفي الباب عن أبي أمامة وواثلة الأسقع وأنس بن مالك. وأبو اليَسَر: اسمه كعب بن عمرو .
وأخرجه أيضاً النسائي والبزار وابن مردويه والطبراني والطبري .
وانظر: الدر المنثور: ٤/٤٨٢، فتح الباري: ٨/٣٥٦، الكافي الشاف ص (٨٨) .
أسباب النزول للواحدي ص (٣٠٦-٣١٠) .

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ١١٥﴾

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي أنبانا أحمد بن عبدالله النعيمي أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل أنبأنا قتيبة بن سعيد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى ﴿**وأقم الصلاةَ طرفي النهار وزُلفاً من الليل إنّ الحسناتِ يُذهِبْنَ السيئاتِ**﴾، قال الرجل: يارسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم»[1].

وأخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثني أبو طاهر، وهارون بن سعيد الأيلي، قالا: حدثنا ابن وهب، عن أبي صخر، أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلواتُ الخمس والجمعةُ إلى الجمعة ورمضانُ إلى رمضان مكفراتٌ لما بينهنّ إذا اجتُنبتِ الكبائر»[2].

وأخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا محمد الحسين بن أحمد المخلدي، أنبأنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، أنبأنا قتيبة، أنبأنا الليث وبكر بن مضر، عن ابن الهادي، عن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيتم لو أن نهراً ببابِ أحدكم يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمس مرات، هل يبقى من درنه شي؟ قالوا: لا. قال: فكذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا»[3].

قوله عزّ وجلّ: ﴿**ذلك**﴾، أي: ذلك الذي ذكرنا. وقيل: هو إشارة إلى القرآن، ﴿**ذكرى**﴾ عِظة ﴿**للذاكرين**﴾ أي لمن ذكره.

﴿**واصْبِرْ**﴾ يامحمد على ما تلقى من الأذى. وقيل: على الصلاة، ونظيره «وأمرْ أهلك بالصّلاةِ واصْطَبِرْ عليها» (طه ــ ١٣٢) ﴿**فإنّ الله لا يُضيعُ أجرَ المُحْسنين**﴾، في أعمالهم.. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني المصلين.

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، سورة هود، باب «وأقم الصلاة طرفي النهار...» ٨/٣٥٥.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة... برقم (٢٣٣): ١/٢٠٩، والمصنف في شرح السنة: ٢/١٧٧.

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة: ٢/١١، ومسلم في المساجد، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا، برقم (٦٦٧): ١/٤٦٢-٤٦٣. والمصنف في شرح السنة: ٢/١٧٥.

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

قوله عزّ وجلّ: **﴿فلولا﴾** فهلا، **﴿كانَ مِنَ القُرونِ﴾**، التي أهلكناهم، **﴿مِنْ قبلِكم﴾**، والآية للتوبيخ **﴿أُولُوا بقيّةٍ﴾**، أي: أولو تمييز. وقيل: أولو طاعة. وقيل: أولو خير. يقال: فلان ذو بقية إذا كان فيه خير. معناه: فهلا كان من القرون من قبلكم من فيه خير ينهى عن الفساد في الأرض؟ [وقيل: معناه أولو بقية من خير. يقال: فلان على بقية من الخير إذا كان على خصلة محمودة][1].

﴿يَنْهَوْنَ عن الفسادِ في الأرضِ﴾، أي يقومون بالنهي عن الفساد، ومعناه جحد، أي: لم يكن فيهم أولو بقية. **﴿إلّا قليلاً﴾**، هذا استثناء منقطع معناه: لكن قليلاً، **﴿ممن أنجينا منهم﴾**، وهم أتباع الأنبياء كانوا ينهون عن الفساد في الأرض. **﴿واتّبعَ الذينَ ظلمُوا ما أُترِفُوا﴾**، نَعِمُوا، **﴿فيه﴾**، والمترَف: المُنعَم. وقال مقاتل بن حيان: خُوِّلوا. وقال الفراء: [عُودُوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا][1] أي: واتبع الذين ظلموا ما عودوا من النعيم واللذات وإيثار الدنيا على الآخرة. **﴿وكانوا مجرمين﴾**، كافرين.

﴿وما كانَ ربُّك ليُهلكَ القُرى بظلم﴾، أي: لايهلكهم بشركهم، **﴿وأهلُها مُصلحُون﴾**، فيما بينهم يتعاطون الإنصاف ولا يظلم بعضهم بعضاً، وإنما يهلكهم إذا تظالموا. وقيل: لا يهلكهم بظلم منه وهم مصلحون في أعمالهم، ولكن يهلكهم بكفرهم وركوبهم السيئات.

قوله عزّ وجلّ: **﴿ولو شاءَ ربُّك لجعلَ الناسَ﴾**، كلهم. **﴿أمةً واحدةً﴾**، على دين واحد. **﴿ولا يزالُون مُختلفين﴾** على أديان شتى من بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، ومشرك.

﴿إلّا مَن رَّحِمَ ربُّك﴾، معناه: لكن من رحم ربك فهداهم إلى الحق، فهم لايختلفون، **﴿ولذلك خلقَهم﴾**، قال الحسن وعطاء: وللاختلاف خلقهم. وقال أشهب: سألتُ مالكاً عن هذه الآية، فقال: خلقهم ليكون فريق في الجنة وفريق في السعير.

---

(١) ساقط من «ب».

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

وقال أبو عبيدة: الذي أختاره قول من قال: خلق فريقاً لرحمته وفريقاً لعذابه .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: وللرحمة خلقهم، يعني الذين رحمهم .

وقال الفراء: خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف .

وحاصل[1] الآية: أن أهل الباطل مختلفون، وأهل الحق متفقون، فخلق الله أهل الحق للاتفاق، وأهل الباطل للاختلاف .

﴿وتمتْ كلمةُ ربِّك﴾، وتم حكم ربِّك، ﴿لأملأنّ جهنّم مِنَ الجنّةِ والنّاسِ أجمعين﴾ .

﴿وكلّا نقصُّ عليك من أنباءِ الرسلِ ما نُثبّتُ به فُؤَادَكَ﴾، معناه: وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل، أي: من أخبارهم وأخبار أممهم نقصُّها عليك لنثبِّتَ به فؤادك،لنزيدك يقيناً ونقوي قلبك، وذلك أنّ النبي ﷺ إذا سمعها كان في ذلك تقوية لقلبه على الصبر على أذى قومه .

﴿وجاءَكَ في هذهِ الحقُّ﴾، قال الحسن وقتادة: في هذه الدنيا .

وقال غيرهما: في هذه السورة. وهذا قول الأكثرين .

خصّ هذه السورة تشريفاً، وإن كان قد جاءه الحقُّ في جميع السور .

﴿ومَوْعِظَةٌ﴾، أي: وجاءتك موعظة، ﴿وذكرىٰ للمؤمنين﴾ .

﴿وقلْ للذين لا يُؤْمنون اعْمَلُوا على مكانَتِكم﴾، أمرُ تهديدٍ ووعيد، ﴿إنّا عامِلُون﴾ .

﴿وانتظِرُوا﴾، ما يحل بنا من رحمة الله، ﴿إنّا منتظِرُون﴾، ما يحل بكم من نقمة الله.

﴿ولِلَّهِ غيبُ السموات والأرض﴾ أي: علم ما غاب عن العباد فيهما، ﴿وإليه يرجع الأمرُ كله﴾، في المعاد .

قرأ نافع وحفص: «يُرْجَع» بضم الياء وفتح الجيم: أي: يرد. وقرأ الآخرون بفتح الياء وكسر الجيم، أي: يعود الأمر كله إليه حتى لا يكون للخلق أمر .

---

(١) في «ب» (ومحصول...) .

﴿فاعْبُدْهُ وتوكّلْ عليه﴾، وثِق به، ﴿وما ربُّك بغافلٍ عمّا تعملون﴾، قرأ أهل المدينة والشام وحفص ويعقوب: «تعملون» بالتاء هاهنا وفي آخر سورة النمل. وقرأ الآخرون بالياء فيهما.

قال كعب: خاتمة التوراة خاتمة سورة هود[1].

أخبرنا أبو محمد عبدالله بن عبد الصمد الجوزجاني، أنبأنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعي، أنبأنا
١٧٩/ أ أبو سعيد / الهيثم بن كليب، حدثنا أبو عيسى الترمذي، حدثنا أبو كُريب محمد بن العلاء، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان، عن أبي إسحاق، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر رضي الله عنه: يارسول الله قد شبت، فقال ﷺ: «شيبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعمَّ يتساءلونَ، وإذا الشمسُ كُوِّرتْ»[2].

ويُروى: «شيبتني هودٌ وأخواتها»[3].

---

(١) أخرجه الطبري عن كعب: ٢٥٢/١١، ٥٤٥/١٥، ورجال إسناده ثقات. وقال السيوطي في الدر المنثور: ٤٩٣/٤ «أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد، وابن الضريس في فضائل القرآن، وابن جرير، وأبو الشيخ».

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الواقعة: ١٨٤/٩، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه»، وأخرجه في كتابه المفرد «الشمائل» ص (٤٦)، وصححه الحاكم في المستدرك: ٣٤٣/٢، والمصنف في شرح السنة: ٣٧٢/١٤. وأخرجه ابن أبي شيبة، والبزار، والطبراني، وذكره الدارقطني في العلل، وأخرجه البيهقي عن عمر بن الخطاب. وابن سعد وابن عدي من رواية يزيد الرقاشي عن أنس.
انظر: المطالب العالية: ٣٤٢/٣، الكافي الشاف ص (٨٧)، فيض القدير للمناوي: ١٦٨/٤، مجمع الزوائد: ٣٧/٧.

(٣) أخرجه الترمذي في «الشمائل المحمدية» ص (٤٧) عن أبي جحيفة السُّوائي، والمصنف في شرح السنة: ٣٧٤/١٤، والطبراني عن عقبة بن عامر.
وقال البوصيري: «رواه أبو يعلي، والترمذي في الشمائل، ورواته ثقات». انظر: فيض القدير: ١٦٨/٤-١٦٩، المطالب العالية: ٣٤٢/٣.

سُورَةُ يُوسُفَ

سُورَةُ يُوسُف

(سورة يوسف عليه السلام مكية[1])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ
مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

﴿**آلر تِلكَ آياتُ الكتابِ المُبينِ**﴾، أي: البيّن حلالُه وحرامه، وحدوده وأحكامه .

قال قتادة: مبين ـ والله ـ بركتُه وهداه ورشدُه، فهذا مِنْ بان أي: ظهر .

وقال الزجَّاج: مبيّنٌ الحقَّ من الباطل والحلال من الحرام، فهذا من أبان بمعنى أظهر .

﴿**إنَّا أنزلناه**﴾ يعني: الكتاب، ﴿**قرآناً عربياً لعلّكم تعقِلُون**﴾، أي: أنزلناه بلغتكم، لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه .

﴿**نحنُ نقصُّ عليك**﴾، أي: نقرأ عليك ﴿**أحسنَ القَصَصِ**﴾، والقاصُّ هو الذي يتبع[2] الآثار ويأتي بالخبر على وجهه .

معناه: نبيّن لك أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية أحسن البيان .

---

(١) قال ابن عباس وقتادة: مكية، إلا ثلاث آيات من أولها، ونقل القرطبي عنهما: إلا أربع آيات .
انظر: البحر المحيط: ٥/٢٧٧، القرطبي: ٩/١١٨ .

(٢) في «ب»: يتتبع .

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

وقيل: المراد منه: قصة يوسف عليه السلام خاصة، سمّاها أحسن القصص لِمَا فيها من العِبَر والحِكَم والنُّكَتِ والفوائد التي تصلح للدِّين والدنيا، من سِيَرِ الملوك والمماليك، والعلماء، ومكر النساء، والصبر على أذى الأعداء، وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء، وغير ذلك من الفوائد.

قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة.

وقال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها(١).

قوله عز وجل: ﴿**بما أوحينا إليك**﴾ «ما» المصدر، أي: بإيحائنا إليك، ﴿**هذا القرآن وإنْ كنتَ**﴾، وقد كنت، ﴿**من قبله**﴾، أي: [قبل وحينا](٢) ﴿**لَمِنَ الغافلين**﴾، لمن الساهين عن هذه القصة لاتعلمها.

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً فقالوا: يارسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله عزّ وجلّ: «اللَّهُ نزّلَ أحسنَ الحديثِ» (الزمر ـ ٢٣) فقالوا: يارسول الله لو قصصتَ علينا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ**﴾، فقالوا: يارسول الله لو ذكرتنا، فأنزل الله عزّ وجلّ(٣): «أَلَمْ يأنِ لَلذينَ آمنُوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكر الله» (الحديد ـ ١٦).

قوله عزّ وجلّ: ﴿**إذْ قالَ يُوسفُ لأبيه**﴾، أي: واذكر إذْ قال يوسف لأبيه، ويوسف اسم عبري [عُرِّب](٤)، ولذلك لا يجري [عليه الإعراب](٤) وقيل هو عربي.

سئل أبو الحسن الأقطع عن يوسف؟ فقال: الأسف في اللغة: الحزن، والأسيف: العبد، واجتمعا في يوسف عليه السلام فسُمّي به.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل قال: قال عبدالله بن محمد، حدثنا عبدالصمد، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن دينار،

---

(١) في «ب»: يتتبع.

(٢) ساقط من «أ».

(٣) أخرجه الطبري: ١٥/٥٥، وصححه ابن حبان ص (٤٣٢) من موارد الظمآن، والحاكم: ٢/٣٤٥ ووافقه الذهبي، ومن طريقه أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص (٣١١).
وأخرجه أيضاً: إسحاق بن راهوية، والبزار، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ وابن مردويه.
انظر: الدر المنثور: ٤/٤٩٦، المطالب العالية: ٣/٣٤٣.

(٤) ساقط من «ب».

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾

عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريم يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاق بن إبراهيم»(1).

﴿يا أبتِ﴾، قرأ أبو جعفر وابن عامر ﴿يا أبتَ﴾ بفتح التاء في جميع القرآن على تقدير: يا أبتاه.

وقرأ الآخرون: ﴿ياأبتِ﴾ بكسر التاء لأن أصله: يا أبتْ، والجزم يحرك إلى الكسر.

﴿إني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً﴾، أي نجماً من نجوم السماء، ونصب الكواكب على التفسير.

﴿والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين﴾ ولم يقل رأيتها إليَّ ساجدة، والهاء والميم والياء والنون من كنايات من يعقل، لأنه لما أخبر عنها بفعل من يعقل عبر عنها بكناية من يعقل كقوله تعالى: «يا أيها النمل ادْخُلُوا مساكِنَكم» (النمل ــ ١٨).

وكان النجوم في التأويل أخواته(2)، وكانوا أحد عشر رجلاً، يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم، والشمس أبوه، والقمر أمه. قاله قتادة.

وقال السدي: القمر خالته، لأن أمه راحيل كانت قد ماتت.

وقال ابن جريج: القمر أبوه والشمس أمه لأن الشمس مؤنثة والقمر مذكر.

وكان يوسف عليه السلام ابن اثنتي عشرة سنة حين رأى هذه الرؤيا.

وقيل: رآها ليلة الجمعة ليلة القدر فلما قصها على أبيه،

﴿قال يابُنيَّ لا تَقْصُصْ رُؤياكَ على إخوتك﴾، وذلك أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي فعلم يعقوب أن الأخوة إذا سمعوها حسدوه فأمره بالكتمان، ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾، فيحتالوا في إهلاكك لأنهم يعلمون تأويلها فيحسدونك. واللام في قوله «لك» صلة، كقوله تعالى: «لربهم يرهبون» (الأعراف ــ ١٥٤). وقيل: هو مثل قولهم نصحتك ونصحت لك، وشكرتك وشكرت لك. ﴿إنَّ الشيطان للإنسان عدوٌ مبين﴾، أي: يزين لهم الشيطانُ، ويحملهم على الكيد، لعداوته القديمة.

---

(1) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ــ باب قول الله تعالى: «لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين»: ٦/٤١٩، وفي تفسير سورة يوسف، باب «ويتم نعمته عليك»: ٨/٣٦١، وفي المناقب أيضاً: ورواه مسلم مختصراً، وأخرجه المصنف في شرح السنة: ١٣/١٢٦.
انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: ٤/١٥٢.

(2) في «ب»: إخوته.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أنبأنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي ابن الجعد، أنبأنا شعبة عن عبد ربه بن سعيد قال: سمعت أبا سلمة قال: كنتُ أرى الرؤيا تهمّني حتى سمعتُ أبا قتادة يقول: كنت أرى الرؤيا فتمرضني، حتى سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «الرؤيا الصالحةُ من الله تعالى، [والحُلْمُ من الشَّيطانِ](١)، فإذا رأى أحدُكم ما يحبُّ فلا يحدِّثْ به إلّا من يحبُّ، وإذا رأى ما يكره فليتعوذْ بالله من شرِّها، ومن شرِّ الشيطان ولْيَتْفُلْ ثلاثـاً، ولا يحدِّثْ به أحداً فإنها لنْ تضرّ»(٢) .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا عبدالرحمن بن أبي شريح، أنبأنا أبو القاسم البغوي، حدثنا علي بن الجعد، أنبأنا شعبة عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عدس، عن أبي رزين العقيلي قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا جزءٌ من أربعينَ أو ستةٍ وأربعينَ جزءاً من النبوة وهو على رِجْل طائرٍ فإذا حدث بها وقعت»، وأَحْسِبُهُ قال: «لا تُحدِّثْ بها إلا حبيباً أو لبيباً»(٣) .

قوله عزّ وجلّ: ﴿**وكذلكَ يجتبيك ربُّك**﴾، يصطفيك ربك يقوله يعقوب ليوسف، أي: كما رفع منزلتك بهذه الرؤيا، فكذلك يصطفيك ربُّك، ﴿**ويُعلّمك من تأويل الأحاديث**﴾، يريد تعبير الرؤيا، سمي تأويلاً لأنه يؤول أمره إلى ما رأى في منامه، والتأويل ما يؤول إلى عاقبة الأمر، ﴿**ويتم نعمته عليك**﴾، يعني: بالنبوة، ﴿**وعلى آلِ يعقوب**﴾، أي: على أولاده فإنّ أولاده كلهم كانوا أنبياء، ﴿**كما أتمها على أبويك من قبلُ إبراهيم وإسحاق**﴾ فجعلهما نبيين، ﴿**إنَّ ربَّك عليمٌ حكيم**﴾ .

وقيل: المراد من إتمام النعمة على إبراهيم الخلّة .

(١) ساقط من « أ » .

(٢) أخرجه البخاري في التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة: ٣٧٣/١٢، ومسلم في أول كتاب الرؤيا، برقم (٢٢٦١): ١٧٧٢/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٠٦/١٢ .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب الرؤيا: ٢٩٨/٧-٢٩٩، والترمذي في الرؤيا، باب ما جاء في تعبير الرؤيا: ٥٥٨/٦-٥٥٩، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وابن ماجه في تعبير الرؤيا، باب «الرؤيا إذا عبرت وقعت...» برقم (٣٩١٤): ١٢٨٨/٢، وصححه الحاكم: ٣٩٠/٤، ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ١٠/٤، والمصنف في شرح السنة وقال: هذا حديث حسن: ٢١٣/١٢. وقوله «على رِجْل طائر» مَثَل، ومعناه: أنها لا تستقر قرارها مالم تعبر. وأما تحديثه بها الحبيب فلأنه لا يستقبلك في تفسيرها إلا بما تحب، واللبيب يخبرك بحقيقتها أو بأقرب ما يعلم منها .

وقيل: إنجاؤه من النار، وعلى إسحاق إنجاؤه من الذبح(١) .

---

(١) هذا على القول بأن الذبيح هو إسحاق عليه السلام، والصحيح الثابت خلافه، ولذلك نضع هنا كلمة ضافية لابن القيم وشيخه ابن تيمية رحمهما الله، فيها إبطال القول بأن الذبيح هو إسحاق .

قال ابن القيم في «زاد المعاد»: (١/٧١-٧٥): «وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشرين وجهاً. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بِكْرَه، وفي لفظ: وحيده، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرَّ أصحاب هذا القول أن في التوراة التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق، قال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: اذبح بكرك ووحيدك، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويحتازوه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله. وكيف يسوغ أن يُقال: إن الذبيح إسحاق، والله تعالى قد بشر أم إسحاق به وبابنه يعقوب، فقال تعالى عن الملائكة: إنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى: (لا تَخَفْ إنا أُرسلنَا إلى قومِ لوطٍ وامرأتُهُ قائمةٌ فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن ورآء إسحاق يعقوب) (هود ـ ٧٠،٧١) فمحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد، ثم يأمر بذبحه، ولا ريبَ أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة، فَتَنَاوُلُ البشارة لإسحاق ويعقوب في اللفظ واحد، وهذا ظاهِر الكلام وسياقُه .

فإن قيل: لو كان الأمر كما ذكرتموه لكان «يعقوب» مجروراً عطفاً على إسحاق، فكانت القراءة «وَمِن وَرَاءِ إسحاق يَعقُوبَ» أي: ويعقوب من وراء إسحاق. قيل: لا يمنع الرفعُ أن يكون يعقوبُ مبشراً به، لأن البشارةَ قولٌ مخصوص، وهي أولُ خبر سارٍّ صادق. وقوله تعالى: «ومن وراء إسحاق يعقوب» جملة متضمنة لهذه القيود، فتكون بشارة، بل حقيقة البشارة هي الجملة الخبرية. ولما كانت البشارة قولاً، كان موضع هذه الجملة نصباً على الحكايَة بالقول، كأن المعنى: وقلنا لها: من وراء إسحاق يعقوب، والقائل إذا قال: بشرتُ فلاناً بِقُدوم أخيه وَثَقَلِهِ في أثره، لم يعقل منه إلا بشارته بالأمرين جميعاً. هذا ممّا لا يستريبُ ذو فهم فيه البتة، ثم يُضعف الجرَّ أمرآخر، وهو ضعف قولك: مررت بزيد وَمِنْ بعده عمرو، ولأن العاطف يقوم مقام حرف الجرِّ، فلا يفصل بينه وبين المجرور، كما لا يفصل بين حرف الجار والمجرور. ويدل عليه أيضاً أن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة (الصافات) قال: «فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجري المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم، وتركنا عليه في الآخرين، سلام على إبراهيم. كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين» (الصافات: ١٠٣-١١١) ثم قال تعالى: «وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين» (الصافات ـ ١١٢). فهذه بشارة من الله تعالى له شكراً على صبره على ما أُمِرَ به، وهذا ظاهر جداً في أن المبشَّر به غيرُ الأول، بل هو كالنص فيه .

فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي: لما صبر الأب على ما أُمر به، وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النُّبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع: على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدَّر، أي: مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراجُ البِشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفَضْلَةِ، هذا مُحال من الكلام، بل إذا وقعت البِشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى .

وأيضاً فلا ريب أن الذبيح كان بمكّة، ولذلك جُعلت القرابينُ يومَ النَّحر بها، كما جُعِل السعيُ بين الصفا والمروة ورمي الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمِّه، وإقامةً لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللّذان كانا بمكّة دون إسحاق وأمه، ولهذا اتصل مكانُ الذبح وزمانُه بالبيت الحرام الذي اشترك في بنائه إبراهيم وإسماعيل، وكان النَّحرُ بمكّة مِن تمام حج البيت الذي كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً، ولو كان الذبح بالشام كما يزعم أهل الكِتاب ومن تلقى عنهم، لكانت القرابين والنَّحر بالشام، لا بمكّة .

وأيضاً فإن الله سبحانه سمى الذبيح حليماً. لأنه لا أحلم ممن أسلم نفسه للذبح طاعة لربه. ولما ذكر إسحاق سماه عليماً، فقال تعالى: «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المُكرَمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً. قال سلام قوم منكرون» (الذاريات ـ ٢٤،٢٥) إلى أن قال: «قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم» (الذاريات ـ ٢٨) وهذا إسحاق بلا ريب، لأنه من امرأته، وهي المبشَّرة به، وأمّا إسماعيل، فمن السُّرِّيَّة. وأيضاً فإنهما بُشرّا به على الكِبَر واليَأْسِ من الولد، وهذا بخلاف إسماعيل، فإنه ولد قبل ذلك . =

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

١٧٩/ب وقيل: بإخراج يعقوب / والأسباط من صلبه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان بين رؤيا يوسف هذه وبين تحقيقها بمصير أبويه وإخوته إليه أربعون سنة، وهو قول أكثر أهل التفسير.

وقال الحسن البصري: كان بينهما ثمانون سنة. فلما بلغت هذه الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا: ما رضي أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه فَبَغَوْهُ.

يقول الله تعالى: ﴿لقد كانَ في يوسفَ وإخوتِهِ﴾، أي: في خبره وخبر إخوته. وأسماؤهم: روبيل، وهو أكبرهم، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبالون، وقيل: زبلون، وآشر، وأمهم ليا بنت ليان وهي ابنة خال يعقوب عليه السلام، ووُلِدَ له من سريتين له، اسم إحداهما زلفة والأخرى يلهمة(١) أربعة أولاد: دان، ونفتالي، وقيل: نفتولي، وجاد، وأشير. ثم توفيت ليا فتزوج يعقوب عليه السلام أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين. [وقيل: وابن يامين](٢)، فكان بنو يعقوب عليه السلام اثنى عشر رجلاً.

= وأيضاً فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أنَّ بكر الأولاد أحبُّ إلى الوالدين ممن بعده، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد، ووهبه له، تعلقت شُعْبَةٌ من قلبه بمحبته، والله تعالى قد اتخذه خليلاً، والخُلة مَنْصِبٌ يقتضي توحيدَ المحبوب بالمحبة، وأن لا يُشارك بينه وبين غيره فيها، فلما أخذ الولدُ شعبةً من قلب الوالد، جاءت غَيْرةُ الخُلة تنتزعها من قلب الخليل، فأمره بذبح المحبوب، فلما أقدم على ذبحه، وكانت محبةُ الله أعظمَ عنده من محبة الولد، خَلَصَتِ الخلة حينئذٍ من شوائب المشاركة، فلم يبق في الذبح مصلحة، إذ كانت المصلحةُ إنما هي في العزم وتوطين النفس عليه، فقد حَصَلَ المقصودُ، فَنُسِخَ الأمر، وَفُدي الذبيح، وَصَدَّقَ الخليلُ الرؤيا، وحصل مراد الرَّب.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حصل عند أول مولود، ولم يكن ليحصل في المولود الآخر دون الأول، بل لم يحصل عند المولود الآخر من مزاحمة الخلة ما يقتضي الأمر بذبحه، وهذا في غاية الظهور.

وأيضاً فإن سارة امرأة الخليل ﷺ غارت من هاجر وابنها أشد الغيرة، فإنها كانت جارية، فلما ولدت إسماعيل وأَحبَّه أبوه، اشتدت غيرة «سارة»، فأمر الله سبحانه أن يُبعد عنها «هاجر» وابنها، ويسكنها في أرض مكّة لتبرد عن «سارة» حرارةُ الغيرة، وهذا من رحمته تعالى ورأفته، فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها، ويدع ابن الجارية بحاله، هذا مع رحمة الله لها وإبعاد الضرر عنها وجبره لها، فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية، بل حكمتُه البالغة اقتضت أن يأمر بعد هذا بذبح ولد السُّرِّيَّة، فحينئذٍ يرق قلبُ السيدة عليها وعلى ولدها، وتتبدل قسوةُ الغيرة رحمة، ويظهر لها بركةُ هذه الجارية وولدها، وأن الله لا يضيع بيتاً هذه وابنها منهم، وليُرِيَ عباده جبره بعد الكسر، ولطفه بعد الشدة، وأن عاقبة صبر «هاجر» وابنها على البُعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد آلت إلى ما آلت إليه، من جَعْل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسكَ لعباده المؤمنين، ومتعبداتٍ لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فِيمَن يُريد رفعه مِن خلقه أن يمنَّ عليه بعد استضعافه وذله وانكساره. قال تعالى: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» (القصص ـ ٥) وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وانظر: «الاسرائيليات والموضوعات» للشيخ محمد أبو شهبة ص (٣٥٣-٣٦٣).

(٢) في «ب» لهمة.

(٣) ساقط من «ب». وقال ابن الجوزي في زاد المسير: ١٨٣/٤: وإنما قيل له: ابن يامين، لأن أمه ماتت نفساء، ويامين بمعنى الوجع.

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

﴿آيات﴾، قرأ ابن كثير ﴿آية﴾ على التوحيد، أي: عظة وعبرة، وقيل: عجب .

وقرأ الآخرون: ﴿آيات﴾ على الجمع .

﴿للسائلين﴾، وذلك أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام .

وقيل: سألوه عن سبب انتقال ولد يعقوب من كنعان إلى مصر. فذكر لهم قصة يوسف، فوجدوها موافقة لما في التوراة [فتعجبوا منها][1]. فهذا معنى قوله: ﴿آياتٌ للسائلين﴾. [أي: دلالة على نبوة رسول الله ﷺ. وقيل: آيات للسائلين ولمن لم يسأل، كقوله: «سواء للسائلين» (فصلت ـ ١٠)][2] .

وقيل: معناه عبرة للمعتبرين، فإنها تشتمل على حسد إخوة يوسف، وما آل إليه أمرُهم في الحسد، وتشتمل على رؤياه، وما حقق الله منها، وتشتمل على صبر يوسف عليه السلام عن قضاء الشهوة، وعلى الرق وفي السجن، وما آل إليه أمره من الملك، وتشتمل على حزن يعقوب وصبره وما آل إليه أمره من الوصول إلى المراد وغير ذلك من الآيات .

﴿إذْ قالوا لَيوسُفُ﴾، اللام فيه جواب القسم تقديره: والله ليوسف، ﴿وأخوه﴾، بنيامين، ﴿أحبُّ إلى أبينا منّا﴾، كان يوسف وأخوه بنيامين من أم واحدة، وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف عليه السلام، وكان إخوته يرون منه من الميل إليه مالا يرونه مع أنفسهم فقالوا هذه المقالة[3]، ﴿ونحنُ عُصْبَةٌ﴾، جماعة وكانوا عشرة . .

قال الفراء: العصبة هي العشرة فما زاد .

وقيل: العصبة ما بين الواحد إلى العشرة .

وقيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة .

وقال مجاهد: ما بين العشرة إلى خمسة عشر .

وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين .

وقيل: جماعة يتعصب بعضها لبعض لا واحد لها من لفظها كالنَّفَرِ والرَّهْط .

﴿إنّ أبانا لَفِي ضلالٍ مبين﴾، أي خطأ بيِّن في إيثاره يوسف وأخاه علينا، وليس المراد منه الضلال

---

(١) في «ب»: فعجبوا منه .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) قال ابن عطية: ٧/٤٤٠: «وكان حبّ يعقوب ليوسف عليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من «حُبُّ الصغير فطرةُ البشر». وقد قيل لابنة الحسن: أيُّ بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمريض حتى يفيق» .

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

عن الدين، ولو أرادوه لكفروا به، بل المراد منه: الخطأ في تدبير أمر الدنيا، يقولون: نحن أنفع له في أمر الدنيا وإصلاح أمر معاشه ورعي مواشيه، فنحن أولى بالمحبة منه، فهو مخطىء في صرف محبته إليه .

﴿**اقتلوا يوسف**﴾، اختلفوا في قائل هذا القول؛ فقال وهب: قاله شمعون. وقال كعب: قاله دان .

﴿**أو اطْرَحُوه أرضاً**﴾، أي: إلى أرض يُبْعدُ[1] عن أبيه. وقيل: في أرض تأكله السباع .

﴿**يَخلُ لكم**﴾، يخلصْ لكم ويَصْفُ لكم. ﴿**وجهُ أبيكم**﴾، عن[2] شغله بيوسف، ﴿**وتكونُوا من بعده**﴾، من بعد قتل يوسف، ﴿**قوماً صالحين**﴾، تائبين، أي: توبوا بعدما فعلتم هذا يعفُ الله عنكم. وقال مقاتل: يُصْلِحْ أمركم فيما بينكم وبين أبيكم .

﴿**قالَ قائلٌ منهم لا تقتُلوا يُوسفَ**﴾ وهو يهوذا، وقال [قتادة][3]: روبيل، وكان ابن خالة يوسف، وكان أكبرهم سناً وأحسنهم رأياً فيه. والأول أصح أنه يهوذا، نهاهم عن قتله، وقال: القتل كبيرة عظيمة. ﴿**وألْقُوه في غيابتِ الجُبّ**﴾، قرأ أبو جعفر، ونافع: «غيابات الجب» على الجمع في الحرفين، وقرأ الباقون «غيابة الجب» على الواحد، أي: في أسفل الجب وظلمته. والغيابةُ: كلُّ موضع ستر عنك الشيء وغيَّبه. والجُبُّ: البئر غير المطوية لأنه جُبَّ، أي: قطع ولم يطوَ .

﴿**يلتقطْه**﴾: يأخذه، والالتقاط: أخذ الشيء من حيث لا يحتسبه[4]، ﴿**بعضُ السَّيارةِ**﴾، أي بعض المسافرين، فيذهب به إلى ناحية أخرى، فتستريحوا منه، ﴿**إنْ كنتُم فاعلين**﴾، أي: إن عزمتم على فعلكم، وهم كانوا يومئذ بالغين، ولم يكونوا أنبياء بعد .

وقيل: لم يكونوا بالغين، وليس بصحيح؛ بدليل أنهم قالوا: «وتكونوا من بعده قوماً صالحين»[5].

---

(١) في «أ»: بعيد .
(٢) في «ب»: من .
(٣) في «ب»: مقاتل قاله .
(٤) في «ب»: يحس به .
(٥) قال السدي ومقاتل بن سليمان: إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم، وهذا يشبه أن يكون قصدهم في تلك الحال، ولم يكونوا حينئذ أنبياء.
وقال الجمهور: «صالحين» معناه بالتوبة، وهو الأظهر من اللفظ، وحالهم أيضاً تعطيه، لأنهم مؤمنون بنوا على عظيمة وعلّلوا أنفسهم بالتوبة .

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾ (١١)

«وقالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبنا» والصغير لا ذنب له .

وقال محمد بن إسحاق: اشتمل فعلهم على جرائم من: قطع الرحم، وعقوق الوالدين، وقلة الرأفة بالصغير، الذي لا ذنب له، والغدر بالأمانة، وترك العهد، والكذب مع أبيهم. وعفا الله عنهم ذلك كله حتى لا ييأس أحدٌ من رحمة الله .

وقال بعض [أهل العلم](١): إنهم عزموا على قتله وعصمهم الله رحمة بهم، ولو فعلوا لهلكوا أجمعين، وكل ذلك كان قبل أن أنبأهم الله تعالى(٢) .

وسئل أبو عمرو بن العلاء: كيف قالوا «نرتع ونلعب» وهم أنبياء؟ قال: كان ذلك قبل أن نبّأهم الله تعالى، فلما أجمعوا على التفريق بينه وبين والده بضرب من الحيل .

﴿قالوا﴾، ليعقوب، ﴿يا أبانا مَالكَ لَا تأمَنّا على يوسف﴾، قرأ أبو جعفر: ﴿تأمنّا﴾ بلا إشمام(٣)، وهو رواية عن نافع، [وقرأ الباقون: ﴿تأمنّا﴾ بإشمام الضمة في النون الأُولى المدغمة، وهو إشارة إلى الضمة، من غير إمحاض، ليعلم أن أصله: لا تأمُننا بنونين على تفعلنا، فأدغمتِ النون الأُولى في الثانية](٤)، بدؤوا بالإنكار عليه في ترك إرساله معهم كأنهم قالوا: إنك لا ترسله معنا أتخافنا عليه؟ .

﴿وإنّا له لناصِحُون﴾، قال مقاتل: في الكلام تقديم وتأخير، وذلك أنهم قالوا لأبيهم: «أرسله معنا» فقال أبوهم: «إني ليحزنني أن تذهبوا به» فحينئذ قالوا: ﴿مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون﴾، النصح هاهنا هو: القيام بالمصلحة، وقيل: البر والعطف، معناه: إنا عاطفون عليه، قائمون بمصلحته، نحفظه حتى نردّه إليك .

= انظر: المحرر الوجيز لابن عطية: ٤/٤٤٣ .
ومال الحافظ ابن كثير إلى الرأي الأول، فقال في التفسير: (٢/٤٧٠-٤٧١): «اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك. ومن الناس من يزعم أنهم أوحي إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل. ولم يذكروا سوى قوله تعالى: (قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط)، وهذا فيه احتمال لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحي إليهم. والله أعلم» .

(١) في «ب»: بعضهم .
(٢) هذا على القول بأن الله نبّأهم فيما بعد، وهو ما قال عنه ابن كثير: فيه نظر .
(٣) في «ب»: شمة .
(٤) ساقط من «ب» .

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن
تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ
ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ
فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿**أرسِلْهُ معنَا غداً**﴾، إلى الصحراء، ﴿**يرتعْ ويلعبْ**﴾، قرأ أبو عمرو، وابن عامر، بالنون فيهما وجزم العين من «نرتع»، وقرأ أهل الكوفة بالياء فيهما وجزم العين من «يرتع» يعني يوسف، وقرأ يعقوب: «نرتع» بالنون «ويلعب» بالياء .

والرتع هو الاتساع في الملاذ. يقال: رتع فلان في ماله إذا أنفقه في شهواته، يريد ونتنعم ونأكل ونشرب ونلهو وننشط .

وقرأ أهل الحجاز: ﴿**يرتع**﴾ بكسر العين، وهو [يفتعل][1] من الرعي .

ثم ابن كثير قرأ بالنون فيهما أي: نتحارس ويحفظ بعضُنا بعضاً .

وقرأ أبو جعفر ونافع بالياء إخباراً عن يوسف، أي: يرعى الماشية كما نرعى نحن .

١٨٠/ أ ﴿**وإنَّا له لحافظُون**﴾ / .

﴿**قال**﴾ لهم يعقوب، ﴿**إني ليحزنني أن تذهبوا به**﴾، أي: يحزنني ذهابكم به، والحزن هاهنا: ألم القلب بفراق المحبوب، ﴿**وأخافُ أنْ يأكله الذئبُ وأنتم عنه غافِلُون**﴾، وذلك أن يعقوب كان رأى في المنام أن ذئباً شدّ على يوسف، فكان يخاف من ذلك، فمن ثم قال: هذه المقالة[2] .

﴿**قالوا لئن أكلَه الذِّئبُ ونحنُ عُصْبَةٌ**﴾، عشرة، ﴿**إنَّا إذاً لخاسِرُون**﴾، عجزة ضعفاء .

﴿**فلمّا ذهبُوا بهِ وأجمعُوا**﴾، أي: عزموا، ﴿**أنْ يجعلُوه**﴾، يلقوه، ﴿**في غيابَةِ الجُبِّ وأوْحَينَا إليه**﴾،

---

(١) في « أ » : تفعيل .

(٢) ضعَّف ابن عطية هذا القول، لأن يعقوب لو رأى ذلك لكان وحياً، فإما أن يخرج على وجهه وذلك لم يكن، وإما أن يعرف يعقوب لمعرفته بالعبارة مثل هذا المرئي، فكان يتشكاه بعينه، اللهم إلا أن يكون قوله «أخاف أن يأكله الذئب» بمعنى أخاف أن يصيبه مثل ما رأيت من أمر الذئب، وهذا بعيد. وكذلك يقول الربيع بن ضبع الفزاري :

والذئبَ أخشاه إن مَرَرْتُ به وَحْدِي وأخشى الرِّيحَ والمطرا

إنما خصّصه لأنه كان حيوان قطره العادي. ويحتمل أن يخصصه يعقوب عليه السلام لصغر سن يوسف، أي: أخاف عليه هذا الحقير فما فوقه. وكذلك خصصه الربيع في البيت السابق لحقارته وضعفه في الحيوان .

انظر: المحرر الوجيز: ٤/٤٥٠ـ٤٥١، البحر المحيط: ٥/٢٨٦ .

هذه الواو زائدة[1]، تقديره: أوحينا إليه، كقوله تعالى: «فلما أسْلَما وتلّه للجبين وناديناه» (الصافات ـ ١٠٣) أي: ناديناه، ﴿لتنبئنّهم بأمرِهم هذا وهم لا يشعُرون﴾، يعني: أوحينا إلى يوسف عليه السلام لتصدقنّ رؤياك ولتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا وهم لا يشعرون بوحي الله وإعلامه إيّاه ذلك، قاله مجاهد .

وقيل: معناه: وهم لا يشعرون يوم تخبرهم أنك يوسف، وذلك حين دخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون .

وذكر وَهْبٌ وغيره: أنهم أخذوا يوسف عليه السلام بغاية الإكرام وجعلوا يحملونه، فلما برزوا إلى البرية ألقوه وجعلوا يضربونه فإذا ضربه واحد منهم استغاث بالآخر فضربه الآخر، فجعل لا يرى منهم رحيماً فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يصيح يا أبتاه لو تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء، فلما كادوا أن يقتلوه قال لهم يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقاً أن لا تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجُبِّ ليطرحوه فيه، وكان ابن اثنتي عشرة سنة ـ وقيل: ثمانية عشرة سنة ـ فجاؤا به إلى بئر على غير الطريق واسعة الأسفل ضيقة الرأس. قال مُقاتل: على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام. وقال كعب: بين مدين ومصر. وقال وهب بأرض الأردن. وقال قتادة: هي بئر بيت المقدس فجعلوا يدلونه في البئر فيتعلق بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا قميصه فقال: يا إخوتاه رُدّوا عليّ القميص أتوارى به في الجب، فقالوا: ادعُ الشمسَ والقمرَ والكواكِبَ تواريك[2]، قال: إني لم أرَ شيئاً، فألقوه فيها .

وقيل: جعلوه في دلو وأرسلوه فيها حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم أوى إلى صخرة فيها فقام عليها .

إنهم لمّا ألقوه فيها جعل يبكي فنادوه فظن أن رحمةً أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فيقتلوه، فمنعهم يهوذا وكان يهوذا يأتيه بالطعام، وبقي فيها ثلاثَ ليالٍ[3] .

---

(١) هذا على رأي الكوفيين من النحاة، يزاد عندهم بعد «لمّا» و«حتى» ـ «إذا» وعلى ذلك خرّجوا قوله تعالى: (فلما أسلما وتلّه للجبين، وناديناه) أي: ناديناه. قال أبو حيان: وهو قول مردود لأنه ليس في القرآن شيء زائد لغير معنى .
وقال البصريون: ليس في الآية زيادة، لأن جواب «لما» محذوف تقديره: «فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب عظمت فتنتهم» وقدره بعضهم: «جعلوه فيها» قال أبو حيان: وهذا أولى، إذ يدل عليه قوله: «وأجمعوا أن يجعلوه» .
انظر: المحرر الوجيز: ٤٥٢/٤، البحر المحيط: ٢٨٧/٥ .

(٢) في «ب»: تؤنسك .

(٣) قال أبو حيان في أمثال هذه الروايات عن وهب وكعب وغيرهما: «وذكر المفسرون أشياء كثيرة تتضمن كيفية القائه في غيابة الجب، ومحاورته لهم بما يلين الصخر، وهم لا يزدادون إلا قساوة. ولم يتعرض القرآن الكريم ولا الحديث الصحيح لشيء منها فيوقف عليها في كتب التفسير» .
انظر: البحر المحيط: ٢٨٧/٥ .

وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨

﴿وأوحينا إليه لتنبئنّهم بأمرهم هذا﴾. الأكثرون على أن الله تعالى أوحى إليه بهذا وبعث إليه جبريل عليه السلام يؤنسه ويبشره بالخروج، ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه ويجازيهم عليه وهم لا يشعرون[1] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم إنهم ذبحوا سخلة وجعلوا دمها على قميص يوسف عليه السلام.

﴿وجاؤا أباهم عِشاءً يبكون﴾، قال أهل المعاني: جاؤوا في ظلمة العِشاء ليكونوا أجرأ على الاعتذار بالكذب. ورُوي أن يعقوب عليه السلام سمع صياحهم وعويلهم فخرج وقال: مالكم يابَنِيَّ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا. قال: فما أصابكم وأين يوسف؟؟ .

﴿قالوا يا أبانا إنّا ذهبنا نستبِقُ﴾، أي: نترامى وننتضل، وقال السدي: نشتدُّ على أقدامنا. ﴿وتركْنا يوسفَ عند متاعِنا﴾، أي: عند ثيابنا وأقمشتنا. ﴿فأكلَه الذئبُ وما أنتَ بمؤمنٍ لنا﴾، بمصدق لنا، ﴿ولو كُنّا﴾، وإن كنّا، ﴿صادقين﴾ .

فإن قيل: كيف قالوا ليعقوب أنت لا تصدق الصادق؟ .

قيل: معناه إنك تتهمنا في هذا الأمر لأنك خفتنا في الابتداء واتهمتنا في حقه .

وقيل: معناه لا تصدقنا لأنه لا دليل لنا على صدقنا وإن كنّا صادقين عند الله .

﴿وجاؤا على قميصِه بدمٍ كذبٍ﴾، أي: بدمٍ هو كذب، لأنه لم يكن دم يوسف. وقيل: بدم مكذوب فيه، فوضع المصدر موضع الاسم .

وفي القصة: أنهم لطخوا القميص بالدم ولم يشقُّوه، فقال يعقوب عليه السلام: كيف أكله الذئب ولم يشق قميصه؟ فاتهمهم .

﴿قالَ بلْ سوّلتْ﴾ زيّنت، ﴿لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميل﴾، معناه: فأمري صبر جميل أو فعلي صبرٌ جميل .

---

(١) قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون الوحي حينئذ إلى يوسف برسول، ويحتمل أن يكون بإلهام أو نوم، وكل ذلك قد قيل. وقال الحسن: أعطاه الله النبوة في الجب. وهذا بعيد .
انظر: المحرر الوجيز: ٤/٤٥٣ .

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

وقيل: فصبر جميل أختاره .

والصبر الجميل الذي لا شكوى فيه ولا جزع .

﴿واللّهُ المستعانُ على ما تصفون﴾، أي: أستعين بالله على الصبر، على ما تكذبون .

وفي القصة: أنهم جاؤا بذئب وقالوا هذا الذي أكله فقال له يعقوب ياذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي؟ فأنطقه الله عزّ وجلّ، فقال: تالله ما رأيت وجه ابنك قط .

قال: كيف وقعت بأرض كنعان؟ .

قال: جئت لصلة قرابة [فصادني هؤلاء][1] فمكث يوسف في البئر ثلاثة أيام[2] .

﴿وجاءت سيّارةٌ﴾، وهم القوم المسافرون، سُمّوا سيارة لأنهم يسيرون في الأرض، كانت رفقة من مدين تريد مصر، فأخطأوا الطريق فنزلوا قريباً من الجب، وكان الجب في [قفرٍ بعيدٍ][3] من العمران للرعاة والمارة، وكان ماؤه مالحاً[4] فعذب حين ألقي يوسف عليه السلام فيه، فلما نزلوا أرسلوا رجلاً من أهل مدين يقال له مالك بن ذعر[5]، [لطلب الماء][6] فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فأرْسَلُوا واردهم﴾ والوارد الذي يتقدم الرفقة إلى الماء فيهيىء الأرشية والدلاء .

﴿فأدْلَى دلوَه﴾، أي: أرسلها في البئر، يقال: أدليتُ الدلو إذا أرسلتها في البئر، ودلوتها إذا أخرجتها، فتعلق يوسف بالحبل فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون .

قال النبي ﷺ: «أُعطيَ يوسفُ شطر الحُسْن»[7] .

---

(١) ساقط من «ب» .

(٢) هذا كله مما لم يرد فيه نص في كتاب الله ولا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، وهو من الأمور الغيبية، ولا يتوقف فهم الآية على شيء من هذه الروايات المأخوذة بجملتها من الاسرائيليات حتى ولو كان لبعضها إسناد إلى بعض المفسرين من التابعين رحمهم الله .

(٣) في «أ»: في قفرةٍ بعيداً .

(٤) في «ب»: ملحاً .

(٥) في «ب»: دُعَر. بالدال المهملة .

(٦) زيادة من «ب» .

(٧) قطعة من حديث الاسراء، أخرجه مسلم في الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ برقم (١٦٢): ١/١٤٥ـ١٤٧ وفيه: «... فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطي شطر الحسن» .

والحديث أخرجه بلفظ المصنف: ابن أبي شيبة، وأحمد، والحاكم، والواحدي في التفسير، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٣/٤٧٠، كشف الخفا ومزيل الإلباس: ١/١٦٠ـ١٦١، مجمع الزوائد: ٨/٢٠٣، المطالب العالية: ٣/٢٧٣، الدر المنثور: ٤/٥٣١ .

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

ويقال: إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة، وكانت قد أُعطيت سُدسَ الحُسنِ.

قال ابن إسحاق ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن[١].

فلما رآه مالك بن ذعر، ﴿قال يا بُشْرَى﴾، قرأ الأكثرون هكذا بالألف وفتح الياء، بشّر المستقي أصحابه يقول[٢]: أبشروا.وقرأ أهل الكوفة: يابشرى، بغير إضافة، يريد نادى المستقي رجلاً من أصحابه اسمه بشرى. ﴿هذا غلامٌ﴾ وروى ابن مجاهد عن أبيه: أن جدران البئر كانت تبكي على يوسف حين أخرج منها. ﴿وأسرُّوه﴾، أخفَـوْهُ، ﴿بضاعةً﴾، قال مجاهد: أسره مالك بن ذعر وأصحابه من التجار الذين معهم وقالوا هو بضاعة استبضعها بعض أهل الماء إلى مصر خيفة أن يطلبوا منهم فيه المشاركة.

١٨٠/ب وقيل: أراد أن إخوة يوسف أسروا / شأن يوسف وقالوا هذا عبد لنا [أبِق][٣].

قال الله تعالى: ﴿واللهُ عليمٌ بما يعملون﴾، فأتى يهوذا يوسفَ بالطعام فلم يجده في البئر، فأخبر بذلك إخوته، فطلبوه فإذا هم بمالك وأصحابه نزولاً، فأتوهم فإذا هم بيوسف، فقالوا هذا عبد آبق منّا. ويقال: إنهم هدّدوا يوسف حتى لم يعرف حاله. وقال مثل قولهم، ثم باعوه، فذلك قوله عزّ وجلّ:

﴿وشروه﴾، أي: باعوه، ﴿بثمنٍ بَخسٍ﴾، قال الضحاك، ومقاتل، والسدي: حرام لأن ثمن الحرّ حرام، وسُمي الحرام بخساً لأنه مبخوس البركة.

وعن ابن عباس وابن مسعود: بخس أي زيوف.

وقال عكرمة والشعبي: بثمن قليل.

﴿دراهمَ﴾، بدل من الثمن، ﴿معدودةٍ﴾، ذكّر العدد عبارة عن قلتها.

وقيل: إنما قال معدودة لأنهم كانوا في ذلك الزمان لا يَزِنُون ما كان أقل من أربعين درهماً، إنما كانوا يعدُّونها عدّاً، فإذا بلغت أوقية وزنوها.

واختلفوا في عدد تلك الدراهم: قال ابن عباس وابن مسعود وقتادة: عشرون درهماً، فاقتسموها درهمين درهمين.

وقال مجاهد: اثنان وعشرون درهماً.

وقال عكرمة: أربعون درهماً[٤].

---

(١) قال الألباني: منكر باطل بهذا اللفظ، لمخالفته للحديث الصحيح، ولأن في إسناده واهٍ جداً. وانظر: المراجع السابقة.

(٢) في «ب»: فقال.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) قال الإمام أبو جعفر الطبري في التفسير: (١٦/١٥-١٦): «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة، ولم يحدَّ مبلغ ذلك بوزن ولا عدد، ولا وضع عليه دلالة في كتاب ولا خبر من الرسول صلى الله =

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢١﴾

﴿وكانوا﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿فيه﴾، أي: في يوسف ﴿من الزاهدين﴾ لأنهم لم يعلموا منزلته عند الله .

وقيل: كانوا في الثمن من الزاهدين، لأنهم لم يكن قصدهم تحصيل الثمن، إنما كان قصدهم تبعيد يوسف عن أبيه .

ثم انطلق مالك بن ذعر وأصحابه بيوسف، فتبعهم إخوته يقولون: استوثقوا منه لا يأبق، قال: فذهبوا به حتى قدموا مصر، وعرضه مالك على البيع فاشتراه قطفير قاله ابن عباس .

وقيل: إظفير صاحب أمر الملك، وكان على خزائن مصر يسمى العزيز، وكان الملك يومئذ بمصر ونواحيها الريان بن الوليد بن شروان من العمالقة .

وقيل: إن هذا الملك لم يمت حتى آمن واتّبعَ يوسف على دينه، ثم مات ويوسف حي .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لمّا دخلوا مصر تلقى قطفير مالك بن ذعر فابتاع منه يوسف بعشرين ديناراً وزوج نعل وثوبين أبيضين .

وقال وهب بن منبه: قدمت السيارة بيوسف مصر فدخلوا به السوق يعرضونه للبيع، فترافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه ذهباً ووزنه فضة ووزنه مسكاً وحريراً، وكان وزنه أربعمائة رطل، وهو ابن ثلاث عشرة سنة فابتاعه قطفير من مالك بن ذعر بهذا الثمن، فذلك قوله تعالى :

﴿وقالَ الذي اشتراه من مصرَ لامرأتِهِ﴾، واسمها: راعيل، وقيل: زليخا، ﴿أكرمي مثواه﴾، أي: منزله ومقامه، والمثوى: موضع الإقامة .

وقيل: أكرميه في المطعم والملبس والمقام .

وقال قتادة وابن جريج: منزلته .

﴿عسى أن ينفعَنا﴾. أي: نبيعه بالربح إن أردنا البيع، أو يكفينا إذا بلغ بعض أمورنا .

﴿أو نتخذَه ولداً﴾، أي: نتبنّاه .

= عليه وسلّم. وقد يحتمل أن يكون كان عشرين، ويحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين، وأن يكون كان أربعين، وأقلّ من ذلك وأكثر. وأيّ ذلك كان، فإنها كانت معدودة غير موزونة، وليس في العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع في دين، ولا في الجهل به دخولُ ضرٍّ فيه. والإيمان بظاهر التنزيل فرض. وما عداه فموضوعٌ عنا تكلُّف علمه» .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أفرسُ الناس ثلاثة: العزيز في يوسف، حيث قال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا، وابنة شعيب عليه السلام حيث قالت لأبيها في موسى عليه السلام: يا أبتِ استأجِره، وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه(١).

﴿وكذلك مكّنّا ليوسفَ في الأرض﴾، [أي: في أرض مصر](٢) أي: كما أنقذنا يوسف من القتل وأخرجناه من الجب، كذلك [مكّنّا له](٣) في الأرض فجعلناه على خزائنها.

﴿ولِنُعلِّمَه مِن تأويلِ الأحاديثِ﴾، أي: [مكّنّا له](٣) في الأرض لكي نعلمه من تأويل الأحاديث، وهي عبارة عن الرؤيا.

﴿والله غالبٌ على أمره﴾، قيل الهاء في أمره كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء ولا يردُّ حكمه رادّ.

وقيل: هي راجعة إلى يوسف عليه السلام معناه: إن الله مستول على أمر يوسف بالتدبير [والحياطة](٤) لا يَكِلُه إلى أحد حتى يبلغ منتهى علمه فيه.

﴿ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾، ما الله به صانع.

﴿ولمّا بلغ أشُدَّهُ﴾، منتهى شبابه وشدته وقوته. قال مجاهد: ثلاثاً وثلاثين سنة.

وقال السدي: ثلاثين سنة.

وقال الضحاك: عشرين سنة.

وقال الكلبي: الأشُدُّ ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين سنة.

وسئل مالك رحمه الله عن الأشد قال: هو الحلم(٥).

﴿آتيناه حُكماً وعِلماً﴾، فالحكم: النبوة، والعلم: الفقه في الدين.

---

(١) صححه الحاكم على شرط الشيخين وأقره الذهبي، المستدرك: ٣٤٦/٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٢٦٨/١٠): «رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح إن كان محمد بن كثير هو العبدي، وإن كان الثقفي فقد وثّق على ضعف كثير فيه».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: مكنّاه.

(٤) في «ب»: والإحاطة.

(٥) قال الإمام الطبري: (٢٣/١٦) «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه آتى يوسف لما بلغ أشدّه حكماً وعلماً = والأشد: هو انتهاء قوته وشبابه = وجائز أن يكون آتاه ذلك وهو ابن ثماني عشرة سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن عشرين سنة، وجائز أن يكون آتاه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة — ولا دلالة له في كتاب الله، ولا أثر عن رسول الله ﷺ، ولا في إجماع الأمة، على أي ذلك كان. وإذا لم يكن ذلك موجوداً من الوجه الذي ذكرت، فالصواب أن يقال فيه كما قال الله عز وجل، حتى تثبت حجة بصحة ما قيل في ذلك من الوجه الذي يجب التسليم له، فيسلم لها حينئذ».

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

وقيل: حكماً يعني: إصابة في القول: وعلماً: بتأويل الرؤيا.

وقيل: الفرق بين الحكيم والعالم، أن العالم: هو الذي يعلم الأشياء، والحكيم: الذي يعمل بما يوجبه العلم.

﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المؤمنين. وعنه أيضاً المهتدين.

وقال الضحاك: الصابرين على النوائب كما صبر يوسف عليه السلام.

﴿وراودته التي هو في بيتها عنْ نفسه﴾، يعني: امرأة العزيز. والمراودةُ: طلب الفعل، والمراد هاهنا أنها دعته إلى نفسها ليواقعها، ﴿وغلّقتِ الأبوابَ﴾، أي: أطبقتها، وكانت سبعة، ﴿وقالتْ هَيْتَ لكَ﴾، أي: هلمَّ وأَقْبِل.

قرأه أهل الكوفة والبصرة: (هَيْتَ لك) بفتح الهاء والتاء.

وقرأ أهل المدينة والشام: (هِيْتَ) بكسر الهاء وفتح التاء.

وقرأ ابن كثير: (هَيْتُ) بفتح الهاء وضم التاء.

وقرأ السلمي وقتادة: (هِئْتُ لك) بكسر الهاء وضم التاء مهموزاً، يعني: تهيأتُ لك، وأنكره أبو عمرو والكسائي، وقالا لم يُحْكَ هذا عن العرب.

والأول هو المعروف عند العرب.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأني النبي ﷺ: ﴿هيت لك﴾[(١)].

قال أبو عبيدة[(٢)] كان الكسائي يقول: هي لغة لأهل حوران رفعت إلى الحجاز معناها [إليَّ][(٣)] تعالَ.

وقال عكرمة: هي أيضاً بالحورانية هلم.

وقال مجاهد وغيره: هي لغة عربية وهي كلمة حثّ وإقبال على الشيء.

قال أبو عبيدة: إن العرب لا تثني ﴿هيت﴾ ولا تجمع ولا تؤنث، وإنها بصورة[(٤)] واحدة في كل حال.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٢/٣٤٦ وصححه على شرط الشيخين.
وانظر: تفسير الطبري: ١٦/٣٠-٣١ مع تعليق الشيخ محمود شاكر.

(٢) في «ب» أبو عبيد. وانظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٠٥.

(٣) زيادة من «ب».

(٤) في «أ»: بصوت.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قال﴾ يوسف لها عند ذلك: **﴿مَعَاذَ الله﴾**، أي: أعوذ بالله وأعتصم بالله مما دعوتني إليه، **﴿إنه ربّي﴾** يريد أن زوجك قطفير[1] سيدي **﴿أحسن مثواي﴾**، أي: أكرم منزلي. هذا قول أكثر المفسرين .

وقيل: الهاء راجعة إلى الله تعالى، يريد: أن الله تعالى ربّي أحسن مثوايَ، أي: آواني، ومن بلاء الجبِّ عافاني .

﴿إنه لا يُفلحُ الظالمون﴾، يعني: إن فعلت هذا فخنته في أهله بعد ما أكرم مثواي فأنا ظالم، ولا يفلح الظالمون .

وقيل: لا يفلح الظالمون: أي لا يسعد الزناة .

﴿ولقد هَمّتْ بهِ وهمَّ بها﴾، والهمُّ هو: المقاربة من الفعل من غير دخول فيه. فهمُّها: عزمُها على المعصية والزنا .

وأمّا همُّه: فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حلّ الهميان وجلس منها مجلس الخائن[2] .

وعن مجاهد قال: حلّ سراويله وجعل يعالج ثيابه. وهذا قول أكثر المتقدمين مثل سعيد بن جبير والحسن[3] .

١٨١/ أ وقال الضحاك: جرى الشيطان فيما بينهما فضرب بإحدى يديه إلى جيد يوسف وباليد / الأخرى إلى جيد المرأة حتى جمع بينهما .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: وقد أنكر قوم هذا القول، والقول ما قال متقدمو هذه الأمة، وهم كانوا أعلم بالله أن يقولوا في الأنبياء عليهم السلام من غير علم .

وقال السدي وابن إسحاق: لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عليه السلام عن نفسه جعلت تذكر له محاسن نفسه وتشوّقه إلى نفسها، فقالت: يايوسف ما أحسن شعرك! .

قال: هو أول ما ينتثر من جسدي .

قالت: ما أحسن عينيك!

---

(١) في تفسير الطبري: (إطفير) .

(٢) أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس موقوفاً .
انظر: الدر المنثور: ٥٢١/٤. وسيأتي التعليق على هذه الروايات قريباً .

(٣) ساق السيوطي الروايات عنهم في الدر المنثور: ٥٢١/٤ـ٥٢٢ .

قال: هي أول ما تسيل على وجهي في قبري.

قالت: ما أحسن وجهك!

قال: هو للتراب يأكله[١].

وقيل: إنها قالت: إن فراش الحرير مبسوط، فقم فاقض حاجتي.

قال: إذاً يذهب نصيبي من الجنة.

فلم تزل تطمعه وتدعوه إلى اللذة، وهو شاب يجد من شبق الشباب ما يجده الرجل، وهي امرأة حسناء جميلة، حتى لان لها ممَّا يرى من كلفها، وهمَّ بها، ثم إن الله تعالى تدارك عبده ونبيه بالبرهان الذي ذكره[٢].

وزعم بعض المتأخرين: أن هذا لا يليق بحال الأنبياء عليهم السلام[٣]، وقال: تمّ الكلام عند قوله: ﴿ولقدْ هَمّتْ به﴾، ثم ابتدأ الخبر عن يوسف عليه السلام فقال: ﴿وهم بها لولا أنْ رأى بُرْهان رَبّه﴾، على التقديم والتأخير، أي: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه رأى البرهان فلم يهم.

وأنكره النحاة، وقالوا: إن العرب لا تُؤخّر (لولا) عن الفعل، فلا تقول: لقد قمت[٤] لولا زيد، [وهو يريد لولا زيدٌ لَقُمْتُ][٥].

وقيل: همت بيوسف أن يفترشها، وهمّ بها يوسف أي: تمنى أن تكون له زوجة.

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٣٤.

(٢) أخرجه الطبري في الموضع السابق.

(٣) وأبدى ابن عطية وجهاً أن هذا لم يكن في حال النبوة، فقال في «المحرر الوجيز»: (٧/٤٧٧-٤٧٨): «والذي أقول في هذه الآية: إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة: لم يصحَّ، ولا تظاهرت به رواية. وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أُوتي حكماً وعلماً، ويجوز عليه الهمُّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبياً ــ في ذلك الوقت ــ فلا يجوز عليه ــ عندي ــ إلا الهمُّ الذي هو الخاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حلّ تكَّةٍ ونحو ذلك؛ لأن العصمة مع النبوة.

وما روي من أنه قيل له: «تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء» فإنما معناه: العِدَةُ بالنبوة فيما بعد.

وللهمِّ بالشيء مرتبتان: فالأولى: تجوز عليه مع النبوة، والثانية الكبرى: لا تقع إلا مع غير نبي، لأن استصحاب خاطر المعصية والتَّلذُّذ بها معصيةٌ في نفسها تُكْتَبُ...».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «دقائق التفسير»: (٣/٢٧٢-٢٧٣): «الهمُّ: اسم جنس تحته نوعان، كما قال الإمام أحمد: الهمُّ همَّان: همُّ خطرات، وهمُّ إصرار. وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن العبد إذا همَّ بسيئة لم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة... ويوسف همَّ هماً تركه لله، لذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه... وأما ما ينقل من أنه حلَّ سراويله وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده، وأمثال ذلك، فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك فهو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء وقدحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله. لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا صلى الله عليه وسلم حرفاً واحداً».

(٤) في «ب»: همت.

(٥) ساقطة من «ب».

وهذا التأويل وأمثاله غير مرضية لمخالفتها أقاويل القدماء من العلماء الذين يؤخذ عنهم الدين والعلم[1]..

وقال بعضهم: إن القدر الذي فعله يوسف عليه السلام كان من الصغائر، والصغائر تجوز على الأنبياء عليهم السلام[2] .

---

(١) قال العلامة الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان: تفسير القرآن بالقرآن» (٣/٦٠-٦٢): «والجواب الثاني ـ وهو اختيار أبي حيان: أن يوسف لم يقع منه همّ أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان .

وهذا الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية، لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب: أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيْهِ توكَّلُوا إنْ كنتُم مُسلمين﴾: أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه، فالأول: دليل الجواب المحذوف لا نفس الجواب، لأن جواب الشروط وجواب ﴿لولا﴾ لا يتقدم، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه كالآية المذكورة. وكقوله: ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكم إن كُنتُم صادقين﴾، أي: إن كنتم صادقين فهاتوا برهانكم. وعلى هذا القول: معنى الآية، وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربّه، أي: لولا أن رآه همّ بها. فما قبل ﴿لولا﴾ هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة .

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إنْ كادتْ لَتُبْدي بِهِ لولَا أنْ رَّبطْنَا على قَلْبِها﴾، فما قبل ﴿لولا﴾ دليل الجواب، أي: لولا أن ربطنا على قلبها لكادتْ تُبدي به .

واعلم أن جماعة من علماء العربية أجازوا تقديم جواب ﴿لولا﴾ وتقديم الجواب في سائر الشروط: وعلى هذا القول يكون جواب ﴿لولا﴾ في قوله: ﴿لولا أنْ رأى بُرهانَ ربِّه﴾، هو ما قبله من قوله: ﴿وهمَّ بها﴾. وإلى جواز التقديم المذكور ذهب الكوفيون، ومن أعلام البصريين: أبو العباس المبرد، وأبو زيد الأنصاري» .

وقال الشيخ أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط» (٥/٢٩٤-٢٩٥) ما نصه: «طوّل المفسرون في تفسير هذين الهمَّيْن، ونسب بعضهم ليوسف مالا يجوز نسبته لآحاد الفساق، والذي أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه همّ بها البتة، بل هو منفي لوجود رُؤية البرهان، كما تقول: لقد فارقتَ لولا أن عصمكَ الله، ولا تقول: إن جواب ﴿لولا﴾ متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل صريح أدوات الشرط العاملة مُخْتَلَف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد، بل نقول: إن جواب ﴿لولا﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه، كما تقوّل جمهور البصريين في قول العرب: أنت ظالم إن فعلت، فيقدرونه: إن فعلت فأنت ظالم، ولا يدل قوله: أنت ظالم على ثبوت الظلم، بل هو مُثْبَتٌ على تقدير وجود الفعل، وكذلك هنا التقدير: لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها، فكان موجد الهمّ على تقدير انتفاء رؤية البرهان، ولكنه وجِد رؤية البرهان، فانتفى الهمّ». وبعد أن ردَّ على الزجاج اعتراضاً لغوياً، قال: «وأمّا أقوال السلف ـ والتي ساق بعضها الإمام البغوي هنا ـ فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضُها بعضاً مع كونها قادحة في فساق المسلمين فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة. والذي رُوي عن السلف لا يساعد عليه كلام العرب لأنهم قدّروا جواب ﴿لولا﴾ محذوفاً ولا يدل عليه دليل، لأنهم لم يقدّروا «لهمّ بها»، ولا يدل كلام العرب إنّها على أن يكون المحذوف من معنى ما قبل الشرط، لأن ما قبل الشرط دليل عليه، ولا يُحذف الشيء لغير دليل عليه» .

ثم يقول أبو حيان: «وقد طهرنا كتابنا هذا ـ أي: تفسيره البحر المحيط ـ عن نقل ما في كتب التفسير مما لا يليق ذكره، واقتصرنا على ما دلّ عليه لسان العرب ومساق الآيات التي وردت في هذه السورة مما يدل على العصمة وبراءة يوسف عليه السلام من كل ما يشين» .

وانظر: «الاسرائيليات والموضوعات» لمحمد محمد أبو شهبة ص (٣٠٧-٣١٩)، تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: (١٢/٢٨٠-٢٨٦) .

(٢) انظر فيما سبق ص (٢١٨) هامش (٥) .

روي أن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك حين خرج من السجن وأقرَّتِ المرأة، قال يوسف: ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ قال له جبريل: ولا حين هممتَ بها يا يوسف؟ فقال يوسف عند ذلك: ﴿وما أبرىء نفسي﴾ الآية[1] .

وقال الحسن البصري: إن الله تعالى لم يذكر ذنوب الأنبياء عليهم السلام في القرآن ليعيِّرهم، ولكن ذكرها ليبيّن موضع النعمة عليهم، ولئلا ييأس أحد من رحمته[2] .

وقيل: إنه ابتلاهم بالذنوب ليتفرد بالطهارة والعزة، ويلقاه جميع الخلق يوم القيامة على انكسار المعصية .

وقيل: ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رجاء الرحمة وترك الإياس من المغفرة والعفو .

وقال بعض أهل الحقائق: الهمُّ همَّان: همٌّ ثابتٌ، وهو إذا كان معه عزم وعقد ورضى، مثل همِّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به، وهمٌّ عارضٌ وهو الخطرة، وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم، مثل همّ يوسف عليه السلام، فالعبد غير مأخوذ به مالم يتكلم أو يعمل .

أخبرنا أبو علي حسان بن سعيد المنيعي، أنبأنا أبو طاهر محمد بن محمد محمش الزيادي، حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان، حدثنا أحمد بن يوسف السلمي، حدثنا عبدالرزاق، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال: حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله عزّ وجلّ: إذا تحدث عبدي بأنْ يعملَ حَسنةً فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بعشر أمثالها،

---

(١) ليس هذا من كلام يوسف عليه السلام، بل هو من كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة، لا يرتاب فيها من تدبر القرآن، حيث قال تعالى: «وقال الملك ائتوني به، فلما جاءه الرسول، قال: ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهن، إن ربي بكيدهن عليم. قال: ما خطبكن إذْ راودتُنَّ يوسف عن نفسه؟ قلن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء. قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، وما أبرىء نفسي، إن النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم» .
فهذا كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه. ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: «ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب» أي: لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته. فحينئذ «قال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلما كلّمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين» .
وقد قال كثير من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قول في غاية الفساد، ولا دليل عليه، بل الأدلة تدل على نقيضه .
انظر: «دقائق التفسير» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (٣/٢٧٣) .

(٢) ويوسف عليه السلام لم يذكر الله تعالى عنه أنه ارتكب ذنباً، وهو سبحانه لا يذكر لنبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر استغفاره منه، ولم يذكر عن يوسف استغفاراً من تلك الكلمة، كما لم يذكر عنه استغفاراً من مقدمات الفاحشة، فعلم أنه لم يفعل ذنباً في هذا ولا هذا، بل إن ما فعله كان من الحسنات المبرورة والمساعي المشكورة .
انظر: «دقائق التفسير»: (٣/٢٦٢، ٢٨٠) .

وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له، مالم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها»[1].

قوله عزّ وجلّ: ﴿لولا أنْ رأى بُرْهَانَ رَبِّه﴾، اختلفوا في ذلك البرهان: قال قتادة وأكثر المفسرين: إنه رأى صورة يعقوب، وهو يقول له: يايوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء!.

وقال الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك: انفرج له سقف البيت فرأى يعقوب عليه السلام عاضّاً على أصبعه[2].

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: مُثِّل له يعقوب عليه السلام فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله[3].

وقال السدي: نُودي يايوسف تواقعها! إنما مثلك مالم تواقعها مثل الطير في جوف السماء لا يطاق، ومثلك إن تواقعها مثله إذا مات ووقع على الأرض لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ومثلك مالم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يطاق، ومثلك إن واقعتها مثل الثور يموت فيدخل النمل في أصل قرنيه لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه.

وعن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وهمّ بها﴾ قال: حلّ سراويله وقعد منها مقعد الرجل من امرأته، فإذا بكفٍّ قد بدت بينهما بلا معصم ولا عضد مكتوب عليها «وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون» (الانفطار ـ ١١)، فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد فظهرت تلك الكف مكتوباً عليها: «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً» (الإسراء ـ ٣٢) فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فظهر، ورأى تلك الكف مكتوباً عليها: «واتقوا يوماً تُرجعُون فيه إلى الله» (البقرة ـ ٢٨١) فقام هارباً وقامت، فلما ذهب عنهما الرعب عادت وعاد، فقال الله عز وجل لجبريل عليه السلام: أَدْرِكْ عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطَّ جبريل عليه السلام عاضّاً على أصبعه، يقول: يا يوسف تعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله في الأنبياء[4].

ورُوي أنه مسحه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب (يريدون أن يبدلوا كلام الله): ٨/١٩٨، وفي الرقاق: باب من همَّ بحسنة عن ابن عباس، ٧/١٧٨، ومسلم في الإيمان، باب إذا همَّ العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب، برقم (٢٠٥): ١/١١٧، من طريق عبدالرزاق بسنده لصحيفة همام بن منبه، انظر: المصنف لعبدالرزاق، كتاب الجامع: ١١/٢٨٧، ومن طريقه أخرجها البغوي في شرح السنة: ١٤/٣٣٧، ٣٣٨.

وراجع: صحيفة همام بن منبه بتحقيق الدكتور رفعت فوزي ص (١٨٨-١٨٩).

(٢) انظر الروايات عنهم في: الدر المنثور: ٤/٥٢١-٥٢٣.

(٣) إذا خرجت منه الشهوة فإنه لا فضل له في ترك الهمّ بها، لو أنه حصل منه.

(٤) وهل نزلت هذه الآيات الكريمة على أحدٍ قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟.

وقال محمد بن كعب القرظي: رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين همّ بها فرأى كتاباً في حائط البيت: «لا تقربُوا الزنا إنّه كان فاحشةً وساءَ سبيلاً» .

وروى عطية عن ابن عباس: في البرهان أنه رأى مثال الملك[1] .

وقال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما: البرهان النبوة التي أودعها الله في صدره حالت بينه وبين ما يسخط الله عزّ وجلّ[2] .

وعن علي بن الحسين قال: كان في البيت صنم فقامت المرأة وسترته بثوب، فقال لها يوسف: لِمَ فعلتِ هذا؟ .

فقالت: استحييتُ منه أن يراني على المعصية .

فقال يوسف: أتستحين مما لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه؟ فأنا أحق أن أستحي من ربّي، وهرب[3] .

---

(١) انظر تخريج هذه الروايات في: الدر المنثور: ٤/٥٢١ـ٥٢٤ .

(٢) وقريب من هذا القول قول من قال: إن البرهان أنه علم ما أحلّ الله مما حرم الله، فرأى تحريم الزنا، روي عن محمد بن كعب القرظي.
قال ابن قتيبة: رأى حجة الله عليه وهي البرهان .
قال ابن الجوزي: في «زاد المسير»: (٤/٢٠٩): «وهذا هو القول الصحيح وما تقدّمه فليس بشيء، وإنما هي أحاديث من أعمال القصاص، وقد أشرت إلى فسادها في كتاب «المغني في التفسير». وكيف يُظَنّ بنبي لله كريم أنه يخوّف ويرغّب ويضطر إلى ترك هذه المعصية وهو مُصِرٌّ؟! وهذا غاية القبح .

(٣) قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره: (١٦/٤٩) بعد أن ساق تلك الروايات المختلفة المضطربة: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن همّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آية من الله زجرته عن ركوب ما همّ به يوسف من الفاحشة = وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا = ولا حجة للعذر قاطعة بأيٍّ ذلك كان من أيٍّ .
والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه» .
وقال الشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان»: (٣/٦٨): «وهذه الأقوال التي رأيت نسبتها إلى هؤلاء العلماء منقسمة إلى قسمين :
قسم لم يثبت نقله عمن نقل عنه بسند صحيح، وهذا لا إشكال في سقوطه .
وقسم ثبت عن بعض من ذكر. ومن ثبت عنه منهم شيء من ذلك، فالظاهر الغالب على الظن، المزاحم لليقين: أنه إنما تلقاه عن الإسرائيليات؛ لأنه لا مجال للرأي فيه، ولم يرفع منه قليل ولا كثير إليه صلى الله عليه وسلم .
وبهذا تعلم أنه لا ينبغي التجرؤ على القول في نبي الله يوسف بأنه جلس بين رجلي امرأة كافرة أجنبية، يريد أن يزني بها، اعتماداً على مثل هذه الروايات. مع أن في الروايات المذكورة ما تلوح عليه لوائح الكذب، كقصة الكف التي خرجت له أربع مرات، وفي ثلاث منهن لا يبالي بها، لأن ذلك ـ على فرض صحته ـ فيه أكبر زاجر لعوام الفسّاق، فما ظنك بخيار الأنبياء! مع أننا قدمنا دلالة القرآن على براءته من جهات متعددة، وأوضحنا أن الحقيقة لاتتعدى أحد أمرين :
إما أن يكون لم يقع منه همٌّ بها أصلاً، بناء على تعليق همه على عدم رؤية البرهان، وقد رأى البرهان .
وإما أن يكون همه الميل الطبيعي المزموم بالتقوى. والعلم عند الله تعالى» .

وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿لولا أن رأى برهانَ ربِّه﴾ جواب لولا محذوف، تقديره: لولا أن رأى برهان ربهِ لواقع المعصية.

﴿كذلِكَ لِنَصْرِفَ عنه السّوءَ والفحشاءَ﴾، فالسوءُ: الإثم. وقيل: السوء القبيح. والفحشاء: الزنا.

﴿إنَّه مِنْ عِبادِنَا المُخْلَصِينَ﴾، قرأ أهل المدينة والكوفة: ﴿المخلَصين﴾ بفتح اللام حيث كان إذا لم يكن بعده ذكر الدِّين، زاد الكوفيون ﴿مخلصاً﴾ في سورة مريم ففتحوا.

١٨١/ب ومعنى / ﴿المخلَصين﴾ المختارين للنبوة، دليله: «إنّا أخلصناهم بخالصة» (صٓ ـ ٤٦).

وقرأ الآخرون بكسر اللام، أي: المخلِصين لله الطاعة والعبادة.

﴿واسْتَبَقَا البابَ﴾، وذلك أن يوسف لمّا رأى البرهان قام مبادراً إلى باب البيت هارباً، وتبعته المرأة لتمسك الباب حتى لا يخرج يوسف، فسبق يوسف، وأدركته المرأة، فتعلَّقت بقميصه من خلفه، فجذبته إليها حتى لا يخرج.

﴿وقَدَّتْ قميصَه﴾ أي: فشقته ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾، أي: من خلف، فلما خرجا لقيا العزيز، وهو قوله: ﴿وألفَيا سَيِّدَها لدى البابِ﴾، أي: وجدا زوج المرأة قطفير عند الباب جالساً مع ابن عمٍ لراعيل، فلما رأته هابته و﴿قالتْ﴾ سابقةً بالقول لزوجها ﴿مَا جَزاءُ مَنْ أرادَ بأهلِكَ سوءاً﴾، يعني: الزنا، ثم خافت عليه أن يقتله فقالت: ﴿إلّا أنْ يُسْجَنَ﴾، أي: يحبس، ﴿أو عذابٌ أليمٌ﴾، أي: ضرب بالسياط، فلما سمع يوسف مقالتها.

﴿قال هِيَ رَاوَدَتْني عن نفسي﴾، يعني: طلبت مني الفاحشة فأبيت وفررت.

قيل: ما كان يريد يوسف أن يذكره، فلما قالت المرأة: ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً؟ ذكره، فقال: هي راودتني عن نفسي.

﴿وَشَهِدَ شاهِدٌ﴾، وحكم حاكم، ﴿من أهلها﴾، اختلفوا في ذلك الشاهد:

فقال سعيد بن جبير، والضحاك: كان صبياً في المهد، أنطقه الله عزّ وجلّ[1]، وهو رواية العوفي عن

---

(١) أخرجه عنهما: ابن جرير وأبو الشيخ وابن أبي شيبة وابن المنذر. انظر: الدر المنثور: ٥٢٦/٤.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «تكلّم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة ابنة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم عليه السلام»(١).

وقيل: كان ذلك الصبي ابن خال المرأة.

وقال الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: لم يكن صبياً ولكنه كان رجلاً حكيماً ذا رأي(٢).

قال السدي: هو ابن عم راعيل(٣)، فحكم فقال: ﴿إِنْ كان قميصُه قُدّ مِن قُبُلٍ﴾، أي: من قدّام، ﴿فصدقتْ وهو من الكاذِبين﴾.

﴿وإنْ كانَ قميصُه قُدّ مِن دُبُرٍ فكذبتْ وهو مِنَ الصادقين﴾.

﴿فلمّا رأى﴾، قطفير، ﴿قميصَه قُدّ مِن دُبُرٍ﴾ عرف خيانة امرأته وبراءة يوسف عليه السلام، ﴿قال﴾ لها ﴿إنه﴾، أي: إن هذا الصنيع، ﴿مِنْ كَيْدِكُنّ إنّ كَيْدَكُنّ عظيم﴾، وقيل: إن هذا من قول الشاهد ثم أقبل قطفير على يوسف فقال:

﴿يوسفُ﴾، أي: يايوسفُ، ﴿أَعْرِضْ عن هذا﴾ أي: عن هذا الحديث، فلا تذكره لأحدٍ حتى لا يشيع.

وقيل: معناه لا تكترث له، فقد بان عذرُك وبراءَتُك.

ثم قال لامرأته: ﴿واستغفري لذنبِك﴾، أي: توبي إلى الله، ﴿إنّكِ كنتِ مِنَ الخاطئين﴾.

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير عن ابن عباس: (١٦/٥٥)، والإمام أحمد في المسند مطولاً برقم (٢٨٢٢-٢٨٢٥) ـ طبعة الحلبي ـ ولم يرفعه، وابن حبان في صحيحه ص (٤٠) من موارد الظمآن.
وقال الهيثمي في «المجمع»: (١/٦٥): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ـ وفيه عطاء بن السائب ـ وهو ثقة، ولكنه اختلط».
وأخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة ٢/٤٩٧، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وعزاه السيوطي للبيهقي في الدلائل، وزاد ابن حجر نسبته لابن أبي شيبة وأبي يعلى والبيهقي في الشعب انظر: «الكافي الشاف» ص (٨٩)، وصححه الشيخ محمود شاكر في تعليقه على الطبري، في الموضع السابق.
وانظر: فتح الباري لابن حجر: ٦/٤٨٠.

(٢) انظر: الدر المنثور ٤/٥٢٦.

(٣) قال الطبري في التفسير: (٩/٥٢): «والصواب من القول في ذلك، قول من قال: كان صبياً في المهد = للخبر الذي ذكرناه عن رسول الله ﷺ، أنه ذكر من تكلم في المهد، فذكر أن أحدهم صاحب يوسف».

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

وقيل: إن هذا من قول الشاهد ليوسف ولراعيل .

وأراد بقوله: (واستغفري لذنبك)، أي سلي زوجك أن لا يعاقبك ويصفح عنك ﴿**إنك كنتِ من الخاطئين**﴾ من المذنبين، حتى راودتِ شاباً عن نفسه وخُنْتِ زوجك، فلما استعصم كذبتِ عليه، وإنما قال: «من الخاطئين» ولم يقل: من الخاطئات، لأنه لم يقصد به الخبر عن النساء بل قصد به الخبر عمن يفعل ذلك، تقديره: من القوم الخاطئين، كقوله تعالى: «وكانَتْ من القانتين» (التحريم ــ ١٢) بيانه قوله تعالى: «إنّها كانَتْ من قومٍ كافرين» (النمل ــ ٤٣) .

قوله تعالى: ﴿**وقال نسوةٌ في المدينة**﴾ الآية .

يقول: شاع أمرُ يوسف والمرأة في المدينة مدينة مصر. وقيل: مدينة عين الشمس، وتحدث النساء بذلك وقلن ــ وهنّ خمس نسوة: امرأة حاجب[1] الملك، وامرأة صاحب الدواب، وامرأة الخباز، وامرأة الساقي، وامرأة صاحب السجن، قاله مقاتل .

وقيل: هنّ نسوة من أشراف مصر ــ :

﴿**امرأةُ العزيزِ تُراوِدُ فتاهَا**﴾، أي: عبدها الكنعاني، ﴿**عَنْ نفسِهِ**﴾، أي: تطلب من عبدها الفاحشة، ﴿**قَدْ شغفَها حُبّاً**﴾، أي: عَلِقَها حباً .

قال الكلبي: حجب حبُّه قلبَها حتى لا تعقل سواه .

وقيل: أحبَّتْهُ حتى دخلها حبه شغاف قلبها، أي: داخل قلبها .

قال السدي: الشغاف جلدة رقيقة على القلب، يقول: دخل الحبُّ الجلدَ حتى أصاب القلب .

وقرأ الشعبي والأعرج[1]: ﴿**شعفها**﴾ بالعين غير المعجمة، معناه: ذهب الحُبُّ بها كلَّ مذهب. ومنه شعف الجبال وهو رؤوسها. ﴿**إنّا لَنَراه في ضلالٍ مبين**﴾، أي: خطأ ظاهر. وقيل: معناه إنها تركت ما يكون عليه أمثالها من العفاف والستر .

﴿**فلمّا سمعتْ**﴾، راعيل، ﴿**بمكرهنّ**﴾، بقولهن وحديثهن، قاله قتادة والسدي .

---

(١) في «ب»: صاحب .

(٢) في «ب»: الأعمش .

قال ابن إسحاق إنما قلن ذلك مكراً بها لِتُرِيَهُنَّ يوسف، وكان يوصف لهنّ حسنُه وجماله .

وقيل: إنها أفشت إليهنّ سرَّها واستكتمتهن فأفشَيْنَ ذلك، فلذلك سماه مكراً .

﴿أرسَلَتْ إليهنّ﴾، قال وهب: اتخذت مأدبة، ودعتْ أربعين امرأة، منهن هؤلاء اللاتي عَيَّرْنَها. ﴿وأَعْتَدَتْ﴾، أي: أعدت، ﴿لهنّ متكأً﴾، أي: ما يتكأ عليه .

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومجاهد: متكأ أي: طعاماً، سماه متكأ لأن أهل الطعام إذا جلسوا يتكؤون على الوسائد، فسمى الطعام متكأ على الاستعارة. يقال: اتكأنا عند فلان أي: طعمنا[١]. ويقال: المتكأ ما اتكأت عليه للشرب أو الحديث أو الطعام[٢]، ويقرأ في الشواذ مُتْكَاً بسكون التاء .

واختلفوا في معناه: فقال ابن عباس: [هو الأترج. ويروى عن مجاهد مثله. وقيل][٣] هو الأترج بالحبشة .

وقال الضحاك: هو الرباورد[٤] .

وقال عكرمة: هو كل شيء يقطع بالسكين .

وقال أبو زيد الأنصاري: كل ما يجز بالسكين فهو عند العرب متك، والمتك والبتك بالميم والباء: القطع، فزينت [المأدبة بألوان][٥] الفواكه والأطعمة، ووضعت الوسائد ودعت النسوة .

﴿وآتَتْ﴾: وأعطت، ﴿كلَّ واحدةٍ منهنَّ سِكّيناً﴾، فكن يأكلنَ اللحم حزّاً بالسكين .

﴿وقالت﴾، ليوسف، ﴿اخْرُجْ عليهنّ﴾، وذلك أنها كانت أجلسته في مجلس آخر، فخرج عليهن يوسف .

قال عكرمة: كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم .

ورُوي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أُسريَ بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر»[٦] .

قال إسحاق بن أبي فروة: كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلألأ وجهه على الجدران .

---

(١) في « أ »: أطعمنا .

(٢) في « أ »: لشرابٍ أو لحديث أو لطعام .

(٣) ساقط من « أ » .

(٤) في «ب»: الزُّمَاورد .

(٥) في «ب»: بيتاً بأنواع .

(٦) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» ص (٨٩): «رواه الثعلبي من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد. وأخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل، وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً، وأبو هارون العبدي ضعيف» .

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فلمّا رأينَهُ أكبَرْنَهُ﴾، أعظمنه، قال أبو العالية: هالَهنّ أمرُه وبُهتن. وقيل: أكبرنه أي: حضن لأجله من جماله(١). ولا يصح.

﴿وقطّعنَ﴾، أي: حززن بالسكاكين التي معهن، ﴿أيْدِيَهُنَّ﴾، وهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج، ولم يجدن الألم لشغل قلوبهن بيوسف.

١٨٢/ أ قال مجاهد: / فما أحسسن إلا بالدم.

وقال قتادة(٢) أَبَنَّ أيديهنّ حتى ألقينها.

والأصح كان قطعاً بلا إبانة.

وقال وهب: ماتت جماعة منهن(٣).

﴿وقُلْنَ حاشَ لله ما هذا بشراً﴾، أي: معاذ الله أن يكون هذا بشراً. قرأ أبو عمرو: حاشى لله، بإثبات الياء في الوصل، على الأصل. وقرأ الآخرون بحذف الياء لكثرة ورودها على الألسن، واتباعاً للكتاب.

وقوله: ﴿ما هذا بشراً﴾ نصب بنزع حرف الصفة، أي: ليس هذا ببشر، ﴿إنْ هذا﴾، أي: ما هذا، ﴿إلّا مَلَكٌ﴾، من الملائكة، ﴿كريمٌ﴾، على الله تعالى.

﴿قالت﴾، يعني: راعيل، ﴿فَذَلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّني فيه﴾، أي: في حبه، ثم صرحت بما فعلت، فقالت: ﴿ولقدْ رَاودْتُه عن نفسِهِ فاستَعْصَمَ﴾، أي: فامتنع، وإنما صرحت به لأنها علمت أنه لا ملامة عليها منهنّ وقد أصابهنّ ما أصابها من رؤيته، فقلنَ له: أطِعْ مولاتك. فقالتْ راعيل: ﴿ولَئِنْ لم يفعلْ ما آمُرُهُ﴾، ولئن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾، أي: ليعاقبن بالحبس، ﴿وليكوناً مِنَ الصّاغِرِين﴾، من الأذلاء. ونون التوكيد تثقل وتخفف، والوقف على قوله: ﴿ليسجنن﴾ بالنون لأنها مشددة، وعلى قوله ﴿وليكونا﴾ بالألف لأنها مخففة، وهي شبيهة بنون الإعراب في الأسماء، كقوله: رأيت رجلاً، وإذا وقفت، قلت: رأيت رجلا، بالألف، ومثله: «لنسفعاً بالناصية ناصية» (العلق ــ ١٥، ١٦).

فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية حين توعدته المرأة.

---

(١) وضعّف هذا التفسير أيضاً: الطبري: ١٦/٧٦ـ٧٧، وابن عطية في المحرر الوجيز: ٧/٤٩٥ـ٤٩٦.

(٢) في «ب»: مجاهد.

(٣) قال الطبري في التفسير: ١٦/٧٩: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عنهن أنهن قطّعن أيديهن وهنّ لا يشعرن لإعظام يوسف، وجائز أن يكون ذلك قطعاً بإبانة = وجائز أن يكون قطع حزّ وخدش = ولا قول في ذلك أصوب من التسليم لظاهر التنزيل».

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿قال ربِّ﴾، أي: يارب، ﴿السجنُ أحبُّ إليّ مما يدعونني إليه﴾، قيل: كان الدعاء منها خاصة، ولكنه أضاف إليهن خروجاً من التصريح إلى التعريض .

وقيل: إنهن جميعاً دعونه إلى أنفسهن .

وقرأ يعقوب وحده: السَّجْنُ بفتح السين. وقرأ العامة بكسرها .

وقيل: لو لم يقل: السجن أحب إليّ لم يُبْتَلَ بالسجن، والأَوْلى بالمرء أن يسأل الله العافية .

قوله تعالى: ﴿وإلّا تَصْرِفْ عني كيدهُنّ أَصْبُ إليهنَّ﴾، أَمِلْ إليهن وأتابعهن، يقال: صبا فلان إلى كذا يصبو صبواً وصُبُوّاً وصُبُوةً إذا مال واشتاق إليه .

﴿وأكُنْ مِن الجاهلين﴾، فيه دليل على أن المؤمن إذا ارتكب ذنباً يرتكبه عن جهالة .

﴿فاستجابَ له﴾ أجاب له. ﴿ربُّه فصرفَ عنه كيدهُنَّ إنّه هو السميعُ العليمُ﴾، [لدعائه][(1)] العليم بمكرهن .

﴿ثمّ بَدَا لهم﴾، أي: للعزيز وأصحابه في الرأي، وذلك أنهم أرادوا أن يقتصروا من أمر يوسف على الأمر بالإعراض. ثم بدا لهم أن يحبسوه. ﴿مِن بعدِ مَا رأَوُا الآياتِ﴾، الدالة على براءة يوسف من قَدِّ القميص، وكلام الطفل، وقطع النساء أيديهن وذهاب عقولهن، ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حتّى حينٍ﴾، إلى مدّة يرون فيه رأيهم .

وقال عطاء: إلى أن تنقطع مقالة[(2)] الناس .

قال عكرمة: سبع سنين .

وقال الكلبي: خمس سنين .

قال السدي: وذلك أن المرأة قالت لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يخبرهم أني راودتُه عن نفسه، فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر إلى الناس، وإما أن تحبسه، فحبسهُ، وذُكر أن الله تعالى جعل ذلك الحبس تطهيراً ليوسف عليه السلام من همّه بالمرأة[(3)] .

(١) ساقط من «أ» .
(٢) في «ب»: قالة .
(٣) تفسير الطبري: ١٦/٩٣ .

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قال ابن عباس: عثر يوسف ثلاث عثرات حين همّ بها فسجن، وحين قال «اذكرني عند ربك» فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال للإخوة «إنكم لسارقون»، فقالوا: «إنْ يسرق فقد سرق أخ له من قبل»(١).

قوله تعالى: ﴿ودخلَ معه السجنَ فتيان﴾، وهما غلامان كانا [للريان بن الوليد بن شروان العمليق](٢) ملك مصر الأكبر، أحدهما: خبَّازه وصاحب طعامه، والآخر: ساقيه وصاحب شرابه. غضب الملك عليهما فحبسهما .

وكان السبب فيه: أن جماعة من أهل مصر أرادوا المكر بالملك واغتياله، فضمنوا لهذين مالاً، ليسمَّا الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم، ثم إن الساقي نكل عنه، وقبل الخباز الرشوة فسمّ الطعام، فلما أحضر الطعام والشراب .

قال الساقي: لا تأكل أيها الملك فإن الطعام مسموم، وقال الخباز لا تشرب فإن الشراب مسموم .

فقال الملك للساقي: اشرب فشربه فلم يضره، وقال للخباز: كل من طعامك، [فأبى فجرب](٣) ذلك الطعام على دابة فأكلته فهلكت، فأمر الملك بحبسهما .

وكان يوسف حين دخل السجن جعل ينشر علمه ويقول إني أعبر الأحلام، فقال أحد الفتيين لصاحبه: هلمّ فلنجرب هذا العبد العبراني، فتراءيا له فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئاً، قال ابن مسعود ما رأيا شيئاً وإنما تحالما ليجرّبا يوسف .

وقال قوم: بل كانا رأيا حقيقة، فرآهما يوسف وهما مهمومان، فسألهما عن شأنهما، فذكرا أنهما صاحبا الملك، حبسهما، وقد رأيا رؤيا غمتهما. فقال يوسف: قُصّا عليّ ما رأيتُما، فقصَّا عليه .

﴿قال أحدُهما﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿إني أراني أعصرُ خمراً﴾، أي: عنباً، سمي العنب خمراً باسم ما يؤل إليه، كما يقال: فلان يطبخ الآجر أي يطبخ اللبِنَ للآجر. وقيل: الخمر العنب بلغة عمان، وذلك أنه قال إني رأيتُ كأني في بستان، فإذا بأصل حبلة عليها ثلاث عناقيد من عنب فجنيتها وكان كأس الملك بيدي فعصرتها فيه وسقيت الملك فشربه .

---

(١) تفسير الطبري: ٩٣/١٦ .

(٢) في «ب»: للوليد بن ثووان العمليقي .

(٣) في «ب»: فإني مجرب .

قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿وقال الآخر﴾، وهو الخباز: ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطيرُ منه﴾، وذلك أنه قال: إني رأيت كأن فوق رأسي ثلاث سلال فيها الخبز وألوان الأطعمة وسباع الطير تنهش منه. ﴿نبّئنا بتأويلِهِ﴾، أخبرنا بتفسيره وتعبيره وما يؤل إليه أمر هذه الرؤيا .

﴿إنّا نَرَاكَ مِنَ المحسنين﴾، أي: العالمِين بعبارة الرؤيا، والإحسان بمعنى العلم .

ورُوي أن الضحاك بن مزاحم سئل عن قوله: ﴿إنا نَراك من المحسنين﴾، ما كان إحسانه؟ قال: كان إذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه، وإذا ضاق [عليه المجلس][1]وسع له، وإذا احتاج جمع له شيئاً، وكان مع هذا يجتهد في العبادة، ويقوم الليل كله للصلاة[2] .

وقيل[3]: إنه لما دخل السجن وجد فيه قوماً قد اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم وطال حزنهم، فجعل يُسلّيهم ويقول: أبشروا واصبروا تؤجروا، فيقولون: بارك الله فيك يافتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك، لقد بورك لنا في جوارك فمن أنت يافتى؟ قال: أنا يوسف بن صفي الله يعقوب بن ذبيح الله إسحاق[4] بن خليل الله إبراهيم، فقال له عامل السجن: يافتى والله لو استطعت لخلّيت سبيلك، ولكن سأحسن جوارك فتمكن في أيّ بيوت السجن شئت .

ويُروى أن الفتيين لمّا رأيا يوسف قالا له: لقد أحببناك حين رأيناك، فقال لهما يوسف: أنشدكما بالله أن لا تحباني، فوالله ما أحبني أحد قط إلّا دخل عليّ من حبه بلاء، لقد أحبتني عمتي فدخل عليّ بلاء، ثم أحبني أبي فألقيت في الجب، وأحبتني / امرأة العزيز فحبست. فلما قصّا عليه الرؤيا كره يوسف ١٨٢/ب
أن يعبّر لهما ما سألاه لِمَا علم في ذلك من المكروه على أحدهما، فأعرض عن سؤالهما وأخذ في غيره في إظهار المعجزة والدعاء إلى التوحيد[5] .

﴿قال لا يأتيكما طعام تُرزَقَانِهِ﴾، قيل: أراد به في النوم يقول لا يأتيكما طعام ترزقانه في نومكما، ﴿إلّا نبّأتكما بتأويلِهِ﴾، في اليقظة .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) وقول الضحاك هذا، هو الذي رجحه أبو جعفر الطبري: ١٦/١٠٠ .

(٣) رواه الطبري في التفسير: ١٦/٩٩ عن قتادة، وقال في عقبه: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب القول الذي ذكرناه عن الضحاك وقتادة .

(٤) راجع فيما سبق التعليق (١) في ص (٢١٥) عن الذبيح .

(٥) أخرجه الطبري في التفسير: ١٦/١٠٢، وعزاه السيوطي أيضاً لابن أبي حاتم عن ابن إسحاق .

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

وقيل: أراد به في اليقظة، يقول: لا يأتيكما طعام من منازلكما ترزقانه، تُطعمانه وتأكلانه إلاّ نبأتكما بتأويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل فيه إليكما.

﴿قبل أنْ يأتيكُما﴾، قبل أن يصل إليكُما، وأيّ طعام أكلتم وكم أكلتم ومتى أكلتم، فهذا مثل معجزة عيسى عليه السلام حيث قال: «وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرُون في بيوتكم» (آل عمران ـ ٤٩) فقالا: هذا فعل العرّافين والكَهَنةِ(١)، فمن أين لك هذا العلم؟ فقال: ما أنا بكاهن وإنّما ﴿ذلِكُما﴾، العلم، ﴿ممّا علّمني ربّي إنّي تركتُ مِلّةَ قومٍ لا يُؤمِنُونَ بالله وهمْ بالآخرةِ همْ كافرون﴾، وتكرار ﴿هم﴾ على التأكيد.

﴿واتبعتُ مِلّةَ آبائي إبراهيمَ وإسحاق ويعقوبَ﴾، أظهر أنه من ولد الأنبياء ﴿ما كان لنا﴾، ما ينبغي لنا، ﴿أن نشركَ بالله مِنْ شيءٍ﴾، معناه: أن الله قد عصمنا من الشرك، ﴿ذلكَ﴾، التوحيد والعلم، ﴿مِنْ فضلِ الله علينَا وعلى الناسِ﴾، ما بين لهم من الهدى، ﴿ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون﴾، ثم دعاهما إلى الإسلام فقال:

﴿ياصاحِبَي السجنِ﴾، جعلهما صاحبي السجن لكونهما فيه، كما يقال لسكان الجنة: أصحاب الجنة، ولسكان النار: أصحاب النار، ﴿أأرْبابٌ مُتفرّقُون﴾، أي: آلهة شتّى، هذا من ذهب، وهذا من فضة، وهذا من حديد، وهذا أعلى، وهذا أوسط، وهذا أدنى، متباينون لا تضر ولا تنفع، ﴿خيرٌ أم اللّهُ الواحدُ القهارُ﴾، الذي لا ثاني له. القهار: الغالب على الكل. ثم بين عجز الأصنام فقال:

---

(١) العرّاف: هو الذي يزعم أنه يعرف الأمور الغيبية بمقدمات وأسباب قولية أو فعلية، يستدل بها على مواقعها، كالشيء يُسْرَق، فيعرف المظنون به السرقة ..

وجعله شيخ الإسلام ابن تيمية إسماً للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم.

والكاهن: هو الذي يدعي علم الغيب، كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب. والأصل فيه: استراق الجنّي السمع من كلام الملائكة فيلقيه في أذن الكاهن.

وهذه صورة لادعاء علم الغيب حرّمها الإسلام، إذ لا يعلم الغيب إلا الله.

انظر بالتفصيل: عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي، تأليف عثمان جمعة ضميرية، ص (١١٧-١٣١).

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ما تعبدونَ من دُونه﴾، أي: من دون الله، وإنما ذُكر بلفظ الجمع وقد ابتدأ الخطاب للاثنين لأنه أراد جميعَ أهل السجن، وكلَّ من هو على مثل حالهما من [أهل][1] الشرك، ﴿إلّا أسماءً سميتُموها﴾، آلهةً وأرباباً خالية عن المعنى لا حقيقة لتلك الأسماء، ﴿أنتم وآباؤكم ما أنزلَ اللّهُ بها مِنْ سُلطانٍ﴾، حجة وبرهان، ﴿إنِ الحكمُ﴾، ما القضاء والأمر والنهي، ﴿إلاّ لله أمر ألا تعبُدوا إلاّ إيّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القيِّمُ﴾، المستقيم، ﴿ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلَمُونَ﴾، ثم فسّر رؤياهما فقال:

﴿ياصاحِبَي السجنِ أمّا أحدُكما﴾، وهو صاحب الشراب، ﴿فيسقي ربَّه﴾، [يعني الملك][2] ﴿خمراً﴾، والعناقيد الثلاثة ثلاثة أيام يبقى في السجن ثم يدعوه الملك بعد الثلاثة[3] أيام، ويردّه إلى منزلته التي كان عليها، ﴿وأما الآخرُ﴾، يعني: صاحب الطعام فيدعوه الملك بعد ثلاثة أيام، والسلال الثلاث الثلاثة[3] أيام يبقى في السجن، ثم يخرجه، ﴿فيُصلبُ فتأكلُ الطيرُ من رأسِه﴾.

قال ابن مسعود: لمّا سمِعَا قولَ يوسفَ قالا: ما رأينا شيئاً إنّما كنّا نلعب، قال يوسف: ﴿قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان﴾[4]، أي: فُرغ من الأمر الذي عنه تسألان، ووجب حكم الله عليكما الذي أخبرتُكما به، رأيتُما أو لم تَرَيا.

﴿وقال﴾، يعني: يوسف عند ذلك، ﴿للذي ظنّ﴾، علم ﴿أنه ناج منهما﴾، وهو الساقي، ﴿اذكُرْني عند ربِّك﴾، يعني: سيدك الملك، وقل له: إن في السجن غلاماً محبوساً ظلماً طال حبسه،

---

(١) ساقط من «ب».
(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».
(٣) في «ب»: ثلاثة.
(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور: (٤/٥٤٠) لابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

﴿فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ ربِّه﴾، قيل: أنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف للملك، تقديره: فأنساه الشيطان ذكره لربه .

قال ابن عباس وعليه الأكثرون: أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكرَ ربِّه حين ابتغى الفرج، من غيره واستعان بمخلوق، وتلك غفلة عرضت ليوسف من الشيطان[1] .

﴿فَلَبِثَ﴾، فمكث، ﴿في السجن بِضْعَ سِنين﴾، واختلفوا في معنى البضع، فقال مجاهد: ما بين الثلاث إلى السبع .

وقال قتادة: ما بين الثلاث إلى التسع .

وقال ابن عباس: ما دون العشرة .

وأكثر المفسرين على أن البضع في هذه الآية سبع سنين، وكان قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنتا عشرة سنة .

قال وهب: أصاب أيوب البلاء سبع سنين، وتُرك يوسف في السجن سبع سنين، وعذب بختنصر فحول في السباع سبع سنين[2] .

قال مالك بن دينار: لما قال يوسف للساقي اذكرني عند ربك، قيل له: يايوسف اتخذتَ من دوني وكيلاً لأطيلنَّ حبسَك، فبكى يوسف، وقال: يارب أنسى قلبي كثرةُ البلوى فقلتُ كلمةً ولن أعود[3] .

وقال الحسن: دخل جبريل على يوسف في السجن، فلما رآه يوسف عرفه فقال له: يا أخا المنذرين

---

(١) رجح أبو حيان أن الضمير عائد على الساقي، وهو القول الأول، وهو أيضاً ما رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية من وجوه عديدة، فقال: «... بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه، وهذا هو الصواب، فإنه مطابق لقوله: «اذكرني عند ربك» قال تعالى: «فأنساه الشيطان ذكر ربه»، والضمير يعود إلى القريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك، ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه، بل كان ذاكراً لربه...

ثم قال بعد وجوه عديدة: فتبين أن قوله «فأنساه الشيطان ذكر ربه» أي: أنسى الفتى ذكر ربه، أن يذكر هذا لربه، ونسي ذكر يوسف ربه، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول، ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر يوسف ربه، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه هذا الذكر الخاص، فإنه وإن كان يسقي ربه خمراً فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه، وأنساه الشيطان تذكير ربه، وإذكار ربه لما قال: «اذكرني» أمره بإذكار ربه فأنساه الشيطان إذكار ربه .

فإذكار ربه أن يجعله ذاكراً فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكراً ليوسف، والذكر هو مصدر، وهو اسم فقد يضاف من جهة كونه إسماً، فيعمّ هذا كله، أي: أنساه الذكر المتعلق بربه، والمضاف إليه» .

ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف قوله بعد ذلك: «وقال الذي نجا منهما، وادّكر بعد أمة، أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون»، وقوله: «وادّكر بعد أمة» دليل على أنه نسي فادّكر .

انظر: دقائق التفسير لابن تيمية: ٣/٢٥٩-٢٦٣، وراجع البحر المحيط لأبي حيان: ٥/٣١١-٣١٢ .

(٢) قال الطبري في التفسير: (١٦/١١٥): «والصواب في البضع» من الثلاث إلى التسع، إلى العشر، ولا يكون دون الثلاث. وكذلك ما زاد على العقد إلى المائة، وما زاد على المائة فلا يكون فيه «بضع» .

(٣) أخرجه الطبري في التفسير: ١٦/١١١ .

مالي أراك بين الخاطئين؟ فقال له جبريل: ياطاهر الطاهرين يقرأ عليك السلام ربُّ العالمين، ويقول لك: أما استحييت مني أن استشفعتَ بالآدميين، فوعزتي لألبثنّك في السجن بضع سنين، قال يوسف: وهو في ذلك عني راض؟ قال: نعم، قال: إذاً لا أبالي.

وقال كعب: قال جبريل ليوسف إن الله تعالى يقول من خلقك؟ قال: الله، قال: فمن حبَّبك إلى أبيك؟ قال: الله، قال: فمن نجّاك من كرب البئر؟ قال: الله، قال: فمن علّمك تأويلَ الرؤيا؟ قال: الله، قال: فمن صرف عنك السوء والفحشاء؟ قال: الله، قال: فكيف استشفعت بآدمي مثلك؟[(١)].

فلما انقضت سبع سنين ــ قال الكلبي: وهذا السبع سوى الخمسة[(٢)] التي كانت قبل ذلك ــ ودَنَا فَرَجُ يوسف، رأى ملك مصر الأكبر رؤياً عجيبة هالته، وذلك أنه رأى سبع بقرات سمان، خرجت من البحر، ثم خرج عقبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال، فابتلعت العجافُ السِّمانَ فدخلن في بطونهن، ولم يُرَ منهن شيء ولم يتبين على العجاف منها شيء، ثم رأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حَبُّها، [وسبعاً أخرى][(٣)] يابسات قد استحصدت، فالتوت اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها ولم يبق من خضرتها شيء، فجمع السحرة والكهنة والحازة[(٤)] والمعبرين وقص عليهم رؤياه، فذلك قوله تعالى:

---

(١) هذه الروايات عن الحسن ووهب ومالك بن دينار من الاسرائيليات، وهي بجملتها تعني أن يوسف عليه السلام لبث في السجن بضع سنين بسبب استشفاعه أو طلبه من الذي علم أنه ناج أن يذكره عند ربه، وكان الأولى أن يتوكل على الله ولا يقول اذكرني عند ربك، فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين.

وقد ردَّ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في «دقائق التفسير»: (٣/٢٦١): «ليس في قوله: (اذكرني عند ربك) ما يناقض التوكل، بل قد قال يوسف: (إن الحكم إلا لله) كما أن قول أبيه: (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) لم يناقض توكله؛ بل قال: (وما أغني عنكم من الله من شيء، إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون).

وأيضاً: فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين، والمخلص لا يكون مخلصاً مع توكله على غير الله، فإن ذلك شرك، ويوسف لم يكن مشركاً، لا في عبادته ولا توكله، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله: (وإلّا تصرف عني كيدهنّ أصْبُ إليهن وأكنْ من الجاهلين)، فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده؟!

وقوله: (اذكرني عند ربك) مثل قوله لربه (اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم) فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضاً للتوكل، ولا هو من سؤال الإمارة المنهي عنه. فكيف يكون قوله للفتى: (اذكرني....) مناقضاً للتوكل، وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به، ليعلم حاله ليتبين الحق، ويوسف كان من أثبت الناس.

ولهذا بعد أن طلب (وقال الملك ائتوني به) قال: (ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن؟ إن ربي بكيدهن عليم) فيوسف يذكر ربه في هذه الحال، كما ذكره في تلك... فلم يكن في قوله له: (اذكرني...) ترك لواجب، ولا فعل لمحرم، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين. وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قبل هذا، ظلماً له. مع علمهم ببراءته من الذنب، ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال».

وانظر: «الاسرائيليات والموضوعات» ص (٣٢٠-٣٢١).

(٢) ظاهر الآيات لا يدل على أن هناك خمساً قبل ذلك، والله أعلم.

(٣) في «ب»: وسبع أُخر.

(٤) في هامش «أ»: الحازة: المنجمون.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وقالَ الملكُ إني أرى سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ عجافٌ وسبعَ سُنبلاتٍ خُضرٍ وأُخرَ يابساتٍ﴾، فقال لهم، ﴿يا أيّها الملأُ أفتوني في رُؤْيايَ إن كُنتُمْ للرُّؤيا تَعْبُرون﴾ .

﴿قالوا أضغاثُ أحلامٍ﴾ أخلاط أحلام مشتبهة، أهاويل، واحدها[1] ضِغْث، وأصله الحزمة من أنواع الحشيش، والأحلام جمع الحُلْم، وهو الرؤيا، والفعل منه حلمت أحلم، بفتح اللام في الماضي وضمها في الغابر، حُلُماً وحُلْماً، مثقلاً ومخففاً. ﴿وما نحْنُ بتأويلِ الأحْلامِ بعالِمين﴾ .

﴿وقالَ الذي نَجا﴾، من القتل، ﴿مِنهُما﴾، من الفتيين وهو الساقي، ﴿وادَّكَرَ﴾، أي: تذكر قول يوسف اذكرني عندَ ربِّك، ﴿بعدَ أمّةٍ﴾، بعد حين وهو سبع سنين. ﴿أنا أُنبِّئُكم بتأويلِهِ﴾، وذلك أن الغلام جثا بين يدي الملك، وقال: إن في السجن رجلاً يعبر الرؤيا، ﴿فأرسِلُونِ﴾ وفيه اختصار تقديره: فأرسلني أيها الملك إليه، فأرسله فأتى السجن / قال ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة . ١٨٣/ أ

فقال: ﴿يوسف﴾، يعني: يايوسف، ﴿أيّها الصِّدِّيق﴾، والصديق الكثير الصدق، ﴿أفْتِنا في سبعِ بقراتٍ سمانٍ يأكُلُهُنَّ سبعٌ عجافٌ وسبعِ سُنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخر يابساتٍ﴾، فإن الملك رأى هذه الرؤيا، ﴿لعلي أرجعُ إلى الناسِ﴾، أهل مصر، ﴿لعلَّهم يعلمُون﴾، تأويل الرؤيا. وقيل: لعلّهم يعلمون منزلتك في العلم .

فقال لهم يوسف معبراً ومعلماً: أمّا البقرات السمان والسنبلات الخضر: فسبع سنين مخاصيب، والبقرات العجاف والسنبلات [اليابسات][2]: فالسنون المجدبة، فذلك قوله تعالى إخباراً عن يوسف :

---

(١) في «ب»: واحدتها .

(٢) ساقط من « أ » .

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾

﴿**قال تزرعُون سبعَ سنينَ دَأَباً**﴾، هذا خبر بمعنى الأمر، يعني: ازرعُوا سبعَ سنين على عادتكم في الزراعة .

والدأب: العادة. وقيل: بجدٍّ واجتهاد .

وقرأ عاصم برواية حفص: ﴿**دَأَباً**﴾ بفتح الهمزة، وهما لغتان، يقال: دأبت في الأمر أدأب دَأْباً ودَأَباً إذا اجتهدت فيه. ﴿**فما حصدتُم فَذَرُوهُ في سُنْبُلِه**﴾، أمرهم بترك الحنطة في السنبلة لتكون أبقى على الزمان ولا تفسد، ﴿**إلّا قليلاً ممّا تأكلون**﴾، أي: مما تدرسون قليلاً للأكل، أمرهم بحفظ الأكثر والأكل بقدر الحاجة .

﴿**ثمّ يأتي من بعد ذَلك سبعٌ شِدَادٌ**﴾. سمى السنين المجدبة شداداً لشدّتها على الناس، ﴿**يأكُلْنَ**﴾، أي: يفنين ويُهلكن، ﴿**ما قدمتم لهنَّ**﴾، أي: يؤكل فيهن ما أعددتم[1] لهن من الطعام، أضاف الأكل إلى السنين على طريق التوسع ﴿**إلّا قليلاً ممّا تُحْصِنُون**﴾ تُحْرِزُونَ وتدخرون للبذر .

﴿**ثمّ يأتي منْ بعدِ ذلك عامٌ فيه يُغاثُ الناس**﴾، أي: يمطرون، من الغيث: وهو المطر. وقيل: ينقذون من قول العرب استغثت فلاناً فأغاثني، ﴿**وفيه يَعْصِرُون**﴾، قرأ حمزة والكسائي: ﴿**تعصرون**﴾، بالتاء، لأن الكلام كله على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء رداً إلى الناس، ومعناه: يعصرون العنب خمراً والزيتون زيتاً والسمسم دهناً. وأراد به كثرة النعيم والخير. وقال أبو عبيدة: يعصرون أي ينجون من الكروب والجدب، والعَصَر والعُصْرة: المنجاة والملجأ[2] .

﴿**وقالَ الملكُ ائتُوني بهِ**﴾، وذلك أن الساقي لما رجع إلى الملك وأخبره بما أفتاه[3] يوسف من تأويل رؤياه، وعرف الملك أن الذي قاله كائن، قال: ائتوني به .

---

(١) في «ب»: قدمتم .

(٢) قول أبي عبيدة هذا في كتابه «مجاز القرآن»: (١/٣١٣، ٣١٤) وقد ردَّه الطبري في التفسير: (١٦/١٣١، ١٣٢) وقال: «... وذلك تأويل يكفي من الشهادة على خطئه: خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين» .

(٣) في «ب»: أخبره .

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿**فلمّا جاءَه الرسولُ**﴾، وقال له: أجب الملك، أبى أن يخرج مع الرسول حتى تظهر براءته ثم، ﴿**قال**﴾، للرسول: ﴿**ارجِعْ إلى ربِّك**﴾، يعني: سيدك الملك، ﴿**فاسأَلْهُ ما بالُ النِّسوة اللاّتي قطّعْنَ أيديهنَّ**﴾، ولم يصرح بذكر امرأة العزيز أدباً واحتراماً .

قال النبي ﷺ: «لو لبثتُ في السجن طولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي»(١) .

﴿**إنّ ربّي بكيدِهنَّ عليم**﴾، أي: إن الله بصنيعهن عالم، وإنما أراد يوسف بذكرهن بعد طول المدة حتى لا ينظر إليه الملك بعين التهمة، ويصير إليه بعدَ زوال الشك عن أمره، فرجع الرسول إلى الملك من عند يوسف برسالته، فدعا الملك النسوةَ وامرأة العزيز .

﴿**قال**﴾، لهن، ﴿**ما خَطْبُكُنَّ**﴾، ما شأنكن وأمركن، ﴿**إذْ راودْتُنَّ يوسفَ عن نفسِه**﴾، خاطبهن والمراد امرأة العزيز، وقيل: إن امرأة العزيز راودته عن نفسه وسائر النسوة أَمَرْنَهُ بطاعتها فلذلك خاطبهن .

﴿**قُلْنَ حاشَ لِلَّه**﴾ معاذَ الله، ﴿**ما عَلِمْنا عليهِ من سُوءٍ**﴾، خيانة .

﴿**قالتِ امرأةُ العزيزِ الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ**﴾ ظهر وتبين. وقيل: إن النسوة أقبلن على امرأة العزيز فقررنها [فأقرت](٢)، وقيل: خافت أن يشهدن عليها فأقرت. ﴿**أنا راودتُه عن نفسِهِ وإنّه لَمِنَ الصَّادِقين**﴾، في قوله: هي راودتني عن نفسي، فلما سمع ذلك يوسف قال(٣) :

﴿**ذلك**﴾ أي: ذلك الذي فعلت من ردّي رسول الملك إليه، ﴿**ليعلم**﴾، العزيز، ﴿**أنّي لم أَخُنْهُ**﴾،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة يوسف، باب (فلما جاءه الرسول قال ارجع...): ٣٦٦/٨ .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) هذا القول عن يوسف حكاه ابن جرير وابن أبي حاتم، ولم يذكرا غيره (انظر: الطبري ١٦/١٤٠، ابن كثير: ٤٨٢/٢) .
«والأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام: أن ذلك من قول امرأة العزيز، تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة...» (انظر: ابن كثير: ٤٨٢/٢) .
وهذا التفسير ذكره الماوردي، وانتدب لنصره شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «هذا كله من كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك، ولا سمع كلامه ولا رآه. ولكن ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز: (ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب) أي: لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته» .
انظر: دقائق التفسير: (٢٧٣/٢)، تفسير المنار: (٣٢٣/١٢-٣٢٤) .

۞ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾

في زوجته، ﴿بالغيب﴾، أي: في حال غيبته، ﴿وأنّ الله لا يهدي كيدَ الخائنين﴾، قوله ذلك ليعلم من كلام يوسف اتصل بقول امرأة العزيز: أنا راودته عن نفسه، من غير تميز، لمعرفة السامعين[1] .

وقيل: فيه تقديم وتأخير: معناه: ارجع إلى ربِّك فاسأله ما بال النسوة اللّاتي قطّعن أيدِيَهنَّ إنّ ربّي بكيدهنّ عليمٌ، ذلك ليعلم أني لم أخنْه بالغيب[1] .

قيل: لما قال يوسف هذه المقالة، قال له جبريل: ولا حين هممت بها؟ فقال يوسف عند ذلك: وما أبرىء نفسي[2] .

قال السدي: إنما قالت له امرأة العزيز: ولا حين حللت سراويلك يايوسف؟ فقال يوسف[2] :

﴿وما أبرىء نفسي﴾، من الخطأ والزلل فأزكيها، ﴿إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسوءِ﴾، بالمعصية ﴿إلّا ما رَحِمَ ربّي﴾، أي: إلا من رحم ربي فعصمه، ﴿ما﴾ بمعنى من ـ كقوله تعالى: «فانكِحُوا ما طابَ لكم» (النساء ـ ٣) أي: مَنْ طاب لكم ـ وهم الملائكة، عصمهم الله عزّ وجلّ فلم يركّبْ فيهم الشهوة .

وقيل: «إلّا ما رحم ربي» إشارة إلى حالة العصمة عند رؤية البرهان .

﴿إنّ ربّي غفورٌ رحيم﴾، فلما تبين للملك عذر يوسف عليه السلام وعرف أمانته وعلمه :

﴿وقال الملك ائتوني بِهِ أستخلِصْهُ لنفسي﴾، أي: أجعله خالصاً لنفسي، ﴿فلمّا كلّمه﴾، فيه اختصار تقديره: فجاء الرسول يوسف فقال له: أجب الملك الآن .

رُوي أنه قام ودعا لأهل السجن فقال: اللهم عطِّف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعمِّ عليهم الأخبار، فهم أعلم الناس بالأخبار في كل بلد، فلما خرج من السجن كتب على باب السجن: هذا قبر الأحياء، وبيت الأحزان، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء. ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثياباً حساناً وقصد الملك[3] .

---

(١) انظر التعليق السابق .

(٢) انظر التعليق السابق، وراجع فيما سبق ص (٢٢٨) تعليق (٢) .

(٣) انظر: البحر المحيط: ٥/٣١٩. ومثل هذه الأخبار، والخبران التاليان مما لا يوقف على صحته، وساق المصنف ذلك بصيغة التمريض، ولا يتوقف فهم الآيات على شيء منها. والله أعلم .

قال وهب: فلما وقف بباب الملك قال: حسبي ربي من دنياي، وحسبي ربي من خلقه، عزّ جارُه، وجلّ ثناؤُه، ولا إله غيره. ثم دخل الدار فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شره وشر غيره. فلما نظر إليه الملك سلّم عليه يوسف بالعربية فقال: الملك ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمي إسماعيل، ثم دعا له بالعبرانية فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال هذا لسان آبائي، ولم يعرف الملك هذين اللسانين .

قال وهب: وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً فكلما تكلم بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان وزاد عليه بلسان العربية والعبرانية، فأعجب الملك [ما رأى منه][1] مع حداثة سنه، وكان يوسف يومئذ ابن ثلاثين سنة، فأجلسه و، ﴿**قالَ إنّك اليومَ لدينا مكينٌ**﴾، [المكانة في الجاه][2]، ﴿**أمينٌ**﴾، أي: صادق .

ورُوي أنّ الملك قال له إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهاً .

فقال يوسف: نعم أيها الملك، رأيتَ سبع بقرات سمان شهب غرٌّ حِسَانٍ، كشفَ لك عنهنَّ النيلُ، فطلعنَ عليك من شاطئه تشخب أخلافهن لبناً، فبينما أنت تنظر إليهن ويعجبك حُسنهنّ إذْ نضبَ النيلُ فغار ماؤه وبدا يبسه، فخرج من حمأته سبع بقراتٍ عجافٍ شُعثٍ غُبرٍ مُتقلّصات [البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف][3]، ولهن أنياب وأضراس وأكف كأكف الكلاب، وخراطيم كخراطيم السباع، فافترسن السمان افتراس السَّبُع، فأكلن لحومهن، ومزّقنَ جلودهنّ، وحطمنَ عظامهنّ، وتمششن مخهن،

١٨٣/ب فبينما أنت تنظر وتتعجب / إذ سبع سنابل خضر وسبع أخر سود في منبت واحد [عروقهن في الثرى والماء، فبينما أنت تقول في نفسك أنى هذا؟ خضر مثمرات وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد وأصولهنّ في الماء][4] إذْ هَبَّتْ ريحٌ فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهن النار، فاحترقْنَ فصرن سوداً فهذا ما رأيت، ثم انتبهتَ من نومك مذعوراً .

فقال الملك: والله ما شأن هذه الرؤيا ـ وإن كانت عجيبة ـ بأعجب مما سمعتُ منك، فما ترى في رؤياي أيها الصديق؟

فقال يوسف عليه السلام: أرى أن تجمع الطعام وتزرع زرعاً كثيراً في هذه السنين المخصبة، وتجعل الطعام في الخزائن بقصبه وسنبله ليكون القصب والسنبل عَلَفاً للدواب، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخُمسَ، فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر وَمَنْ حولها، ويأتيك الخلق من النواحي للميرة فيجتمع عندك من الكنوز مالم يجتمع لأحد قبلك .

---

(١) ساقط من « أ » .
(٢) في « أ »: أي: ذو مكانة وجاه .
(٣) جاءت هذه العبارة في «ب» هكذا: (متقلصات الضروع ليس لهن بطون ولا أخلاف) .
(٤) ساقط من « أ » .

﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾

فقال الملك: ومن لي بهذا ومن يجمعه ويبيعه ويكفيني الشغل فيه؟ .

فـ ﴿قال﴾، يوسف، ﴿اجْعَلْني على خزائنِ الأرض﴾، الخزائن: جمع خزانة، وأراد خزائن الطعام والأموال، والأرض: أرض مصر، أي: خزائن أرضك .

وقال الربيع بن أنس: على خراج مصر ودخله .

﴿إني حفيظٌ عليمٌ﴾، أي: [حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها. وقيل: حفيظ عليم][1]: كاتب وحاسب .

وقيل: حفيظ لما استودعتني، عليم بما ولّيتني .

وقيل: حفيظ للحساب[2] عليم بالألسن أعلم لغة كل من يأتيني .

وقال الكلبي: حفيظ بتقديره في السنين الخصبة [في الأرض الجدبة][3] عليم بوقت الجوع حين يقع، فقال له الملك. ومن أحق به منك؟! فولّاه ذلك وقال له: إنّك اليوم لدينا مكين، ذو مكانة ومنزلة، أمين على الخزائن .

أخبرنا أبو سعيد الشريحي، أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أخبرني أبو عبدالله الحسين بن محمد الفنجوي، حدثنا مخلد بن جعفر البقرجي، حدثنا الحسن بن علوية، حدثنا إسماعيل بن عيسى، حدثنا إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكنه أخره لذلك سنة فأقام في بيته سنة مع الملك»[4] .

وبإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما انصرمت السنة من اليوم الذي سأل الإمارة دعاه الملك فتوجه [وقلده بسيفه][5] ووضع له سريراً من ذهب مكلّل بالدر والياقوت، وضرب عليه حلة من إستبرق، وطول السرير ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشاً وستون مقرمة، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوّجاً، ولونه كالثلج، ووجهه كالقمر، يرى الناظر وجهه في صفاء لون وجهه، فانطلق

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) في «ب»: حساب .

(٣) ساقط من « أ » .

(٤) حديث موضوع. قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» ص (٩٠): «أخرجه الثعلبي عن ابن عباس من رواية إسحاق بن بشر، عن جويبر، عن الضحاك عنه. وهذا إسناد ساقط» .
قال الألباني: «ومن طريق الثعالبي رواه الواحدي في تفسيره. (سلسلة الأحاديث الضعيفة) (١/٣٣٥) .

(٥) في «ب»: ورداه بسيفه .

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ٥٧﴾

حتى جلس على السرير، ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته وفوّض إليه أمر مصر، وعزل قطفير عمّا كان عليه وجعل يوسف مكانه قاله ابن إسحاق[١].

وقال ابن زيد: وكان لملك مصر خزائن كثيرة فسلم سُلطانه كله إليه وجعل أمره وقضاءه نافذاً، قالوا: ثم إن قطفير هلك في تلك الليالي فزوج الملكُ يوسفَ راعيلَ امرأة قطفير، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ فقالت: أيها الصديق لا تلمني، فإني كنت امرأة حسناء ناعمة كما ترى في ملك ودنيا، وكان صاحبي لا يأتي النساء، وكنتَ كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له ولدين: أفراثيم بن يوسف، وميشا بن يوسف[١].

واستوثق ليوسف ملك مصر، أي: اجتمع، فأقام فيهم العدل، وأحبه الرجال والنساء، فذلك قوله تعالى:

﴿**وكذلك مَكّنّا ليوسفَ في الأرض**﴾، يعني: أرض مصر ملكناه[٢]، ﴿**يتبوّأ منها**﴾، أي: ينزل ﴿**حيثُ يشاءُ**﴾ ويصنع فيها ما يشاء.

قرأ ابن كثير: ﴿**نشاء**﴾ بالنون رداً على قوله: ﴿**مكّنّا**﴾ وقرأ الآخرون بالياء رداً على قوله ﴿**يتبوّأ**﴾.

﴿**نصيب برحمتنا مَنْ نشاء**﴾، أي: بنعمتنا، ﴿**ولا نُضيعُ أجرَ المحسنين**﴾، قال ابن عباس ووهب: يعني الصابرين.

قال مجاهد وغيره: فلم يزل يوسف عليه السلام يدعو الملك إلى الإسلام ويتلطف له حتى أسلم الملك وكثير من الناس. فهذا في الدنيا.

﴿**ولأجرُ الآخرة**﴾، ثواب الآخرة، ﴿**خيرٌ للذينَ آمنُوا وكانوا يتّقُون**﴾.

فلما أطمأن يوسف في ملكه دبَّر في جمع الطعام بأحسن التدبير، وبنى الحصون والبيوت الكثيرة، وجمع فيها الطعام للسنين المجدبة، وأنفق بالمعروف حتى خلت السنون المخصبة ودخلت السنون المجدبة بهول لم يعهد الناس بمثله.

---

(١) ساق ابن عطية هذه الرواية عن ابن إسحاق ثم قال: وروي في نحو هذا من القصص مالا يوقف على صحته، ويطول الكلام بِسَوْقه.
انظر: المحرر الوجيز: (٨/٨).

(٢) في «أ»: مكنّاه.

ورُوي أنه كان قد دبر في طعام الملك وحاشيته كل يوم مرة واحدة نصف النهار(١)، فلما دخلت سنة القحط كان أول من أخذه الجوع هو الملك في نصف الليل فنادى يايوسف الجوعَ الجوعَ! .

فقال يوسف: هذا أوان القحط .

ففي السنة الأولى من سنيّ الجدب هلك كل شيء أعدُّوه في السنين المخصبة، فجعل أهل مصر يبتاعون من يوسف الطعام، فباعهم أول سنة بالنقود حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضة، وباعهم السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس منها شيء، وباعهم السنة الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها أجمع، وباعهم السنة الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبق في يد أحد عبد ولا أمة، وباعهم السنة الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى احتوى عليها، وباعهم السنة السادسة بأولادهم حتى استرقهم، وباعهم السنة السابعة برقابهم [حتى استرقهم](٢)، ولم يبق بمصر حرّ ولا حرة إلا صار عبداً له .

فقال الناس: ما رأينا يوماً كاليوم ملكاً أجل ولا أعظم من هذا .

ثم قال يوسف للملك: كيف رأيت صنع ربي فيما خوَّلني فما ترى في ذلك؟

فقال له الملك: الرأي رأيك ونحن لك تبع .

قال: فإني أشهد الله وأشهدك أني أعتقت أهل مصر عن آخرهم، ورددْتُ عليهم أملاكهم(٣) .

ورُوي أن يوسف كان لايشبع من طعام في تلك الأيام، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأرض؟ .

فقال: أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع، وأمر يوسف عليه السلام طباخي الملك أن يجعلوا غداءه نصف النهار، وأراد بذلك أن يذوق الملك طعم الجوع فلا ينسى الجائعين، فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار .

قال: وقصد الناسُ مصرَ من كل أوبٍ يمتارون الطعام فجعل يوسف لا يمكن أحداً منهم ـ وإن كان عظيماً ـ من أكثر من حمل بعير تقسيطاً بين الناس، وتزاحم الناس عليه وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب الناس في سائر البلاد من القحط والشدة، ونزل بيعقوب ما نزل بالناس، فأرسل بنيه إلى مصر للميرة، وأمسك بنيامين أخا يوسف لأمه، فذلك قوله تعالى :

---

(١) حكى الثعلبي أن يوسف عليه السلام كان لا يشبع في تلك السنين حتى لا ينسى الجيعان، وأنه إنما كان يأكل أكلة واحدة نصف النهار. قال: فمن ثم اقتدى به الملوك في ذلك .
انظر: البداية والنهاية ٢١٩/١ .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (٤٨٤/٢): «وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال...»، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدّق ولا تكذب» .

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾

﴿وجاءَ إخوةُ يوسف﴾ وكانوا عشرة، وكان منزلهم بالعرنات من أرض فلسطين، بغور الشام، وكانوا أهل بادية وإبل وشاة، فدعاهم يعقوب عليه السلام وقال: يابني بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً يبيع
١٨٤/ أ الطعام، فتجهزوا لِتشْتَرُوا / منه الطعام، فأرسلهم فقدمُوا مصرَ، ﴿فدخلُوا عليه﴾، على يوسف، ﴿فعرَفَهم﴾، يوسف عليه السلام .

قال ابن عباس ومجاهد: عرفهم بأول ما نظر إليهم .

وقال الحسن: لم يعرفهم حتى تعرفوا إليه .

﴿وهم له مُنكِرُون﴾، أي: لم يعرفوه. قال ابن عباس: وكان بين أن قذفوه في البئر وبين أن دخلوا عليه أربعون سنة، فلذلك أنكروه .

وقال عطاء: إنما لم يعرفوه لأنه كان على سرير الملك وعلى رأسه تاج الملك .

وقيل: لأنه كان بِزَيِّ ملوك مصر، عليه ثياب من حرير وفي عنقه طوق من ذهب، فلما نظر إليهم يوسف وكلموه بالعبرانية، قال لهم: أخبروني من أنتم وما أمركم فإني أنكرت شأنكم؟ قالوا قوم من أرض الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار .

فقال: لعلكم جئتم تنظرون عورة بلادي .

قالوا: لا والله ما نحن بجواسيس، إنّما نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صديق يقال له يعقوب(١) نبي من أنبياء الله .

قال: وكم أنتم؟ قالوا: كنا اثنى عشر، فذهب أخ لنا معنا إلى البرية، فهلك فيها، وكان أحبنا إلى أبينا .

قال: فكم أنتم هاهنا؟ .

قالوا: عشرة .

قال: وأين الآخر؟

قالوا: عند أبينا، لأنه أخو الذي هلك لأمه(٢)، فأبونا يتسلّى به .

قال: فمن يعلم أن الذي تقولون حق؟

قالوا: أيها الملك إنا ببلاد لا يعرفنا أحد [من أهلها](٣).

---

(١) في «أ»: صديق .
(٢) في «ب»: من أمه .
(٣) ساقط من «ب» .

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

فقال يوسف: فاتوني بأخيكم الذي من أبيكم إن كنتم صادقين، وأنا أرضى بذلك.

قالوا: فإن أبانا يحزن على فراقه وسنراود عنه أباه.

قال: فَدَعُوا بعضكم عندي رهينة حتى تأتوني بأخيكم، فاقترعوا بينهم، فأصابت القرعة شمعون، وكان أحسنهم رأياً في يوسف، فخلّفوه عنده. فذلك قوله عزَّ وجلّ:

﴿ولمّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِم﴾، أي: حمَّل لكل واحد بعيراً بعدتهم، **﴿قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم﴾**، يعني بنيامين، **﴿ألَا تَرَوْنَ أني أُوفي الكيلَ﴾**. أي: أُتمه ولا أبخس الناس شيئاً، فأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم، وأكرم منزلتكم وأحسن إليكم، **﴿وأنا خيرُ المُنْزِلِين﴾**، قال مجاهد: أي خير المضيفين. وكان قد أحسن ضيافتهم.

﴿فإنْ لم تأتوني به فلَا كيلَ لكم عندي﴾، أي: ليس لكم عندي طعام أكيله لكم **﴿ولا تقربون﴾**، أي: لا تقربوا داري [وبلادي][1] بعد ذلك وهو جزم على النهي.

﴿قالوا سَنُرَاوِد عنه أباه﴾، أي: نطلبه ونسأله أن يرسله معنا، **﴿وإنّا لَفَاعِلُون﴾**، ما أمرتنا به.

﴿وقالَ لفتيانِهِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: **﴿لفتيانه﴾** بالألف والنون، وقرأ الباقون:[2] **﴿لفتيته﴾** بالتاء من غير ألف، يريد لغلمانه، وهما لغتان مثل الصبيان والصبية، **﴿اجْعَلُوا بضاعتَهم﴾** ثمن طعامهم وكانت دراهم.

وقال الضحاك عن ابن عباس: كانت النعال والأدم.

وقيل: كانت ثمانية جرب من سويق المقل. والأول أصحّ.

﴿في رِحَالِهِمْ﴾، أوعيتهم، وهي جمع رحل، **﴿لعلهم يعرِفُونَها إذا انقلبُوا﴾**، انصرفوا، **﴿إلى أهلِهِمْ لعلّهم يَرْجِعُون﴾**.

واختلفوا في السبب الذي فعله يوسف من أجله، قيل: أراد أن يريهم كرمه في رد البضاعة وتقديم

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «أ»: الآخرون.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

الضمان في البر والإحسان، ليكون أدعى لهم إلى العود، لعلّهم يعرفونها، أي: كرامتهم علينا.

وقيل: رأى لؤماً أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع حاجتهم إليه، فردّه عليهم من حيث لا يعلمون تكرُّماً.

وقال الكلبي: تخوّف أن لا يكون عند أبيه من الورق ما يرجعون به مرة أخرى.

وقيل: فعل ذلك لأنه علم أن ديانتهم تحملهم على ردّ البضاعة نفياً للغلط ولا يستحلون إمساكها.

﴿فلمّا رَجَعُوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا﴾، إنا قدمنا على خيرِ رجلٍ، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من أولاد يعقوب ما أكرمنا كرامته، فقال لهم يعقوب: إذا أتيتم ملك مصر فأقرؤوه مني السلام، وقولوا له: إنّ أبانا يصلي عليك ويدعو لك بما أوليتنا، ثم قال: أين شمعون؟ قالوا: ارتهنه ملك مصر، وأخبروه بالقصة، فقال لهم: ولِمَ أخبرتموه؟ قالوا: إنه أخذنا وقال أنتم جواسيس ـ حيث كلمناه بلسان العبرانية ـ وقصُّوا عليه القصة، وقالوا يا أبانا:

﴿مُنِعَ مِنّا الكيلُ﴾، [قال الحسن: معناه يمنع منا الكيل][(١)] إن لم تحمل أخانا معنا.

وقيل: معناه أعطى باسم كل واحد حملاً ومنع منا الكيل لبنيامين، والمراد بالكيل: الطعام، لأنه يكال.

﴿فأرسِلْ مَعَنا أخانا﴾، بنيامين، ﴿نكْتَلْ﴾ قرأ حمزة والكسائي: (يكتل) بالياء، يعني: يكْتَل لنفسه كما نحن نكتال، [وقرأ الآخرون: (نكتل) بالنون، يعني: نكتل نحن][(٢)] وهو الطعام. وقيل: نكتل له، ﴿وإنّا له لَحافِظُون﴾.

﴿قالَ هلْ آمَنُكُمْ عليهِ إلا كما أمِنْتُكُمْ على أخيه﴾، يوسف ﴿مِنْ قبلُ﴾، أي: كيف آمنكم عليه وقد فعلتم بيوسف ما فعلتم؟ ﴿فاللّهُ خيرٌ حافظاً﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص: ﴿حافظاً﴾ بالألف على التفسير، كما يقال هو خير رجلاً، وقرأ الآخرون: (حفظاً) بغير ألف على المصدر، يعني: خيركم حفظاً، يقول: حفظه خير من حفظكم. ﴿وهو أرحمُ الراحمين﴾.

(١) ساقط من «ب».

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

﴿**ولمّا فَتَحُوا متاعَهُم**﴾، الذي حملوه من مصر، ﴿**وجدوا بِضَاعَتهم**﴾، ثمن الطعام، ﴿**رُدَّتْ إليهمْ قالُوا يا أبانَا ما نَبْغِي**﴾، أي: ماذا نبغي وأي شيء نطلب؟ وذلك أنهم ذكروا ليعقوب عليه السلام إحسان الملك إليهم وحثّوه على إرسال بنيامين معهم، فلما فتحوا المتاع ووجدوا البضاعة، ﴿**هذهِ بضاعَتُنَا رُدّتْ إلينا**﴾، أيُّ شيء نطلب بالكلام، فهذا هو العيان من الإحسان والإكرام، أَوْفَى لنا الكيلَ وردَّ علينا الثمن. أرادوا تطييب نفس أبيهم، ﴿**ونَميرُ أهلَنَا**﴾، أي: نشتري لهم الطعام فنحمله إليهم. يقال: مار أهله يَمِيْر مَيْراً: إذا حمل إليهم الطعام من بلد [إلى بلد آخر][(1)]. ومثله: امتار يمتار امتياراً. ﴿**ونحفظُ أخانَا**﴾ بنيامين، أي: مما تخاف عليه. ﴿**ونزدادُ**﴾، على أحمالنا، ﴿**كيلَ بعيرٍ**﴾، أي: حمل بعير يكال لنا من أجله، لأنه كان يعطي باسم كل رجل حمل بعير، ﴿**ذلك كيلٌ يسيرٌ**﴾، [أي: ما حملناه قليل لا يكفينا وأهلنا. وقيل: معناه نزداد كيل بعير ذلك كيل يسير][(2)] لا مؤنة فيه ولا مشقة.

وقال مجاهد: البعير هاهنا هو الحمار. كيل بعير، أي: حمل حمار، وهي لغة، يقال للحمار: بعير. وهم كانوا أصحاب حُمُرٍ والأول أصح أنه البعير المعروف.

﴿**قال**﴾ لهم يعقوب، ﴿**لنْ أرْسِلَهُ معكم حتى تُؤْتُونِ**﴾، تعطوني ﴿**موثقاً**﴾، ميثاقاً وعهداً، ﴿**من اللهِ**﴾، والعهد الموثّق: المؤكّد بالقسم. وقيل: هو المؤكد [بإشهاد الله][(3)] على نفسه ﴿**لتأتُنّني بهِ**﴾، وأدخل اللام فيه لأن معنى الكلام اليمين، ﴿**إلّا أنْ يُحاطَ بكمْ**﴾، قال مجاهد إلّا أن تهلكوا جميعاً.

وقال قتادة: إلّا أن تغلبوا حتى لا تطيقوا ذلك.

وفي القصة: أن الأخوة ضاق الأمر عليهم وجهدوا أشد الجهد، فلم يجد يعقوب بداً من إرسال بنيامين معهم.

﴿**فلمّا آتَوْهُ مَوْثِقَهم**﴾، / أعطوه عهودهم[(4)]، ﴿**قال**﴾، يعني: يعقوب ﴿**الله على ما نقولُ** ١٨٤/ب

(١) ساقط من «ب».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: بالشهادة.

(٤) في «ب»: عهدهم.

وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

وكيلٌ﴾، شاهد. وقيل: حافظ. قال كعب: لما قال يعقوب فالله خير حافظاً، قال الله عزّ وجلّ: وعزتي لأَرُدَّنَّ عليك كليهما بعدما توكّلتَ عليّ .

﴿وقالَ﴾، لهم يعقوب لما أرادوا الخروج من عنده، **﴿يابَنيَّ لا تدخلُوا من بابٍ واحِدٍ وادْخُلوا من أبوابٍ مُتفرِّقةٍ﴾**، وذلك أنه خاف عليهم العين؛ لأنهم كانوا أعطوا جمالاً وقوّةً وامتداد قامةٍ، وكانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولهم لئلا يصابوا بالعين، فإن العين حق(١)، وجاء في الأثر: «إنّ العينَ تُدخلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القدرَ»(٢) .

وعن إبراهيم النخعي: أنه قال ذلك لأنه كان يرجو أن يروا يوسف في التفرق. والأول أصح .

ثم قال: **﴿وما أغني عنكم مِّنَ الله مِنْ شيءٍ﴾**، معناه: إن كان الله قضى فيكم قضاء فيصيبكم مجتمعين كنتم أو متفرقين، فإن المقدور كائن والحذر لا ينفع من القدر، **﴿إنِ الحُكمُ﴾**، ما الحكم، **﴿إلّا للهِ﴾**، هذا تفويض يعقوب أموره إلى الله، **﴿عليهِ توكّلتُ﴾**، اعتمدتُ، **﴿وعليهِ فليتوكلِ المتوكّلونَ﴾** .

﴿ولمّا دخلُوا من حيثُ أمرهم أبوهم﴾ أي: من الأبواب المتفرقة. وقيل: كانت المدينة مدينة الفرماء ولها أربعة أبواب، فدخلوها من أبوابها، **﴿ما كانَ يُغني﴾**، يدفع **﴿عنهم منَ اللهِ من شيءٍ﴾**، صَدَقَ اللَّهُ تعالى يعقوبَ فيما قال، **﴿إلّا حاجةً﴾**، مراداً، **﴿في نفس يعقوبَ قضَاهَا﴾**، أشفق عليهم إشفاق الآباء على أبنائهم وجرى الأمر عليه، **﴿وإنّه﴾**، يعني: يعقوب عليه السلام، **﴿لَذو علمٍ﴾**، يعني: كان يعمل ما يعمل عن علم لا عن جهل، **﴿لِمَا عَلّمناهُ﴾**، أي: لتعليمنا إيّاه. وقيل: إنه لعامل بما علم .

---

(١) انظر تفصيلاً في تفسير القرطبي: ٩/٢٢٦-٢٢٨ .

(٢) حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/٩٠) عن جابر رضي الله عنه، وابن عدي في الكامل عن أبي ذر: ٦/٢٤٠٣، وابن حبان في المجروحين: ٢/١٠٧ وقد ضعفه السخاوي في المقاصد الحسنة وقد أشار إليه الذهبي فقال: إنه منكر وحسنه الشيخ الألباني في الصحيحة ٣/٢٥٠، وانظر: كشف الخفاء: ٢/٩٩-١٠٠ .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

قال سفيان: من لا يعمل بما يعلم لا يكون عالماً. وقيل: وإنه لذو حفظ لِمَا علّمناه .

﴿**ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمُون**﴾، ما يعلم يعقوب لأنهم لم يسلكوا طريق إصابة العلم. وقال ابن عباس: لا يعلم المشركون ما ألهم الله أولياءه .

قوله عزّ وجلّ : ﴿**ولمّا دخلُوا على يوسفَ**﴾، قالوا هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به قد جئناك به، فقال: أحسنتم وأصبتم، وستجدون جزاء ذلك عندي، ثم أنزلهم وأكرمهم(١)، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحيداً، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لأجلسني معه، فقال يوسف: لقد بقي أخوكم هذا وحيداً، فأجلسه معه على مائدته، فجعل يُواكله فلمّا كان الليل أمر لهم [بمثل ذلك](٢) وقال: لينم كل أخوين منكم على مثال، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: هذا ينام معي على فراشي، فنام معه، فجعل يوسف يضمه إليه ويشم ريحه حتى أصبح، وجعل روبين يقول: ما رأينا مثل هذا، فلما أصبح، قال لهم إني أرى هذا الرجل ليس معه ثان فسأضمه إليّ فيكون منزله معي، ثم أنزلهم منزلاً وأجرى عليهم الطعام، وأنزل أخاه لأمه معه، فذلك قوله تعالى :

﴿**آوى إليه أخاه**﴾، أي: ضم إليه أخاه فلما خلا به قال: ما اسمك؟ قال: بنيامين، قال: وما بنيامين؟ قال: ابن المثكل، وذلك أنه لما ولد هلكت أمه. قال: وما اسم أمك؟ قال: راحيل بنت لاوى، فقال: فهل لك من ولد؟ قال: نعم عشرة بنين، [قال: فهل لك من أخ لأمك، قال: كان لي أخ فهلك، قال يوسف](٣): أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك، فقال بنيامين: ومن يجد أخاً مثلك أيها الملك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف عند ذلك وقام إليه وعانقه(٤)، وقال له: ﴿**قال إنّي أنا أخوك فلا تَبْتَئِسْ**﴾، أي: لا تحزن، ﴿**بما كانُوا يعملون**﴾، بشيء فعلوه بنا فيما مضى، فإن الله تعالى قد أحسن إلينا، ولا تعلِّمْهم شيئاً مما أعلمتك، ثم أوفى يوسف لاخوته الكيل، وحمل لهم بعيراً بعيراً، ولبنيامين بعيراً باسمه، ثم أمر بسقاية الملك فجعلت في رحل بنيامين .

---

(١) في «ب» فأكرم مثواهم .

(٢) في «ب»: بمُثُلٍ .
والمُثُل هي: الفُرُش، واحدها مثال .

(٣) ما بين القوسين من المطبوع، وهي زيادة تناسب السياق .

(٤) هذه التفصيلات في لقاء يوسف لأخيه أخرجها الطبري في التاريخ: ٣٥٢/١ ولم يقم عليها دليل، وظاهر الآيات أنه اختلى بأخيه وأطلعه على شأنه وما جرى له وعرفه أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً .
انظر: ابن كثير: ٤٨٦/٢ .

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ
إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ٧٠ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ
ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ٧٢﴾

قال السدي: جعلت السقاية في رحل أخيه، والأخ لا يشعر.

وقال كعب: لما قال له يوسف إني أنا أخوك، قال بنيامين: أنا لا أفارقك، فقال له يوسف: قد علمت اغتمام والدي بي وإذا حبستك ازداد غمه ولا يمكنني هذا إلا بعد أن أشهرك بأمر فظيع وأنسبك إلى مالا يحمد[1]، قال: لا أبالي، فافعل ما بدا لك، فإني لا أفارقكَ، قال: فإني أدسُّ صاعي في رحلك ثم أنادي عليكم بالسرقة، ليهيأ لي ردّك بعد تسريحك. قال: فافعل فذلك قوله تعالى:

﴿فلمّا جهّزهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ في رحلِ أخيه﴾، وهي المشربة التي كان الملك يشرب منها.

قال ابن عباس: كانت من زبرجد.

وقال ابن إسحاق: كانت من فضة. وقيل: من ذهب، وقال عكرمة: كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر، جعلها يوسف مكيالاً لئلا يكال بغيرها، وكان يشرب منها.

والسقاية والصواع واحد، وجعلت في وعاء طعام بنيامين، ثم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا وذهبوا منزلاً.

وقيل: حتى خرجوا من العمارة، ثم بعث خلفهم مَن استوقفهم وحبسهم.

﴿ثم أذن مُؤَذِّنٌ﴾، نادى منادٍ، ﴿أيتها العيرُ﴾، وهي القافلة التي فيها الأحمال. قال مجاهد: كانت العير حميراً. وقال الفراء: كانوا أصحاب إبل. ﴿إنّكم لَسَارِقُون﴾، قفوا. قيل: قالوه من غير أمر يوسف. وقيل: قالوه بأمره، وكان هفوة منه. وقيل: قالوه على تأويل أنهم سرقوا يوسف من أبيه، فلما انتهى إليهم الرسول، قال لهم: ألم نكرم ضيافتكم ونحسن منزلتكم ونوفكم كيلكم ونفعل بكم مالم نفعل بغيركم؟ قالوا: بلى، وما ذاك؟ قالوا: سقاية الملك فقدناها، ولا نَتّهِمُ عليها غيركم. فذلك قوله عز وجل:

﴿قالوا وأقبلُوا عليهم﴾، عطفوا على المؤذن وأصحابه، ﴿ماذا تَفْقِدُون﴾، ما الذي ضلّ عنكم. والفقدان: ضدّ الوجد.

﴿قالوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الملكِ ولمنْ جاء به حمْلُ بعيرٍ﴾، من الطعام، ﴿وأنا بِهِ زعيمٌ﴾، كفيل، يقوله المؤذن.

---

(١) في «ب»: يحمل.

قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ
فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا
مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿قالوا﴾، يعني: إخوة يوسف، ﴿تاللّه﴾ أي: والله، وخصت هذه الكلمة بأن أُبدلت الواو فيها بالتاء في اليمين دون سائر أسماء الله تعالى. ﴿**لقد عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ في الأرض**﴾، لنسرق في أرض مصر .

فإن قيل: كيف قالوا لقد علمتم؟ ومن أين علموا ذلك؟ .

قيل: قالوا لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، فإنا منذ قطعنا هذا الطريق لم نَرْزأ أحداً شيئاً فاسألوا عنّا من مررنا به، هل ضررنا أحداً .

وقيل: لأنهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم، قالوا: فلو كنا سارقين ما رددناها .

وقيل: قالوا ذلك لأنهم كانوا معروفين بأنهم لا يتناولون ما ليس لهم، وكانوا إذا دخلوا مصر كمموا أفواه دوابهم لكيلا تتناول شيئاً من حروث الناس .

﴿**وما كنّا سارقين**﴾ .

﴿**قالوا**﴾، يعني: المنادي وأصحابه ﴿**فما جزاؤُهُ**﴾، أي: جزاء السارق، ﴿**إنْ كنتم كاذبين**﴾، في قولكم «وما كنا سارقين» .

﴿**قالوا**﴾، [يعني: إخوة يوسف][1]، ﴿**جزاؤُه مَنْ وُجِدَ في رحلِه فهو جزاؤُه**﴾، أي: فالسارق جزاؤه أن يسلَّم السارق بسرقته إلى المسروق منه فيسترقه سنة، وكان ذلك سُنَّة آل يعقوب في حكم السارق، وكان حكم ملك مصر أن يضرب السارق / ويغرم ضعفي قيمة المسروق، فأراد يوسف أن يحبس ١٨٥/ أ
أخاه عنده، فرد الحكم إليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم .

﴿**وكذلك نجزي الظالمين**﴾، الفاعلين ما ليس لهم فعله من سرقة مال الغير .

فقال الرسول عند ذلك: لابدّ من تفتيش أمتعتكم .

فأخذ في تفتيشها. ورُوي أنه ردّهم إلى يوسف فأمر بتفتيش أوعيتهم بين يديه .

﴿**فبدأ بأوعيتهم**﴾، لإزالة التهمة، ﴿**قبلَ وِعَاءِ أخيه**﴾، فكان يفتش أوعيتهم واحداً واحداً. قال

---

(١) زيادة من «ب» .

قتادة: ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر في وعاء إلّا استغفر الله تأثماً مما قذفهم به حتى إذا لم يبق إلّا رحل بنيامين، قال: ما أظن هذا أخذه، فقال إخوته: والله لا نترك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك ولأنفسنا، فلما فتحوا متاعه استخرجوه منه. فذلك قوله تعالى :

﴿ثم استخرجَها مِنْ وِعاءِ أخيه﴾، وإنما أنث الكناية في قوله «ثم استخرجها» والصُّوَاع مذكر، بدليل قوله: «ولمن جاء به حمل بعير»؛ لأنه ردّ الكناية هاهنا إلى السقاية .

وقيل: الصواع يذكر ويؤنث .

فلما أخرج الصواع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا على بنيامين وقالوا: ما الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا يابني راحيل؟ ما يزال لنا منكم البلاء، متى أخذت هذا الصواع؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل لا يزال لهم منكم بلاء ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، فأخذوا بنيامين رقيقاً[(١)] .

وقيل: إن ذلك الرجل أخذ برقبته وردّه إلى يوسف كما يرد[(٢)] السراق .

﴿كذلِكَ كِدْنا ليوسفَ﴾، والكيد هاهنا جزاء الكيد، يعني: كما فعلوا في الابتداء بيوسف من الكيد فعلنا بهم. وقد قال يعقوب عليه السلام ليوسف: «فيكيدُوا لكَ كيداً»، فكدنا ليوسف في أمرهم .

والكيد من الخلق: الحيلة، ومن الله تعالى التدبير بالحق .

وقيل: كدنا: ألهمنا. وقيل: دبرنا. وقيل: أردنا .

ومعناه: صنعنا ليوسف حتى ضم أخاه إلى نفسه، وحال بينه وبين إخوته .

﴿ما كان لِيَأْخُذَ أخاه﴾ فيضمه إلى نفسه، ﴿في دينِ الملكِ﴾، أي: في حكمه. قاله قتادة. وقال ابن عباس: في سلطانه. ﴿إلّا أن يشاءَ الله﴾، يعني: إن يوسف لم يكن يتمكن من حبس أخيه في حكم الملك لولا ما كِدْنَا له بلطفنا حتى وجد السبيل إلى ذلك، وهو ما أجرى على ألسنة الإخوة أن جزاء السارق الاسترقاق، فحصل مراد يوسف بمشيئة الله تعالى .

﴿نرفعُ درجاتٍ منْ نشاءُ﴾، بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته .

وقرأ يعقوب: ﴿يرفع﴾ و﴿يشاء﴾ بالياء فيهما [وإضّافة درجات إلى ﴿من﴾ في هذه السورة. والوجه أن الفعل فيهما مسند إلى الله تعالى، وقد تقدم ذكره في قوله: ﴿إلّا أنْ يشاءَ اللَّهُ﴾ أي: يرفع الله درجات من يشاء. وقرأ الباقون بالنون فيهما، إلّا أن الكوفيين قرؤوا: ﴿درجات﴾ بالتنوين، ومَنْ سِواهم بالإضافة، أي: نرفع به نحن، والواقع أيضاً هو الله تعالى][(٣)] .

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٢٠٠، تاريخ الطبري: ١/٣٥٥ .

(٢) في «أ»: يرقّ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

﴿وفوقَ كلِّ ذِي علمٍ عليمٌ﴾. قال ابن عباس: فوق كل عالم عالم إلى أن ينتهي العلم إلى الله تعالى. فالله تعالى فوق كل عالم.

﴿قالُوا إنْ يَسْرِقْ فقدْ سَرَقَ أخٌ له من قبلُ﴾، يريدون أخاً له من أمه، يعني: يوسف.

واختلفوا في السرقة التي وصفوا بها يوسف عليه السلام، فقال سعيد بن جبير وقتادة: كان لجده، أبي أمه، صنم يعبده، فأخذه سرّاً، أو كسره وألقاه في الطريق لئلا يعبد[(١)].

وقال مجاهد: إن يوسف جاءه سائل يوماً، فأخذ بيضة من البيت فناولها للسائل.

وقال سفيان بن عيينة: أخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فأعطاها سائلاً.

وقال وهب: كان يخبأ الطعام من المائدة للفقراء[(٢)].

وذكر محمد بن إسحاق: أن يوسف كان عند عمته ابنة إسحاق، بعد موت أمه راحيل، فحضنته عمته وأحبته حباً شديداً، فلما ترعرع وقعت محبة يعقوب عليه، فأتاها وقال: يا أختاه سلمي إليّ يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة. قالت: لا والله، فقال: والله ما أنا بتاركه، فقالت: دعه عندي أياماً أنظر إليه لعلّ ذلك يسليني عنه، ففعل ذلك، فعمدت إلى منطقة لإسحاق كانوا يتوارثونها بالكبر، فكانت عندها لأنها كانت أكبر ولد إسحاق، فحزمت المنطقة على يوسف تحت ثيابه وهو صغير، ثم قالت: لقد فقدت منطقة إسحاق اكشفوا أهل البيت فكشفوا فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لَسَلَمٌ لي، فقال يعقوب: إن كان فعل ذلك فهو سَلَمٌ لك[(٣)]، فأمسكتهُ حتى ماتت، فذلك الذي قال إخوة يوسف: ﴿إنْ يَسْرِقْ فقدْ سَرَقَ أخٌ له من قبلُ﴾[(٤)].

﴿فأسرّها﴾، أضمرها ﴿يوسفُ في نفسه ولم يبدِهَا لهم﴾، وإنما أتت الكناية لأنه عنى بها الكلمة، وهي قوله: ﴿قال أنتم شرٌّ مكاناً﴾، [ذكرها سراً في نفسه ولم يصرح بها، يريد أنتم شر مكاناً][(٥)]

---

(١) أخرجه عنهما ابن جرير في التفسير: ١٦/١٩٥، وانظر: الدر المنثور: ٤/٥٦٤.

(٢) انظر: الدر المنثور: ٤/٥٦٤.

(٣) السَّلَم (بفتحتين): انقياد المذعن المستخذي، كالأسير الذي لا يمتنع ممن أمره، يقال: «أخذه سلماً» إذا أسره من غير حرب، فجاء به منقاداً لا يمتنع.
انظر: تعليق محمود شاكر على الطبري: ١٦/١٩٦.

(٤) أخرجه الطبري: ١٦/١٩٦-١٩٧، وعزاه السيوطي لابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم. (الدر المنثور: ٤/٥٦٣).
هذا، ولم يرد نص ثابت عن النبي ﷺ في تعيين المراد بالسرقة التي وصفوه بها، والله أعلم بالذي كان.

(٥) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

أي: منزلة عند الله ممن رميتموه بالسرقة في صنيعكم بيوسف، لأنه لم يكن من يوسف سرقة حقيقية، وخيانتكم[1] حقيقةٌ، ﴿**والله أعلم بما تصفون**﴾، تقولون .

﴿**قالوا يا أيُّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً**﴾. وفي القصة أنهم غضبوا غضباً شديداً لهذه الحالة، وكان بنو يعقوب إذا غضبوا لم يطاقوا، وكان روبيل إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وإذا صاح ألقت كل امرأة حامل سمعت صوته ولدها، وكان مع هذا إذا مسَّه أحد من ولد يعقوب سكن غضبه .

وقيل: كان هذا صفة شمعون من ولد يعقوب .

ورُوي أنه قال لإخوته: كم عدد الأسواق بمصر؟ فقالوا عشرة، فقال: اكفوني أنتم الأسواق وأنا أكفيكم الملك، أو اكفوني أنتم الملك وأنا أكفيكم الأسواق، فدخلوا على يوسف فقال روبيل: لتردن علينا أخانا أو لأصيحن صيحة لا تبقي بمصر امرأة حامل إلّا ألقت ولدها وقامت كل شعرة في جسد روبيل فخرجت من ثيابه، فقال يوسف لابنٍ له صغير: قم إلى جنب روبيل فمسه. ورُوي: خذ بيده فاتني به، فذهب الغلام فمسّه فسكن غضبه. فقال روبيل: إن هاهنا لَبَزْراً من بَزْر[2] يعقوب، فقال يوسف: مَنْ يعقوب؟ .

ورُوي أنه غضب ثانياً فقام إليه يوسف فركضه برجله وأخذ بتلابيبه، فوقع على الأرض وقال: أنتم معشر العبرانيين تظنون أنْ لا أحدَ أشدّ منكم؟

فلما صار أمرهم إلى هذا ورأوا أن لا سبيل لهم إلى تخليصه خضعوا وذلوا، وقالوا: يا أيها العزيز إنَّ له أباً شيخاً كبيراً يحبه، ﴿**فَخُذْ أحدَنا مكانه**﴾، بدلاً منه، ﴿**إنّا نراك مِنَ المحسنين**﴾، في أفعالك[3]. وقيل: من المحسنين إلينا في توفية الكيل وحسن الضيافة ورد البضاعة. وقيل: يعنون إن فعلت ذلك كنت من المحسنين .

﴿**قال**﴾، يوسف، ﴿**معاذَ اللّهِ**﴾ أعوذ بالله، ﴿**أنْ نأخذ إلّا مَنْ وَجَدْنا متاعنا عنده**﴾، ولم يقل إلا من سرق تحرزاً من الكذب، ﴿**إنّا إذاً لظالِمُون**﴾، إن أخذنا بريئاً بجرم .

---

(١) في «ب»: جنايتكم .

(٢) البزر (بفتح فسكون): الولد، يقال: ما أكثر بزره! أي: ولده .

(٣) أخرجه الطبري مطولاً في تاريخه: ١/٣٥٥–٣٥٦، ومختصراً في التفسير: ١٦/٢٠٠ – ٢٠١، وعزاه السيوطي في الدر: ٤/٥٦٥ .

﴿فَلَمَّا اسْتَيْـَٔسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿فلمّا استيأسُوا منه﴾، أي: أيسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه. وقال أبو عبيدة: استيأسوا استيقنوا أن الأخ لا يُرد إليهم. ﴿خلَصُوا نَجِيّاً﴾، أي: خلا بعضهم ببعض يتناجون ويتشاورون لا يخالطهم غيرهم .

والنجيُّ يصلح للجماعة كما قال هاهنا ويصلح للواحد كقوله: «وقرّبناه نجيّاً» (مريم ـ ٥٢) /، وإنما ٨٥/١ ب
جاز للواحد والجمع لأنه مصدر جعل نعتاً كالعدل والزور، ومثله النجوى يكون اسماً ومصدراً، قال الله تعالى: «وإذْ هُمْ نجوى» (الإسراء ـ ٤٧)، أي: متناجون. وقال: «ما يكونُ مِنْ نجوى ثلاثة» (المجادلة ـ ٧)، وقال في المصدر «إنما النجوى مِنَ الشيطان» (المجادلة ـ ١٠) .

﴿قالَ كبيرُهمْ﴾، يعني: في العقل والعلم لا في السن .

قال ابن عباس والكلبي: هو يهوذا وهو أعقلهم .

وقال مجاهد: هو شمعون، وكانت له الرئاسة على إخوته .

وقال قتادة والسدي والضحاك: هو روبيل، وكان أكبرهم في السن، وهو الذي نهى الإخوة عن قتل يوسف(١) .

﴿ألم تعلمُوا أنّ أباكم قد أخذ عليكم مَوْثِقاً﴾، عهداً. ﴿مِنَ الله ومِنْ قَبْلُ مَا فرّطتُم﴾ قصّرتم ﴿في يوسف﴾ .

واختلفوا في محل ﴿ما﴾؛ قيل: هو نصب بإيقاع العلم عليه، يعني: ألم تعلموا من قبل تفريطكم في يوسف .

---

(١) ذكر هذه الروايات: السيوطي في الدر المنثور: ٥٦٥/٤، والطبري في التفسير: ٢٠٦/١٦ـ٢٠٨، وقال مرجحاً أنه «روبيل»: «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة، قول من قال: عنى بقوله «قال كبيرهم» روبيل، لإجماع جميعهم على أنه كان أكبرهم سنّاً. ولا تفهم العرب في المخاطبة إذا قيل لهم: «فلان كبير القوم» مطلقاً بغير وصل، إلا أحد معنيين: إما في الرياسة عليهم والسؤدد، وإما في السن. فأما في العقل؛ فإنهم إذا أرادوا ذلك وصلوه فقالوا: «هو كبيرهم في العقل». فأما إذا أطلق بغير صلته بذلك، فلا يفهم إلا ما ذكرت .

وقد قال أهل التأويل: لم يكن لشمعون = وإن كان من العلم والعقل بالمكان الذي جعله الله به = على إخوته رياسة وسؤدد، فيعلم بذلك أنه عنى بقوله: «قال كبيرهم». فإذا كان ذلك كذلك، فلم يبق إلا الوجه الآخر، وهو الكبر في السن. وقد قال الذين ذكرنا جميعاً: «روبيل كان أكبرهم سناً» فصحَّ بذلك القولُ الذي اخترناه» .

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

[وقيل: وهو في محل الرفع على الابتداء وتم الكلام عند قوله: ﴿من الله﴾ ثم قال ﴿ومن قبل﴾ هذا تفريطكم في يوسف][(١)] .

وقيل: ﴿ما﴾ صلة. أي: ومن قبل هذا فرطتم في يوسف .

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأرضَ﴾، التي أنا بها وهي أرض مصر ﴿حتى يأذن لي أبي﴾، بالخروج منها ويدعوني، ﴿أو يحكمَ اللهُ لي﴾، بردِّ أخي إليّ، أو بخروجي وترك أخي .

وقيل: أو يحكم الله لي بالسيف فأقاتلهم وأسترد أخي .

﴿وهو خيرُ الحاكمين﴾، أعدل مَنْ فَصَلَ بين الناس .

﴿ارجعوا إلى أبيكم﴾، يقوله الأخ المحتبس [بمصر][(٢)] لإخوته ارجعوا إلى أبيكم، ﴿فقولوا يا أبانا إنّ ابنك﴾، بنيامين، ﴿سَرَقَ﴾ .

قرأ ابن عباس والضحاك سُرِّق بضم السين وكسر الراء وتشديدها، يعني: نُسب إلى السرقة، كما يقال خوّنته أي نسبته إلى الخيانة .

﴿وما شهِدْنا إلّا بما علمنا﴾ [يعني: ما قلنا هذا إلّا بما علمنا][(٣)] فإنّا رأينا إخراج الصاع من متاعه.

وقيل: معناه: وما شهدنا، أي: ما كانت منا شهادة في عمرنا على شيء إلا بما علمنا، وليست هذه شهادة منا إنما هو خبر عن صنيع ابنك بزعمهم .

وقيل: قال لهم يعقوب عليه السلام: ما يدري هذا الرجل أن السارق يُؤخذ بسرقته إلّا بقولكم، فقالوا: وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يسترقُّ إلّا بما علمنا، وكان الحكم ذلك عند الأنبياء؛ يعقوب وبنيه .

﴿وما كنّا للغيب حافظين﴾، قال مجاهد وقتادة: ما كنا نعلم إن ابنك سيسرق ويصير أمرنا إلى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا إليه، وإنما قلنا ونحفظ أخانا مما لنا إلى حفظه منه سبيل .

وعن ابن عباس: ما كنا لليله ونهاره ومجيئه وذهابه حافظين .

وقال عكرمة: وما كنا للغيب حافظين فلعلها دُسَّتْ بالليل في رحله .

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) ساقط من « أ » .

(٣) ساقط من «ب» .

وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

﴿**واسألِ القرية التي كنّا فيها**﴾، أي: أهلَ القرية وهي مصر. قال ابن عباس: هي قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها إلى مصر. ﴿**والعيرَ التي أقبلنا فيها**﴾، أي: القافلة التي كنا فيها. وكان صَحِبَهم قوم من كنعان من جيران يعقوب .

قال ابن إسحاق: عرف الأخ المحتبس بمصر أن إخوته أهل تهمة عند أبيهم لِما كانوا صنعوا في أمر يوسف، فأمرهم أن يقولوا هذا لأبيهم .

﴿**وإنّا لصادِقُون**﴾ .

فإن قيل: كيف استجاز يوسف أن يعمل مثل هذا بأبيه ولم يخبره بمكانه، وحبس أخاه مع علمه بشدة وجد أبيه عليه، وفيه معنى العقوق وقطيعة الرحم وقلة الشفقة؟ .

قيل: قد أكثر الناس فيه، والصحيح أنه عمل ذلك بأمر الله سبحانه وتعالى، أمره بذلك، ليزيد في بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر ويلحقه في الدرجة بآبائه الماضين .

وقيل: إنه لم يظهر نفسه لإخوته لأنه لم يأمن أن يدبروا في أمره تدبيراً فيكتموه عن أبيه. والأول أصح.

﴿**قالَ بلْ سَوّلَتْ لكم**﴾، زيّنت، ﴿**أنفسُكم أمراً**﴾، وفيه اختصار معناه: فرجعوا إلى أبيهم وذكروا لأبيهم ما قال كبيرهم، فقال يعقوب: (بل سوّلتْ لكم أنفسكم أمراً)، أي: حمل أخيكم إلى مصر لطلب نفع عاجل .

﴿**فصبرٌ جميلٌ عسَى اللّهُ أنْ يأتيني بهم جميعاً**﴾، يعني: يوسف، وبنيامين، وأخاهم المقيم بمصر .

﴿**إنّه هو العليمُ**﴾، بحزني ووجدي على فقدهم، ﴿**الحكيمُ**﴾، في تدبير خلقه .

قوله تعالى: ﴿**وتولّى عنهم**﴾، وذلك أن يعقوب عليه السلام لمّا بلغه خبر بنيامين تتامَّ حزنه وبلغ جهده، وتهيج حزنه على يوسف فأعرض عنهم، ﴿**وقالَ يا أسفَا**﴾، ياحزناه، ﴿**على يوسف**﴾، والأسفُ أشدُّ الحزن، ﴿**وابيضّتْ عيناه من الحُزن**﴾، عُمي بصره. قال مقاتل: لم يبصر بهما ست سنين، ﴿**فهو كظيم**﴾، أي: مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثه. وقال قتادة: يردد حزنه في جوفه ولم يقل إلّا خيراً. قال الحسن: كان بين خروج يوسف من حجر أبيه إلى يوم التقى معه ثمانون عاماً لا تجف عينا يعقوب وما على وجه الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب .

قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

﴿قالوا﴾، يعني: أولاد يعقوب، ﴿تاللَّهِ تَفتَؤُ تذكرُ يوسفَ﴾، أي: لا تزال تذكر يوسف، لا تفتر من حبه، و﴿لا﴾ محذوفة من قوله ﴿تفتؤ﴾ يقال: ما فتىء يفعل كذا أي: مازال، كقول امرىء القيس:

فَقُلْتُ يَمِيْنُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَائِماً * وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وأَوْصَالِي[(١)]

أي: لا أبرح.

﴿حتى تكونَ حَرَضاً﴾، قال ابن عباس: دفناً[(٢)].

وقال مجاهد: الحرض ما دون الموت، يعني: قريباً من الموت.

وقال ابن إسحاق: فاسداً لا عقل لك.

والحرض: الذي فسد جسمه وعقله. وقيل: ذائباً من الهم.

ومعنى الآية: حتى تكون دَنِف الجسم مخبول العقل.

وأصل الحرض: الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو الهرم، أو العشق[(٣)]، يقال: رجل حَرَضٌ وامرأة حَرَضٌ، ورجلان وامرأتان حَرَضٌ، ورجال ونساء كذلك، يستوي فيه الواحد والإثنان والجمع والمذكر والمؤنث، لأنه مصدر وُضع موضع الاسم[(٤)]. ﴿أو تكونَ من الهالكين﴾، أي: من الميتين.

﴿قال﴾ يعقوب عليه السلام عند ذلك لما رأى غِلظتهم ﴿إنّما أشكو بَثّي وحُزني إلى الله﴾، والبَثُّ: أَشَدُّ الحزن، سمي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه حتى يثبته أي يظهره، قال الحسن: بَثّي أي: حاجتي.

ويُروى أنه دخل على يعقوب جارٌ له وقال: يايعقوب مالي أراك قد تهشمت وفنيت ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك؟ قال: هشمني وأفناني ما ابتلاني الله به من همّ يوسف، فأوحى الله إليه: يا يعقوب

---

(١) البيت في ديوان امرىء القيس ص (٣٢) واستشهد به الطبري في: ٤/٤٢٥، ١٦/٢٢١، وابن قتيبة في المشكل ص (١٧٤). وفيها: قاعداً بدل قائماً.

(٢) في «ب»: دنفاً.

(٣) ومنه قول العَرْجيّ:

إنّـي امـرُؤٌ لجَّ بي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِـي * حتـى بَلِـيْتُ، وحتـى شَفَّنِـي السَّقَـمُ

يعني بقوله «فأحرضني»: أذابني فتركني مُحْرَضاً.

(٤) فإذا وصف بهذا اللفظ ثنيّ وجُمع، وذُكّر وأنث.

ووُحّد «حَرَض» بكل حال ولم يدخله التأنيث؛ لأنه مصدر، فإذا أخرج على «فاعل» على تقدير الأسماء لزمه ما يلزم الأسماء من التثنية والجمع والتذكير والتأنيث.

انظر: الطبري: ١٦/٢٢٢.

أتشكوني إلى خلقي؟ فقال: يارب خطيئة أخطأتها فاغفرْها لي، فقال: قد غفرتها لك، فكان بعد ذلك إذا سئل قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله[1] .

ورُوي أنه قيل له: يايعقوب ما الذي أذهب بصرك وقوّس ظهرك؟ .

قال: أذهب بصري بكائي على يوسف، وقوّس ظهري حزني على أخيه؟

فأوحى الله إليه: أتشكوني؟ فوعزتي وجلالي لا أكشف ما بك حتى تدعوني .

فعند ذلك قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي لو كانا ميتين لأخرجتهما لك، وإنّما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة / فقام ببابكم مسكين فلم تطعموه منها شيء، ١٨٦/ أ
وإن أحب خلقي إليّ الأنبياء، ثم المساكين فاصنع طعاماً وادع إليه المساكين .

فصنع طعاماً ثم قال: من كان صائماً فليفطر الليلة عند آل يعقوب[2] .

ورُوي أنه كان بعد ذلك إذا تغدى أمر من ينادي: من أراد الغداء فليأت يعقوب، وإذا أفطر أمر من ينادي: من أراد أن يفطر فليأت يعقوب، فكان يتغدى ويتعشى مع المساكين[3] .

وعن وهب بن منبه قال: أوحى الله تعالى إلى يعقوب: أتدري لِمَ عاقبتك وحبست عنك يوسف ثمانين سنة؟ قال: لا، يا إلهي، قال: لأنك قد شويت عناقاً وقترت على جارك، وأكلت ولم تطعمه .

ورُوي: أن سبب ابتلاء يعقوب أنه ذبح عجلاً بين يدي أمه وهي تخور[4] .

وقال وهب والسدي وغيرهما: أتى جبريل يوسف عليه السلام في السجن فقال: هل تعرفني أيها الصديق؟

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ٢٢٧/١٦ـ٢٢٨ عن طلحة بن مصرّف اليامي موقوفاً عليه، (وفي الأصل الإيامي) والمثبت من تهذيب التهذيب، فقد ترجم له وقال: كوفيٌّ، فاضل قارىء، من الخامسة .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أنس بن مالك: ٣٤٨/٢، وقال: «هكذا في سماعي بخط يد حفص بن عمر بن الزبير. وأظن «الزبير» وهماً من الراوي، فإنه حفص بن عمر بن عبدالله بن أبي طلحة الأنصاري، ابن أخي أنس بن مالك، فإن كان كذلك فالحديث صحيح .

ثم قال: وقد أخرج الإمام أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم هذا الحديث في التفسير مرسلاً .

وساقه الهيثمي من رواية أنس ثم قال: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي البصري وهو ضعيف جداً» .

انظر: مجمع الزوائد: (٤٠/٧) .

وذكره ابن كثير في التفسير: (٤٨٨/٢ـ٤٨٩) من رواية ابن أبي حاتم: وقال: «هذا حديث غريب فيه نكارة» .

وزاد السيوطي نسبته لابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة، وأبي الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان .

انظر: الدر المنثور: ٥٧٤/٤ .

(٣) انظر التعليق السابق .

(٤) انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٢٧٥/٤ .

قال: أرى صورة طاهرة وريحاً طيبة .

قال: إني رسول رب العالمين وأنا الروح الأمين .

قال: فما أدخلك مدخل المذنبين وأنت أطيب الطيبين ورأس المقربين [وأمين رب العالمين][1]؟

قال: ألم تعلم يايوسف أن الله تعالى يطهر البيوت بطهر النبيين، وأن الأرض التي يدخلونها هي أطهر الأراضين، وأن الله تعالى قد طهر بك السجن وما حوله يا طُهر الطاهرين وابن الصالحين المخلصين .

قال: وكيف لي باسم الصديقين وتعدّني من المخلصين الطاهرين، وقد أدخلت مدخل المذنبين وسميت باسم الفاسقين؟

قال جبريل: لأنه لم يفتن قلبك ولم تطع سيدتك في معصية ربِّك لذلك سماك الله في الصديقين، وعدّك من المخلصين، وألحقك بآبائك الصالحين .

قال يوسف: هل لك علم بيعقوب أيها الروح الأمين؟

قال: نعم، وهبه الله الصبر الجميل وابتلاه بالحزن عليك فهو كظيم .

قال: فكم قدّر حزنه؟

قال: حزن سبعين ثكلى .

قال: فما زاد له من الأجر ياجبريل؟

قال: أجر مائة شهيد .

قال: أفتراني لاقيه؟

قال: نعم، فطابت نفس يوسف، وقال: ما أبالي بما لقيت إن رأيته[2] .

قوله تعالى: **﴿وأعلمُ مِنَ اللّهِ مَالَا تعلمُونَ﴾**، يعني: أعلم من حياة يوسف مالا تعلمون .

رُوي أن ملك الموت زار يعقوب فقال له: أيها الملك الطيب ريحه، الحسن صورته، هل قبضت روح ولدي في الأرواح؟ قال: لا، فسكن يعقوب وطمع في رؤيته، وقال: وأعلم أن رؤيا يوسف صادقة وإني وأنتم سنسجد له .

وقال السدي: لما أخبره ولده بسيرة الملك أحسّت نفس يعقوب وطمع وقال لعله يوسف، فقال: يابَنيَّ اذهبُوا فتحسَّسُوا من يوسف وأخيه[3] .

---

(١) ساقط من «ب» .

(٢) أخرجه عنهما الطبري في التفسير: ١٦/٢٢٩-٢٣١ .
ووهب يكثر من الروايات الاسرائيلية ورواية السدي ضعيفة .

(٣) انظر: تفسير القرطبي: ٩/٢٥٣. ورواه الطبراني في الصغير والأوسط عن شيخه محمد بن أحمد الباهلي وهو ضعيف جداً .
انظر: مجمع الزوائد ٧/٤٠ .

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾

ورُوي عن عبدالله بن يزيد بن أبي فروة: أن يعقوب عليه السلام كتب كتاباً إلى يوسف عليه السلام حين حبس بنيامين: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله(١) بن إبراهيم خليل الله [إلى ملك مصر](٢) أما بعد: فإنا أهل بيت وُكِّل بِنَا البلاءُ؛ أمّا جدي إبراهيم فشدّتْ يداه ورجلاه وألقي في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فشدّتْ يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إلي فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخاً بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي [من البكاء عليه](٣)، ثم كان لي ابن وكان أخاه لأمه، وكنت أتسلّى به، وإنك حبسته وزعمت أنه سرق، وإنّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليَّ وإلّا دعوتُ عليك دعوةً تدرك السابع من ولدك، فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وعيل صبره، فأظهر نفسه على ما نذكره إن شاء الله تعالى(٤) .

قوله عزّ وجلّ: ﴿**يابَنِيَّ اذهبُوا فتحسّسُوا**﴾، تخبّروا واطلبوا الخير، ﴿**مِنْ يوسفَ وأخيهِ**﴾، والتحسّسُ بالحاء والجيم لا يبعد أحدهما من الآخر، إلا أن التحسس بالحاء في الخير وبالجيم في الشر، والتحسس هو طلب الشيء بالحاسة. قال ابن عباس: معناه التمسوا ﴿**ولا تيأسُوا**﴾، ولا تقنطوا ﴿**مِن رَوْحِ اللّهِ**﴾، أي: من رحمة الله، وقيل: من فرج الله. ﴿**إنَّه لا يَيْأسُ من رَوْحِ الله إلّا القومُ الكافرون**﴾ .

﴿**فلمّا دخلُوا عليه**﴾، وفيه إضمار تقديره: فخرجوا راجعين إلى مصر حتى وصلوا إليها فدخلوا على يوسف عليه السلام. ﴿**قالوا يا أيّها العزيزُ مَسّنَا وأهلَنَا الضُرُّ**﴾، أي: الشدة والجوع، ﴿**وجئنا ببضاعةٍ مُزْجَاةٍ**﴾، أي: قليلة رديئة كاسدة، لا تنفق في ثمن الطعام إلا بتجوز من البائع فيها، وأصل الإزجاء: السوق والدفع. وقيل: للبضاعة مزجاة لأنها غير نافقة، وإنما تجوز على دَفْعٍ من آخِذِها .

(١) انظر التعليق رقم (١) ص (٢١٥) .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) ساقط من «ب» .

(٤) أخرجه الحكيم الترمذي وأبو الشيخ عن وهب بن منبه، وهو ضعيف. انظر: الدر المنثور ٤/٥٧٩ .

واختلفوا فيها، فقال ابن عباس: كانت دراهم رديئة زيوفاً[١].

وقيل: كانت خَلَق الغرائر والحبال[٢].

وقيل: كانت من متاع الأعراب من الصوف والأقط.

وقال الكلبي ومقاتل: كانت الحبة الخضراء.

وقيل: كانت من سويق المُقل[٣].

وقيل: كانت الأدم والنعال[٤].

﴿فأوْفِ لَنا الكَيْلَ﴾، أي: أعطنا ما كنت تعطينا قَبْلُ بالثمن الجيد الوافي.

﴿وتصدّقْ علينَا﴾، أي: تفضل علينا بما بين الثمنين الجيد والرديء ولا تنقصنا. هذا قول أكثر المفسرين.

وقال ابن جريج والضحاك: وتصدق علينا برد أخينا إلينا[٥].

﴿إنّ الله يجزي﴾، يثيب، ﴿المتصدِّقين﴾.

وقال الضحاك: لم يقولوا إن الله يجزيك؛ لأنهم لم يعلموا أنه مؤمن.

وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء سوى نبينا عليه الصلاة والسلام؟ فقال سفيان: ألم تسمع قوله تعالى: ﴿وتصدقْ علينا إنّ الله يجزي المتصدقين﴾[٦]، يريد أن الصدقة كانت حلالاً لهم.

ورُوي أن الحسن سمع رجلاً يقول: اللهم تصدق علي، فقال: إن الله لا يتصدق وإنما يتصدق من يبغي الثواب، قل: اللهم أعطني أو تفضل عليّ[٧].

---

(١) الدراهم التي ظهر فيها غش ورداءة.

(٢) «الخَلَق»: البالي. و«الغرائر»: جمع غِرارة، وهي وعاء من خيش ونحوه يوضع فيه القمح ونحوه، وهو أكبر من الجوالق.
انظر: المعجم الوسيط: ٦٤٨/٢.

(٣) المُقْل: حَمْل الدوم: والدوم يشبه النخل.

(٤) قال الطبري في معنى «وجئنا ببضاعة مزجاة»: بدراهم، أو ثمن لا يجوز في ثمن الطعام إلا لمن يتجاوز فيها... واختلف أهل التأويل في البيان عن تأويل ذلك، وإن كانت معاني بيانهم متقاربة». التفسير: ٢٣٤/١٦، ٢٣٥.

(٥) قال الطبري تعقيباً على ما ذكره ابن جريج: وهذا القول وإن كان قولاً له وجه، فليس بالقول المختار... لأن «الصدقة» في متعارف العرب إنما هي: إعطاء الرجل ذا حاجةٍ بعض أملاكه ابتغاء ثواب الله عليه، وإن كان كل معروف صدقةً. فتوجيه تأويل كلام الله إلى الأغلب من معناه في كلام من نزل القرآن بلسانه = أولى وأحرى.

(٦) أخرجه الطبري: ٢٤٢/١٦. وردّه ابن عطية بحديث (نحن معاشر الأنبياء لا تحل لنا الصدقة) انظر: المحرر الوجيز: ٦٣/٨.

(٧) وبمثله قال مجاهد، فقد سئل: هل يكره أن يقول الرجل في دعائه اللهم تصدّق عليّ؟ فقال: نعم، إنما الصدقة لمن يبغي الثوابَ.
انظر: الطبري: ٢٤٣/١٦، الدر المنثور: ٥٧٧/٤.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿قالَ هلْ علمتُم ما فعلتُم بيوسفَ وأخيهِ إذ أنتُم جاهِلُون﴾، اختلفوا في السبب الذي حمل يوسف على هذا القول، قال ابن إسحاق: ذكر لي أنهم لما كلموه بهذا الكلام أدركته الرقة فارفضَّ دمعُه(1)، فباح بالذي كان يكتم منهم(2).

وقال الكلبي: إنما قال ذلك حين حكى لإخوته أن مالك بن ذعر قال إني وجدت غلاماً في بئر من حالة كيت وكيت، فابتعته بكذا درهماً فقالوا: أيها الملك، نحن بعنا ذلك الغلام، فغاظ يوسف ذلك وأمر بقتلهم فذهبوا بهم ليقتلوهم، فولى يهوذا وهو يقول كان يعقوب يحزن ويبكي لفقد واحد منا حتى كفّ بصره، فكيف إذا أتاه قتل بنيه كلهم؟ ثم قالوا له: إن فعلت ذلك فابعث بأمتعتنا إلى أبينا فإنه بمكان كذا وكذا، فذلك حين رحمهم وبكى، وقال ذلك القول(3).

وقيل: قاله حين قرأ كتاب أبيه إليه فلم يتمالك البكاء /، فقال: هل علمتُم ما فعلتُم بيوسف ١٨٦/ب
وأخيه إذْ فرقتُم بينهما، وصنعتُم ما صنعتُم إذ أنتُم جاهلون بما يؤل إليه أمر يوسف؟ وقيل: مذنبون وعاصون. وقال الحسن: إذ أنتم شباب ومعكم جهل الشباب.

فإن قيل: كيف قال ما فعلتم بيوسف وأخيه، وما كان منهم إلى أخيه، وهم لم يسعوا في حبسه؟ قيل: قد قالوا له في الصاع ما يزال لنا بلاء، وقيل: ما رأينا منكم يابني راحيل خيراً. وقيل: لما كانا من أم واحدة كانوا يؤذونه من بعد فقد يوسف.

﴿قالوا أئنَّك لأنت يوسفُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو جعفر: ﴿إنَّك﴾ على الخبر، وقرأ الآخرون على الاستفهام.

قال ابن إسحاق: كان يوسف يتكلم من وراء ستر فلما قال يوسف: هل علمتم ما فعلتم، كشف عنهم الغطاء ورفع الحجاب، فعرفوه.

وقال الضحاك عن ابن عباس: لما قال هذا القول تبسم يوسف فرأوا ثناياه كاللؤلؤ المنظوم فشبهوه بيوسف، فقالوا استفهاماً أئنك لأنت يوسف؟.

---

(1) ارفضَّ الدمع وترفّض: نزل وسال.
(2) أخرجه الطبري في التفسير: ١٦/٢٤٣.
(3) رواه أبو صالح عن ابن عباس: انظر: زاد المسير لابن الجوزي: ٤/٢٧٩.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

وقال عطاء عن ابن عباس: إن أخوة يوسف لم يعرفوه حتى وضع التاج عن رأسه، وكان له في قرنه علامة وكان ليعقوب مثلها ولإسحاق مثلها ولسارة مثلها شبه الشامة، فعرفوه فقالوا: أئنك لأنت يوسف.

وقيل: قالوه على التوهم حتى، ﴿قال أنا يوسف وهذا أخي﴾[1]، بنيامين، ﴿قَدْ مَنّ الله علينا﴾، أنعمَ علينا بأن جمع بيننا.

﴿إنّه مَنْ يتقِ﴾، بأداء الفرائض واجتناب المعاصي، ﴿ويصبرْ﴾، عمّا حرّم الله عزّ وجلّ عليه. قال ابن عباس: يتقي الزنا ويصبر عن العزوبة. وقال مجاهد: يتقي المعصية ويصبر على السجن، ﴿فإنّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين﴾.

﴿قالوا﴾، معتذرين، ﴿تالله لقدْ آثَرَكَ الله علينَا﴾، أي: اختارك الله وفضّلك علينا، ﴿وإن كنّا لخاطئين﴾، أي: وما كنا في صنيعنا بك إلا مخطئين مذنبين. يقال: خَطِىءَ خِطْأً إذا تعمد، وأخطأ إذا كان غير متعمد[2].

﴿قال﴾، يوسف وكان حليماً، ﴿لا تثريبَ عليكُم اليومَ﴾، لا تعيير عليكم اليوم، ولا أذكر لكم ذنبكم بعد اليوم، ﴿يغفرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين﴾.

فلما عرّفهم يوسف نفسه سألهم عن أبيه، فقال: ما فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه، وقال:

﴿اذهبُوا بقميصي هذا فألقوه على وجهِ أبي يأتِ بصيراً﴾، أي: يعد مبصراً. وقيل: يأتيني بصيراً لأنه كان قد دعاه.

---

(١) راجع في هذه الأقوال: زاد المسير: ٤/٢٨١.

(٢) قال الراغب الأصفهاني في كتابه «المفردات في غريب القرآن»، ص (١٥١): «الخَطَأُ: العدول عن الجهة، وذلك أضْرُبٌ:
أحدها: أن يريد غير ما تَحْسُن إرادته، فيفعله، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان، يقال: خَطِىءَ يَخْطَأُ خِطأً وخِطْأَةً، قال تعالى: (وإن كنا لخاطئين).
والثاني: أن يريد ما يَحْسُن فعله، لكن يقع منه خلاف ما يريد، فيقال: أخطأ إخطاءً فهو مُخْطِىءٌ. وهذا قد أصاب في الإرادة وأخطأ في الفعل، وهو المعنيُّ بقوله عليه الصلاة والسلام: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان)..
والثالث: أن يريد مالا يحسن فعله ويتفق منه خلافه، فهذا مخطىء في الإرادة ومصيب في الفعل، فهو مذموم بقصده، وغير محمود على فعله...».
وانظر: تفسير الطبري: ٢/١١٠، ٦/١٣٤، ١٦/٢٤٥.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤﴾

قال الحسن: لم يعلم أنه يعود بصيراً إلّا بعد أن أعلمه الله عز وجل .

وقال الضحاك: كان ذلك القميص من نسج الجنة .

وعن مجاهد قال: أمره جبريل أن يرسل إليه قميصه، وكان ذلك القميص قميص إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه جرد من ثيابه وألقي في النار عرياناً، فأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة، فألبسه إيّاه فكان ذلك القميص عند إبراهيم عليه السلام، فلما مات ورثه إسحاق، فلما مات ورثه يعقوب، فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك القميص في قصبة، وسدَّ رأسها، وعلقها في عنقه، لما كان يخاف عليه من العين، فكان لا يفارقه. فلما ألقي في البئر عرياناً جاءه جبريل عليه السلام وعلى يوسف ذلك التعويذ، فأخرج القميص منه وألبسه إيّاه، ففي هذا الوقت جاء جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام وقال: أرسل ذلك القميص، فإن فيه ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلّا عُوفي، فدفع يوسف ذلك القميص إلى إخوته وقال: ألقوه على وجه أبي يأتِ بصيراً، ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾[١] .

﴿ولمّا فَصَلَتِ العِيْرُ﴾، أي خرجت من عريش مصر متوجهة إلى كنعان ﴿قالَ أبوهُمْ﴾، أي: قال يعقوب لولد ولده، ﴿إني لأجِدُ رِيحَ يوسفَ﴾ .

روي أن ريح الصبا استأذنت ربها في أن تأتي يعقوب بريح يوسف قبل أن يأتيه البشير .

قال مجاهد: أصاب يعقوب ريح يوسف من مسيرة ثلاثة أيام. وحكي عن ابن عباس: من مسيرة ثمان[٢] ليال .

وقال الحسن: كان بينهما ثمانون فرسخاً[٣] .

وقيل: هبت ريح فصفقت القميص فاحتملت ريح القميص إلى يعقوب فوجد ريح الجنة فعلم أن ليس في الأرض من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص، فلذلك قال إني لأجد ريح يوسف .

﴿لولا أن تُفنّدون﴾، تسفّهوني، وعن ابن عباس: تُجَهِّلُوني. وقال الضحاك: تهرِّمون فتقولون شيخ كبير قد خرفَ وذهب عقله. وقيل: تضعِّفوني. وقال أبو عبيدة: تضلّلوني. وأصل الفَنَدِ: الفساد .

---

(١) عقّب ابن عطية على هذه الروايات، فقال: «وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر: أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه من بُعْدٍ، ولو كان من قُمُص الجنة لما كان في ذلك غرابة، ولوجده كلُّ أحدٍ» . انظر: المحرر الوجيز: (٨/٧١-٧٢) .

(٢) في «ب»: ثلاث .

(٣) انظر: البداية والنهاية لابن كثير: ١/٢١٦ .

قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

﴿قالوا﴾، يعني: أولاد أولاده، ﴿تاللِّهِ إنّك لفي ضلالِك القديم﴾، أي: خطئك القديم من ذكر يوسف لا تنساه، والضلال هو الذهاب عن طريق الصواب، فإن عندهم أن يوسف قد مات ويرون يعقوب قد لهج بذكره .

﴿فلمّا أنْ جاءَ البشيرُ﴾، وهو المبشر عن يوسف، قال ابن مسعود: جاء البشير بين يدي العير .

قال ابن عباس: هو يهوذا .

قال [السدي: قال يهوذا][1]: أنا ذهبت بالقميص ملطخاً بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، فأنا أذهب إليه اليوم بالقميص فأخبره أن ولده حي فأفرحه كما أحزنته[2] .

قال ابن عباس: حمله يهوذا وخرج حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتى أتى أباه، وكانت المسافة ثمانين فرسخاً .

وقيل: البشير مالك بن ذعر .

﴿ألقاه على وجهِهِ﴾، يعني: ألقى البشيرُ قميصَ يوسف على وجه يعقوب، ﴿فارتدَّ بصيراً﴾. فعاد بصيراً بعدما كان عمي وعادت إليه قوته بعد الضعف، وشبابه بعد الهرم وسروره بعد الحزن .

﴿قال ألم أقلْ لكم إني أعلمُ مِنَ اللّهِ ما لَا تَعْلَمُون﴾، من حياة يوسف وأن الله يجمع بيننا .

ورُوي أنه قال للبشير: كيف تركت يوسف؟ قال: إنه ملك مصر، فقال يعقوب: ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام، قال: الآن تمت النعمة[3] .

﴿قالوا يا أبانَا استغفرْ لنا ذنوبَنا إنّا كنّا خاطئين﴾، مذنبين .

﴿قال سوف أستغفرُ لكم ربي﴾، قال أكثر المفسرين: أخّر الدعاء إلى السَّحَر، وهو الوقت الذي

---

(١) ساقط من « أ » .

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٢٥٩ .

(٣) قال ابن الجوزي في زاد المسير: (٤/٢٨٦): رواه يحيى بن يمان عن سفيان. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/٥٨٣) لابن أبي حاتم عن الحسن موقوفاً عليه .

يقول الله تعالى: «هل من داع فأستجيب له»[1] فلما انتهى يعقوب إلى الموعد قام إلى الصلاة بالسحر، فلما فرغ منها رفع يديه إلى الله عزّ وجلّ وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفرْ لأولادي ما أتوا إلى أخيهم يوسف، فأوحى الله تعالى إليه أني قد غفرتُ لك ولهم أجمعين .

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: سوف استغفرُ لكم [ربي يعني ليلة الجمعة[2] .

قال وهب: كان يستغفر لهم كل][3] ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة .

وقال طاووس: أخر الدعاء إلى السَّحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشوراء[4] .

وعن الشعبي قال: سوف أستغفرُ لكم ربي، قال: أسأل يوسف إن عفا عنكم أستغفرْ لكم ربي[5]

﴿إنّه هو الغفورُ الرحيم﴾ .

١٨٧ أ روي أن يوسف كان / قد بعث مع البشير إلى يعقوب مائتي راحلة وجهازاً كثيراً ليأتوا بيعقوب وأهله وأولاده، فتهيأ يعقوب للخروج إلى مصر، فخرجوا وهم اثنان وسبعون من بين رجل وامرأة. وقال مسروق: كانوا ثلاثة وتسعين[6]، فلما دنا من مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه فخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجنود وركب أهل مصر معهما يتلقون يعقوب، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس فقال: يايهوذا هذا فرعون مصر، قال: لا هذا ابنك، فلما دنا كل واحد من صاحبه ذهب يوسف يبدأ بالسلام، فقال جبريل: لا حتى يبدأ يعقوب بالسلام، فقال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان[7] .

ورُوي أنهما نزلا وتعانقا .

وقال الثوري: لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام عانق كل واحد منهما صاحبه وبكيا، فقال

---

(١) إشارة إلى حديث أبي هريرة الصحيح: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له» .
أخرجه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل: ٢٩/٣، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، برقم (٧٥٨): ٥٢١/١ .

(٢) أخرج ابن جرير عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ مرفوعاً: يقول حتى تأتي ليلة الجمعة. وهو قول أخي يعقوب لبنيه، التفسير: ٢٦٢/١٦ وانظر تخريجه في تعليق محمود شاكر عليه .
قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: (٢١٧/٩): «وهذا غريب من هذا الوجه وفي رفعه نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما» .

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٢٦٣/٩ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) في «ب»: ثلاثة وسبعين .

(٧) غالب هذه الأخبار متلقاة عن أهل الكتاب. انظر: البداية والنهاية لابن كثير: ٢١٧/١–٢١٨ .

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ

يوسف: يا أبت بكيتَ حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا؟ قال: بلى يابني ولكن خشيتُ أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك[1].

فلذلك قوله تعالى: ﴿فلمّا دخلوا على يوسفَ آوى إليه﴾، أي: ضم إليه، ﴿أبويه﴾، قال أكثر المفسرين: هو أبوه وخالته ليّا، وكانت أمه راحيل قد ماتت في نفاس بنيامين[2].

وقال الحسن: هو أبوه وأمه، وكانت حيَّة[3].

وفي بعض التفاسير أن الله عزّ وجلّ أحيا أمه حتى جاءت مع يعقوب إلى مصر[4].

﴿وقال ادْخُلوا مصرَ إنْ شاءَ الله آمنين﴾، فإن قيل: فقد قال فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه فكيف قال ادخلوا مصر [إن شاء الله آمنين][5] بعدما أخبر أنهم دخلوها؟ وما وجه هذا الاستثناء وقد حصل الدخول؟

قيل: إن يوسف إنما قال لهم هذا القول حين تلقاهم قبل دخولهم مصر. وفي الآية تقديم وتأخير، والاستثناء يرجع إلى الاستغفار وهو من قول يعقوب لبنيه سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله[6].

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٥/٣٤٧.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب بن منبه، والطبري عن السدي.
انظر: الدر المنثور: ٤/٥٨٧–٥٨٨، الطبري: ١٦/٢٦٧.

(٣) أخرجه الطبري عن ابن إسحاق، وقال هو أولى بالصواب «لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في «أبوين» إلا أن يصح ما يقال من أن أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحجة يجب التسليم لها، فيسلَّم لها حينئذٍ».
انظر: تفسير الطبري: ١٦/٢٦٧، المحرر الوجيز لابن عطية ٨/٧٩.

(٤) انظر: البحر المحيط: ٥/٣٤٧.
وقال الآلوسي: ١٣/٥٧: «والظاهر أنه لم يثبت، ولو ثبت مثله لاشتهر».

(٥) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٦) فصَّل الطبري ذلك فقال: «... اختلف أهل التأويل في ذلك: فقال بعضهم: إن يعقوب إنما دخل على يوسف هو وولده، وآوى يوسف أبويه إليه قبل دخول مصر. قالوا: وذلك أن يوسف تلقَّى أباه تكرمةً له قبل أن يدخل مصر، فآواه إليه، ثم قال له ولمن معه: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) بها قبل الدخول... وهو قول السدي.
وقال آخرون: بل قوله (إن شاء الله) استثناء من قول يعقوب لبنيه: (أستغفر لكم ربي). قال: وهو من المؤخر الذي معناه التقديم. قالوا: وإنما معنى الكلام: قال: أستغفر لكم ربي إن شاء الله، إنه هو الغفور الرحيم، فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه، وقال: ادخلوا مصر، ورفع أبويه.. وهو قول ابن جريج.
ثم رجح القول الأول فقال: «والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله السدي، وهو أن يوسف قال ذلك لأبويه ومن معهما من أولادهما وأهاليهم قبل دخولهم مصر حين تلقَّاهم، لأن ذلك في ظاهر التنزيل كذلك، فلا دلالة تدل على صحة ما قال ابن جريج، ولا وجه لتقديم شيء من كتاب الله عن موضعه أو تأخيره عن مكانه إلا بحجة واضحة.
انظر: تفسير الطبري: ١٦/٢٦٤–٢٦٦. =

﴿ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾

وقيل: الاستثناء يرجع إلى الأمن من الجواز لأنهم كانوا لا يدخلون مصر قبله إلّا بجواز[1] من ملوكهم، يقول: آمنين [من الجواز إن شاء الله تعالى[2]، كما قال: «لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ الله آمنين» (الفتح ـ ٢٧)][3] .

وقيل: ﴿إنْ﴾ هاهنا بمعنى إذْ، يريد: إذْ شاء الله، كقوله تعالى: «وأنتم الأعلون إن كنتُم مؤمنين» (آل عمران ـ ١٣٩). أي: إذْ كنتم مؤمنين[4] .

﴿ورَفَعَ أبويهِ على العرشِ﴾، أي: على السرير، أجلسهما. والرفع: هو النقل إلى العلو. ﴿وخرُّوا له سُجّداً﴾، يعني: يعقوب وخالته وإخوته .

= وقد جوَّد الحافظ ابن كثير ردَّ الطبري على ابن جريج واختياره لقول السدي، ثم قال: (٤٩١/٢): «وما المانع أن يكون قال لهم ـ بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه ـ: ادخلوا مصر، وضمَّنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي: مما كنتم فيه من الجهد والقحط..» .
وهذا التفسير ذكره ابن عطية: (٧٩/٨): فقال في تفسير قوله تعالى: (ادخلوا مصر) «معناه: تمكَّنوا واسكُنوا واستقرُّوا، لأنهم قد كانوا دخلوا عليه» ثم ذكر قول السدي، وقال: (٨٠/٨): «وهذا الاستثناء هو الذي ندب إليه القرآن، أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه في المستقبل».. وذكر قول ابن جريج وقال: وفي هذا التأويل ضعف» .
وانظر: تفسير القرطبي: (٢٦٣/٩) .

(١) في زاد المسير: بالراء المهملة. ولعله أنسب .

(٢) قال في الكشاف: إن المشيئة تعلقت بالدخول المكيَّف بالأمن؛ لأن القصد إلى اتصافهم بالأمن في دخولهم، فكأنه قيل: اسلموا وأَمِنُوا في دخولكم إن شاء الله... والتقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله دخلتم آمنين، فحذف الجزاء لدلالة الكلام. ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذي الحال .
وقال الطيبي: فكأنه أشار بقوله: فكأنه قيل... إلخ إلى أن في التركيب معنى الدعاء .
انظر: الكشاف للزمخشري: ٢٧٧/٢، روح المعاني للآلوسي: ٥٧/١٣ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٤) فتحصَّل من ذلك أربعة أقوال لخَّصها ابن الجوزي في زاد المسير: (٢٨٩/٤):
أحدها: أن في الكلام تقديماً وتأخيراً .
والثاني: أن الاستثناء يعود إلى الأمن، ثم فيه قولان: أحدهما، أنه لم يثق بانصراف الحوادث عنهم. والثاني: أن الناس كانوا يخافون فيما خلا من ملوك مصر، فلا يدخلون إلا بجوارهم .
والثالث: أنه يعود إلى دخول مصر، لأنه قال هذا حين تلقَّاهم .
والرابع: أنَّ «إنْ» بمعنى «إذْ» .

وكانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يُرِدْ بالسجود وضعَ الجباه على الأرض، وإنما هو الانحناء والتواضع[1].

وقيل: وضعوا الجباه على الأرض وكان ذلك على طريق التحية والتعظيم، لا على طريق العبادة. وكان ذلك جائزاً في الأمم السالفة فنسخ في هذه الشريعة[2].

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: معناه: خرُّوا لله عزّ وجلّ سُجّداً بين يدي يوسف[3]. والأول أصح[4].

﴿وقالَ﴾، يوسف عند ذلك: **﴿يا أبتِ هذا تأويلُ رُؤيَايَ مِنْ قبلُ قدْ جعَلَها ربّي حقّاً﴾**، وهو قوله: «إنّي رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين».

﴿وقدْ أحسنَ بي﴾، [ربي، أي][5]: أنعم عليّ، **﴿إذْ أخرجني من السجن﴾**، ولم يقل من الجُبِّ مع كونه أشد بلاء من السجن، استعمالاً للكرم، لكيلا يخجل إخوته بعدما قال لهم: «لاتثريب عليكم اليوم»، ولأن نعمة الله عليه في إخراجه من السجن أعظم، لأنه بعدَ الخروج من الجب صار إلى العبودية

---

(١) قال سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن. انظر: تفسير القرطبي: ٢٦٥/٩، زاد المسير ٢٩٠/٤.

(٢) قاله الثوري والضحاك وغيرهما، كما نقله القرطبي: ٢٦٥/٩، ونقله الطبري أيضاً عن الضحاك وسفيان الثوري. قالوا: كان السجود تحية بينهم، وقال ابن زيد: ذلك السجود لشرفه، كما سجدت الملائكة لآدم لشرفه، ليس بسجود عبادة.

قال الطبري: وإنما عني بذلك: أن ذلك كان منهم على الخُلُق، لا على وجه العبادة، ومما يدل على أن ذلك لم يزل من أخلاق الناس قديماً قبل الإسلام على غير وجه العبادة من بعضهم لبعض قول أعشى بني ثعلبة:

فلمّا أتانا بُعَيْدَ الكَرَىٰ سَجَدْنا لهُ ورفَعْنا عَمَارا

انظر: تفسير الطبري: ٢٧٠/١٦.

(٣) أخرج الطبري عن ابن عباس، قال: رفع أبويه على السرير، وسجدا له، وسجد له إخوته. وهذا يخالف ما ذكره البغوي.

قال النقّاش: وهذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف عليه السلام لقوله تعالى في أول السورة: (رأيتهم لي ساجدين)، وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف، والصغير للكبير.

انظر: تفسير الطبري: ٢٦٩/١٦، تفسير القرطبي: ٢٦٤/٩.

(٤) أجمع المفسرون أن ذلك السجود ـ على أيّ وجه كان ـ إنما كان تحية لا عبادة؛ قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمةَ السلامَ تحية أهل الجنة.

وقد لاحظ القرطبي أن هذا المنسوخ صار عادة في زمنه عند بعض الناس، فشنّع عليهم قائلاً: هذا الانحناء والتكفّي الذي نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية، وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض؛ حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يُؤْبه به، وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة، ووراثة مستقرة، لاسيما عند التقاء الأمراء والرؤساء. نكبوا عن السُّنن، وأعرضوا عن السُّنن.

وروى أنس بن مالك قال: قلنا يارسول الله! أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال: لا، قلنا: أفيعتنق بعضنا بعضاً؟ قال: لا. قلنا: أفيصافح بعضنا بعضاً؟ قال: نعم (خرّجه أبو عمر بن عبدالبر في التمهيد).

انظر: تفسير القرطبي: ٢٦٥/٩ـ٢٦٦، وراجع المحرر الوجيز: ٨٠/٨، تفسير ابن كثير: ٤٩١/٢ـ٤٩٢.

(٥) ساقط من «أ».

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ١٠١﴾

والرق، وبعد الخروج من السجن صار إلى الملك، ولأن وقوعه في البئر كان لحسد إخوته، وفي السجن مكافأة من الله تعالى لزلة كانت منه .

﴿**وجاءَ بِكُم مِّنَ البَدْوِ**﴾، والبدو بسيط من الأرض يسكنه أهل المواشي بماشيتهم، وكانوا أهل بادية ومواشي، يقال بدَا يبدُو إذا صار إلى البادية. ﴿**مِنْ بَعْدِ أَنْ نَّزَغَ**﴾ أفسد، ﴿**الشيطانُ بيني وبينَ إخوتي**﴾، بالحسد .

﴿**إنّ ربّي لطيفٌ**﴾، أي: ذُو لُطف، ﴿**لِمَا يشاءُ**﴾، وقيل: معناه بمن[1] يشاء .

وحقيقة اللطيف: الذي[2] يوصل الإحسان إلى غيره بالرفق ﴿**إنّه هو العليمُ الحكيمُ**﴾ .

قال أهل التاريخ: أقام يعقوب بمصر عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أغبط حال وأهنأ عيش، ثم مات بمصر، فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ابنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك، ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر .

قال سعيد بن جبير: نُقل يعقوبُ عليه السلام في تابوت من ساج إلى بيت المقدس، فوافق ذلك اليوم الذي مات فيه العيص فَدُفِنَا في قبر واحد، وكانا وُلِدَا في بطن واحد، وكان عمرهما مائة وسبعاً وأربعين سنة[3] .

فلما جمع الله تعالى ليوسف شمله علم أنّ نعيم الدنيا لا يدوم سأل الله تعالى حُسنَ العاقبة، فقال :

﴿**ربِّ قَدْ آتيتني مِنَ المُلْكِ**﴾، يعني: ملك مصر، والمُلْك: اتساع المقدور لمن له السياسة والتدبير. ﴿**وعلمتني من تأويلِ الأحاديثِ**﴾، يعني: تعبير الرؤيا. ﴿**فَاطِرَ**﴾، أي: يافاطر، ﴿**السمواتِ والأرضِ**﴾ أي: خالقهما ﴿**أنتَ وليّي**﴾، أي: مُعيني ومتولي أمري، ﴿**في الدنيا والآخرة توفني مسلماً**﴾، يقول اقبضني إليك مسلماً، ﴿**وألحقني بالصالحين**﴾، يريد بآبائي النبيين .

قال قتادة: لم يسأل نبيّ من الأنبياء الموت إلّا يوسف[4] .

---

(١) في «ب»: لمن .

(٢) في «ب»: أنه يوصل .

(٣) هذه الأخبار متلقاة عن أهل الكتاب، وقد ذكرها المؤرخون مع أخبار غيرها، والله أعلم بصحتها، وقد أشار إلى ذلك الحافظ ابن كثير، بل إنه قال: وعند أهل الكتاب أن عمر يعقوب.... إلخ .
انظر: تفسير الطبري: ٢٧٦/١٦، تاريخ الطبري: ٣٦٣/١ـ٣٦٤، البداية والنهاية لابن كثير: ٢٢٠/١، تفسير ابن كثير: ٤٩٢/٢، الدر المنثور للسيوطي: ٥٨٩/٤ـ٥٩٠ .

(٤) وهو مروي عن ابن عباس أيضاً: انظر الدر المنثور: ٥٩١/٤، وانظر ما كتبه ابن كثير في التفسير: ٤٩٣/٢ .

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۝١٠٢ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾

وفي القصة: لما جمع الله شمله وأوصل إليه أبويه وأهله اشتاق إلى ربّه عزّ وجلّ فقال هذه المقالة.

قال الحسن: عاش بعد هذا سنين كثيرة. وقال غيره: لما قال هذا القول لم يمض عليه أسبوع حتى توفي.

واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن أبيه، فقال الكلبي: اثنتان وعشرون سنه.

وقيل: أربعون سنة.

وقال الحسن: ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد لقاء يعقوب ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة.

وفي التوراة مات وهو ابن مائة وعشر سنين، وولد ليوسف من امرأة العزيز ثلاثة أولاد: أفرائيم وميشا ورحمة امرأة أيوب المبتلى عليه السلام.

وقيل: عاش يوسف بعد أبيه ستين سنة. وقيل: أكثر. واختلفتِ الأقاويل فيه.

وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة، فدفنوه في النيل في صندوق من رخام، وذلك أنه لما مات تشاح الناس فيه فطلب أهل كل محلة أن يدفن في محلتهم رجاء بركته، حتى همُّوا بالقتال، فرأوا أن يدفنوه في النيل حيث يتفرق الماء بمصر ليجري الماء عليه وتصل بركته إلى جميعهم.

١٨٧ ب وقال عكرمة: دفن في الجانب الأيمن / من النيل، فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر، [فنقل إلى الجانب الأيسر فأخصب ذلك الجانب وأجدب الجانب الآخر][1]، فدفنوه في وسطه وقدّروا ذلك بسلسلة فأخصب الجانبان جميعاً إلى أن أخرجه موسى فدفنه بقرب آبائه بالشام[2].

﴿**ذلك**﴾، الذي ذكرتُ، ﴿**من أنباءِ الغيبِ نُوحيه إليك وما كُنْتَ لديهِمْ**﴾، أي: ما كنت يامحمد عند أولاد يعقوب، ﴿**إذْ أجمَعُوا أمرَهم**﴾، أي: عَزَمُوا على إلقاء يوسف في الجب، ﴿**وهم يمكرُون**﴾، بيوسف.

﴿**وما أكثرُ الناسِ**﴾، يامحمد، ﴿**ولو حَرَصْتَ بمؤمنين**﴾، على إيمانهم.

ورُوي أن اليهود وقريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فلما أخبرهم على موافقة التوراة لم يسلموا، فحزن النبي ﷺ، فقيل له: إنهم لا يؤمنون وإن حَرَصْتَ على إيمانهم[3].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) انظر المراجع السابقة.

(٣) قال ابن الأنباري: إن قريشاً واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وإخوته، فشرحها شرحاً شافياً وهو يؤمّل أن يكون ذلك =

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ
أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿وما تسألُهم عليه﴾، أي: على تبليغ الرسالة والدعاء إلى الله تعالى، **﴿مِنْ أجرٍ﴾**، جُعْلٍ[1] وجزاءٍ، **﴿إنْ هُوَ﴾**، ما هو يعني القرآن، **﴿إلّا ذِكرٌ﴾**، عِظةٌ وتذكير، **﴿للعالمين﴾** .

﴿وكأيِّن﴾، وكم، **﴿مِّنْ آيةٍ﴾**، عِبْرةٍ ودَلالةٍ، **﴿في السمواتِ والأرضِ يمرُّونَ عليها وهمْ عنها مُعْرِضُونَ﴾**، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها .

﴿وما يُؤمنُ أكثرُهم باللّهِ إلّا وهُمْ مُشرِكُون﴾، فكان من إيمانهم إذا سُئِلُوا: من خلق السمواتِ والأرض؟ قالوا: الله، وإذا قيل لهم: من يُنزِّل القطرَ؟ قالوا: الله، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون[2] .

وعن ابن عباس أنه قال: إنها نزلت في تلبية المشركين من العرب كانوا يقولون في تلبيتهم، لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك[3] .

وقال عطاء: هذا في الدعاء، وذلك أن الكفار نسوا ربَّهم في الرخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء[4]، كما قال الله تعالى: «وظنّوا أنهم أُحيطَ بهم دَعَوُا الله مُخلصينَ له الدِّين» الآية (يونس ــ ٢٢) وقال تعالى: «فإذا رَكِبُوا في الفُلْكِ دَعَوُا الله مخلصين له الدِّينَ فلما نجّاهم إلى البر إذا هُمْ يُشْرِكُون» (العنكبوت ــ ٦٥)، وغير ذلك من الآيات .

= سبباً لإسلامهم، فخالفوا ظنَّه، فحزن رسول الله ﷺ، فعزّاه الله تعالى بهذه الآية .
انظر: زاد المسير: ٢٩٣/٤، البحر المحيط: ٣٥٠/٥ .

(١) الجُعْل ــ بالضم ــ ومصدره الجَعْل ــ بالفتح ــ وهو الأجرة على الشيء فعلاً أو قولاً .
انظر: النهاية لابن الأثير: ٢٧٦/١ أنيس الفقهاء للقونوي ص (١٦٩) .

(٢) وهو مروي عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وعطاء والشعبي وقتادة والضحاك وابن زيد .
انظر: تفسير الطبري: ٢٨٦/١٦ــ٢٨٨، ابن كثير: ٤٩٥/٢، الدر المنثور ٥٩٣/٤ .

(٣) ثبت ذلك في الصحيحين، وفي صحيح مسلم: (٨٤٣/٢) أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك. قال رسول الله ﷺ: «ويلكم قَدِ قَدِ» (أي: حسبكم لا تزيدوا على هذا) فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك .
هذا، ولم تذكر هذه الأحاديث أن الآيات نزلت في ذلك. فهي حكاية عن حالهم في الجاهلية وتلبيتهم هذه .
وانظر: تفسير ابن كثير: ٤٩٥/٢ .

(٤) انظر: البحر المحيط: ٣٥١/٥. وهذه الأقوال التي تقدمت وغيرها من الأقوال الأخرى المروية، داخلة كلها في عموم الآية الكريمة، ولا تنافيَ بينها، فذلك كله كان واقعاً منهم، فالآية تحكي هذا كله .

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧
قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ
أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾

﴿أفأمِنوا أنْ تأتِيهم غاشيةٌ مِّن عذابِ الله﴾، أي: عقوبة مجللة. قال مجاهد: عذاب يغشاهم، نظيره قوله تعالى: «يومَ يغشاهُم العذابُ مِنْ فَوقِهم» الآية (العنكبوت ـ ٥٥). قال قتادة: وقيعة. وقال الضحاك: يعني الصواعق والقوارع. ﴿أو تأتِيهمُ الساعة بَغْتَةً﴾، فجأة، ﴿وهُمْ لا يَشْعُرون﴾، بقيامها. قال ابن عباس: تهيج الصيحة بالناس وهم في أسواقهم.

﴿قُلْ﴾، يامحمد، ﴿هذهِ﴾، الدعوة التي أدعُو إليها والطريقة التي أنا عليها، ﴿سَبيلي﴾، سُنّتي ومنهاجي. وقال مقاتل: ديني، نظيره قوله: «ادْعُ إلى سبيل ربِّكَ» (النحل ـ ١٢٥) أي: إلى دينه. ﴿أدعُو إلى الله على بصيرةٍ﴾، على يقين. والبصيرة: هي المعرفة التي تُميَّز بها بين الحق والباطل، ﴿أنا ومَنِ اتّبعني﴾، أي: ومن آمن بي وصدقني أيضاً يدعو إلى الله. هذا قول الكلبي وابن زيد، قالوا: حقٌّ على من اتبعه أن يدعوَ إلى ما دعا إليه، ويذكّر بالقرآن[1].

وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿أدعُو إلى الله﴾ ثم استأنف: ﴿على بصيرةٍ أنا ومَنِ اتّبعني﴾، يقول: إني على بصيرة من ربي وكل من اتبعني.

قال ابن عباس: يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان، وجند الرحمن.

(١) انظر: تفسير الطبري: ٢٩٣/١٦.
والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله، بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا؛ وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه.
وهذه الدرجات الثلاث التي هي: «الإسلام» و«الإيمان» و«الإحسان» داخلة في الدين، كما قال في الحديث الصحيح: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم» بعد أن أجابه عن هذه الثلاث..
فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه، وأصل ذلك: عبادته وحده لا شريك له، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل به كتبه.. فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الأعتقادية والعملية.
والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة إلى الله، وهي بإذنه سبحانه، لم يشرع ديناً لم يأذن به الله، ومما يبين ذلك: أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة، وتارة بالدعوة إلى سبيله، إذْ قد عُلِم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لابد له فيما يدعوه إليه من أمرين: أحدهما: المقصود المراد، والثاني: الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود، فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله وتارة إلى سبيله، فإنه سبحانه هو المعبود المقصود بالدعوة.
انظر: دقائق التفسير، لابن تيمية: ٢٨٤/٣ وما بعدها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

قال عبدالله بن مسعود: من كان مُستَنّاً فليستنّ بمن قد مات [فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة][(١)] أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، وأبرَّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلّفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، [فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم][(١)]، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[(٢)] .

قوله تعالى: ﴿**وسُبْحانَ الله**﴾، أي: وقلْ سبحانَ الله تنزيهاً له عمّا أشركوا به. ﴿**ومَا أنَا مِنَ المشركين**﴾ .

﴿**ومَا أرسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ**﴾، يامحمد، ﴿**إلّا رجالاً**﴾ لا ملائكة، ﴿**نُوحي إليهم**﴾، قرأ حفص: ﴿**نُوحي**﴾ بالنون وكسر الحاء وقرأ الآخرون بالياء وفتح الحاء .

﴿**مِنْ أهلِ القُرى**﴾، يعني: من أهل الأمصار دون البوادي، لأن أهل الأمصار أعقل وأفضل وأعلم وأحلم .

[وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً من بدوٍ، ولا من الجن، ولا من النساء .

وقيل: إنما لم يبعث][(٣)] من أهل البادية لغلظهم وجفائهم .

﴿**أفلَمْ يسيرُوا في الأرضِ**﴾، يعني: هؤلاء المشركين المكذبين، ﴿**فينظرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ**﴾، آخر أمر، ﴿**الذينَ مِنْ قبلِهم**﴾، يعني: الأمم المكذبة فيعتبروا .

﴿**ولَدَارُ الآخرةِ خيرٌ للذينَ اتّقوْا**﴾، يقول جلّ ذكرُه: هذا فعلنا بأهل ولايتنا وطاعتنا؛ أن ننجيهم عند نزول العذاب، وما في الدار الآخرة خيرٌ لهم، فترك ما ذكرنا اكتفاءً، لدلالة الكلام عليه .

قوله تعالى: ﴿**ولَدارُ الآخرة**﴾، قيل: معناه ولدار الحال الآخرة .

وقيل: هو إضافة الشيء إلى نفسه، كقوله: «إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين» (الواقعة ـ ٩٥) وكقولهم: يوم الخميس، وربيع الآخر. ﴿**أفلا تعقِلُون**﴾، فتؤمنُون .

---

(١) ما بين القوسين من «المسند» للإمام أحمد، وهو في المطبوع، وساقط من النسختين الخطيتين .

(٢) أثر موقوف على ابن مسعود، رواه الإمام أحمد في المسند: (٥/٢١١) بتحقيق الشيخ أحمد شاكر .
قال الهيثمي في المجمع: (١/١٧٨): «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجاله موثقون» .

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب».

حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾

﴿حتّى إذا استَيأسَ الرُّسُلُ وظَنُّوا أنّهم قَدْ كُذِّبُوا جاءهُم نصرُنا﴾، اختلف القُرّاء في قوله: ﴿كُذِّبُوا﴾:

فقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر: ﴿كُذِبُوا﴾ بالتخفيف وكانت عائشة تنكر هذه القراءة[1] .

وقرأ الآخرون بالتشديد .

فمن شدّد قال: معناه حتى استيأس الرسلُ من إيمان قومهم .

[روي عن مجاهد أنه قرأ: وقد كَذبوا، بفتح الكاف والذال مخففة، ولها تأويلان: أحدهما، معناه: أن القوم المشركين ظنوا أن الرسل قد كُذِبُوا. والثاني: معناه: أن الرسل ظنوا ـ أي: علموا ـ أن قومهم قد افتروا على الله بكفرهم من إيمان قومهم][2] .

وظنّوا: أيْ أيقنوا ـ يعني الرسل ـ أن الأمم قد كذَّبوهم تكذيباً لا يُرجى بَعْدُ إيمانهم .

والظنّ بمعنى اليقين: وهذا معنى قول قتادة .

وقال بعضهم: معناه: حتى إذا استيأسَ الرسلُ ممن كذَّبهم من قومهم أن يُصدِّقوهم، وظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم، وارتدوا عن دينهم، لشدة المحنة والبلاء عليهم واستبطاء النصر. ومن قرأ بالتخفيف قال: معناه: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنّوا أي: ظنّ قومُهم أن الرسل قد كذبتهم في وعيد العذاب .

ورُوي عن ابن عباس: معناه ضعف قلوب الرسل، يعني: وظنت الرسل أنهم كذبوا فيما وعدوا من النصر. وكانوا بشراً فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم أُخلِفُوا، ثم تلا: «حتى يقولَ الرسولُ والذينَ آمنُوا معه متى

(١) أخرج البخاري في تفسير سورة يوسف (٨/٣٦٧) عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: (حتى إذا استيأس الرسل) قال:
قلت: أكُذِبوا أم كُذِّبوا؟
قالت عائشة: كذّبوا .
قلت: فقد استيقنوا أنّ قومهم كذبوهم، فما هو بالظن .
قالت: أجلْ لعمري، لقد استيقنوا بذلك .
فقلت لها: وظنوا أنهم قد كُذِبوا؟
قالت: معاذ الله، لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها .
قلت: فما هذه الآية؟
قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم، فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى استيأس الرسل ممن كذّبهم من قومهم، وظنت الرسل أنّ أتباعهم قد كذّبوهم، جاء نصر الله عند ذلك» .
وهذه القراءة هي قراءة الجمهور، وانتصر لها الطبري في التفسير: ١٦/٣٠٩ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب». ومن المطبوع أيضا .

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

نصرُ الله» (البقرة ـ ٢١٤) أي: جاء الرسل نصرُنا[١].

﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾، [قرأ العامة بنونين، أي: نحن ننجي من نشاء][٢]. وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب بنون واحدة مضمومة وتشديد الجيم وفتح الياء على ما لم يسم فاعله، لأنها مكتوبة في المصحف بنون واحدة، فيكون محل ﴿مَنْ﴾ رفعاً، على هذه القراءة. وعلى القراءة الأُولى يكون نصباً، فَنُجِّي مَنْ نشاءُ عن نزول العذاب، وهم المؤمنون المطيعون.

﴿ولَا يُردُّ بأسُنا﴾، عذابُنا، ﴿عَنِ القومِ المجرمين﴾ يعني: المشركين.

﴿لقد كانَ في قَصَصِهِمْ﴾ /، أي: في خبر يوسف وإخوته، ﴿عِبْرَةٌ﴾ عِظة، ﴿لأُولي الألبابِ مَا كانَ﴾، يعني: القرآن، ﴿حديثاً يُفترى﴾، أي: يُختلق، ﴿ولكنْ تصديقَ الذي﴾، أي: ولكنْ كان تصديقَ الذي، ﴿بينَ يديهِ﴾، من التوراة والإنجيل، ﴿وتفصيلَ كلِّ شيءٍ﴾، مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام والأمر والنهي، ﴿وهُدىً ورحمةً﴾، بياناً ونعمةً، ﴿لقومٍ يُؤمنون﴾. ١٨٨/ أ

(١) في توجيه القراءتين والترجيح بينهما، انظر: تفسير الطبري: ١٦/٢٩٦ـ٣١١، البحر المحيط: ٥/٣٥٤ـ٣٥٥، تفسير ابن كثير: ٢/٤٩٨ـ٤٩٩، دقائق التفسير لابن تيمية: ٣/٣٠١ وما بعدها.

(٢) ساقط من «أ».

سُورَةُ الرَّعْد

سُورَةُ الرَّعْدِ

مكية إلا قوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا﴾، وقوله: ﴿ويقول الذين كفروا لَسْتَ مرسلاً﴾[١]، [وهي ثلاث وأربعون آية][٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

﴿الٓمٓر﴾ قال ابن عباس: معناه: أنا الله أعلم وأرى[٣]، ﴿**تلك آيات الكتاب**﴾، يعني: تلك الأخبار التي قصصتُها [عليك][٤] آيات التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة، ﴿**والذي أنزل إليك**﴾، يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك، ﴿**من ربِّك الحقّ**﴾، أي: هو الحق فاعتصم به .

فيكون محل «الذي» رفعاً على الابتداء، و«الحقُّ» خبره .

---

(١) أخرج النحاس في «الناسخ والمنسوخ» عن ابن عباس، وسعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير أن سورة الرعد مكية. وبه قال الحسن وعطاء وقتادة .
وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس، وابن مردويه عن ابن الزبير: أن سورة الرعد نزلت بالمدينة. وبه قال جابر ابن زيد .
وروي عن ابن عباس أنها مدنية إلا آيتين نزلتا بمكة، ورواه ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة .
ومكيَّةُ السورة شديدة الوضوح: سواء في طبيعة موضوعها، أو طريقة أدائها، أو في جوِّها العام الذي لا يخطىء تنسُّمَه من يعيش فترة في ظلال القرآن .
انظر: الدر المنثور: ٥٩٩/٤، الاتقان: ٤٠/١ـ٤٤، زاد المسير: ٢٩٩/٤، في ظلال القرآن: ٢٠٣٩/١٣ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من «أ» .

(٣) انظر فيما سبق: ٥٨/١، وراجع تفسير الطبري: ٢٠٥/١ـ٢٢٤، ١٤٩/٦، ٢٩٣/١٢، ٢٩٤، ٩/١٥، ٣١٩/١٦ـ٣٢٠. طبعة دار المعارف، زاد المسير: ٣٠٠/٤ .

(٤) ساقط من «ب» .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

وقيل: محلُّه خفض، يعني: تلك آيات الكتاب وآيات الذي أنزل إليك، ثم ابتدأ: «الحق»، يعني: ذلك الحق[١].

وقال ابن عباس: أراد بالكتاب القرآن، ومعناه: هذه آيات الكتاب، يعني القرآن، ثم قال: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق.

﴿ولكنَّ أكثرَ الناس لا يؤمنون﴾، قال مقاتل: نزلت في مشركي مكة حين قالوا: إن محمداً يقوله من تلقاء نفسه[٢]، فردّ قولهم ثم بين دلائل ربوبيته، فقال عَزّ من قائل:

﴿الله الذي رفع السموات بغيرِ عمدٍ ترونها﴾، يعني: السَّواري، واحدها عمود، مثل: أديم وأَدَم، وعُمُد أيضاً جمعه، مثل: رسول ورُسل.

ومعناه نفي العمد أصلاً، وهو الأصح، يعني: ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها.

قال إياس بن معاوية: السماء مقبَّبة على الأرض مثل القبة[٣].

وقيل: «ترونها» راجعة إلى العمد، [معناه][٤]: لها عمد ولكن لا ترونها[٥].

---

(١) انظر في هذا وشواهده من العربية: تفسير الطبري: ١٦/٣٢١ـ٣٢٢، البحر المحيط: ٥/٣٥٩، المحرر الوجيز: ٨/١٠٩ـ١١٠.

(٢) وقيل: المراد اليهود والنصارى. والأَوْلى أنه عامٌّ يندرج تحته هؤلاء وأولئك.
انظر: البحر المحيط: ٥/٣٥٩.

(٣) وهذا مروي أيضاً عن قتادة، ويدل عليه تصريحه تعالى في سورة الحج أنه هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض في قوله: (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه).
فعلى هذا يكون قوله (ترونها) تأكيداً لنفي ذلك. أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها. وهذا هو الأكمل في القدرة. وعلى هذا يكون الضمير في قوله «ترونها» عائد على «السموات»، وجملة «ترونها» في موضع الحال.
انظر: تفسير الطبري: ١٦/٣٢٥، تفسير ابن كثير: ٢/٥٠٠، أضواء البيان: ٣/٧٧ـ٧٨، المحرر الوجيز: ٨/١١٠.

(٤) ساقط من «ب».

(٥) وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنه وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد.
وقال الطبري تعقيباً على هذين الرأيين: (١٦/٣٢٥): «وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال الله تعالى: «الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها» فهي مرفوعة بغير عمد نراها، كما قال ربنا ـ جلَّ ثناؤه ـ ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه»..

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٣﴾

وزعم: أن عمدها جبل قاف، وهو محيط بالدنيا، والسماء عليه مثل القبة[1].

﴿ثم استوى على العرش﴾، علا [عليه][2]، ﴿وسخّر الشمسَ والقمرَ﴾، ذلّلهما لمنافع خلقه فهما مقهوران، ﴿كل يجري﴾، أي: يجريان على ما يريد الله عزَّ وجلَّ، ﴿لأجلٍ مسمى﴾، أي: إلى وقت معلوم وهو فناء الدنيا. [وقال ابن عباس][3]: أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما ينتهيان إليها لا يجاوزانها، ﴿يُدبّر الأمرَ﴾، يقضيه وحده، ﴿يُفصّل الآيات﴾، يبين الدلالات، ﴿لعلّكم بلقاء ربكم تُوقنون﴾، لكي توقنوا بوعده وتصدقوه.

﴿وهو الذي مدّ الأرضَ﴾، بسطها، ﴿وجعلَ فيها رَواسي﴾، جبالاً ثابتة، واحدتها: راسية، قال ابن عباس: كان أبو قبيس أول جبل وضع على الأرض[4]، ﴿وأنهاراً﴾، وجعل فيها أنهاراً. ﴿ومن كلّ الثمراتِ جعلَ فيها زوجين اثنين﴾، أي: [صنفين اثنين][5] أحمر وأصفر، وحلواً

---

(١) التعبير بكلمة «زعم» تشير إلى تضعيف هذا الرأي، لأن زعم مطية الكذب، كما تقول العرب، ولذلك، نثبت هنا كلمة قيمة للحافظ ابن كثير، رحمه الله، في تفسيره لسورة (ق): (٢٢٢/٤) قال:

«روي عن بعض السلف أنهم قالوا: ق جبل محيط بجميع الأرض، يقال له: جبل قاف، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدّق ولا يكذّب.

وعندي: أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبّسون به على الناس أمر دينهم، كما افتري في هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفّاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبي ﷺ، وما بالعهد من قِدَم، فكيف بأمة بني إسرائيل، مع طول المدى، وقلّة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته!

وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» فيما قد يجوّزه العقل. فأما ما تحيله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه: فليس من هذا القبيل. والله أعلم».

ثم قال: «وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنّة» ثم أورد أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس، أخرجه ابن أبي حاتم الرازي عن جبل قاف المحيط بالأرض وقال: «وإسناد الأثر فيه انقطاع».

هذا، وقد جمع الشيخ أحمد شاكر كلمات ابن كثير في الاسرائيليات، في عمدة التفسير: ١٤/١ـ١٩.

(٢) في «ب»: علمه.

(٣) في «ب»: وقيل.

(٤) نقله القرطبي عن ابن عباس وعطاء: ٢٨٠/٩.

(٥) ما بين القوسين ساقط من «ب».

وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وحامضاً، ﴿يغشى الليلَ النهارَ﴾، أي: يلبس النهار بظلمة الليل، ويلبس الليل بضوء النهار، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾، فيستدلون. والتفكر[1]: تصرف القلب في طلب معاني الأشياء.

﴿وفي الأرض قطعٌ متجاورات﴾، متقاربات يقرب بعضها من بعض، وهي مختلفة: هذه طيبة تنبت، وهذه سبخة لا تنبت، وهذه قليلة الريع، وهذه كثيرة الريع، ﴿وجناتٌ﴾: بساتين، ﴿من أعنابٍ وزرعٌ ونخيلٌ صِنْوانٌ﴾، رفعها كلها ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب، عطفاً على الجنات، وجرها الآخرون نسقاً على الأعناب.

والصنوان: جمع صنو، وهو النخلات يجمعهن أصل واحد.

﴿وغير صنوان﴾، هي النخلة المنفردة بأصلها.

وقال أهل التفسير[2]: صنوان: مجتمع، وغير صنوان: متفرق. نظيره من الكلام: قنوان جمع قنو. ومنه قول النبي ﷺ في العباس: «عمّ الرجل صنو أبيه»[3].

ولا فرق في الصنوان والقنوان بين التثنية والجمع إلا في الإعراب، وذلك أن النون في التثنية مكسورة غير منونة، وفي الجمع منونة.

﴿يُسقى بماءٍ واحد﴾، قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿يسقى﴾ بالياء أي يسقى ذلك كله بماء واحد، وقرأ الآخرون بالتاء لقوله تعالى: ﴿وجناتٍ﴾ ولقوله تعالى من بعد «بعضها على بعض»، ولم يقل بعضه. والماء جسم رقيق مائع به حياة كل نامٍ.

﴿ونُفضل بعضها على بعضٍ في الأُكل﴾، في الثمر والطعم.

قرأ حمزة والكسائي ﴿ويفضل﴾ بالياء، لقوله تعالى: «يُدبر الأمرَ يُفصّل الآيات» (الرعد ـ ٢).

وقرأ الآخرون بالنون على معنى: ونحن نفضل بعضها على بعض في الأُكل، وجاء في الحديث [في قوله]: «ونفضل بعضها على بعض في الأُكل»، قال: «الفارسيُّ، والدَّقَل، والحلو، والحامض»[4].

---

(١) في «أ»: والفكر.

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٣٣٥-٣٤٠.

(٣) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه مسلم في الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها، برقم (٩٨٣): ٢/٦٧٦-٦٧٧. وانظر فيما سبق: ١/١٥٤. تفسير الطبري: ١٦/٣٣٨-٣٣٩ مع تعليق محمود شاكر.

(٤) أخرجه الترمذي في التفسير: ٨/٥٤٤ وقال: «هذا حديث حسن غريب، وقد رواه زيد ابن أبي أنيسة عن الأعمش نحو هذا. =

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾

قال مجاهد: كمثل بني آدم، صالحهم وخبيثهم، وأبوهم واحد(١).

قال الحسن: هذا مثل ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، يقول: كانت الأرض طينة واحدة في يد الرحمن عزّ وجلّ، فسطحها، فصارت قطعاً متجاورةً، فينزل عليها المطر(٢) من السماء، فتخرج هذه زهرتها، وشجرها وثمرها ونباتها، وتخرج هذه سَبَخَها وملحها وخبيثها(٣)، وكل يُسقى بماء واحد، كذلك الناس خلقوا من آدم عليه السلام فينزل من السماء تذكرة فترق قلوب فتخشع، وتقسو قلوب فتلهو.

قال الحسن: والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: «ونُنزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً»(٤) (الإسراء – ٨٢).

﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكرت **﴿لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾**.

﴿وإنْ تعجبْ فعجبٌ قولهم﴾، العجب تغير النفس برؤية المُستَبْعَد في العادة، والخطاب لرسول الله ﷺ، ومعناه: إنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة مع إقرارهم بابتداء الخلق [من الله عز وجل](٥) فعجب أمرهم.

وكان المشركون ينكرون البعث، مع إقرارهم بابتداء الخلق من الله تعالى، وقد تقرر في القلوب أن الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع العجب.

= وسيف بن محمد هو أخو عمار بن محمد، وعمارٌ أثبت منه، وهو ابن أخت سفيان الثوري».
وأخرجه الطبري في التفسير: ٣٤٤/١٦، وعزاه السيوطي في الدر: ٦٠٥/٤ أيضاً للبزار وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.
و«الفارسيّ» – من التمر – نوعٌ منه، ولعله عنى به (البَرْنيّ) وهو ضرب من التمر أصفرمدور، عذب الحلاوة وهو أجوده.
وقالوا: إن لفظ «البرني» فارسي معرب.
و«الدَّقَل»: أردأ أنواع التمر.
انظر: تعليق محمود شاكر على الطبري: ٣٤٣/١٦.

(١) الطبري: ٣٤٢/١٦.
(٢) في «ب»: الماء.
(٣) في «ب»: خبثها.
(٤) الطبري: ٣٤٠/١٦.
(٥) ساقط من «ب».

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

وقيل: معناه: وإن تعجب من تكذيب المشركين واتخاذهم مالا يضر ولا ينفع آلهة يعبدونها وهم قد رأوا من قدرة الله تعالى ما ضرب لهم به الأمثال فعجب قولهم، أي: فتعجب أيضاً من قولهم: ﴿أئذا كنا تراباً﴾، بعد الموت، ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾، أي: نعاد خلقاً جديداً كما كنا قبل الموت.

قرأ نافع والكسائي ويعقوب «أئذا» مستفهماً «إنَّا» بتركه، على الخبر، ضده: أبو جعفر وابن عامر. وكذلك في «سبحان» في موضعين، والمؤمنون، وآلم السجدة، وقرأ الباقون بالاستفهام
١٨٨/ب فيهما وفي / الصافات في موضعين هكذا إلا أن أبا جعفر يوافق نافعاً في أول الصافات فيقدم الاستفهام ويعقوب لا يستفهم الثانية «أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون» (الصافات ــ ٥٣).

قال الله تعالى: ﴿أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾، يوم القيامة ﴿وأولئك أصحاب النارِ هم فيها خالدون﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾، الاستعجال: طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته، والسيئة هاهنا هي: العقوبة، والحسنة: العافية. وذلك أن مشركي مكة كانوا يطلبون العقوبة بدلاً من العافية استهزاءً منهم يقولون: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» (الأنفال ــ ٣٢).

﴿وقد خلَتْ من قبلهم المَثُلات﴾، أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات. والمثلات جمع المَثُلَة بفتح الميم وضم الثاء، مثل: صَدُقَة وصَدُقَات[1].

﴿وإنّ ربك لذُو مغفرةٍ للناس على ظلمهم وإنَّ ربك لشديدُ العقاب﴾.

﴿ويقول الذين كفروا لَوْلا أنزل عليه﴾، أي: على محمد ﷺ ﴿آيةٌ من ربِّه﴾، أي: علامة وحجة على نبوته، قال الله تعالى: ﴿إنما أنت منذرٌ﴾، مُخوِّف، ﴿ولكل قوم هادٍ﴾، أي: لكل قوم نبي يدعوهم إلى الله تعالى.

وقال الكلبي: داعٍ يدعوهم إلى الحق أو إلى الضلالة.

(١) الصَّدُقات: مهور النساء.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨﴾

وقال عكرمة: الهادي محمد ﷺ، يقول: إنما أنت منذر وأنت هادٍ لكل قوم، أي: داعٍ.

وقال سعيد بن جبير: الهادي هو الله تعالى(١).

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يعلمُ ما تحمل كل أنثى﴾، من ذكر أو أنثى، سويّ الخلق أو ناقص الخلق، واحداً أو اثنين أو أكثر ﴿وما تغيض الأرحام﴾، أي ما تنقص ﴿وما تزداد﴾.

قال أهل التفسير(٢): غيض الأرحام: الحيض على الحمل؛ فإذا حاضت الحامل كان نقصاناً في الولد، لأن دم الحيض غذاء الولد في الرحم، فإذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتمُّ، فالنقصان نقصان خلقة الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم.

وقيل: إذا حاضت ينتقص(٣) الغذاء وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة(٤) أشهر ظاهراً، فإن رأت(٥) خمسة أيام دماً وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام، فالنقصان في الغذاء، والزيادة في المدة(٦).

---

(١) ساق الطبري الأقوال في التفسير ثم قال: «وقد بينت معنى «الهداية» وأنه الإمام المتبع الذي يقْدُم القوم. فإذا كان ذلك كذلك، فجائز أن يكون هو الله الذي يهدي خلْقَه، ويتَّبع خلقُه هداه، ويأتمّون بأمره ونهيه.
وجائز أن يكون نبيَّ الله الذي تأتمُّ به أمته.
وجائز أن يكون إماماً من الأئمة يؤتمّ به، ويتَّبع منهاجَه وطريقته أصحابُه.
وجائز أن يكون داعياً من الدعاة إلى خير أو شر.
وإن كان ذلك كذلك، فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال جلَّ ثناؤه: إن محمداً هو المنذر من أُرسل إليه بالإنذار، وأن لكل قومٍ هادياً يهديهم فيتبعونه ويأتمّون به».
تفسير الطبري: ١٦/٣٥٨.

(٢) انظر في هذه الأقوال وتخريجها: الدر المنثور: ٤/٦٠٨ـ٦١٠، تفسير الطبري: ١٦/٣٥٩ـ٣٦٥. واقرأ كتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» للدكتور محمد علي البار، فصل دورة الأرحام ص (٦٩ـ٨٢).

(٣) في «ب»: ينقص.

(٤) في «ب»: بسبعة.

(٥) في «ب»: زادت.

(٦) هذه الأقوال في تفسير الآية بناء على أن الحامل تحيض، وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه. وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض. وبه قال أبوحنيفة، ودليله الآية.
قال ابن عباس في تأويل الآية: إنه حيض الحبالى، وكذلك روي عن عكرمة ومجاهد، وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حِضْنَ أن يتركن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها، فصار كالإجماع.
وقال أبو حنيفة: لو كان الحامل تحيض، وكان ما تراه المرأة من الدم حيضاً لما صحَّ استبراء الأمة بحيض، وهو إجماع.
وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض.
انظر: تفسير القرطبي: ٩/٢٨٦. أحكام القرآن للجصاص: ٤/٣٩٧ـ٣٩٩، تفسير ابن عطية: ٨/١٣٠ـ١٣١، أحكام القرآن لابن العربي: ٣/١١١٠.

وقال الحسن: غيضها: نقصانها من تسعة أشهر، والزيادة: زيادتها على تسعة أشهر.

وقيل النقصان: السِّقط، والزيادة: تمام الخلق.

وأقل مدة الحمل: ستة أشهر، فقد يُولد المولود لهذه المدة ويعيش(١).

واختلفوا في أكثرها: فقال قوم: أكثرها سنتان، وهو قول عائشة رضي الله عنها، وبه قال أبو حنيفة رحمه الله.

وذهب جماعة إلى أن أكثرها أربع سنين، وإليه ذهب الشافعي رحمه الله، قال حماد بن سلمة. إنما سمي هَرِم بن حيَّان هرماً لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين(٢).

﴿وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار﴾، أي: بتقديرٍ وَحَدٍّ لا يجاوزه ولا يقصر عنه.

---

(١) وذلك منتزع من قوله تعالى: ﴿وحَمْلُه وفِصَالُه ثلاثون شهراً﴾ (الأحقاف ـ ١٥) مع قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضِعْنَ أولادهن حولَيْن كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ (البقرة ـ ٢٣٣) فبقي عن مدة الفصال من الثلاثين شهراً لمدة الحمل ستة أشهر.

وكلام الأطباء يتفق مع هذا، فالطب يقرر أن أقل الحمل الذي يمكنه العيش بعده ستة أشهر، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: «وأما أقل مدة الحمل: فقد تظاهرت الشريعة والطبيعة على أنها ستة أشهر».

انظر: تفسير القرطبي: ٢٨٨/٩، التبيان في إقسام القرآن لابن القيم ص (٣٣٩)، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د. محمد علي البار ص (٤٥١-٤٥٢).

(٢) وقد أنكر بعض المالكية وابن حزم أن يكون هناك حمل أكثر من تسعة أشهر، فقال ابن حزم: «... ولا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ولا أقلّ من ستة أشهر... فمن ادعى أن حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً، فقد قال بالباطل والمحال وردَّ كلام الله عز وجل جهاراً».

وبعد أن ذكر جملة أخبار وقصص تشير إلى أنه قد يكون أكثر من ستة أشهر، قال: «وكل هذه أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يُصَدَّق ولا يُعرف من هو، ولا يجوز الحكم في دين الله تعالى بمثل هذا. وممن روي عنه مثل قولنا: عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، فهو يقول: أيما رجل طلق امرأته فحاضت حيضة أو حيضتين ثم قعدت فلتجلس تسعة أشهر حتى يستبين حملها، فإن لم يَسْتَبِنْ حملها في تسعة أشهر فلتعتدَّ بعد التسعة الأشهر ثلاثة أشهر عدة التي قعدت عن المحيض.

فهذا عمر لا يرى الحمل أكثر من تسعة أشهر، وهو قول محمد بن عبدالله بن عبد الحكم، وأبي سليمان، وأصحابنا.

قال علي ـ ابن حزم ـ: إلا أن الولد قد يموت في بطن أمه فيتمادى بلا غاية حتى تلقيه متقطعاً في سنين. فإن صح هذا فإنه حمل صحيح لا تنقضي عدتها إلا بوضعه كله...».

وهذا الذي انتصر له ابن حزم هو الذي عليه الأطباء، فلا يزيد الحمل عندهم عن شهر بعد موعده، وإلا لمات الجنين في بطن أمه. ويعتبرون ما زاد عن ذلك نتيجة خطأ في الحساب، وأما ما يحكى عن مولودين لسنوات بعد الحمل، أو أن الحمل عند امرأة استمر لسنوات... فهي ما يسمّونه «الحمل الكاذب» وهي حالة تصيب النساء اللاتي يحشن عن الإنجاب دون أن ينجبن فينتفخ البطن بالغازات وتتوقف العادة الشهرية، وتعتقد المرأة بأنها حامل رغم تأكيد جميع الفحوصات المخبرية والطبية بأنها غير حامل. والله أعلم.

انظر في هذا كله: تفسير القرطبي: ٢٨٨/٩-٢٨٩، أحكام القرآن لابن العربي: ١١٠٩/٣، الدر المنثور: ٦٠٩/٤. وقارن بـ: المحلى لابن حزم: ٣١٦/١٠-٣١٨، خلق الإنسان بين الطب والقرآن للدكتور محمد علي البار، ص (٤٥٢-٤٥٤).

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ
وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَالٍ ۝١١﴾

﴿**عالم الغيب والشهادة الكبير**﴾، الذي كل شيء دونه، ﴿**المتعال**﴾، المستعلي على كل شيء بقدرته .

قوله تعالى: ﴿**سواءٌ منكم من أسرّ القولَ ومن جهر به**﴾، أي: يستوي في علم الله المُسِرُّ بالقول والجاهر به، ﴿**ومن هو مستخفٍ بالليل**﴾، أي: مستتر بظلمة الليل، ﴿**وساربٌ بالنهار**﴾، أي: ذاهب في سربه ظاهر .

والسَّرب ـ بفتح السين وسكون الراء ـ: الطريق[1] .

قال القتيبي: سارب بالنهار: أي متصرف في حوائجه .

قال ابن عباس [في هذه الآية][2]: هو صاحب ريبة، مستخفٍ بالليل، فإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم[3] .

وقيل: مستخف بالليل، أي: ظاهر، من قولهم: خفيت الشيء؛ إذا أظهرته، وأخفيته: إذا كتمته. وسارب بالنهار: أي متوارٍ داخل في سرب .

﴿**له معقبات**﴾، أي: لله تعالى ملائكة يتعاقبون فيكم بالليل والنهار، فإذا صعدت ملائكة الليل جاء في عقبها ملائكة النهار، وإذا صعدت ملائكة النهار جاء في عقبها ملائكة الليل .

والتعقيب: العود بعد البدء، وإنما ذكر بلفظ التأنيث لأن واحدها معقِّب، وجمعه معقِّبة، ثم

---

(١) اختلف أهل العلم بكلام العرب في «السَّرب» :
فقال بعضهم: «هو آمن في سَرْبه»، بفتح السين .
وقال بعضهم: «هو آمن في سِرْبه» بكسر السين .
انظر: الطبري: ١٦/٣٦٧ .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) الطبري: ١٦/٣٦٧ .

جمع الجمع معقّبات، كما قيل: ابناوات[1] سعد ورجالات بكر.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي، أخبرنا زاهر بن أحمد، أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي، أخبرنا أبو مصعب، عن مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يَتعاقَبُون فيكم، ملائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصر، ثم يَعْرُجُ الذين بَاتُوا فيكم، فيسأَلُهم ربهم ـ وهو أعلم بهم ـ: كيف تركتم عبادِي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلُّون وأتيناهم وهم يصلُّون»[2].

قوله تعالى: ﴿**من بين يديه ومن خلفه**﴾، يعني: من قدام هذا المستخفي بالليل والسارب بالنهار، ومن خلفه: من وراء ظهره، ﴿**يحفظونه من أمر الله**﴾، يعني: بأمر الله، أي: يحفظونه بإذن الله تعالى مالم يجيء المقدور، فإذا جاء المقدور خلوا عنه.

وقيل: يحفظونه من أمر الله: أي مما أمر الله به من الحفظ عنه.

قال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك موكَّل به، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوامّ، فما منهم شيء يأتيه يريده إلا قال وراءك! إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

قال كعب الأحبار: لولا أن الله عزّ وجلّ وكّل بكم ملائكة يَذُبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم لتخطَّفكم الجن.

وقال عكرمة: الآية في الأمراء وحرسهم يحفظونهم من بين أيديهم ومن خلفهم[3].

---

(١) في «ب»: انثاوات. وصححها الشيخ محمود شاكر في الطبري: سادات سعد، يقال: «سيد» و«سادة» و«سادات».

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر: ٢/٣٣، وفي بدء الخلق، ومسلم في المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما برقم (٦٣٢): ١/٤٣٩، والمصنف في شرح السنة: ٢/٢٢٦.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: (٢/٣٤): «قال القرطبي: الواو في قوله «يتعاقبون» علامة الفاعل المذكّر المجموع على لغة بلحارث وهم القائلون: أكلوني البراغيث، ومنه قول الشاعر: «بحوران يعصرن السليط أقاربه» وهي لغة فاشية، وعليها حمل الأخفش قولَه تعالى: (وأسرُّوا النجوى الذين ظلموا) قال: وقد تعسف بعض النحاة في تأويلها وردّها للبدل، وهو تكلّف مستغنى عنه، فإن تلك اللغة مشهورة ولها وجه من القياس واضح..».

(٣) ورجحه الطبري لأن قوله: (له معقّبات) أقرب إلى قوله: (ومن هو مستخفٍ بالليل) منه إلى (عالم الغيب) فهي لقربها منه أولى بأن تكون من ذكره، وأن يكون المعنيّ بذلك هذا مع دلالة قول الله تعالى: (وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردَّ له) على أنهم المعنيون بذلك.

وذلك أنه ـ جل ثناؤه ـ ذكر قوماً أهل معصية له وأهل ريبة، يستخفون بالليل ويظهرون بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرس يحرسهم، ومَنَعَةٍ تمنعهم من أهل طاعته أن يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصية الله. ثم أخبر أن الله ـ تعالى ذكره ـ إذا أراد بهم سوءاً لم ينفعهم حَرَسُهم، ولا يدفع عنهم حِفْظُهم».

وأما ابن عطية فرجح التأويل الأول، وقال: وعلى كلا التأويلين ليست الضمائر لمعيّنين من البشر.

انظر: تفسير الطبري: ١٦/٣٧٤، المحرر الوجيز لابن عطية ٨/١٣٧.

وقيل: الآية في المَلَكَيْن القاعِدَيْن عن اليمين وعن الشمال يكتبان الحسنات والسيئات، كما قال الله تعالى: ﴿إذْ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ (ق ـ ١٧) .

قال ابن جريج: معنى يحفظونه أي: يحفظون عليه أعماله من أمر الله، يعني: الحسنات والسيئات .

وقيل: الهاء في قوله ﴿له﴾: راجعة إلى رسول الله ﷺ :

روى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: له معقبات يعني لمحمد ﷺ حراس من الرحمن من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، [يعني: من شر الجن][1] وطوارق الليل والنهار[2] .

وقال عبدالرحمن بن زيد: نزلت هذه الآيات في عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة، وكانت قصتهما على ما روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

أقبل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة، وهما عامريان، يريدان رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور وكان من [أجلِّ][3] الناس / . ١٨٩/ أ

فقال رجل: يارسول الله، هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك، فقال: دعه فإن يرد الله به خيراً يهده .

فأقبل حتى قام عليه، فقال: يامحمد مالي إن أسلمت؟

قال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين» .

قال: تجعل لي الأمر بعدك .

قال: ليس ذلك إلي، إنما ذلك إلى الله عزّ وجلّ، يجعله حيث يشاء .

قال: فتجعلني على الوبر وأنت على المدر، قال: لا .

قال: فماذا تجعل لي؟

قال: أجعل لك أَعِنة الخيل تغزو عليها .

قال: أوليس ذلك إلي اليوم؟ قم معي أكلِّمك. فقام معه رسول الله ﷺ .

وكان [عامر][4] أوصى إلى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فَدُرْ من خلفه فاضربه بالسيف، فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه فدار أربد من خلف النبي ﷺ ليضربه، فاخترط من سيفه

---

(١) ساقط من «ب» .

(٢) هذا التفسير جاء ضمن حديث ابن عباس الآتي في قصة أربد، انظر التعليق التالي .

(٣) في «ب»: أجمل .

(٤) ساقط من «ب» .

شبراً، ثم حبسه الله تعالى عنه، فلم يقدر على سلّه، وجعل عامر يومىء إليه، فالتفت رسول الله ﷺ، فرأى أربد وما صنع بسيفه، فقال: اللهم أكفنيهما بما شئت.

فأرسل الله على أربد صاعقة في يوم صحو قائظ فأحرقته، وولّى عامر هارباً وقال: يامحمد دعوت ربك فقتل أربد والله لأملأنّها عليك خيلاً جرداً وفتياناً مرداً.

فقال النبي ﷺ: يمنعك الله تعالى من ذلك، وأبناء قيلة يريد: الأوس والخزرج.

فنزل عامر بيت امرأة سلولية، فلما أصبح ضمّ عليه سلاحه وقد تغير لونه، فجعل يركض في الصحراء، ويقول: ابرز ياملك الموت، ويقول الشعر، ويقول واللات والعزى لئن أبصرت محمد وصاحبه يعني ملك الموت لأنفذنّهما برمحي، فأرسل الله إليه ملكًا فلطمه بجناحه فأرداه في التراب وخرجت على ركبتيه في الوقت غُدَّة عظيمة، فعاد إلى بيت السلولية وهو يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية. ثم دعا بفرسه فركبه ثم أجراه حتى مات على ظهره فأجاب الله دعاء رسول الله ﷺ، فقتل عامر بن الطفيل بالطعن وأربد بالصاعقة، وأنزل الله عزّ وجلّ في هذه القصة قوله: **﴿سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار له معقبات من بين يديه﴾**، يعني لرسول الله ﷺ معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من أمر الله[1]. [يعني تلك المعقبات من أمر الله][2]، وفيه تقديم تأخير.

وقال لهذين: **﴿إنّ الله لا يُغيّر ما بقومٍ﴾**، من العافية والنعمة، **﴿حتى يُغيّروا ما بأنفسهم﴾**،

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٣٧٩-٣٨١، تفسير القرطبي: ٩/٢٩٦، أسباب النزول للواحدي ص (٣١٤-٣١٥)، ابن كثير: ٢/٥٠٧.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٧/٤٢): «رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفي إسنادهما عبدالعزيز بن عمران: ضعيف». ورواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ضعيفة.

قال الطبري: وهذا القول الذي قاله ابن زيد في تأويل هذه الآية، قول بعيد من تأويل الآية، مع خلافه أقوال مَنْ ذكرنا قوله من أهل التأويل.

وذلك أنه جعل «الهاء» في قوله: «له معقبات» من ذكر رسول الله ﷺ، ولم يَجْرِ له في الآية التي قبلها ولا في التي قبل الأخرى ذِكْرٌ، إلا أن يكون أراد أن يردّها على قوله: «إنما أنت منذر ولكل قومٍ هاد»، «له معقبات» فإن كان ذلك، فذلك بعيد، لما بينهما من الآيات بغير ذكر الخبر عن رسول الله ﷺ.

وإذا كان ذلك كذلك، فكونها عائدة على «مَنْ» التي في قوله: «ومَنْ هو مستخفٍ بالليل» أقربُ، لأنه قبلها، والخبر بعدها عنه.

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: سواء منكم ـ أيها الناس ـ من أسرَّ القول ومن جهر به عند ربكم، ومن هو مستخْفٍ بفسقه وريبته في ظلمة الليل، وسارب يذهب ويجيء في ضوء النهار ممتنعاً بجنده وحرسه الذين يتعقبونه من أهل طاعة الله أن يحولوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأن يقيموا حدَّ الله عليه، وذلك قوله: «يحفظونه من أمر الله».

وكذلك قال ابن عطية في المحرر الوجيز: (٨/١٣٧): «وهذه الآية وإن كانت ألفاظها تنطبق على معنى القصة، فيُضْعِف القولَ أن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في «له» عليه».

(٢) ساقط من «ب».

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾
وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

من الحال الجميلة فيعصوا ربهم.

﴿**وإذا أراد الله بقوم سوء**﴾، أي: عذاباً وهلاكاً ﴿**فلا مردّ له**﴾ أي: لا رادَّ له ﴿**وما لهم من دونه من وال**﴾، أي: ملجأ يلجؤون إليه. وقيل: والٍ يلي أمرهم ويمنع العذاب عنهم.

قوله عز وجل: ﴿**هو الذي يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً**﴾، قيل: خوفاً من الصاعقة، طمعاً في نفع المطر.

وقيل: الخوف للمسافر، يخاف منه الأذى والمشقة والطمع للمقيم يرجو منه البركة والمنفعة.

وقيل: الخوف من المطر في غير مكانه وإبَّانه، والطمع إذا كان في مكانه وإبَّانه، ومن البلدان ما إذا أمطروا وقحطوا وإذا لم يمطروا أخصبوا.

﴿**وينشيء السحاب الثقال**﴾، بالمطر. يقال: أنشأ الله السحابة فنشأت أي: أبداها فبدت، والسحاب جمعٌ، واحدتها سحابة، قال علي رضي الله عنه: السحاب غربال الماء.

﴿**ويسبحُ الرعدُ بحمده**﴾، أكثر المفسرين على أن الرعد اسم مَلَكٍ يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسبيحه[(١)].

قال ابن عباس: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليَّ ديته.

وعن عبدالله بن الزبير: أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث: وقال: سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا الوعيد لأهل الأرض شديد[(٢)].

وفي بعض الأخبار يقول الله تعالى: «لو أن عبادي أطاعوني لسقيتهم المطر بالليل، ولأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أُسْمِعْهم صوت الرعد»[(٣)].

---

(١) انظر فيما سبق: ١/٦٩-٧٠.

(٢) انظر: الأذكار للنووي ص (١٥٤) تفسير ابن كثير: ٢/٥٠٦ ففيهما الأذكار التي تقال عند سماع صوت الرعد.

(٣) حديث ضعيف أخرجه أبو داود والطيالسي في «المسند» ص (٣٣٧) رقم (٢٥٨٦)، والإمام أحمد في المسند: ٢/٣٥٩ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وصححه الحاكم في المستدرك: ٢/٣٤٩ فتعقبه الذهبي وقال: «صدقة واهٍ»، وهو صدقة بن موسى الدقيقي، صدوق له أوهام (تقريب). =

وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه إلى حيث يؤمر، وأن بحور الماء في نقرة إبهامه، وأنه يسبح الله تعالى، فإذا سبح لا يبقى مَلَكٌ في السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل القَطْر. ﴿والملائكة من خيفته﴾، أي: تسبح الملائكة من خيفة الله عزّ وجلّ وخشيته.

وقيل أراد بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد، جعل الله تعالى له أعواناً، فهم خائفون خاضعون طائعون.

قوله تعالى: ﴿ويرسلُ الصواعق﴾، جمع صاعقة، وهي: العذاب المهلك، ينزل من البرق فيحرق من يصيبه، ﴿فيصيبُ بها من يشاء﴾، كما أصاب أربد بن ربيعة.

وقال محمد بن علي الباقر: الصاعقة تصيب المسلم وغير المسلم ولا تصيب الذاكر.

﴿وهم يجادلون﴾، يخاصمون، ﴿في الله﴾، نزلت في شأن أربد بن ربيعة حيث قال للنبي ﷺ: ممَّ ربك أمن دُرٍّ أم من ياقوت أم من ذهب؟ فنزلت صاعقة من السماء فأحرقته(1).

وسُئل الحسن عن قوله عزّ وجلّ: ﴿ويرسلُ الصواعق﴾ الآية، قال: كان رجل من طواغيت العرب بعث إليه النبي ﷺ نفراً يدعونه إلى الله وإلى رسوله.

فقال لهم: أخبروني عن رب محمد هذا الذي تدعونني إليه ممَّ هو؟ من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس؟

فاستعظم القوم مقالته فانصرفوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يارسول الله ما رأينا رجلاً أكفر قلباً ولا أعتى على الله منه!

فقال: ارجعوا إليه، فرجعوا إليه، فجعل لا يزيدهم على مثل مقالته الأولى، وقال: أُجيب محمداً إلى رب لا أراه ولا أعرفه؟

فانصرفوا وقالوا: يارسول الله ما زادنا على مقالته الأولى وأخبث.

فقال ارجعوا إليه، فرجعوا، فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه، وهو يقول هذه المقالة إذ ارتفعت سحابة، فكانت فوق رؤوسهم، فرعدت وبرقت، ورمت بصاعقة، فاحترق الكافر، وهم جلوس، فجاؤوا يسعون ليخبروا رسول الله ﷺ، فاستقبلهم قوم من أصحاب النبي ﷺ، فقالوا لهم: احترق صاحبكم. فقالوا: من أين علمتم فقالوا أوحى الله إلى النبي ﷺ: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله﴾(2).

= وساقه ابن الجوزي في العلل المتناهية: ٢/٣٠٦، وضعفه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح: ٣/١٤٦١.

(1) انظر: تفسير ابن كثير: ٢/٥٠٧.

(2) انظر: أسباب النزول للواحدي ص (٣١٤)، الدر المنثور للسيوطي: ٤/٦٢٥، ٦٢٦، البحر المحيط: ٥/٣٧٥، ابن كثير: =

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿وهو شديد المحال﴾، قال علي رضي الله عنه: شديد الأخذ[١] .

وقال ابن عباس: شديد الحول[٢] .

وقال الحسن: شديد الحقد[٣] .

وقال مجاهد: شديد القوة[٤] .

وقال / أبو عبيدة: شديد العقوبة . ١٨٩/ب

وقيل: شديد المكر .

والمِحال والمُمَاحلة: المماكرة والمغالبة .

﴿له دعوةُ الحق﴾، أي: لله دعوة الصدق .

قال علي رضي الله عنه: دعوة الحق التوحيد[٥] .

وقال ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله[٥] .

وقيل: الدعاء بالإخلاص، والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عزّ وجلّ[٦] .

﴿والذين يدعون من دونه﴾، أي: يعبدون الأصنام من دون الله تعالى. **﴿لا يستجيبون لهم بشيء﴾**، أي: لا يجيبونهم بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر، **﴿إلاّ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ**

= ٥٠٧/٢، وبنحوه عن أنس، أخرجه أبو يعلى والبزار، والطبراني في الأوسط. ورجال أبي يعلى رجال الصحيح غير ديلم ابن غزوان، وهو ثقة، وفي رجال أبي يعلى والطبراني علي بن أبي شارة وهو ضعيف .
انظر: مجمع الزوائد: ٤٢/٧ .

(١) أخرجه الطبري: ٣٩٦/١٦. وقال الشيخ محمود شاكر: ٣٩٢/١٦: وهذا إسناد منكر .

(٢) الطبري: ٣٩٦/١٦ .

(٣) نسبه السيوطي لأبي الشيخ عن عكرمة الدر المنثور: ٦٢٧/٤. وأخرج الطبري عن عكرمة قال: ما أصاب أربد من الصاعقة . وأخرج الطبري أيضاً عن الحسن في تفسير الآية: يعني الهلاك. قال: إذا محل فهو شديد .
وما إخال هذا التفسير الذي ذكره المصنف يصح عن الحسن رحمه الله لأننا وجدنا خلافه في الطبري، والله سبحانه وتعالى لا يليق وصفه بهذا. والله أعلم .

(٤) انظر الطبري: المرجع السابق .

(٥) الطبري: ٣٩٨/١٦ .

(٦) وهذه المعاني كلها متقاربة وليس بينها اختلاف .

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ١٥﴾

فاه وما هو ببالغه﴾، أي: إلا كباسط كفيه ليقبض على الماء [والقابض على الماء][1] لا يكون في يده شيء، ولا يبلغ إلى فيه منه شيء، كذلك الذي يدعو الأصنام، وهي لا تضر ولا تنفع، لا يكون بيده شيء.

وقيل: معناه كالرجل العطشان الذي يرى الماء من بعيد، فهو يشير بكفه إلى الماء، ويدعوه بلسانه، فلا يأتيه أبداً، هذا معنى قول مجاهد.

ومثله عن علي وعطاء: كالعطشان الجالس على شفير[2] البئر، يمد يده إلى البئر فلا يبلغ قعر البئر إلى الماء، ولا يرتفع إليه الماء، فلا ينفعه بسط الكف إلى الماء ودعاؤه له، ولا هو يبلغ فاه كذلك الذين يدعون الأصنام لا ينفعهم دعاؤها، وهي لا تقدر على شيء.

وعن ابن عباس: كالعطشان إذا بسط كفيه في الماء لا ينفعه ذلك ما لم يغرف بهما الماء، ولا يبلغ الماء فاه ما دام باسطاً كفيه. وهو مثل ضربه لخيبة الكفار[3].

﴿وما دعاءُ الكافرين﴾، أصنامهم، ﴿إلاّ في ضلال﴾، يضل عنهم إذا احتاجوا إليه، كما قال: «وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون» (الأنعام ـ ٢٤ وغيرها).

وقال الضحاك عن ابن عباس: وما دعاء الكافرين ربهم إلاّ في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله تعالى.

قوله عزّ وجلّ: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً﴾، يعني: الملائكة والمؤمنين، ﴿وكَرْهاً﴾، يعني: المنافقين والكافرين الذين أكرهوا على السجود بالسيف.

﴿وظلالهم﴾، يعني: ظلال الساجدين طوعاً وكرهاً تسجد لله عزّ وجلّ طوعاً.

قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره.

﴿بالغدوّ والآصال﴾، يعني إذا سجد بالغدو أو العشي يسجد معه ظله.

و«الآصال»: جمع «الأصُل»، و«الأصُل» جمع «الأصيل»، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس.

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) في «أ»: شفة.

(٣) قال الطبري: ١٦/٣٩٩: والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً، بالقابض على الماء. قال بعضهم:

فإنّي وإيّاكم وشوقاً إليكُمُ ... كقابضِ ماءٍ لم تَسِقْهُ أنامِلُهْ

وقوله: «لم تَسِقْه» من وسقت الشيء أسقه وسقاً: إذا حملته.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ١٦﴾

وقيل: ظلالهم أي: أشخاصُهم، بالغدو والآصال: بالبُكَرِ والعَشَايا .

وقيل: سجود الظل تذليله لما أُريدَ له .

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ربُّ السمواتِ والأرض﴾، أي: خالقُهما ومدبِّرهما [فسيقولون الله][1]، لأنهم يقرُّون بأنَّ الله خالقهم وخالق السموات والأرض، فإذا أجابوك فقُل أنت أيضاً يامحمد: «الله» .

ورُوي أنه لما قال هذا للمشركين عطفوا عليه فقالوا: أَجِبْ أنت، فأمرهُ الله عزّ وجلّ فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ .

ثم قال الله لهم إلزاماً للحجة: ﴿قُلْ أفاتخذتم من دُونه أولياءَ﴾، معناه: إنكم مع إقراركم بأن الله خالق السموات والأرض اتخذتم من دونه أولياء فعبدتموها من دون الله، يعني: الأصنام، وهم ﴿لا يملِكُون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً﴾، فكيف يملكون لكم؟

ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هلْ يستوي الأعمى والبصير﴾، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، ﴿أمْ هلْ تستوي﴾، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ﴿يستوي﴾ بالياء، وقرأ الآخرون بالتاء لأنه لا حائل بين الاسم والفعل المؤنث. ﴿الظلمات والنور﴾، أي: كما لا يستوي الظلمات والنور لا يستوي الكفر والإيمان .

﴿أم جعلوا﴾، أي: جعلوا، ﴿لله شركاءَ خلقوا كخلقه فتشابه الخلقُ عليهم﴾، أي: اشتبه ما خلقوه بما خلقه الله تعالى فلا يدرون ما خلق الله وما خلق آلهتهم .

﴿قلِ اللَّهُ خالقُ كلِّ شيءٍ وهو الواحدُ القهارُ﴾ .

ثم ضرب الله تعالى مثلين للحق والباطل، فقال عز وجل :

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

﴿أنزل﴾ يعني: الله عزّ وجلّ، ﴿من السماء ماءً﴾، يعني المطر، ﴿فسالت﴾ من ذلك الماء، ﴿أوديةٌ بقدرها﴾، أي: في الصغر والكبر، ﴿فاحتمل السيلُ﴾، الذي حدث من ذلك الماء، ﴿زبداً رابياً﴾، الزَّبَد: الخَبَثُ الذي يظهر على وجهِ الماءِ، وكذلك على وجه القِدْر، «رابياً» أي عالياً مرتفعاً فوق الماء، فالماء الصّافي الباقي هو الحق، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل .

وقيل: قوله «أنزل من السماء ماءً» هذا مَثَلٌ للقرآن، والأودية مَثَلٌ للقلوب، يريد: ينزل القرآن، فتحمل منه القلوب على قدر اليقين والعقل والشكِ والجهلِ. فهذا أحدُ المَثَلَين .

والمثل الآخرُ: قوله عزّ وجلّ: ﴿ومما يُوقدون عليه في النار﴾ .

قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿يوقدون﴾ بالياء لقوله تعالى: ﴿ما ينفع الناس﴾، ولا مخاطبة هاهنا .

وقرأ الآخرون بالتاء ﴿ومما توقدون﴾، أي: ومن الذي توقدون عليه في النار .

والإيقاد: جعل النار تحت الشيء ليذوب .

﴿ابتغاء حِلْيةٍ﴾، أي لطلب زينة، وأراد الذهبَ والفضةَ؛ لأن الحلية تُطلبُ منهما، ﴿أو متاعٍ﴾ أي: طلب متاع وهو ما ينتفع به، وذلك مثل الحديد، والنحاس، والرصاص، والصُّفْر، تذاب فيتخذ منها الأواني وغيرها مما ينتفع بها، ﴿زبدٌ مثله﴾ .

﴿كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل﴾، أي: إذا أُذيبَ فله أيضاً زبد مثل زبد الماء، فالباقي الصافي من هذه الجواهر مثل الحق، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل .

﴿فأمّا الزبد﴾، الذي علا السيل والفِلِزّ، ﴿فيذهب جُفَاءً﴾ أي: ضائعاً باطلاً، والجفاء ما رمى به الوادي من الزَّبَد، والقِدْرُ إلى جنباته .

يقال: جفا الوادي وأَجفَأَ: إذا ألقى غُثاءهُ، وأَجْفَأَتِ القِدْر وجَفَأَت: إذا غلَت وألقت زَبَدها، فإذا سكنت لم يبق فيها شيء .

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم
مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ
هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

معناه: إن الباطل وإن علا في وقتٍ فإنه يضمَحِلُّ.

وقيل: «جُفَاءً» أي: متفرقاً. يقال: جفأتِ الريحُ الغيمَ إذا فرَّقتْه وذهبَت به.

﴿وأمّا مَا ينفع الناس﴾، يعني: الماء والفلز من الذهب والفضة والصفر والنحاس، ﴿فيمكث في الأرض﴾، أي: يبقى ولا يذهبُ.

﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾، جعل الله تعالى هذا مثلاً للحق والباطل، أي: أنَّ الباطل كالزبد يذهبُ ويضيع، والحقّ كالماء والفلز يبقى في القلوب.

وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أنَّ أمر المشركين كالزبدِ يُرى في الصورةِ شيئاً وليس له حقيقة، وأمرُ المؤمنين كالماءِ المستقرِّ في مكانه له البقاءُ والثبات.

قوله تعالى: ﴿للذين استجابوا لربهم﴾، أجابوا، لربِّهم، فأطاعوه، ﴿الحُسنَى﴾ الجنة، ﴿والذين لم يستجيبوا له لو أنَّ لهم ما في الأرضِ جميعاً وَمِثلهُ مَعَهُ لافتَدَوا بِه﴾، أي: لبذلوا ذلك يوم القيامة افتداءً من النار، ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾. قال إبراهيم النخعيّ: سُوءُ الحساب: أن يحاسَبَ الرجلُ بذنبه كلّه لا يغفر له من شيء / ﴿ومأواهم﴾ في الآخرة ﴿جهنَّمُ وبئسَ المِهَاد﴾، الفِراش، أي: بئس ما مُهد لهم. ١٩٠/ أ

قوله تعالى: ﴿أفَمَن يَعْلَمُ أنَّ ما أُنزلَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ﴾، فيؤمن به ويعمَلُ بما فيه، ﴿كمن هو أعمى﴾،عنهُ لا يعلمُه ولا يعملُ به.

قيل: نزلت في حمزة وأبي جهل.

وقيل: في عمّار وأبي جهل(١).

فالأول حمزة أو عمّارٌ والثاني أبو جهل، وهو الأعمى.

أي: لا يستوي من يُبصر الحق ويتبعُه ومن لا يُبصرُه ولا يتبعُهُ.

﴿إنّما يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ، ﴿أوُلوا الألبابِ﴾. ذوو العقول.

---

(١) ذكر ذلك ابن عطية في المحرر الوجيز: ١٦٠/٨ ثم قال: «وهي ـ بعد هذا ـ مثال في جميع العالم».

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾

﴿الذين يُوفُون بِعَهدِ الله﴾، بما أمرهم الله تعالى به وفَرَضَهُ عليهم فلا يُخالفونه، **﴿ولا يَنقُضُونَ المِيثاقَ﴾**، وقيل: أراد العهدَ الذي أخذه على ذرية آدمَ عليه السلام حين أخرَجهم من صُلبه.

﴿والذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ الله بِه أن يُوصَلَ﴾، قيل: أراد به الإيمان بجميع الكتب والرسل ولا يفرقون بينهما.

والأكثرون على أنه أرادَ به[1] صِلةَ الرَّحِم[2].

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد ابن أحمد بن عبدالجبار الرَّياني، حدثنا حميد بن زنجويه، حدثنا ابن أبي شيبة، حدثنا سُفيان بن عُيينة، عن الزهريّ، عن أبي سلمة أنَّ عبدالرحمن بن عوف عادَ أبا الدَّرداء فقال ـ يعني عبدالرحمن ـ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: فيما يحكي عن ربه عزّ وجلّ: «أنا اللّهُ، وأنا الرحمن، وهي الرَّحِمُ، شققت لها من اسمي اسماً، فمن وصلها وصَلتُه ومن قطعَها بَتَتُّه»[3].

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الرَّياني، حدثني حميد ابن زنجويه، حدثنا ابن أبي أويس[4]، قال: حدثني سليمان بن بلال عن معاوية ابن أبي مُزَرِّد، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرَّحِمُ فأخذت بِحَقْوَيِ الرَّحمنِ، فقال: مَهْ، قالت: هذا مقامُ العائذ بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أَصِلَ من وصلك وأقطعَ من قطعكِ؟ قالت: بلى ياربِّ، قال: فذلك لكِ»، ثم

---

(١) جملة «أراد به» ساقطة من «ب».

(٢) ولم يذكر الطبري غيره، وأما ابن عطية فقال: «ووَصْل ما أمر الله به أن يُوصل، ظاهِرةٌ في القرابات، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات». المحرر الوجيز ٨/١٦٠.
وعلى ذلك فيدخل في معنى الآية أيضاً الإيمان بجميع الكتب والرسل وسائر ما يجب الإيمان به.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف: ٨/٥٣٦، وعبدالرزاق في مصنفه: ١١/١٧٢، وأخرجه أبو داود في الزكاة، باب صلة الرحم: ٢/٢٦٢، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في قطيعة الرحم: ٦/٣٣، وقال: حديث صحيح. قال المنذري: وفي تصحيحه نظر فإن يحيى بن معين قال: أبو سلمة بن عبدالرحمن لم يسمع من أبيه شيئاً، وذكر غيره أن أبا سلمة وأخاه لهما سماع من أبيهما.
وصححه الحاكم في المستدرك: ٤/١٥٧-١٥٨، وابن حبان ص (٤٩٨-٤٩٩) من موارد الظمآن، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ١/١٩٤، والمصنف في شرح السنة: ١٣/٢٢. وانظر: مجمع الزوائد: ٨/١٤٩.

(٤) في «ب»: أوس.

قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم «فهل عَسيتُم إن توليتم أن تُفسِدوا في الأرضِ وتُقطِّعوا أرحامكم»[(١)] (محمد ـ ٢٢) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السَّمعانيُّ، أنبأنا أبو جعفر الريَّاني، حدثنا حميد ابن زنجَويه، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا كثير بن عبدالله اليشكري، حدثنا الحسن بن عبدالرحمن ابن عوف عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «ثلاثةٌ تحت العَرْشِ يوم القيامة: القرآنُ يُحَاجُّ العباد، له ظهرٌ وبطنٌ، والأمانةُ، والرَّحِمُ تنادي ألاَ مَنْ وصَلني وصله الله ومَنْ قطعني قطعَه الله»[(٢)] .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أبو منصور السمعاني، أخبرنا أبو جعفر الريَّاني، أخبرنا حميد ابن زنجويه، حدثنا عبدالله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني عُقيلٌ عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبَّ أن يُبْسَطَ له في رزقه ويُنْسأ له في أثره فليصلْ رحمه»[(٣)] .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا عبدالرحمن بن أبي شُريح، أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد ابن عبدالعزيز البغوي، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا شعبة، عن عُيينة بن عبدالرحمن قال: سمعت أبي يحدِّث عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «ما مِنْ ذَنْبٍ أحرى أن يعجِّل الله لصاحبه العقُوبةَ في الدنيا مع ما يدَّخِرَ له في الآخرة من البغي وقطيعةِ الرَّحِمِ»[(٤)] .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب من وصل وصله الله: ١٠/٤١٧، وفي التفسير أيضاً، وأخرجه مسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها برقم (٢٥٥٤): ٤/١٩٨٠ـ١٩٨١ وليس فيه «فأخذت بحقوي الرحمن» وفي بعض الروايات «بحقو الرحمن» وفي بعضها «بحجزة الرحمن»، انظر: فتح الباري ١٠/٤١٧ـ٤١٨ .

وأخرجه المصنف بهذا اللفظ في شرح السنة: ١٣/٢١، ثم قال:

قيل في معنى التعلّق بحقو الرحمن: إنه الاستجارة والاعتصام بالله سبحانه وتعالى، يقال: عُذْت بحقو فلان: إذا استجرت به .

وقيل: الحقو: الإزار، وإزاره: عزُّه، ولاذت الرحم بعزِّه من القطيعة، كما جاء في الحديث في دعاء المشتكي: «أعوذ بعزة الله من شرِّ ما أجد» (أخرجه مالك، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه) .

(٢) أخرجه المصنف في شرح السنة: ١٣/٢٢ـ٢٣، ونسبه السيوطي في الجامع الصغير للحكيم الترمذي في نوادره، ومحمد بن نصر في فوائده .

قال المناوي في «فيض القدير»: ٣/٣١٧ «وفيه كثير بن عبدالله اليشكري، متكلّم فيه»، وقال الذهبي في «الميزان»: ٣/٤٠٩: «كثير بن عبدالله، عن الحسن بن عبدالرحمن بن عوف، عن أبيه، وعنه عن مسلم بن إبراهيم، قال العقيلي: لا يصح إسناده» وذكر له هذا الحديث .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم: ١٠/٤١٥، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم، برقم (٢٥٥٧): ٤/١٩٨٢، والمصنف في شرح السنة: ١٣/١٨ـ١٩ .

وقوله: «يُنسأ في أثره» معناه: يؤخّر في أجله، يقال: نسأ الله في عمرك، وأنسأ عمرك. والأثر هاهنا: آخر العمر، وسمي الأجل أثراً، لأنه يتبع العمر .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في النهي عن البغي: ٧/٢٢٥، والترمذي في صفة القيامة، باب انظروا إلى من أسفل منكم: =

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

أخبرنا أحمد بن عبدالله الصالحي، أخبرنا أبو الحسين بن بشران، أخبرنا إسماعيل بن محمد الصفّار، أخبرنا أحمد بن منصور الزيادي، حدثنا عبدالرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنَّة قاطِعُ»(١).

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أخبرنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادي، حدثنا أحمد بن إسحاق الصيدلاني، أخبرنا أبو نصر أحمد بن محمد بن نصر، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا عمرو بن عثمان قال سمعت موسى بن طلحة يذكر عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن أعرابياً عرض لرسول الله ﷺ في مسير له فقال: أخبرني بما يقربني من الجنَّة ويباعدني من النار، قال ﷺ: «تعبدُ الله، لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصل الرحم»(٢).

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد ابن زنجويه حدثنا أبو يعلى وأبو نُعيم قالا: حدثنا قطر، عن مُجاهد، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصلُ بالمكافىء، ولكنَّ الواصلَ الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُه وَصَلَها»(٣)، [رواه محمد بن إسماعيل عن محمد بن كثير عن سُفيان عن قطر وقال: إذا قطعت رحمه وصلها](٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُم وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾، على طاعة الله، وقال ابن عباس: على أمر الله عزّ وجلّ. وقال عطاء: على المصائب والنوائب. وقيل: عن الشهوات. وقيل: عن المعاصي.

﴿ابتِغَاءَ وَجهِ رَبِّهِم﴾، طلب تعظيمه أن يخالفوه.

= ٧/٢١٣-٢١٤، وقال: هذا حديث صحيح، وابن ماجه في الزهد، باب البغي، برقم (٤٢١١): ٢/١٤٠٨، وصححه الحاكم في المستدرك: ٤/١٦٣. وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٥/٣٨، والمصنف في شرح السنة: ١٣/٢٦.

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب إثم القاطع: ١٠/٤١٥، ومسلم في البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، برقم (٢٥٥٦): ٤/١٩٨١، والمصنف في شرح السنة: ١٣/٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة: ١٣/٢٦١، ومسلم في الإيمان باب بيان الإيمان الذي يُدْخِل الجنة، برقم (١٣): ١/٤٢-٤٣، والمصنف في شرح السنة: ١/٢١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب ليس الواصل بالمكافىء: ١٠/٤٢٣، والمصنف في شرح السنة: ١٣/٣٠.

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾

﴿وأقاموا الصلاةَ وأنفقوا ممّا رَزَقناهم سِراً وعَلانِيَةً﴾، يعني يؤدّون الزكاةَ .

﴿وَيَدرَؤنَ بالحَسَنَةِ السَّيِّئةَ﴾، رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يدفعون بالصالح من العمل السيءَ من العمل، وهو معنى قوله: «إنّ الحسنَاتِ يُذهِبنَ السَّيِّئاتِ» (هود ـ ١١٤) .

وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا عملتَ سيئةً فاعملْ بجنبها حسنةً تمحها، السِرُّ بالسرِ والعلانيةُ بالعلانية»[(١)] .

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبدالله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة، حدثني يزيد بن أبي حبيب، حدثنا أبو الخير، أنه سمع عقبة بن عامر رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجلٍ كانت عليه درعٌ ضيِّقةٌ قد خنقته، ثم عَمِل حسنة، فانفكّت عنه حلقة، ثم عمل أخرى فانفكت أخرى، حتى يخرج إلى الأرض»[(٢)].

وقال ابن كيسان: معنى الآية: يدفعون الذنب بالتوبة .

وقيل: لا يكافئون الشرَّ بالشرّ، ولكن يدفعون الشرَّ بالخير .

وقال القتيبي: معناه: إذا سُفِهَ عليهم حَلِمُوا، فالسفهُ: السيِّئةُ، والحلمُ: الحسنة .

وقال قتادة: ردوا عليهم معروفاً، نظيره قوله تعالى: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً» (الفرقان ـ٦٣) .

وقال الحسن: إذا حُرِمُوا أعطوا وإذا ظُلِمُوا عَفَوْا وإذا قُطِعُوا وصلوا .

قال عبدالله بن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرةٌ إلى ثمانية أبواب الجنة .

﴿أولئِكَ لهم عُقبَى الدَّارِ﴾، يعني الجنة، أي: عاقبتهم دار الثواب. ثم بيّن ذلك فقال :

﴿جَنّاتُ عَدنٍ﴾، بساتين إقامة / ﴿يَدخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم ١٩٠/ب

(١) أخرجه الإمام أحمد: ١٦٩/٥، قال الهيثمي في المجمع: (٨١/١٠): «رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن شهر بن عطية حدّث به عن أشياخه عن أبي ذر، ولم يسمّ أحداً .
وروى الإمام أحمد عن عطاء مرسلاً في «الزهد»: إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة: السرّ بالسر، والعلانية بالعلانية».
قال العراقي: وفيه انقطاع . انظر: فيض القدير: ٤٠٦/١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ١٤٥/٤، وعزاه الهيثمي للطبراني، وقال: «وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح».
وأخرجه المصنف في شرح السنة: ٣٣٩/١٤. وفيه ابن لهيعة .
وانظر: مجمع الزوائد: ٢٠١/١٠ـ٢٠٢، فيض القدير للمناوي: ٥٢٠/٢ .

سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

والمَلائِكَةُ يَدخُلونَ عَلَيهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾، قيل: من أبواب الجنة. وقيل: من أبواب القصور.

﴿سَلامٌ عَلَيكُم﴾، أي: يقولون سلام عليكم.

وقيل: يقولون: سلمكم الله من الآفات التي كنتم تخافونَ منها.

قال مقاتل: يدخلون عليهم في مقدار يوم وليلة من أيام الدنيا ثلاث كرَّات، معهم الهدايا والتحف من الله عزّ وجلّ، يقولون سلام عليكم، **﴿بِمَا صَبَرتُم فَنِعْمَ عُقبَى الدَّارِ﴾**.

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أخبرنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبدالله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك، عن بقية بن الوليد، حدثني أرطاة بن المنذر قال: سمعت رجلاً من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول: جلستُ إلى أبي أُمامة فقال: إن المؤمن ليكون متّكئاً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سِماطَان من خَدَمٍ، وعند طرف السِّماطين باب مبوَّبٌ[(١)].

فيُقبِلُ مَلَك من ملائكة الله يستأذن، فيقوم أقصى الخدم[(٢)] إلى الباب، فإذا هو بالملَك يستأذن، فيقول للذي يليه: ملك يستأذن ويقول الذي يليه للذي يليه ملك يستأذن كذلك حتى يبلغ المؤمن، فيقول: ائذنوا له، [فيقول أقربهم إلى المؤمن][(٣)]: ائذنوا له، [ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنوا له][(٣)] كذلك حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب، فيُفتح له فيدخل، فيسلم ثم ينصرف[(٤)].

﴿والَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهدَ اللهِ مِنْ بَعدِ مِيثاقِهِ﴾، هذا في الكفار. **﴿وَيَقطَعونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾**، أي: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض. وقيل: يقطعون الرّحم[(٥)]، **﴿وَيُفسِدونَ في**

---

(١) باب مُبَوَّب: مصنوع معقود، وإن شئت قلت: قد اتخذ له بواباً يحرسه.

(٢) في الأصل: أدنى الخدم. والمثبت من الدر المنثور والطبري: فهو أليق بالسياق.

(٣) ما بين القوسين من «ب».

(٤) أخرجه ابن جرير: ١٦/٤٢٥-٤٢٦، وفيه بقية بن الوليد: صدوق كثير التدليس عن الضعفاء، وقد صرّح هنا بالتحديث. ورواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش عن أرطاة بن المنذر عن أبي الحجاج يوسف الألهاني، قال: سمعت أبا أمامة، فذكر نحوه.
انظر: الدر المنثور: ٤/٦٤٠، تفسير ابن كثير: ٢/٥١٢، حاشية الشيخ محمود شاكر على الطبري في الموضع السابق.

(٥) انظر فيما سبق تفسير الآية (٢١) من السورة ص (٣١٠) مع التعليق.

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

الأرض﴾، أي: يعملون بالمعاصي، **﴿أولئك لهُمُ اللّعنَةُ ولَهَمْ سُوءُ الْدارِ﴾**، يعني: النار، وقيل: سوء المنقلب لأن منقلب الناس دُورُهم.

قوله عزّ وجلّ: **﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاء ويَقْدِر﴾**، أي: يُوسّع على من يشاء ويُضيقُ على من يشاء.

﴿وفَرِحُوا بِالحياةِ الدُّنيا﴾، يعني: مشركي مكة أشِروا وَبطروا، والفرح: لذة في القلب بِنَيْل المشتهى، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام.

﴿وما الحياةُ الدُّنيا في الآخِرةِ إلاّ مَتَاعٌ﴾ أي: قليل ذاهب. قال الكلبي: كمثل السُكرجةِ والقَصعة والقدَحِ والقِدرِ ينتفع بها [ثم تذهب][(١)].

﴿ويقولُ الذينَ كفروا﴾، من أهل مكة، **﴿لولا أُنزِلَ عَليهِ آيةٌ من رَبّهِ قُلْ إنّ الله يُضِلُّ من يَشاءُ ويهدي إليهِ مَنْ أَنابَ﴾** [أي: يهدي إليه من يشاء بالإنابة. وقيلَ: يرشدُ إلى دينه من يرجع إليه بقلبه][(٢)].

﴿الذينَ آمنوا﴾، في محل النصب، بدلٌ من قوله: «من أَنَابَ»، **﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾**، تسكن، **﴿قُلوبُهم بِذِكرِ الله﴾**، قال مقاتل: بالقرآن، والسُّكون يكون باليقين، والاضطراب يكونُ بالشك، **﴿ألا بذكرِ الله تَطمَئِنُّ القُلوبُ﴾**، تسكن قلوب المؤمنين ويستقر فيها اليقين.

قال ابن عباس: هذا في الحَلِف، يقول: إذا حلف المسلم[(٣)] بالله على شيءٍ تسكن قلوبُ المؤمنينَ إليه[(٤)].

فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: «إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر اللَّهُ وَجِلَتْ قلوبُهم» (الأنفال ـ ٢)، فكيف تكونُ الطمأنينةُ والوَجَل في حالةٍ واحدةٍ؟

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: المؤمن.

(٤) ساقط من «ب».

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ٢٩﴾

قيل: الوَجَل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطمأنينة عند ذكر الوعد والثواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدة حسابه، وتطمئنُّ إذا ذكرت فضل الله وثوابه(١) وكرمه .

﴿الَّذِينَ آمَنوا وَعمِلُوا الصَّالحاتِ﴾، ابتداءٌ، ﴿طُوبَى لَهُم﴾ خبرهُ .

واختلفوا في تفسير ﴿طوبى﴾(٢) .

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: فَرَحٌ لهم وقُرَّةُ عين .

وقال عكرمة: نِعْمَ مالهم .

وقال قتادة: حسنى لهم .

وقال معمرٌ عن قتادة: هذه كلمة عربية، يقول الرجل للرجل: طوبى لك أي أصبت خيراً .

وقال إبراهيم: خير لهم وكرامة .

وقال الفراء: [أصله من الطيب، والواو فيه لضمة الطاءِ، وفيه لغتان، تقول العربُ: طوباك وطوبى لك أي لهم الطيب](٣) .

﴿وحُسْنُ مَآب﴾ أي: حسن المنقلب .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية .

قال الربيع: هو البستان بلغة الهند .

ورُوي عن أبي أمامة وأبي هريرة وأبي الدرداء قالوا: [طوبى شجر في الجنة تُظِلُّ الجنانَ كلها .

وقال عبيد بن عمير](٣). هي شجرة في جنة عدن أصلها في دار النبي ﷺ، وفي كل دار وغرفةٍ غصن منها لم يخلق الله لوناً ولا زهرةً إلا وفيها منها إلا السواد، ولم يخلق الله تعالى فاكهةً ولا ثمرة إلا وفيها منها. تنبع من أصلها عينان: الكافور والسلسبيل .

قال مقاتل: كل ورقة منها تُظِلُّ أمة عليها مَلَكٌ يُسبِّح الله عز وجل بأنواع التسبيح(٤) .

---

(١) ساقط من «أ» .

(٢) انظر في تفسير طوبى، والروايات، في: الطبري: ١٦/٤٣٤-٤٤٤، الدر المنثور: ٤/٦٤٢-٦٤٣ .

(٣) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٤) هذه الروايات، وغيرها من الروايات، التي تتضمن زيادات كثيرة عن الحديث الصحيح الذي سيأتي في تفسير «طوبى»، وفيها مبالغات كثيرة، وقد ساقها الطبري، وتعقب بعضها الحافظ ابن كثير - رحمه الله - هذه الروايات من الاسرائيليات، وحسبنا في تفسير «طوبى» الحديث الصحيح المتفق عليه الذي ساقه المصنف من رواية أبي هريرة رضي الله عنه . وانظر: الاسرائيليات والموضوعات لأبي شهبة ص (٣٢٣-٣٢٦) .
وأشار ابن عطية في المحرر الوجيز: ٨/١٦٨ إلى تلك الروايات والمبالغات التي مقتضاها أن هذه الشجرة ليست في الجنة

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ ما طوبى؟ قال: «شجرةٌ في الجنة مسيرة مائة سنة، ثيابُ أهل الجنة تخرجُ من أكامِهَا»(١) .

وعن معاوية بن قُرَّة عن أبيه يرفعُه: «طوبى شجرةٌ غرسها الله تعالى بيده، ونفخَ فيها من رُوحه، تنبت الحُلِي والحُلَل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سُور الجنة»(٢) .

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبدالله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك عن إسماعيل بن أبي خالد، عن زيادٍ مولى بني مخزوم، أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: إنَّ في الجنة لشجرةً يسير الراكبُ في ظلّها مائة سنةٍ [لا يقطعها](٣)، اقرؤوا إن شئتم: «وظل ممدود» (الواقعة ـ ٣٠) فبلغ ذلك(٤) كعباً فقال: صدق والذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام والقرآن على محمد ﷺ، لو أنّ رجلاً ركب حقة أو جذعة ثم دار بأصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هَرِماً، إن الله تعالى غرسَها بيده ونفخ فيها من رُوحه، وإنّ أفنانها لمن وراءِ سور الجنة، ما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة(٥) .

وبهذا الإسناد عن عبدالله بن المبارك عن معمر عن الأشعث بن عبدالله عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرة يقال لها طوبى، يقول الله عزّ وجلّ لها: تفتَّقِي لعبدي عما شاء فتنفتق له عن فرس بسرجه ولجامِه وهيئتِه كما شاء، يفتق له عن الرَّاحلة بَرحلها وزِمَامِها

= دار إلا وفيها من أغصانها، وأنها تثمر ثياب أهل الجنة، وأن منها الخيل بسُرُجها ولُجُمِها... ونحو هذا مما لا يثبت سنده» .

(١) أخرجه الطبري: ٤٤٣/١٦ـ٤٤٤، والإمام أحمد في المسند: ٧١/٣، وابن حبان برقم (٢٦٢٥) ص (٦٥٢) من موارد الظمآن، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد: ٩١/٤ مطولاً. وانظر: كنز العمال: ٤٥٧/١٤، الدر المنثور: ٦٤٤/٤ .
والحديث من رواية «درّاج» (أبو السَّمْح)، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، وهو إسناد ضعيف. ونقل الإمام عبدالله بن أحمد ابن حنبل عن أبيه أن دراجا : روايته منكرة .

(٢) أخرجه الطبري في التفسير: ٤٤٣/١٦، وفيه محمد بن زياد الجريري: وهو كذاب خبيث يضع الحديث. وفرات بن أبي الفرات: قال ابن معين عنه: ليس بشيء .
انظر تعليق الشيخ محمود شاكر في الموضع السابق .

(٣) ساقط من «ب» .

(٤) ساقط من «ب» .

(٥) عزاه السيوطي بطوله في الدر المنثور لعبد بن حميد: ٦٤٩/٤، وقد أخرج عبد بن حميد في المنتخب ص (٤٢٤) القطعة الأولى منه، وأخرجه عن أنس ص (٣٥٦) .
وأخرج القطعة الأولى منه إلى قوله: (اقرؤوا إن شئتم...): البخاريُّ في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة: ٣١٩/٦، ومسلم في الجنة باب إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها... برقم (٢٨٢٦): ٢١٧٥/٤، والمصنف في شرح السنة: ٢٠٧/١٥ .

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾

[وهيئتها][1] كما شاء وعن الثياب[2].

قوله عزّ وجلّ ﴿**كَذَلِكَ أرسلناكَ في أمَّة**﴾: كما أرسلنا الأنبياءَ إلى الأمم أرسلناك إلى هذه الأمة، ﴿**قد خلَتْ**﴾، مضت، ﴿**من قبلِها أممٌ لتتلُوا**﴾، لتقرأ، ﴿**عَلَيهِمُ الذي أوحَينا إليك وهم يكفُرون بالرحمن**﴾.

قال قتادة، ومقاتل، وابن جريج: الآية مدنية نزلت في صُلح الحديبية، وذلك أن سهيل بن عَمرو لمَّا جاء إلى النبي ﷺ واتفقوا على أن يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله ﷺ / لعلي رضي الله عنه: اكتبْ«بسم الله الرحمن الرحيم»، قالوا: لا نعرف الرَّحمنَ إلا صاحب اليمامة ـ يعنون مسيلمةَ الكذّابَ ـ اكتب كما كنتَ تكتب: «باسمكَ اللهم»، فهذا معنى قوله: ﴿**وهم يكفرون بالرحمن**﴾[3]. ١٩١/أ

والمعروف أن الآية مكية، وسبب نزولها: أن أبا جهل سمع النبي ﷺ وهو في الحِجْر يدعُو يا الله يارَحمن، فرجع إلى المشركين فقال: إن محمداً يدعو إلهين؛ يدعو الله، ويدعو إلهاً آخر يسمى الرحمن، ولا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية، ونزل قوله تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى»[4] (الإسراء ـ ١١٠).

وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في كفّار قريش حين قال لهم النبي ﷺ: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمن[5]؟ قال الله تعالى: ﴿**قُل**﴾، لهم يامحمد إنَّ الرحمن الذي أنكرتم معرفته، ﴿**هُوَ رَبِي لاَ إلهَ إلاّ هوَ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ**﴾، اعتمدتُ ﴿**وإليهِ مَتَاب**﴾، أي: توبتي ومرجعي.

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) وأخرجه الطبري: ١٦/٤٣٨، وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف. وعزاه السيوطي أيضاً: لعبدالرزاق، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن أبي حاتم.
انظر: الدر المنثور: ٤/٦٤٣.

(٣) أخرجه الطبري: ١٦/٤٤٥ـ٤٤٦، وزاد السيوطي نسبته لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة، ولابن المنذر عن ابن جريج.
انظر: الدر المنثور: ٤/٦٥٠، أسباب النزول للواحدي ص (٣١٥)، القرطبي: ٩/٣١٧ـ٣١٨، البحر المحيط: ٥/٣٩٠.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٩/٣١٨، ١٣/٦٤، البحر المحيط: ٥/٣٩٠.

(٥) انظر: أسباب النزول للواحدي ص (٣١٥)، القرطبي: ٩/٣١٨، البحر المحيط: ٥/٣٩٠.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ
ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿وَلو أَنَّ قُرآناً سُيِّرتْ بِهِ الجِبَالُ﴾، الآية. نزلت في نفر من مشركي مكة؛ منهم أبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أمية؛ جلسوا خلف الكعبة وأرسلوا إلى النبي ﷺ، فأتاهم، فقال له عبدالله بن أبي أمية: إن سرَّك أن نتبعك فسيِّر جبال مكة بالقرآن فأذهِبْها عنا حتى تنفسح، فإنها أرض ضيقة لمزارعنا، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، لنغرس فيها الأشجار ونزرعَ، ونتخذ البساتين، فلستَ كما زعمت بأهون على ربك من داود عليه السلام حيث سخر له الجبال تُسبح معه، أو سخِّرْ لنا الريحَ فنركبَها إلى الشام لميرتنا وحوائجنا ونرجعَ في يومنا، فقد سُخرت الريحُ لسُليمانَ كما زعمتَ، ولستَ بأهون على ربك من سُليمان، وأحيي لنا جدَّك قُصَيّاً أو مَنْ شئت من آبائنا وموتانا لنسأله عن أمرك أحقٌّ ما تقول أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى، ولستَ بأهون على الله منه فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ولو أَنَّ قرآناً سُيِّرتْ بِهِ الجبال﴾[1] فأذهبت عن وجه الأرض، ﴿أو قُطِّعت بِهِ الأرضُ﴾، أي: شققت فجعلت أنهاراً وعُيوناً ﴿أَو كُلِّمَ بِهَ الموتى﴾ واختلفوا في جواب «لو» :

فقال قوم: جوابه محذوف، اكتفى بمعرفةِ السامعين مرادَه[2] وتقديره: لكان هذا القرآن، كقول الشاعر :[3] .

فَأُقسِمُ لَوْ شَيءٌ أَتَانَا رَسُولُه * سِوَاكَ ولَكِنْ لم نَجِدْ لَكَ مَدْفَعاً

أراد: لرددناه، وهذا معنى قول قتادة قال: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم .

وقال آخرون: جواب لو مقدَّم. وتقدير الكلام: وهم يكفرون بالرحمن «وَلَو أَنَّ قُرآناً سُيِّرت بِهِ الجِبالُ»[4]، كأنه قال: لو سيرت به الجبال «أو قُطِّعت بِهِ الأرضُ أو كُلمَ بِهِ الموتى» لكفروا

---

(١) انظر الطبري: ١٦/٤٤٩ـ٤٥٠، أسباب النزول للواحدي ص (٣١٦)، تفسير القرطبي: ٩/٣١٨، البحر المحيط: ٥/٣٩١، الدر المنثور: ٤/٦٥١ـ٦٥٣، تفسير ابن كثير: ٢/٤١٦ .

(٢) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٤٤٨ـ٤٤٩، البحر المحيط: ٥/٣٩١ .

(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص (١١٣). وانظر: الطبري: ١٥/٢٧٧، ١٦/٤٤٨ .

(٤) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٤٤٦ـ٤٤٧، البحر المحيط: ٥/٣٩١ .

بالرحمن ولم يؤمنوا، لِما سبقَ من علمنا فيهم، كما قال: «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا لِيُؤْمِنوا» (الأنعام ـ ١١١) ثم قال:

﴿بَل لله الأمرُ جميعاً﴾، أي: في هذه الأشياء إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

﴿أفَلَمْ ييأسِ الذين آمنوا﴾، قال أكثر المفسرين: معناه أفلم يعلم. قال الكلبي: هي لغة النَّخَع[(١)].

وقيل: لغة هوازن، يدل عليه قراءة ابن عباس: «أفلم يتبين الذين آمنوا»[(٢)].

وأنكر الفرَّاء أن يكون ذلك بمعنى العلم، وزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول: يئستُ، بمعنى: علمتُ، ولكن معنى العلم فيه مضمر[(٣)].

وذلك أن أصحابَ رسول الله ﷺ لما سمعوا هذا من المشركينَ طمعوا في أن يفعلَ الله ما سألوا فيؤمنوا فنزل: **﴿أفلم ييأسِ الذين آمنوا﴾** يعني: الصحابة رضي الله عنهم أجمعين من إيمان هؤلاء، أي لم ييأسُوا علماً، وكلُّ مَن علم شيئاً يئس من خلافه، يقول: ألم ييئسهم العلمُ: **﴿أن لو يشاء الله لهدى الناسَ جميعاً﴾**.

﴿ولا يزال الذين كفروا تُصيبهم بما صنعوا﴾، من كفرهم وأعمالهم الخبيثة **﴿قارعةٌ﴾** أي: نازلة وداهية تقرعهم من أنواع البلاء، أحياناً بالجدب، وأحياناً بالسلب، وأحياناً بالقتل والأسر.

وقال ابن عباس: أراد بالقارعة: السرايا التي كان رسول الله ﷺ يبعثهم إليهم.

﴿أو تحل﴾، يعني: السرية والقارعة، **﴿قريباً من دارهم﴾**، وقيل: أو تحلُّ: أي تنزل أنت يامحمد بنفسك قريباً من ديارهم، **﴿حتى يأتي وعد الله﴾**، قيل: يوم القيامة. وقيل: الفتح والنصر وظهور رسول الله ﷺ ودينه. **﴿إن الله لا يُخلف الميعاد﴾**، وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسليةً لنبيه ﷺ:

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ٦/٤٥٠، ٤٥٢ـ٤٥٣ مع تعليق الشيخ محمود شاكر.

(٢) الطبري: ١٦/٤٥١.

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٤٥١ـ٤٥٢.

هذا وقد رجَّح الطبري القول الأول الذي قال عنه البغوي إنه قول أكثر المفسرين، فقال: (١٦/٤٥٥): «والصواب من القول في ذلك ما قاله أهل التأويل، أن تأويل ذلك: «أفلم يتبين ويعلم»، لإجماع أهل التأويل على ذلك».

فتأويل الكلام إذاً: ولو أن قرآناً سوى هذا القرآن كان سُيِّرت به الجبال، لسُيِّر بهذا القرآن، أو قطعت به الأرض، لقطعت بهذا، أو كُلِّم به الموتى، لكلِّم بهذا، ولكن لم يُفعل ذلك بقرآن قبل هذا القرآن فيُفعل بهذا «بل لله الأمر جميعاً» يقول: ذلك كله إليه وبيده، يهدي من يشاء إلى الإيمان فيوفّقه له، ويضل من يشاء فيخذله، أفلم يتبيَّن الذين آمنوا بالله ورسوله = إذ طمعوا في إجابتي من سأل نبيهم ما سأله من تسيير الجبال عنهم، وتقريب أرض الشام عليهم، وإحياء موتاهم = أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً إلى الإيمان به من غير إيجاد آية ولا إحداث شيء مما سألوا إحداثه؟ يقول تعالى ذكره: فما معنى محبتهم ذلك، مع علمهم بأن الهداية والإهلاك إليّ وبيدي، أنزلتُ آيةً أو لم أُنزلها، أهدي من أشاء بغير إنزال آية، وأضلّ من أردتُ مع إنزالها».

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

﴿**ولقد استُهزىء برسل من قبلك**﴾، كما استهزؤوا بك، ﴿**فأمليتُ للذين كفروا**﴾، أمهلتهم وأطلت لهم المدة، ومنه «المَلَوانِ»، وهما: الليل والنهار، ﴿**ثم أخذتهم**﴾ عاقبتهم في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار، ﴿**فكيف كان عقاب**﴾، أي: عقابي لهم .

﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت**﴾، أي: حافظها، ورازقها، وعالم بها، ومجازيها بما عملت. وجوابه محذوف، تقديره: كمن ليس بقائم بل عاجز عن نفسه .

﴿**وجعلوا لله شركاء قل سمُّوهم**﴾ بيِّنوا أسماءهم .

وقيل: صفوهم ثم انظروا هَلْ هي أهل لأن تُعبد؟

﴿**أم تنبِّئونه**﴾ أي: تخبرون الله تعالى: ﴿**بما لا يعلم في الأرض**﴾، فإنه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا في الأرض إلهاً غيره، ﴿**أم بظاهر**﴾ يعني: أم تتعلقون بظاهر، ﴿**من القول**﴾، مسموعٍ، وهو في الحقيقة باطل لا أصل له .

وقيل: بباطلٍ من القول، قال الشاعر :

وعَيَّرَنِي الوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا * وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

أي: زائل(١) .

﴿**بل زُين للذين كفروا مكرُهم**﴾، كيدهم. وقال مجاهد: شركهم وكذبهم على الله .

﴿**وصدُّوا عن السبيل**﴾، أي: صرفوا عن الدين .

(١) قال أبو منصور في تهذيب اللغة: «الشَّكاةُ: توضع موضع العيب والذمّ؛ وعيرَّ رجلٌ عبدالله بن الزبير بأمه، فقال: يابن ذات النطاقين. فتمثّل عبدالله بقول الهُذَلي: وتلك شكاة...

أراد: أن تعييره إياه بأن أمه كانت ذات النطاقين ليس بعارٍ، ومعنى قوله: «ظاهرٌ عنك عارُها» أي: نابٍ. أراد: أن هذا ليس عاراً يلزق به وأنه يفتخر بذلك...»

انظر: لسان العرب لابن منظور: ١٤/٤٤٠-٤٤١ .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾

قرأ أهلُ الكوفة ويعقوب ﴿وصُدّوا﴾ وفي حم المؤمن ﴿وصُدّ﴾ بضم الصاد فيهما، وقرأ الآخرون بالفتح لقوله تعالى: «إنّ الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله» (الحج ـ ٢٥)، وقوله «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله» (النحل ـ ٨٨ وغيرها).

﴿ومن يُضلِلِ اللّهُ﴾، بخذلانه إيّاه، ﴿فما له مِن هادٍ﴾.

﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾، بالقتل والأسر، ﴿ولَعذاب الآخرة أشق﴾، أشد، ﴿وما لهم من الله من واقٍ﴾، مانع يمنعهم من العذاب.

قوله عزّ وجلّ: ﴿مثل الجنة التي وُعد المتقون﴾ أي: صفة الجنة، كقوله تعالى: «ولله المثل الأعلى» (النحل ـ ٦٠) أي: الصفة العليا، ﴿تجري من تحتها الأنهارُ﴾، أي: صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها.

وقيل: «مثَل» صلةٌ مجازُها «الجنة التي وُعد المتقون تجري من تحتها الأنهار».

﴿أكُلها دائمٌ﴾ أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها، ﴿وظلها﴾، أي: ظلها ظليل، لا يزول، وهو ردّ على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى[1].

﴿تلك عقبى﴾ أي: عاقبة ﴿الذين اتقوا﴾ يعني: الجنة، ﴿وعُقبى الكافِرينَ النارُ﴾.

قوله عزّ وجلّ: ﴿والذين آتيناهم الكتابَ﴾ يعني: القرآن، وهم أصحاب محمد ﷺ ﴿يفرحون

---

(١) قال شارح الطحاوية عند قول الطحاوي: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان...» قال: ص (٤٩١-٤٩٣). «فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: (وأما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) أي غير مقطوع.
وقد أكّد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: (لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) (الدخان ـ ٥٦).
والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة، كقوله: «من يدخل الجنة ينْعم ولا ييأس، ويخلُدُ ولا يموت» (رواه مسلم)، وقوله: «ينادي منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وأن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وأن تحيَوْا فلا تموتوا أبداً» (رواه مسلم).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

بما أُنزل إليك من القرآن، **﴿ومن الأحزاب﴾** يعني: الكفار الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، وهم اليهود والنصارى، **﴿من يُنكر بعضه﴾**، هذا قول مجاهد وقتادة[1].

١٩١/ ب وقال الآخرون: كان ذكر الرحمن قليلاً في القرآن في الابتداء فلما أسلم / عبدالله بن سلام وأصحابه ساءهم قلة ذكره في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كرر الله ذكره في القرآن فرحوا به فأنزل الله سبحانه وتعالى: **﴿والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾**[2]، يعني: مشركي مكة حين كتب رسول الله ﷺ في كتاب الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب، فأنزل الله عزّ وجلّ[3]: «وهم بذكر الرحمن هم كافرون» (الأنبياء ــ ٣٦) «وهم يكفرون بالرحمن» (الرعد ــ ٣٠).

وإنما قال «بعضه» لأنهم كانوا لا ينكرون ذكر الله وينكرون ذكر الرحمن.

﴿قُلْ﴾، يامحمد، **﴿إنما أُمِرتُ أن أعبدَ الله ولا أشركَ به إليه أدعو وإليه مآب﴾**، أي: مرجعي.

﴿وكَذَلِكَ أنزلناهُ حُكماً عَرَبِيّاً﴾، يقول: كما أنزلنا إليك الكتابَ يامحمد، فأنكره الأحزاب، كذلك أنزلنا الحكم والدين عربياً. نُسِبَ إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب.

وقيل: نظم الآية: كما أنزلتُ الكتبُ على الرسل بلغاتهم، فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكماً عربياً.

﴿وَلَئِن اتبعْتَ أهواءَهُم﴾، في الملة. وقيل: في القبلة، **﴿بَعدَ ما جاءَكَ مِنَ العِلم مالكَ مِنَ الله مِن وَلِيٍّ ولا واقٍ﴾**، يعني: من ناصر ولا حافظ.

قوله تعالى: **﴿وَلَقد أرسَلنا رُسُلاً مِن قَبلِك﴾**، روي أن اليهود، ــ وقيل: إن المشركين ــ قالوا:

---

(١) انظر: الطبري: ١٦/٤٧٣، الدر المنثور: ٤/٦٥٨.
(٢) ذكره الماوردي واختاره الزمخشري. انظر: البحر المحيط: ٥/٣٩٦، المحرر الوجيز: ٨/١٧٩.
(٣) انظر فيما سبق تفسير الآية (٣٠) من السورة ص (٣١٨).

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

إنَّ هذا الرجل ليست له همة إلا في النساء فأنزل الله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رُسلاً مِن قَبلِك وَجَعَلنا لهم أزواجاً وَذُريةً﴾[١]، وما جعلناهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون .

﴿وما كانَ لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلاّ بإذنِ الله﴾، هذا جواب عبدالله بن أبي أمية. ثم قال : ﴿لِكُلِ أجلٍ كتابٌ﴾، يقول لكل أمر قضاهُ الله كتابٌ قد كتبهُ فيه ووقت يقع فيه .

وقيل: لكل آجل أَجَّلهُ الله كتابٌ أثبت فيه .

وقيل: فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، تقديره: أي، لكل كتاب أجلٌ ومدة، أي: الكتب المنزلةُ لكل واحدٍ منها وقت ينزل فيه .

﴿يَمحو الله ما يشاءُ ويُثبِتُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وعاصم ويعقوب ﴿ويثبتُ﴾ بالتخفيف وقرأ الآخرون بالتشديد .

واختلفوا في معنى الآية :

فقال سعيد بن جبير، وقتادة: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه[٢] .

وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا الرزق والأجل والسعادة والشقاوة[٣] .

وروينا عن حذيفة بن أُسيْدٍ عن النبي ﷺ: «يدخُلُ المَلَكُ على النُّطْفَةِ بعدما تستقرُّ في الرَّحِم بأربعين، أو خمس وأربعين ليلةً، فيقول: يارَبِّ أشَقِيٌّ أم سعيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فيقولُ: أَي ربِّ أذكرٌ أم أنثى؟ فَيُكْتَبَانِ، ويُكْتَبُ عملُه وأثرهُ وأجلُه ورزقُه، ثم تُطوى الصحف فلا يُزاد فيها ولا يُنقَصُ»[٤].

وعن عمر وابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ أنهما قالا: يمحو السعادةَ والشقاوةَ أيضاً، ويمحو الرِزق والأجلَ ويثبتُ ما يشاء .

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت عليَّ الشقاوة فامحني، وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. ومثله عن ابن مسعود .

---

(١) رواه الواحدي في أسباب النزول ص (٣١٧) عن الكلبي بدون إسناد، وانظر: تفسير القرطبي: ٩/٣٢٧، البحر المحيط: ٥/٣٩٧ .

(٢) أخرجه الطبري: ١٦/٣٩ـ٤٠ .

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٤٨٥ـ٤٨٦، وسائر الأقوال في تفسير الآية في الصفحات التالية منه، وانظر: الدر المنثور: ٤/٦٥٩ـ٦٦٥ .

(٤) أخرجه مسلم في القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، برقم (٢٦٤٤): ٤/٢٠٣٧ .

وفي بعض الآثار: أن الرجل يكون قد بقي من عُمُره ثلاثون سنة فيقطع رحمه فترد إلى ثلاثة أيام، والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة أيام فيصل رحمه فيمدُّ إلى ثلاثين سنةً .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أبو منصور السمعاني، حدثنا أبو جعفر الرياني، حدثنا حميد ابن زنجويه، حدثنا عبدالله بن صالح، حدثني الليث بن سعد، حدثني زيادة بن محمد الأنصاري، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله عزّ وجلّ في آخر ثلاث ساعات يَبْقَيْنَ من الليل، فينظر في الساعة الأولى منهن في أم الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت»(١) .

وقيل: معنى الآية: إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم، فيمحو الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثوابٌ ولا عقاب، مثل قوله: أكلت، شربت، دخلت، خرجت، ونحوها من كلام هو صادق فيه، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب، هذا قول الضحاك والكلبي .

وقال الكلبي: يكتب القولَ كله، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب .

وقال عطية عن ابن عباس: هو الرجل يعمل بطاعة الله عزّ وجلّ ثم يعود لمعصيةِ الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو، والذي يثبت: الرجل يعمل بطاعة الله، فيموت وهو في طاعةِ الله عزَّ وجلَّ فهو الذي يثبت .

وقال الحسن: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ أي من جاء أجلهُ يذهب به ويثبت من لم يجيء أجلهُ إلى أجله .

وعن سعيد بن جبير قال: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ من ذنوب العباد فيغفرها ويثبت ما يشاء فلا يغفرها .

وقال عكرمة: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ من الذنوب بالتوبة، ويثبت بدل الذنوب حسنات، كما قال الله تعالى: «فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» (الفرقان ـ ٧٠). وقال السدي: ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ يعني القمر ﴿ويثبت﴾ يعني الشمس، بيانه قوله تعالى: «فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة» (الإسراء ـ ١٢) .

وقال الربيع: هذا في الأرواح يقبضها الله تعالى عند النوم، فمن أراد موته مَحاه(٢) فأمسكه،

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ٤٨٩/١٦، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري: منكر الحديث .
قال الهيثمي في المجمع: (١٠/١٥٤ـ١٥٥): «رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار بنحوه، وفيه زيادة بن محمد الأنصاري، وهو منكر الحديث» .

(٢) في «ب»: فجأة .

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

ومن أراد بقاءه أثبته وردَّه إلى صاحبه، بيانه قوله عزّ وجلّ: «الله يتوفى الأنفس حين موتها» الآية (الزمر ـ ٤٢). ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب﴾، أي: أصل الكتاب، وهو اللوح المحفوظ الذي لا يبدل ولا يغير .

وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: هما كتابان: كتابٌ سوى أمِّ الكتاب، يمحو منه ما يشاء ويثبتُ، وأم الكتاب الذي لا يُغيّر منه شيء .

وعن عطاء عن ابن عباس قال: إن لله تعالى لوحاً محفوظاً مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت، لله فيه كل يوم ثلثمائة وستون لحظة ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ .

وسأل ابن عباس كعباً عن أم الكتاب؟ فقال: علم الله، ما هو خالق، وما خَلْقُه عاملون[1] .

﴿وإمّا نُرِيَنّك بعضَ الذين نعِدُهم﴾، من العذاب قبل وفاتك، ﴿أو نتوفَّينَّك﴾، قبل ذلك، ﴿فإنّما عليك البلاغُ﴾، ليس عليك إلا ذلك، ﴿وعَلينا الحِسَابُ﴾، الجزاء يوم القيامة .

قوله تعالى: ﴿أو لَم يَروا﴾ يعني: أهل مكة، الذين يسألون محمداً ﷺ الآيات، ﴿أنّا نأتي الأرضَ ننقُصُها مِن أطرافِهَا﴾، أكثر المفسرين على أن المراد منه فتح ديار[2] الشرك، فإن ما زاد في ديار الإسلام فقد نقص من ديار الشرك، يقول: ﴿أو لَم يَروا أنّا نأتي الأرضَ ننقُصُها مِن أطرافِها﴾ فنفتَحُها لمحمد أرضاً بعد أرض حوالي أرضهم، أفلا يعتبرون؟ هذا قولُ ابن عباس وقتادة وجماعةٍ[3] .

---

(١) ورجع الطبري من هذه الأقوال قول الحسن ومجاهد، لأن الله تعالى ذكره توعَّد المشركين الذين سألوا رسول الله ﷺ الآيات بالعقوبة، وتهدّدهم بها، وقال لهم: «وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب»، يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلاً مثبتاً في كتاب، هم مؤخَّرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شاء ممن قد دنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك مالٍ، فيقضي ذلك في خَلْقه، فذلك مَحْوُه، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأُكُلُه، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه .
وبهذا المعنى جاء الأثر عن رسول الله ﷺ. ثم ساق حديث أبي الدرداء الذي سبق تخريجه آنفاً .
انظر: تفسير الطبري: (١٦/٤٨٨ـ٤٨٩) .

(٢) في «ب»: بلاد .

(٣) انظر: الطبري: ١٦/٤٩٣ـ٤٩٤ .

وقال قوم: هو خراب / الأرض، معناه: أَوَ لَمْ يروا أنا نأتي الأرض فنخربها، ونُهلك أهلَها، ١٩٢/ أ
أفلا يخافون أن نفعل بهم ذلك(١)؟

قال مجاهد: هو خراب الأرض وقبض أهلها(٢) .

وعن عكرمة قال: قبض الناس. وعن الشعبي مثله .

وقال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء، وذهاب الفقهاء(٣) .

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثني مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتَّخذ الناس رُؤساءَ جُهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضَلُّوا وأَضَلُّوا»(٤) .

وقال الحسن: قال عبدالله بن مسعود: موتُ العالم ثلمةٌ في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار(٥) .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يُقبض وقَبضُه ذهابُ أهله(٦) .

وقال علي رضي الله عنه: إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كفٌّ لم تَعُدْ .

وقال سليمان: لا يزال الناس بخير ما بقي الأول حتى يتعلم الآخِرُ، فإذا هلك الأولُ قبل أن يتعلّم الآخر هَلكَ الناس .

وقيل لسعيد بن جبير: ما علامة هلاك النّاسِ؟ قال: هلاك عُلمائهم(٧) .

---

(١) الطبري: ١٦/٤٩٤ .

(٢) انظر: الطبري ١٦/٤٩٥ .

(٣) تفسير الطبري: ١٦/٤٩٧، الدر المنثور: ٤/٦٦٥-٦٦٦، وأخرج الحاكم في المستدرك: ٢/٣٥٠ عن ابن عباس في معنى الآية قال: ذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها .

(٤) أخرجه البخاري في العلم، باب كيف يقبض العلم: ١/١٩٤، ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه، برقم (٢٦٧٣): ٤/٢٠٥٨، والمصنف في شرح السنة: ١/٤ .

(٥) أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم ص (٢٤٠) عن الحسن .

(٦) أخرجه عبدالرزاق في المصنف: ١٠/٢٥٢، والطبراني في الكبير: ٩/١٨٩، والدارمي في مقدمة السنن: ١/٥٤، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: ١/٤٣، والبيهقي في المدخل إلى السنن ص (٢٧٢) وقال: هذا مرسل، وروي موصولاً من طريق الشاميين. وانظر تعليق الدكتور محمد الأعظمي في الموضع نفسه .

(٧) قال الطبري في التفسير: (١٦/٤٩٧-٤٩٨): «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قولُ من قال: «أوَ لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها»، بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها وقهرهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك، فيخافون ظهورهم على أرضهم وقهرهم إياهم؟ وذلك أن الله توعَّد الذين سألوا رسوله الآيات من مشركي قومه بقوله: «وإما نرينك =

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿والله يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لحُكمِهِ﴾، لا رادَّ لقضائه، ولا ناقض لحكمه، ﴿وهو سَرِيعُ الحِسَابُ﴾.

﴿وَقَد مَكَرَ الذينَ مِن قَبلِهِم﴾، يعني: من قبل مشركي مكة، والمكر: إيصالُ المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر.

﴿فَلِلَّهِ المكرُ جميعاً﴾، أي: عند الله جزاء مكرهم. وقيل: إن الله خالق مكرهم جميعاً، بيده الخيرُ والشرُ، وإليه النفع والضر، فلا يضر مَكْرُ أحدٍ أحداً إلا بإذنه.

﴿يعلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نفسٍ وسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ﴾، قرأ أهل الحجاز وأبو عمرو ﴿الكافر﴾ على التوحيد، وقرأ الآخرون: ﴿الكفّار﴾ على الجمع. ﴿لِمَن عُقبَى الدَّارِ﴾ أي: عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة.

﴿وَيَقولُ الذينَ كَفَروا لستَ مُرسلاً قُلْ كَفَى بِالله شَهِيداً بيني وَبينَكُم﴾، إني رسوله إليكم ﴿وَمَن عندَهُ عِلمُ الكِتابِ﴾، يريد: مؤمني أهل الكتاب يشهدون أيضاً على ذلك.

قال قتادة: هو عبدُ الله بنُ سلام[1].

وأنكر الشعبي هذا وقال: السورة مكية، وعبدُ الله بن سلام أسلم بالمدينة.

وقال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير ﴿ومن عنده عِلمُ الكتاب﴾ أهو عبدالله بن سلام؟ فقال: وكيف يكون عبدالله بنُ سلام وهذه السورة مكية[2]؟

وقال الحسن ومجاهد: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ هو الله عزّ وجلّ[3]، يدلُّ عليه: قراءة عبدالله بن عباس، ﴿ومِنْ عِندِه﴾، بكسر الميم والدال، أي: من عند الله عزّ وجلّ، وقرأ الحسن

بعض الذي نَعِدُهم أو نتوفينَّك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب»، ثم وبَّخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم بما يعاينون من فعل الله بضُرَبائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات فقال: «أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها» بقهر أهلها، والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يرون من ذلك».

(١) أخرجه الطبري عن قتادة: ١٦/٥٠٣، وحكاه أيضاً عن عبدالله بن سلام نفسه، ومجاهد.

(٢) أخرجه الطبري: ١٦/٥٠٥، ٥٠٦.

(٣) انظر: الطبري: ١٦/٥٠٤، ٥٠٦.

وسعيد بن جبير ﴿وَمِنْ عِندِهِ﴾ بكسر الميم والدال ﴿عُلِمَ الكتاب﴾ على الفعل المجهول[1]، دليل هذه القراءة قوله تعالى: «وعلمناه من لدنا علماً» (الكهف ـ ٦٥) وقوله: «الرحمن علم القرآن» (الرحمن ـ ١،٢)..

(١) قال الطبري: وقد روي عن رسول الله ﷺ خبر بتصحيح هذه القراءة وهذا التأويل، غير أنَّ في إسناده نظراً. ثم ساق حديثاً منقطع الإسناد. انظر: تفسير الطبري ٥٠٦/١٦ .
وقال الهيثمي فيه: «رواه أبو يعلى، وفيه سليمان بن أرقم وهو متروك» انظر: مجمع الزوائد: ١٥٥/٧ .

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

سورة إبراهيم

مكية [وهي إحدى وخمسون](١) آية إلا آيتين من قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين بدّلوا نِعمةَ الله كُفراً﴾ إلى قوله: ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

﴿الٓر كِتَابٌ﴾ أي: هذا كتاب ﴿أنزلناه إليك﴾، يامحمد يعني: القرآن، ﴿لِتُخرِجَ النّاسَ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ﴾ أي: لتدعوهم من ظلمات الضلالة إلى نور الإيمان(٣)، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، [بأمر ربهم](٤).

وقيل: بعلم ربهم(٥).

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «أ».

(٢) أخرج النحاس في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: سورة إبراهيم عليه السلام نزلت بمكة سوى آيتين، وهما: «ألم تر إلى الذين...» نزلتا في قتلى بدر من المشركين.
وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وعن الزبير: نزلت سورة إبراهيم عليه السلام بمكة.
قال ابن الجوزي: وهي مكية من غير خلاف علمناه بينهم إلا ما روي عن ابن عباس وقتادة.. انظر: الدر المنثور: ٣/٥، المحرر الوجيز: ١٩٢/٨، البحر المحيط: ٤٠٣/٥، زاد المسير: ٣٤٣/٤.

(٣) انظر: الطبري: ٥١١/١٦-٥١٢.

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب».

(٥) قال أبو جعفر الطبري في التفسير: (٥١٢/١٦): «وأضاف تعالى ذكره إخراجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم لهم بذلك، إلى نبيه ﷺ، وهو الهادي خلقَه، والموفق من أحبَّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفُهم مالهم فيه وعليهم. فَبَيِّنٌ بذلك صحةُ قولِ أهلِ الإثبات الذين أضافوا أفعال العباد إليهم كسباً، وإلى الله جل ثناؤه إنشاءً وتدبيراً، وفسادُ قولِ أهل القدر الذين أنكروا أن يكون لله في ذلك صُنعاً».

ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

﴿إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾ أي: إلى دينه، و«العزيز»، هو الغالب، و«الحميد»: هو المستحق للحمد .

﴿اللهِ الَّذِي﴾ قرأ أبو جعفر، وابن عامر: ﴿اللَّهُ﴾ بالرفع على الاستئناف، وخبره فيما بعده . وقرأ الآخرون بالخفض نعتاً للعزيز الحميد[1] .

وكان يعقوب إذا وصل خفض .

وقال أبو عمرو: الخفض على التقديم والتأخير، مجازه: إلى صراط الله العزيز الحميد[2]، ﴿الذي لَهُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ وَوَيلٌ للكافِرِينَ من عَذابٍ شديدٍ﴾[3] .

﴿الذين يستحبون﴾، يختارون، ﴿الحياة الدنيا على الآخرة ويصدُّون عن سبيل الله﴾، أي:

---

(١) انظر: الطبري: ١٦/٥١٢-٥١٣ .

(٢) قال الطبري: (١٦/٥١٣-٥١٤): «وقد اختلف أهل العربية في تأويله إذا قرئ كذلك :
فذكر عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقرؤه بالخفض، ويقول: معناه: بإذن ربهم إلى صراط (الله) العزيز الحميد الذي له ما في السموات. ويقول: هو من المؤخّر الذي معناه التقديم، ويمثّله بقول القائل: «مررت بالظريف عبدالله»، والكلام الذي يوضع مكان الاسم النَّعتُ، ثم يُجعل الاسم مكان النعت، فيتبع إعرابُه إعراب النعت الذي وضع موضع الاسم، كما قال بعض الشعراء :

لـو كـنـتُ ذا نَبْـلٍ وذا شَزِيبِ ٭ مـا خِـفْـتُ شدَّات الخَبِـيثِ الـذِّيبِ

وأما الكسائي؛ فإنه كان يقول فيما ذكر عنه؛ من خفض أراد أن يجعله كلاماً واحداً، وأتبع الخفضَ الخفضَ، وبالخفض كان يقرأ؛ ثم قال: «والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان؛ قد قرأ بكل واحدة منهما أئمة من القراء، معناهما واحد، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب .
وقد يجوز أن يكون الذي قرأ بالرفع أراد معنى مَنْ خفضَ في إتباع الكلام بعضه بعضاً، ولكنه رفع لانفصاله من الآية التي قبله، كما قال جل ثناؤه: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم» إلى آخر الآية ثم قال: «التائبون العابدون» (سورة التوبة: ١١١-١١٢) .

(٣) قال الطبري: (١٦/٥١٤): ومعنى قوله: «الله الذي له ما في السموات وما في الأرض»، الله الذي يملك جميع ما في السموات وما في الأرض .
يقول لنبيه محمد ﷺ: أنزلنا إليك هذا الكتاب لتدعو عبادي إلى عبادة مَنْ هذه صفته، ويَدَعُوا عبادةَ من لا يملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً من الآلهة والأوثان. ثم توعَّد جل ثناؤه من كفر به، ولم يستجب لدعاء رسوله إلى ما دعاه إليه من إخلاص التوحيد له، فقال: «وويل للكافرين من عذابٍ شديد»، يقول: الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم، لمن جحد وحدانيته، وعبد معه غيره، من عذاب الله الشديد» .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

يمنعون الناس عن قبول دين الله، ﴿**ويبغونها عِوَجاً**﴾ أي: يطلبونها زيغاً وميلاً، يريد: يطلبون سبيل الله جائرين عن القصد.

وقيل: الهاء راجعة إلى الدنيا، معناه: يطلبون الدنيا على طريق الميل عن الحق، أي: لجهة الحرام. ﴿**أولئك في ضلالٍ بعيد**﴾(١).

قوله تعالى: ﴿**وما أرسَلنا مِن رَسولٍ إلا بِلسانِ قومِهِ ليُبيِّن لَهُم**﴾، بلغتهم ليفهموا عنه.

فإن قيل: كيف هذا وقد بعث النبي ﷺ إلى كافة الخلق؟

قيل: بُعث من العرب بلسانهم، والناس تَبَعٌ لهم، ثم بثَّ الرسل إلى الأطراف يدعونهم إلى الله عزّ وجلّ ويترجمون لهم بألسنتهم(٢).

﴿**فيُضِلُّ اللّهُ مَن يشاءُ ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم**﴾.

﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومكَ من الظلماتِ إلى النورِ**﴾ أي: من الكفر إلى الإيمان بالدعوة، ﴿**وذكِّرهُم بأيام الله**﴾، قال ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة: بنعم الله(٣).

---

(١) يعني: هؤلاء الكافرين الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، هم في ذهابٍ عن الحق بعيدٍ، وأخذٍ على غير هدًى، وجَوْرٍ عن قصد السبيل.
انظر: تفسير الطبري: ١٦/٥١٥.

(٢) أورد محمد بن أبي بكر الرازي هذا السؤال مطولاً، وأجاب عنه من وجوه:
الأول: إن نزول القرآن على النبي عليه الصلاة والسلام بلسانٍ واحد كافٍ، لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغني عن نزوله لجميع الألسن، ويكفي التطويلَ، كما جرى في القرآن العزيز.
الثاني: أن نزوله بلسان واحدٍ أبعد عن التحريف والتبديل، وأسلم من التنازع والخلاف.
الثالث: أنه لو نزل بألسنة الناس وكان معجزاً في كل واحد منها، وكلّم الرسولُ العربيُّ كل أمة بلسانها كما كلّم أمته التي هو منها لكان ذلك أمراً قريباً من القسر والإلجاء، وبعثة الرسل لم تُبْنَ على القسر والإلجاء، بل على التمكين من الاختيار، فلما كان نزوله بلسان واحد كافياً كان أولى الألسنة قوم الرسول، لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه.
انظر: مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، لمحمد بن عبدالقادر الرازي الحنفي ص (١٥٧-١٥٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري: ١٦/٥٢٠-٥٢٣، الدر المنثور: ٥/٦.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم
بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ
وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

وقال مقاتل: بوقائع الله في الأمم السالفة. يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي بوقائعهم، وإنما أراد بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة، فاجتزأ بذكر الأيام عنها لأنها كانت معلومة عندهم[١].

﴿إن في ذلك لآياتٍ لكُلِ صبارٍ شكورٍ﴾، و«الصبَّار»: الكثير الصبر، و«الشكور»: الكثير الشكر، وأراد: لكل مؤمن، لأن الصبر والشكر من خصال المؤمنين.

﴿وإذْ قال موسى لقومه اذكروا نعمةَ الله عليكم[٢] إذ أنجاكم من آل فِرعونَ يسومونكم سوءَ العذاب ويذبحونَ أبناءَكم﴾، قال الفرَّاء: العلّة الجالبة لهذه الواو أن الله تعالى أخبرهم أن آل فرعون كانوا يعذبونهم بأنواع من العذاب غير التذبيح، وبالتذبيح، وحيث طرح الواو في «يذبّحون» و«يقتّلون» أراد تفسير العذاب الذي كانوا يسومونهم[٣]، ﴿وَيستحيونَ نساءَكُم﴾، يتركوهن أحياءً ﴿وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم﴾[٤].

﴿وإذ تأذَنَ ربُّكم﴾، أي: أعلم، يقال: أذّن وتأذّن بمعنى واحد، مثل أَوْعَدَ وتَوَعَّدَ، ﴿لئن

---

(١) وردَّ الطبري هذا القول والشاهد الذي استشهدوا به على ذلك، وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: (٨/٢٠٣): «ولفظة «الأيام» تعم المعنيين، لأن التذكير يقع بالوجهين جميعاً».

(٢) أخرج الطبري عن ابن عيينة في تفسيرها، قال: أيادي الله عندكم وأيامه.

(٣) وزاد الطبري ذلك بياناً فقال في التفسير: (١٦/٥٢٤):
«وأدخلت الواو في هذا الموضع؛ لأنه أريد بقوله: «ويذبّحون أبناءكم» الخبرُ عن أن آل فرعون كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع من العذاب غير التذبيح وبالتذبيح. وأما في موضع آخر من القرآن، فإنه جاء بغير الواو: «يسومونكم سوء العذاب يذبّحون أبناءكم» (البقرة ـ ٤٩) في موضع، وفي موضع: «يقتّلون أبناءكم» (الأعراف ـ ١٤١)، ولم تدخل الواو في المواضع التي لم تدخل فيها لأنه أريد بقوله: «يذبّحون» وبقوله: «يقتلون»: تبيينه صفات العذاب الذي كانوا يسومونهم. وكذلك العمل في كل جملة أريد تفصيلها، فبغير الواو تفصيلها، وإذا أريد العطف عليها بغيرها وغير تفصيلها فبالواو».
وراجع ما كتبه ـ بتفصيل أوسع ـ أبو جعفر بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي في كتابه «ملاك التأويل» تحقيق د. محمود كامل أحمد: ١/٥٣ـ٥٧.

(٤) يقول تعالى: فيما يصنع بكم آل فرعون من أنواع العذاب، بلاءٌ لكم من ربكم عظيمٌ، أي: ابتلاء واختبار لكم، من ربكم عظيم. وقد يكون «البلاء في هذا الموضع نَعْماء، وقد يكون من البلاء الذي يصيب الناس من الشدائد».
انظر: تفسير الطبري: ١٦/٥٢٥.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٩﴾

شكرتم﴾ نعمتي فآمنتم وأطعتم ﴿لأزيدنكم﴾ في النعمة.

وقيل: الشكر: قيد الموجود، وصيد المفقود.

وقيل: لئن شكرتم بالطاعة لأزيدنكم في الثواب.

﴿ولئن كفرتم﴾، نعمتي فجحدتموها ولم تشكروها، ﴿إنَّ عذابي لشديد﴾[1].

﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد﴾، أي: غنيٌّ عن خلقه، حميدٌ محمود في أفعاله، لأنه فيها متفضِّل وعادل.

﴿ألم يأتكم نبأ الذين﴾، خبر الذين، ﴿من قبلكم قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدِهم لا يعلمُهُم إلا الله﴾، يعني: من كان بعد قوم نوحٍ وعادٍ / وثمودَ. ١٩٢/ب

ورُوي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية ثم قال: كذب النسَّابُون[2].

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: بين إبراهيم وبين عدنان ثلاثون قرناً لا يعلمهم إلا الله تعالى[3].

وكان مالك بن أنس يكره أن ينسِبَ الإنسان نفسه أباً أباً إلى آدم، وكذلك في حق النبي ﷺ لأنه لا يعلم أولئك الآباءَ أحدٌ إلاَّ الله عزّ وجلّ.

---

(١) قال الطبري: (٥٢٨/١٦): وقوله: «ولئن كفرتم...» يقول: ولئن كفرتم، أيها القوم، نعمةَ الله، فجحدتموها بترك شكره عليها وخلافه في أمره ونهيه، وركوبكم معاصيه = «إن عذابي لشديد»، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلْقي.

(٢) أخرجه الطبري: ٥٢٩/١٦ و٥٣٠، وزاد السيوطي نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم. انظر: الدر المنثور: ٩/٥.

(٣) وروي عن ابن عباس أنه قال: «كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إلا الله».
وحكى عنه المهدوي أنه قال: «كان بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون»، وقال ابن عطية بعد أن ساق هاتين الروايتين في المحرر الوجيز: ٢٠٦/٨: «وهذا الوقوف على عدتهم بعيد، ونفْيُ العلم بها جملةً أصحُّ، وهو لفظ القرآن».
ونقل ابن الجوزي في زاد المسير: (٣٤٨/٢) عن ابن الأنباري، في تفسير الآية، قال: أي: لا يحصي عددهم إلا هو، على أن الله تعالى أهلك أمماً من العرب وغيرها، فانقطعت أخبارهم، وعفَتْ آثارهم، فليس يعلمهم أحد إلا الله.
وانظر: تفسير القرطبي: ٣٤٤/٩، ٣٤٥.

۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

﴿جاءتهم رسُلهم بالبينات﴾ بالدلالات الواضحات، ﴿فردوا أيديهم في أفواهِهم﴾، قال ابن مسعود: عضوا على أيديهم غيظاً[1] كما قال «عضوا عليكم الأنامل من الغيظ» (آل عمران ـ ١١٩).

قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم[2].

قال مجاهد وقتادة: كذبوا الرسل وردوا ما جاؤوا به[3]، يقال: رددت قول فلان في فيه أي كذبته.

وقال الكلبي: يعني أن الأمم ردوا أيديهم في أفواه أنفسهم، أي: وضعوا الأيدي على الأفواه إشارةً إلى الرسل أنِ اسكتوا.

وقال مقاتل: فردوا أيديهم على أفواه الرسل يسكتونهم بذلك[4].

وقيل: الأيدي بمعنى النِّعم. معناه: ردوا ما لو قبلوا كانت أيادي ونعماً في أفواههم، أي: بأفواههم، يعني بألسنتهم.

﴿وقالوا﴾ يعني الأمم للرسل، ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك ممّا تدعوننا إليه مُريب﴾، موجب للريبة موقع للتهمة.

﴿قالتْ رُسُلُهُم أفي اللّهِ شكٌ﴾، هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه، ﴿فَاطِرِ السمواتِ والأرض﴾، خالقهما[5]، ﴿يدعوكم ليغفرَ لكم مِن ذُنُوبكم﴾، أي: ذنوبكم و«من» صلة،

---

(١) أخرجه عبدالرزاق، والفريابي، وأبو عبيد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وصححه الحاكم في المستدرك، قال الهيثمي: «رواه الطبراني عن شيخه عبدالله بن محمد وهو ضعيف» انظر: الدر المنثور: ٥/١٠، زاد المسير: ٤/٣٤٨، مجمع الزوائد: ٧/٤٣.

(٢) انظر: زاد المسير: ٤/٣٤٩، البحر المحيط: ٥/٤٠٨.

(٣) انظر: الدر المنثور: ٥/١٠، وقد عزاه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن قتادة، ولأبي عبيد وابن المنذر عن مجاهد.

(٤) انظر: البحر المحيط: ٥/٤٠٨.

وقال الطبري في التفسير: (١٦/٥٣٥): «وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل هذه الآية: القول الذي ذكرناه عن عبدالله بن مسعود: أنهم ردّوا أيديهم في أفواههم، فعضّوا عليها، غيظاً على الرسل، كما وصف الله جلّ وعز به إخوانهم من المنافقين، فقال: (وإذا خَلَوا عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ) (سورة آل عمران ـ ١١٩)، فهذا هو الكلام المعروف، والمعنى المفهوم من «ردِّ اليد إلى الفم».

(٥) في «ب»: خالق السموات والأرض.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ
وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ
أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

﴿ويؤخركم إلى أجلٍ مسمًى﴾، إلى حين استيفاء آجالكم فلا يعاجلكم بالعذاب .

﴿قالوا﴾، للرسل: **﴿إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا﴾**، في الصورة، ولستم ملائكة وإنما، **﴿تريدون﴾**، بقولكم، **﴿أن تصدُّونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطانٍ مبينٍ﴾**، حجة بينة على صحة دعواكم .

﴿قالت لهم رُسُلُهم إنْ نحن إلا بشرٌ مِثلكم ولكنّ الله يمُنّ على من يشاء من عباده﴾، بالنبوة والحكمة، **﴿وما كان لنا أن نأتيكم بسلطانٍ إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾**(١) .

﴿وما لنا أن لا نتوكّل على الله﴾ وقد عرفنا أن لا نَنَالَ شيئاً إلا بقضائه وقدره، **﴿وقد هدَانا سُبُلَنا﴾**، بيَّن لنا الرشد، وبصَّرنَا طريق النجاة. **﴿ولنصبرنّ﴾**، اللام لام القسم، مجازهُ: والله لَنصبرَن، **﴿على ما آذيتُمونا وَعلى الله فَليَتوكّلِ المُتوكلونَ﴾** .

﴿وقال الذين كفروا لرُسُلِهم لَنُخرجَنّكم مِن أرضنا أو لتعُودنّ في مِلتنا﴾، يَعْنُون: إلا أن ترجعوا، أو حتى ترجعوا إلى ديننا(٢) .

﴿فأوحى إليهم رَبُّهم لَنُهلكنّ الظالمين ولنسكنّنكم الأرضَ من بَعدِهم﴾ أي: من بعد هلاكهم.

---

(١) أي: وما كان لنا أن نأتيكم بحجة وبرهان على ما ندعوكم إليه «إلا بإذن الله»، يقول: إلا بأمر الله لنا بذلك «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» يقول: وبالله فليثق به مَنْ آمن به وأطاعه، فإنّا به نثق، وعليه نتوكل .
انظر: تفسير الطبري: ٥٣٨/١٦ .

(٢) قال الرازي: فإن قيل: كيف قالوا لرسلهم «أو لتعودُنّ..» والرسل لم يكونوا على ملة الكفار قط... فالجواب من وجوه :
الأول : أن العَوْد في كلام العرب يستعمل كثيراً بمعنى الصيرورة، يقولون: عاد فلان يكلمني، وعاد لفلان مالٌ، وأشباه ذلك. ومنه قوله تعالى: «حتى عاد كالعرجون القديم» .
الثاني : أنهم خاطبوا الرسل بذلك بناء على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسل كانوا أولاً على ملل قومهم، ثم انتقلوا عنها .
الثالث : أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد .
انظر: مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل ص (١٥٩) .

وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾

﴿ذلك لِمن خاف مقامي﴾ أي: قيامه بين يدي كما قال: «ولمن خاف مقام ربه جنتان» (الرحمن ـ ٤٦)، فأضاف قيام العَبدِ إلى نفسه، كما تقول: نَدِمتُ على ضربك أي على ضربي إياك، **﴿وخاف وَعِيدِ﴾** أي عقابي .

قوله عزّ وجلّ: **﴿واستفتحوا﴾** أي: استنصروا. قال ابن عباس ومقاتل: يعني **الأمم**، وذلك أنهم قالوا: اللهم إن كان هؤلاء الرسل صادقين فعذّبنا، نظيره قوله تعالى: «وإذْ قالوا اللهم إن كان هذا هو **الحقّ** من عندك فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء» (الأنفال ـ ٣٢) .

وقال مجاهد وقتادة: واستفتحوا يعني الرسل وذلك أنهم لما يئسوا من إيمان قومهم استنصروا الله ودعوا على قومهم بالعذاب، كما قال نوح عليه السلام: «ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين **ديّاراً**» (نوح ـ ٢٦) وقال موسى عليه السلام: «ربنا اطمسْ على أموالهم واشددْ على قلوبهم»، الآية (يونس ـ ٨٨) .

﴿وخابَ﴾، خسر. وقيل: هلك، **﴿كلُّ جبّارٍ عنيدٍ﴾** والجبّار: الذي لا يرى فوقه أحداً. والجبرية: طلب العلو بما لا غاية وراءه[1]. وهذا الوصف لا يكون إلا لله عزّ وجلّ .

وقيل: الجبّار: الذي يجبر الخلق على مرادهِ، والعنيد: المعاند للحق ومجانبه. قاله مجاهد .

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هو المعرض عن الحق .

قال مقاتل: هو المتكبر .

وقال قتادة: «العنيدُ»: الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله[2] .

﴿مِن وَرائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامه، كقوله تعالى «وكان وراءهم مَلِكٌ» (الكهف ـ ٧٦) أي: أمامهم[3] .

---

(١) ومن «الجبار»، تقول: هو جبّار بيِّنُ الجَبرِيَّة، والجَبْرِيَّة، والجَبَرُوَّة، والجَبْرُوَّة، والجَبَروت .
انظر: تفسير الطبري: ٥٤٣/١٦ .

(٢) انظر في هذه الأقوال: الدر المنثور: ١٤/٥ـ١٥، والطبري: ٥٤٣/١٦ـ٥٤٥ .

(٣) وكان بعض نحويي أهل البصرة يقول: إنما يعني بقوله: «من ورائه» أي من أمامه، لأنه وراءَ ما هو فيه، كما يقول لك: «وكل هذا من ورائك»، أي سيأتي عليك، وهو من وراء ما أنت فيه، لأن ما أنت فيه قد كان قبل ذلك وهو من ورائه .
وكان بعض نحويي أهل الكوفة يقول: أكثر ما يجوز هذا في الأوقات، لأن الوقت يمُرّ عليك، فيصير خلفك إذا جُزْتَه...
انظر: تفسير الطبري: ٥٤٧/١٦ .

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ١٧﴾

قال أبو عبيدة: هو من الأضداد[١].

وقال الأخفش: هو كما يقال هذا الأمر من ورائك يريد أنه سيأتيك، وأنا من وراء فلان يعني أصل إليه[٢].

وقال مقاتل: «من ورائه جهنم» أي: بعده[٣].

﴿ويُسقى من ماء صديد﴾ أي: من ماءٍ هو صديدٌ، وهو ما يسيل من أبدان الكفار من القَيْح والدم[٤].

وقال محمد بن كعب: ما يسيل من فُروج الزُّناة، يُسْقَاه الكافر[٥].

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾: أي: يتحسَّاهُ ويشربه، لا بمرةٍ واحدة، بل جرعةً جرعةً، لمرارته وحرارته، ﴿ولا يَكَادُ يُسيغُه﴾، و«يكاد»: صلة، أي: لا يسيغه، كقوله تعالى: «لم يكد يراها» (النور ــ ٤٠) أي: لم يَرَهَا.

قال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ: لا يجيزه.

وقيل: معناه يكاد لا يسيغه، ويسيغه فيغلي في جوفه.

---

(١) انظر: الطبري: ١٦/٥٤٧، وقال الزجّاج: الوراء يكون بمعنى الخلف والقدام... وليس من الأضداد. انظر: زاد المسير: ٣٥٢/٤.

(٢) انظر التعليق قبل السابق.

(٣) قال ابن الأنباري: «من ورائه» أي: من بعد يأسه، فدلَّ «خاب» على اليأس، فكنى عنه، وحملت «وراء» على معنى «بعد»، كما قال النابغة:

حَلَفتُ فلم أَتْرُكْ لِنَفسِكَ رِيبَةً ... وليس وراءَ اللَّهِ للمرءِ مَـذْهَبُ

أراد: ليس بعد الله مذهب.

انظر: زاد المسير: ٣٥٢/٤.

(٤) انظر: الطبري ١٦/٥٤٨، الدر المنثور: ١٥/٥ وعزاه فيه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة، ولابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في «البعث والنشور» عن مجاهد.

وانظر: زاد المسير: ٣٥٢/٤ـ٣٥٣.

(٥) في زاد المسير: (٣٥٣/٤) عن محمد بن كعب: هو غُسالة أهل النار، وذلك ما يسيل من فروج الزناة.

وقال ابن قتيبة: المعنى: يسقى الصديد مكان الماء، كأنه قال: يُجْعل ماؤه صديداً، ويجوز أن يكون على التشبيه، أي: يُسْقَى ماءً كأنه صديد.

انظر: القرطين، أو كتابي مشكل القرآن وغريبه لابن قتيبة، جمع بينهما: ابن مطرف الكناني: ٢٣٦/١.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٨﴾

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبدالله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك، عن صفوان بن عمرو، عن عبيد الله بن بُسْر، عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ في قوله: «ويسقى من ماء صديد يتجرعه»، قال: يقرب إلى فيه فيتكرهه، فإذا أُدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطّع أمعاءه، حتى يخرج من دُبُره، يقول الله عزّ وجلّ: «وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم» (محمد ـ ١٥)، ويقول: «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه»[1] (الكهف ـ ٢٩).

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَأْتِيهِ الموتُ مِن كُلِّ مكانٍ﴾، يعني: يجدُ همَّ الموت وألَمُهُ من كل مكان من أعضائه.

قال إبراهيم التيمي: حتى من تحت كل شعرة من جسَده.

وقيل: يأتيه الموت من قدامه ومن خلفه، ومن فوقه ومن تحته، وعن يمينه وعن شماله.

﴿وَمَا هُوَ بِميتٍ﴾، فيستريح، قال ابن جريج: تعلق نفسه عند حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحياة. نظيرها «ثم لا يموت فيها ولا يحيى» (الأعلى ـ١٣).

﴿وَمِن وَرَآئِهِ﴾، أمامه، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، شديدٌ، وقيل: العذاب الغليظ الخلود في النار.

﴿مَثَلُ الذينَ كَفَروا بِربهم أعمَالُهُم﴾ يعني: أعمال الذين كفروا بربهم ـ كقوله تعالى: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» (الزمر ـ ٦٠) ـ أي: ترى وجوه الذين كذبوا على الله مسودة، ﴿كَرَمَادٍ اشتدَّتْ به الريحُ في يومٍ عاصِفٍ﴾، وصف اليومَ بالعصوف، والعصُوف من صفة الريح لأن الريحَ تكون فيها، كما يقال: يومٌ حار ويوم بارد، لأن الحر والبرد فيه.

وقيل: معناه: في يوم عاصف الريح، فحذف الريح لأنها قد ذكرت من قبل. وهذا مَثَلٌ ضربه

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير: ٥٤٩/١٦ـ٥٥٠، والترمذي في أبواب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار: ٣٠٣/٧ـ٣٠٤،وقال: «هذا حديث غريب، هكذا قال محمد بن إسماعيل عن عبيد الله بن بسر، ولا يعرف عبيد الله بن بسر إلا في هذا الحديث».
وأخرجه الحاكم في المستدرك: ٣٥١/٢ وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢٦٥/٥، والمصنف في شرح السنة: ٢٤٣/١٥ـ٢٤٤.
وضعفه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح: ١٥٨١/٣.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ
بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا
مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

الله لأعمال الكفار، يريد: أنهم لا ينتفعون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا لأنهم أشركوا فيها غير الله كالرماد الذي ذَرَتْهُ الريح لا ينتفع به، فذلك قوله تعالى:

﴿لا يَقدِرُون﴾، يعني: الكفار ﴿مِمَّا كَسَبوا﴾، في الدنيا، ﴿عَلَى شيءٍ﴾، في الآخرة، / ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ﴾. ١٩٣/ أ

﴿أَلَم تَر أنّ الله خلقَ السمواتِ والأرضَ﴾، قرأ حمزة والكسائي «خالقُ السمواتِ والأرضَ» وفي سورة النور «خالق كل دابة» مضافاً.

وقرأ الآخرون ﴿خلق﴾ على الماضي ﴿والأرض﴾ وكلٌّ بالنصب.

﴿بالحقّ﴾ أي: لم يخلقهما باطلاً وإنما خلقهما لأمرٍ عظيم، ﴿إن يَشَأ يُذهبكم ويأتِ بخلقٍ جديد﴾، سواكم أطْوَعَ لله منكم.

﴿وما ذلكَ على الله بعزيزٍ﴾، منيع شديد، يعني أن الأشياء تسهل في القدرة، لا يصعب على الله تعالى شيء وإن جلّ وعَظُم.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وبَرَزُوا لله جميعاً﴾ [أي: خرجوا من قبورهم إلى الله وظهروا جميعاً][(١)] ﴿فقالَ الضعفاءُ﴾، يعني: الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ استكبَروا﴾، أي: تكبروا على الناس وهم القادة والرؤساء: ﴿إنَّا كُنَّا لكُم تبعاً﴾ جمع تابع، مثل: حَرَس وحارس، ﴿فَهَل أَنتُم مُّغنونَ﴾، دافعون، ﴿عَنّا مِن عَذَابِ الله من شيء﴾.

﴿قالوا﴾، يعني القادة المتبوعين: ﴿لَو هدانا الله لَهَديناكُم﴾، أي: لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهُدىٰ، فلما أضلَّنا دعوناكم إلى الضلالة[(٢)]، ﴿سَوَاءٌ عَلَينا أَجَزِعنا أم صَبَرنا مَالَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، مهربٍ ولا منجاةٍ.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب».
(٢) في «أ»: الضلال.

قال مقاتل: يقولون في النار: تعالوا نجزع، فيجزعون خمسمائة عام، فلا ينفعهم الجزع، ثم يقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فحينئذ يقولون: ﴿**سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص**﴾[1] .

قال محمد بن كعب القرظبي[2]: بلغني أن أهل النار استغاثوا بالخزنة . فقال الله تعالى: «وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنّا يوماً من العذاب» (غافر ـ ٤٩)، فردت الخزنة عليهم: «أوَ لمْ تَكُ تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى»، فردت الخزنة عليهم: «ادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال» (غافر ـ ٥٠) فلما يئسوا مما عند الخزنة نادوا «يامالك ليقضِ علينا ربُّك» (الزخرف ـ ٧٧) سألوا الموت، فلا يجيبهم ثمانين سنة والسنة ستون وثلاثمائة يوماً، واليوم كألف سنة مما تعدون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين إنكم ماكثون، فلما يئسوا مما قَبْله قال بعضهم لبعض: إنه قد نزل بكم من البلاء ما ترون فهلموا فلنصبر، فلعل الصبر ينفعنا كما صبرَ أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم، فأجمعوا على الصبر، فطال صبرهم ثم جزعوا فنادوا: «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص»، أي: من منجا .

قال: فقام إبليس عند ذلك فخطبهم، فقال: «إنّ الله وعدكم وعد الحق» الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودُوا: «لمَقتُ الله أكبر من مقتكم أنفسَكم إذْ تُدعون إلى الإيمان فتكفرون» (غافر ـ ١٠) قال فنادوا الثانية: «فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون»، فرد عليهم: «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» الآيات (السجدة ـ ١٢،١٣) فنادوا الثالثة: «ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتك ونتبع الرسل» (إبراهيم ـ ٤٤)، فرد عليهم: «أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال» الآيات (إبراهيم ـ ٤٤)، ثم نادوا الرابعة: «ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل» فرد عليهم: «أَلم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير»، الآية (فاطر ـ ٣٧) قال: فمكث عليهم ما شاء الله، ثم ناداهم: «ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون»، فلما سمعُوا ذلك قالوا: الآن يرحمنا، فقالوا عند ذلك: «ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون»، قال عند ذلك «اخسؤوا فيها ولا تكلمون» (المؤمنون ١٠٥ـ١٠٨) فانقطع عند ذلك الرجاء والدعاء عنهم، فأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجوه بعض، وأطبقت عليهم النار .

---

(١) رواه الطبراني عن كعب بن مالك مرفوعاً، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه وفيه أنس بن القاسم. قال ابن أبي حاتم: هو مجهول .
انظر: مجمع الزوائد: ٤٣/٧، الدر المنثور: ١٧/٥، الجرح والتعديل: ٢٨٨/٢ .

(٢) انظر: الدر المنثور: ١٨/٥، تفسير الطبري: ٥٦٤/١٦ .

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشيطانُ﴾، يعني: إبليس، ﴿لَمّا قُضيَ الأمرُ﴾، أي: فرغ منه فأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

قال مقاتل: يوضع له منبر في النار، فيرقاه فيجتمع عليه الكفار باللائمة فيقول لهم: ﴿إنّ الله وَعَدكُم وعدَ الحقِّ﴾، فوفى لكم به، ﴿وَوَعدتُّكم فأَخلفتُكم﴾، وقيل: يقول لهم: قلتُ لكم لا بعثَ ولا جنة ولا نار. ﴿وَمَا كانَ لي عليكُم من سلطانٍ﴾، وِلاية. وقيل: لم آتكم بحجة فيما دعوتكم إليه، ﴿إلا أنْ دَعوتُكُم﴾، هذا استثناء منقطعٌ معناه: لكن ﴿دَعَوتُكم فاستَجَبتُم لي فَلا تَلُوموني وَلُوموا أنفُسَكم﴾، بإجابتي ومتابعتي من غير سلطان ولا برهان، ﴿ما أنا بِمُصرِخكُم﴾، بمُغيثِكم، ﴿وَمَا أنتُم بِمُصرِخيَ﴾، بمغيثيَّ .

قرأ الأعمش وحمزة ﴿بمصرخيِ﴾ بكسر الياء، والآخرون بالنصب لأجل التضعيف، ومن كسر فلالتقاءِ الساكنين، حرِّكت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة، وأهل النحو لم يرضوه، وقيل: إنه لغة بني يربوع. والأصل ﴿بمصرخيني﴾ فذهبت النون لأجل الإضافة، وأُدغمت ياء الجماعة في ياء الإضافة(١) .

﴿إني كَفرتُ بما أشرَكتُمونِ من قبلُ﴾ أي: كفرت بجعلكم إياي شريكاً في عبادته وتبرأت من ذلك .

﴿إنَّ الظّالِمين﴾، الكافرين، ﴿لهم عذابٌ أليمٌ﴾ .

أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد الحارث، أنبأنا محمد بن يعقوب الكسائي، أنبأنا عبدالله بن محمود، حدثنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك، عن رشدين بن سعد، أخبرني عبدالرحمن بن زياد، عن دخين الحجري، عن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة ذكر الحديث ثم قال: «يقول عيسى عليه السلام ذلكم النبي الأمي فيأتوني فيأذن الله لي أن أقوم فيثور من مجلسي من أطيب ريح شمَّها أحدٌ، حتى

---

(١) انظر: البحر المحيط: ٤١٩/٥، زاد المسير: ٣٥٧/٤ .

﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾﴾

آتي ربي عزّ وجلّ فيشفّعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسي إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكفار: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا؟ فيقولون: ما هو غير إبليس، هو الذي أضلّنا، فيأتونه فيقولون له: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا. فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمّها أحد، ثم تعظم جهنم[1]، ويقول عند ذلك: **﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾**، الآية[2].

قوله عزّ وجلّ: **﴿وَأُدخِلَ الذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ جنّاتٍ تجري مِن تحتِها الأنهارُ خالِدِين فِيهَا بإذنِ رَبِّهم تحيتُهم فيها سلامٌ﴾**، يسلّم بعضهم على بعض، وتسلّم الملائكة عليهم.

وقيل: المحيِّي بالسلام هو الله عزّ وجلّ.

وقوله عزّ وجلّ: **﴿أَلَم تَرَ كَيفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾**، ألم تعلم، والمَثَل: قولٌ سائر لتشبيه شيء بشيء. **﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾**، هي قول: لا إله إلا الله، **﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾**، وهي النخلة يريد كشجرة طيبة الثمر[3].

---

(١) في «ب»: «يعظم لجهنم» وكذلك في الطبري. وفي الطبعة البولاقية منه «يعضم نحيبهم». قال الشيخ شاكر: وهو غير ما اتفقت عليه المخطوطة، والدر المنثور، وابن كثير،... وأنا في شك من الكلمة، وظني أنها: «يُقطِّم لجهنّم» من قولهم: «قطّم الشاربُ»: إذا ذاق الشراب فكرهه، وزوى وجهه، وقطّب.

(٢) أخرجه الدارمي في الرقائق، باب في الشفاعة: ٣٢٧/٢، وابن جرير الطبري في التفسير: ٥٦٢/١٦-٥٦٣.
وعزاه السيوطي لابن المبارك في الزهد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردوية، وابن عساكر. وقال: «أخرجوه بسند ضعيف».
وقال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبدالرحمن بن زياد، وهو ضعيف، وقال الشيخ محمود شاكر: وهذا خبر ضعيف، لا يقوم. ورشدين بن سعد المصري: ضعيف متروك، عنده معاضيل ومناكير. انظر: الدر المنثور: ١٨/٥، مجمع الزوائد: ٣٧٦/١٠، انظر: الدر المنثور: ١٨/٥، مجمع الزوائد: ٣٧٦/١٠، تفسير ابن كثير: ٥٣٠/٢.

(٣) وهذا ما رجحه الطبري في التفسير: ٥٧٣/١٦، لصحة الخبر في ذلك عن رسول الله ﷺ فيما رواه عبدالله بن عمر رضي عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدّثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي. قال عبدالله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدّثنا ما هي يارسول الله؟ قال: فقال: «هي النخلة».
أخرجه البخاري في العلم، باب قول المحدث حدثنا وأخبرنا: ١٤٥/١، وفي البيوع وفي التفسير وفي مواضع أخرى، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب مثل المؤمن مثل النخلة، برقم (٢٨١١): ٢١٦٤/٤-٢١٦٥، والمصنف في شرح السنة: ٣٠٧/١.

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥﴾

وقال ظبيان عن ابن عباس(١): هي شجرة في الجنة(٢).

﴿أصلُها ثابتٌ﴾، في الأرض، ﴿وفَرعُها﴾، أعلاها، ﴿في السماءِ﴾، كذلك أصل هذه الكلمة: راسخٌ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق، فإذا تكلم بها عرجت، فلا تحجب حتى تنتهي إلى الله عزّ وجلّ. قال الله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» (فاطر ـ ١٠).

﴿تُؤتي أُكُلَهَا﴾، تعطي ثمرها، ﴿كُلَّ حينٍ بإذنِ رَبِّها﴾ / والحين في اللغة هو الوقت. ١٩٣/ ب

وقد اختلفوا في معناه هاهنا فقال مجاهد وعكرمة: الحين هاهنا: سنة كاملةٌ، لأن النخلة تثمر كل سنة.

وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: ستة أشهر من وقت إطلاعها إلى صرامها. وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: أربعة أشهر من حين ظهورها إلى إدراكها.

وقال سعيد بن المسيب: شهران من حين تؤكل إلى حين الصرام.

وقال الربيع بن أنس: «كل حين»: أي: كل غدوة وعشية، لأن ثمر النخل يؤكل أبداً ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، إما تمراً أو رُطَباً أو بُسْراً، كذلك عملُ المؤمن يصعدُ أول النهار وآخره وبَرَكَةُ إيمانهِ لا تنقطع أبداً، بل تصل إليه في كل وقت(٣).

والحكمةُ في تمثيل الإيمان بالشجرة: هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عِرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال، كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.

---

(١) نقله عنه الطبري: ٥٧٣/١٦، وابن الجوزي في زاد المسير: ٣٥٨/٤، وزاد قولاً ثالثاً فيها، وهو: أنها المؤمن، وأصله الثابت، أنه يعمل في الأرض، ويبلغ عمله السماء، وهذا رواه عطية عن ابن عباس أيضاً.

(٢) في «ب»: الشام.

(٣) انظر هذه الأقوال الخمسة في معنى «الحين»، وقولاً سادساً عن علي: أنه ثمانية أشهر، في: تفسير الطبري: ٥٧٥/١٦ـ٥٧٩، الدر المنثور: ٢٤/٥ـ٢٥، وزاد المسير: ٣٥٩/٤، البحر المحيط: ٤٢٢/٥.

قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ من قال: عنى بالحين، في هذا الموضع؛ غدوةً وعشيةً وكلَّ ساعة؛ لأن الله تعالى ذكره ضرب ما تؤتي هذه الشجرة كلَّ حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامه مثلاً، ولا شك أن المؤمن يُرفع له إلى الله في كل يوم صالحٌ من العمل والقول، لا في كل سنة، أو في كل ستة أشهر، أو في كل شهرين، فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن المَثَل لا يكون خلافاً للممثَّل به في المعنى، وإذا كان ذلك كذلك كان بيِّناً صحة ما قلنا.

فإن قال قائل: فأيّ نخلة تؤتي أكلها في كل وقت أكلاً صيفاً وشتاءً؟ قيل: أما في الشتاء: فإن الطَّلْع من أُكُلها، وأما في الصيف: فالبَلَح والبُسْر والرُّطَب والتَّمْر، وذلك كله من أُكُلها».

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾

أخبرنا أبو عبدالله محمد بن الفضل الخَرَقي، أنبأنا أبو الحسن علي بن عبدالله الطيسفوني، أنبأنا عبدالله بن عمر الجوهري، أخبرنا أحمد بن علي الكشميهني، حدثنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل ابن جعفر، حدثنا عبدالله بن دينار أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقُها، وإنها مثل المسلم فحدِّثوني ما هي؟ قال عبدالله: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدِّثْنا ما هي يارسول الله؟ قال: هي النخلة. قال عبدالله: فذكرتُ ذلك لعمر، فقال: لأَنْ تكون قلتَ هي النخلة كان أحبَّ إلي من كذا وكذا»[(١)] .

وقيل الحكمة في تشبيهها بالنخلة من بين سائر الأشجار: أن النخلة شبه[(٢)] الأشجار بالإنسان من حيثُ إنها إذا قطع رأسها يبست، وسائر الأشجار تتشعب من جوانبها بعد قطع رؤوسها[(٣)] ولأنها تشبه الإنسان في أنها لا تحمل إلا بالتلقيح ولأنها خلقت من فضل طينة آدم عليه السلام، ولذلك قال النبي ﷺ: «أكرموا عمتكم» قيل: ومن عمتنا؟ قال: «النخلة»[(٤)] **﴿ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾**[(٥)] .

﴿ومثل كلمة خبيثة﴾. وهي الشرك، **﴿كشجرةٍ خبيثة﴾**، وهي الحنظل[(٦)] .

---

(١) متفق عليه، وسبق تخريجه قبل قليل ص (٣٤٦) تعليق (٣) .

(٢) في «ب»: أشبه .

(٣) في «ب»: رأسها .

(٤) **حديث ضعيف أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١٢٣/٦، وأبو يعلى في مسنده، وابن أبي حاتم، وابن عدي في «الكامل»: ٢٤٢٤/٦ والعقيلي في «الضعفاء» وابن السني وابن مردويه معاً في الطب .**
قال الهيثمي: فيه مسرور بن سعيد، وهو ضعيف. وقال العقيلي: حديثه غير محفوظ .
انظر: مجمع الزوائد: ٣٩/٥، فيض القدير: ٩٥/٢، كشف الخفاء: ١٩٥/١، تمييز الطيب من الخبيث ص (٣٦)، تنزيه الشريعة المرفوعة لابن عرّاق: ٢٠٩/١ .
وانظر في الحكمة من تشبيه الإيمان بالنخلة أيضاً: زاد المسير: ٣٥٩/٤-٣٦٠ .

(٥) أي: ويمثّل الله الأمثال للناس، ويشبّه لهم الأشباه ليتذكروا حجة الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعظوا، فينزجروا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان .
انظر: تفسير الطبري: ٥٦٧/١٦ . .

(٦) قال الطبري: ٥٨٥/١٦: وقد روي عن رسول الله ﷺ بتصحيح قول من قال: هي الحنظلة، خبرٌ فإن صحَّ، فلا قول يجوز أن يقال غيره، وإلا فإنها شجرة بالصفة التي وصفها الله بها. ثم ساق حديثاً للترمذي والحاكم عن أنس ضعفه الشيخ محمود شاكر .
انظر: الطبري: ٥٧٠/١٦-٥٧١، ٥٨٥ .

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾

وقيل: هي الثوم.

وقيل: هي الكشوث[1]، وهي العَشَقَة[2]، ﴿اجْتُثَّتْ﴾، يعني انقلَعت، ﴿من فوقِ الأرض مالها من قَرار﴾، ثبات.

معناه: ليس لها أصل ثابت في الأرض، ولا فرع صاعد إلى السماء، كذلك الكافر لا خير فيه، ولا يصعدُ له قول طيب ولا عمل صالح.

قوله تعالى: ﴿يثبِّتُ الله الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ﴾، كلمة التوحيد، وهي قول: لا إله إلا الله ﴿في الحياة الدنيا﴾، يعني قبل الموت، ﴿وفي الآخرة﴾، يعني في القبر. هذا قول أكثر أهل التفسير.

وقيل: «في الحياة الدنيا»: عند السؤال في القبر، «وفي الآخرة»: عند البعث.

والأول أصح[3].

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقمة بن مرثد قال: سمعت سعد ابن عبيدة، عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[4].

---

(١) في «ب»: الكشوب.
وفي لسان العرب: ١٨١/٢: «الكَشُوثُ، والأُكشوث، والكَشُوثَى: كل ذلك نبات مجتثّ مقطوع الأصل. وقيل: لا أصل له، وهو أصفر يتعلق بأطراف الشوك وغيره.
وقال الجوهري هو: نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعِرْقٍ في الأرض...».

(٢) العَشَقَةُ: شجرة تخضرُّ ثم تَدِقُّ وتصفرُّ، وهي عند المولَّدين: اللَّبْلاب، وجمعها العَشَقُ.
انظر: لسان العرب ٢٥٢/١٠.

(٣) وهو ما رجحه الطبري، حيث قال: (٦٠٢/١٦): والصواب من القول في ذلك ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ في ذلك، وهو أن معناه: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا»، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ «وفي الآخرة» بمثل الذي ثبّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يسألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير، سورة إبراهيم، باب «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت»: ٣٧٨/٨، والمصنف في شرح السنة: ٤١٢/٥.

وأخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أنبأنا عبدالغافر بن محمد، أنبأنا محمد بن عيسى الجلودي، أنبأنا إبراهيم بن محمد بن سفيان، أنبأنا مسلم بن الحجاج، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة بهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت**﴾ قال: نزلت في عذاب القبر يقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد، فذلك قوله تعالى: ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت**﴾ الآية[1] .

وأخبرنا عبدالواحد المليحي، أنبأنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عياش بن الوليد، حدثنا عبدالأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا وُضِع في قبره، وتولَّى عنه أصحابُه إنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه مَلَكان، فيُقْعِدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل، لمحمد ﷺ؟ فأما المؤمن، فيقول: أشهد أنه عبدالله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً» قال قتادة: وذكر لنا أنه يُفْسَحُ له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال :

وأما المنافقُ والكافر، فيقال له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ، ويُضْرَبُ بمطارقَ من حديدٍ ضربةً، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غيرَ الثَّقَلَيْن»[2] .

أخبرنا أبو الفرج المظفر بن إسماعيل التميمي، حدثنا أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي، أنبأنا أبو أحمد عبدالله بن عدي الحافظ، حدثنا عبدالله بن سعيد، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا عنبسة ابن سعيد بن كثير، حدثني جدي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الميت يسمع حِسَّ النِّعال إذا ولَّى عنه الناس مُدْبِرين، ثم يُجْلَسُ ويُوضَعُ كفنُه في عُنُقِه ثم يُسأل»[3] .

ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قُبِر الميتُ أتاه مَلَكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر النَّكير، فيقولان: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبدالله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله، فيقولان له: قد كنا نعلم أنك تقولُ هذا، ثم يُفْسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينوَّر له فيه، ثم يقال: نمْ كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحبُّ أهله إليه، حتى يبعثه الله تعالى، وإن كان منافقاً أو كافراً قال:

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار برقم (٢٨٧١): ٤/٢٢٠١ .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: ٣/٢٣٢، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار، برقم (٢٨٧٠): ٤/٢٢٠٠-٢٢٠١، والمصنف في شرح السنة: ٥/٤١٥ .

(٣) أخرجه ابن حبان، في الجنائز، باب في الميت يسمع ويسأل، ص (١٩٦) من موارد الظمآن، والإمام أحمد في المسند: ٢/٣٤٧، والمصنف في شرح السنة: ٥/٤١٣ .

سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذَّباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[1] .

وروي عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح المؤمن وقال: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك؟ [فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد فينتهرانه ويقولان له الثانيةَ: من ربك وما دينك ومن نبيك][2] وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن فيثبته الله عزّ وجلّ، فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، فينادي منادٍ من السماء: أنْ صَدَق عبدي، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿**يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة**﴾[3] / . ١٩٤/ أ

أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، أنبأنا أبو العباس عبد الله بن محمد بن هارون الطيسفوني، أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد الترابي، أنبأنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عمر بن بسطام، أنبأنا أبو الحسن أحمد بن سيار القرشي، حدثنا إبراهيم بن موسى[4] الفراء أبو إسحاق حدثنا هشام ابن يوسف حدثنا عبدالله بن يحيى عن هانىء مولى عثمان قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت، فإنه الآن يسأل»[5] .

وقال عمرو بن العاص في سياق الموت وهو يبكي: فإذا أنا مت فلا تصحبني نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني فسنُّوا علي التراب سناً ثم أقيموا حول قبري قدر ما ينحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي .

قوله تعالى: ﴿**ويضلُّ اللّهُ الظالمين**﴾ أي: لا يهدي الله المشركين إلى الجواب بالصواب في القبر ﴿**ويفعل الله ما يشاء**﴾، من التوفيق والخذلان والتثبيت وترك التثبيت .

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر: ٤/١٨١-١٨٤، وقال: وهو حديث حسن غريب. وفي الباب عن علي، وزيد بن ثابت، وابن عباس والبراء بن عازب، وأبي أيوب، وأنس، وجابر، وعائشة، وأبي سعيد كلهم رووا عن النبي ﷺ في عذاب القبر .
وأخرجه ابن حبان في الجنائز، باب الميت يسأل ويسمع، ص (١٩٧) من موارد الظمآن .
وحسنه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، وقال: هو على شرط مسلم: ١/٤٧ .

(٢) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٣) قطعة من حديث طويل أخرجه أبو داود في السنة، باب المسألة في القبر: ٧/١٣٩-١٤١، والحاكم في المستدرك: ١/٣٧، ٣٩، والإمام أحمد في المسند: ٤/٢٩٥-٢٩٦. وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة: ١/٤٨ .
وأخرجه الطبري في التفسير من عدة طرق انظر: ١٦/٥٨٩-٥٩٥ .

(٤) في «ب»: ابن محمد .

(٥) أخرجه أبو داود في الجنائز، باب الاستغفار عند القبر للميت: ٤/٣٣٩ والبيهقي في السنن الكبرى: ٤/٥٦، وحسنه النووي في الأذكار ص (١٣٧)، وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح: ١/٤٨ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

قوله عزّ وجلّ: ﴿ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمةَ الله كفراً﴾ الآية.

أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، أخبرنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس [في قوله تعالى][1] ﴿الذين بدّلوا نعمة الله كفراً﴾، قال: هم والله كفار قريش[2].

وقال عمرو: هم قريش، ومحمد ﷺ نعمة الله[3].

﴿وأحلُّوا قومهم دار البوار﴾، قال: البوار يوم بدر، قوله ﴿بدلوا نعمة الله﴾ أي: غيّروا نعمة الله عليهم في محمد ﷺ حيث ابتعثه الله تعالى منهم = كفراً كفروا به فأحلُّوا، أي: أنزلوا، قومهم ممن تابعهم على كفرهم دار البوار الهلاك، ثم بيَّن البوار فقال:

﴿جهنّمَ يصلونها﴾، يدخلونها ﴿وبئسَ القرار﴾، المستقر.

وعن علي كرم الله وجهه: الذين بدلوا نعمة الله كفراً: هم كفار قريش نحروا يوم بدر[4].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين[5].

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾، أمثالاً، [وليس لله تعالى ند][6]، ﴿لِيُضِلُّوا﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وكذلك في الحج وسورة لقمان والزمر: ﴿ليَضل﴾ وقرأ الآخرون بضم الياء على معنى ليضلوا الناس، ﴿عن سبيله قل تمتعوا﴾، عيشوا في الدنيا، ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾.

(١) ساقط من «ب».
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة إبراهيم، باب: «ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً»: ٣٧٨/٨، بلفظ: هم كفار أهل مكة. وانظر: الدر المنثور: ٤١/٥، الطبري: ٢٢٢/١٣ (طبع الحلبي).
وسائر الإحالات الآتية إلى تفسير الطبري ستكون ـ إن شاء الله تعالى ـ إلى هذه الطبعة، حيث كنا فيما سبق ـ غالباً ـ نعزو إلى طبعة دار المعارف بتحقيق الشيخ محمود شاكر.
(٣) عزاه السيوطي لابن جرير عن عطاء بن يسار: ٤٢/٥.
(٤) عزاه السيوطي لابن جرير، وابن المنذر، والحاكم في «الكنى»، الدر المنثور: ٤٢/٥.
(٥) أخرجه البخاري في «التاريخ» وابن جرير، وابن المنذر، وابن مردويه. انظر: الدر المنثور: ٤١/٥.
(٦) ساقط من «ب».

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

﴿قل لعباديَ الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾، قال الفراء: هو جزم على الجزاء، **﴿وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً من قبلِ أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلالٌ﴾**، مخاللة وصداقة. [قرأ ابن كثير، وابن عمرو، ويعقوب: «لا بيعَ فيه ولا خلالَ» بالنصب فيهما على النفي العام. وقرأ الباقون: «لا بيعٌ ولا خلال» بالرفع والتنوين][(١)] .

﴿الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾، **﴿وسخر لكم الأنهار﴾**، ذللها لكم، تجرُونها[(٢)] حيث شئتم .

﴿وسخر لكم الشمسَ والقمرَ دائبين﴾، يجريان فيما يعود إلى مصالح العباد ولا يَفْتُران، قال ابن عباس دؤوبُهما في طاعة الله عزّ وجلّ[(٣)] .

﴿وسخر لكم الليلَ والنهارَ﴾، يتعاقبان في الضياء والظلمة، والنقصان والزيادة .

﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾، [يعني: وآتاكم من كل شيء سألتموه][(٤)] شيئاً، فحذف الشيء الثاني اكتفاءً بدلالة الكلام، على التبعيض .

وقيل: هو على التكثير نحو قولك: فلان يعلم كلَّ شيء، وآتاه كلَّ النّاس، وأنت تعني بعضهم،

---

(١) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٢) في «ب»: تجروها .

(٣) الطبري: ١٣/٢٢٥ (طبع الحلبي) .

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦﴾

نظيره قوله تعالى: «فتحنا عليهم أبوابَ كلِّ شيء» (الأنعام ـ ٤٤).

وقرأ الحسن ﴿من كلٍّ﴾، بالتنوين ﴿ما﴾ على النفي يعني من كل ما لم تسألوه، يعني: أعطاكم أشياء ما طلبتموها ولا سألتموها[1].

﴿وإنْ تعدوا نعمةَ الله﴾، أي: نعم الله، ﴿لا تحصوها﴾، أي: لا تطيقوا عدَّها ولا القيام بشُكرِها.

﴿إن الإنسان لظلوم كفّار﴾، أي: ظالم لنفسه بالمعصية، كافرٌ بربِّه عز وجل في نعمته.

وقيل: الظلوم، الذي يشكر غير من أنعم عليه، والكافر: من يجحد مُنْعِمَه.

قوله عزّ وجلّ: ﴿وإذْ قال إبراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلدَ﴾، يعني: الحرم، ﴿آمناً﴾ ذا أمن يؤمن فيه، ﴿واجنُبني﴾، أبعِدْني، ﴿وبَنِيَّ أن نعبُدَ الأصنام﴾، يقال: جَنَبْتُه الشيءَ، وأَجْنَبْتُه جنباً، وجَنَّبْتُهُ تَجْنِيْباً واجتنبتُه اجتناباً بمعنى واحد.

فإن قيل: قد كان إبراهيم عليه السلام معصوماً من عبادة الأصنام، فكيف يستقيم السؤال؟ وقد عبد كثير من بنيه الأصنام فأين الإجابة؟

قيل: الدعاء في حق إبراهيم عليه السلام لزيادة العِصْمة والتثبيت، وأما دعاؤه لبنيه: فأراد بنيه من صُلْبه، ولم يعبد منهم أحدٌ الصنم.

وقيل: إن دعاءه لمن كان مؤمناً من بنيه[2].

﴿ربِّ إنهن أضللن كثيراً من الناس﴾، يعني: ضل بهن كثير [من الناس][3] عن طريق الهدى حتى عبدوهن، وهذا من المقلوب نظيره قوله تعالى: «إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه» (آل عمران ـ ١٧٥)،

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٣/٢٢٦.

(٢) وقال محمد بن أبي بكر الرازي قيل: «إنما سأل هذا السؤال في حالة خوف أذهله عن ذلك العلم ـ بالعصمة عن الكفر وعبادة الأصنام ـ لأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أعلم الناس بالله، فيكونون أخوفهم منه، فيكون معذوراً بسبب ذلك. وقيل: إن في حكمة الله تعالى وعلمه أن لا يبتلي نبياً من الأنبياء بالكفر، بشرط أن يكون متضرعاً إلى ربه طالباً منه ذلك، فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة».
انظر: مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، ص (١٦٤).

(٣) ساقط من «ب».

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾

أي: يخوفهم[1] بأوليائه.

وقيل: نسبَ الإضلال إلى الأصنام لأنهن سبب فيه، كما يقول القائل: فتنتني الدنيا، نسب الفتنة إلى الدنيا لأنها سبب الفتنة[2].

﴿فمن تبعني فإنه مني﴾، أي: مِنْ أهل ديني، ﴿ومن عصاني فإنك غفورٌ رحيم﴾، قال السدي: معناه: ومن عصاني ثم تاب.

وقال مقاتل بن حيان: ومن عصاني فيما دون الشرك.

وقيل: قال ذلك قبل أن يعلمه الله أنه لا يغفر الشرك[3].

قوله عزّ وجلّ: ﴿ربنا إني أسكنتُ من ذريتي﴾، أدخل «من» للتبعيض، ومجاز الآية: أسكنت من ذريتي ولداً، ﴿بوادٍ غير ذي زرع﴾، وهو مكة؛ لأن مكة وادٍ بين جبلين، ﴿عند بيتك المُحرّم﴾، سماه محرَّماً لأنه يحرم عنده مالا يحرم عند غيره.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا عبدالرزاق، أنبأنا معمر، عن أيوب السختياني وكثير بن [أبي كثير بن][4] المطّلب بن أبي وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبير [قال][5]: قال ابن عباس: أول ما اتّخذ النساءُ المِنْطَق من قِبَلِ أمِّ إسماعيلَ، اتخذت مِنْطَقاً لتُعفّي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم عليه السلام، وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحدٌ وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قَفَلَ إبراهيم منطلقاً، فتبعتْه أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنْس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً،

(١) في «ب»: يخوفكم.
(٢) وانظر: مسائل الرازي وأجوبتها ص (١٦٤).
(٣) في «ب»: أن يشرك به.
(٤) ليس في «ب».
(٥) ساقط من «ب».

١٩٤/ب وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيّعنا / ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثَّنِيَّةِ حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه، فقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع﴾، حتى بلغ «يشكرون» .

وجعلتْ أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفِدَ ما في السِّقاء عطشتْ وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلبَّط أو قال يتلَوَّى، وانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرْعِها، ثم سَعَتْ سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً، فلم تَرَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما» .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غِوَاث، فإذا هي بالمَلَكِ عند موضع زمزم، فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء فجعلت تَحُوضُه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف .

قال ابن عباس قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم» أو قال: «لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً مَعيْناً» .

قال: فشربتْ وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضيعة فإن هاهنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان موضع البيت مرتفعاً من الأرض كالرَّابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك، حتى مرَّتْ بهم رُفْقة من جُرْهُم ـ أو أهل بيت من جرهم ـ مقبلين من طريق كَداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إنّ هذا الطائر ليدور على ماء، ولَعَهْدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جَرِيًّاً أو جَرِيَّيْنْ فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء، قالوا: نعم .

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفَىٰ ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم، وأَنْفَسَهُم وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدرك زوَّجوه امرأةً منهم. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾

إسماعيل يطالع تركته[١]... ذكرنا تلك القصة في سورة البقرة[٢].

قوله تعالى: **﴿ربَّنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس﴾**، الأفئدة: جمع الفؤاد **﴿تهوي إليهم﴾**، تشتاق وتحنُّ إليهم.

قال السدي: ومعناه أَمِلْ قلوبهم إلى هذا الموضع.

قال مجاهد: لو قال أفئدة الناس لزاحمتكم فارس والروم والترك والهند.

وقال سعيد بن جبير: لحجَّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنه قال: «أفئدة من الناس» وهم المسلمون.

﴿وارزقهم من الثمرات﴾، ما رزقت سكان القرى ذوات الماء، **﴿لعلهم يشكرون﴾**.

﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾، من أمورنا. وقال ابن عباس ومقاتل: من الوجد بإسماعيل وأمه حيث أسكنتهما بوادٍ غير ذي زرع. **﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾**، قيل: هذا صلة قول إبراهيم.

وقال الأكثرون: يقول الله عزّ وجلّ: **﴿وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾**[٣].

﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكِبَرِ﴾، أعطاني، **﴿إسماعيل وإسحاق إنّ ربي لسميع الدعاء﴾**، قال ابن عباس: وُلد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، ووُلد إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة.

وقال سعيد بن جبير: بُشّر إبراهيم بإسحاق وهو ابن مائة وسبع عشرة سنة[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب يزفّون النَّسَلان في المشي: ٦/٣٩٦-٣٩٨.

(٢) انظر فيما سبق: ١/١٤٧-١٤٨.

(٣) في البحر المحيط: ٥/٤٣٣ جاءت العبارة أوضح فقال: وقيل «وما يخفى...» الآية، من كلام الله عزّ وجلّ تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، كقوله تعالى: «كذلك يفعلون».

(٤) انظر: المحرر الوجيز: ٨/٢٥٦.

رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾

﴿**ربِّ اجعلني مقيم الصلاة**﴾، يعني: ممن يقيم الصلاة بأركانها ويحافظ عليها، ﴿**ومن ذريتي**﴾، يعني: اجعل من ذريتي من يقيمون الصلاة.

﴿**ربَّنا وتقبلْ دعاء**﴾، أي: عملي وعبادتي، سمّى العبادة دعاءً، وجاء في الحديث: «الدعاء مخ العبادة»(١).

وقيل: معناه: استجبْ دعائي.

﴿**ربنا اغفر لي ولوالدي**﴾، فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غيرُ مؤمنين؟ قيل قد قيل إن أمه أسلمت.

وقيل: أراد: إن أسلما وتابا(٢).

وقيل: قال ذلك قبل أن يتبين له أمر أبيه، وقد بيّن الله تعالى عذر خليله ﷺ في استغفاره لأبيه في سورة التوبة(٣).

﴿**وللمؤمنين**﴾، أي: اغفر للمؤمنين كلهم، ﴿**يوم يقوم الحساب**﴾، أي: يبدو ويظهر. وقيل: أراد يوم يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوماً.

قوله عزّ وجلّ: ﴿**ولا تحسبنَّ الله غافلاً عمّا يعملُ الظالمون**﴾، الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمور، والآية لتسلية المظلوم وتهديد للظالم.

---

(١) حديث ضعيف أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك، في الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء: ٨/٣١١، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة».
وعن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: «وقال ربكم ادعوني أستجبْ لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين» (سورة غافر- ٤٠).
أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء: ٢/١٤١، والترمذي في الدعوات نفسه: ٩/٣١١-٣١٢، وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وفي التفسير أيضاً، وابن ماجه في السنن، كتاب الدعاء، برقم (٣٨٢٨): ٢/١٢٥٨، وصححه ابن حبان ص (٥٩٥) من موارد الظمآن للهيثمي، والحاكم في المستدرك: ١/٤٩١، وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٤/٢٧٦. وذكره المصنف البغوي في مصابيح السنة: ٢/١٣٨ كتاب الدعوات في الحسان.

(٢) انظر: مسائل الرازي وأجوبتها، ص (١٦٦).

(٣) انظر فيما سبق ص (١٠١) من سورة التوبة.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾

﴿**إنما يؤخرهم ليوم تشخصُ فيه الأبصار**﴾، أي: لا تغمض من هول ما ترى في ذلك اليوم، وقيل: ترتفع وتزول عن أماكنها.

﴿**مهطعين**﴾، قال قتادة: مسرعين.

قال سعيد بن جبير: الاهطاع النَّسَلان كعَدْوِ الذئب.

وقال مجاهد: مديمي النظر.

ومعنى «الإهطاع»: أنهم لا يلتفون يميناً ولا شمالاً، ولا يعرفون مواطن أقدامهم.

﴿**مقنعي رؤوسهم**﴾، أي: رافعي رؤوسهم.

قال القتيبي: المُقْنِعُ: الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه(١).

وقال الحسن: وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء، لا ينظر أحدٌ إلى أحد.

﴿**لا يرتد إليهم طرفهم**﴾ أي: لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، وهي شاخصة قد شغلهم ما بين أيديهم.

﴿**وأفئدتهم هواء**﴾، أي: خالية. قال قتادة: خرجت قلوبهم عن صدورهم، فصارت في حناجرهم، لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها، فالأفئدة هواء لا شيء فيها، ومنه سُمِّي ما بين السماء والأرض هواء لِخُلُوِّه.

وقيل: خالية لا تعي شيئاً ولا تعقل من(٢) الخوف.

وقال الأخفش: جوفاء لا عقول لها، والعرب تسمي كل أجوف خاوٍ هواء.

وقال سعيد بن جبير: «وأفئدتهم هواء» أي: مترددة، تمور في أجوافهم، ليس لها مكان تستقرُّ فيه.

وحقيقة المعنى: أن القلوب زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة من هول ذلك اليوم.

﴿**وأنذرِ الناسَ**﴾، خوّفهم، ﴿**يومَ**﴾، أي: بيوم، ﴿**يأتيهم العذاب**﴾، وهو يوم القيامة، / ١٩٥/ أ
﴿**فيقول الذين ظلموا**﴾، أشركوا، ﴿**ربَّنا أخِّرنا**﴾، أمهلنا، ﴿**إلى أجلٍ قريبٍ**﴾، هذا سؤالهم الردّ

---

(١) قال في غريب القرآن (١/٢٣٧) من القرطين لابن مطرف الكناني: «والمقنع رأسه: الذي رفعه، وأقبل بطَرْفه على ما بين يديه. والإقناع في الصلاة هو إتمامها».

(٢) «من» للتعليل.

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

إلى الدنيا، أي: ارجِعْنا إليها، ﴿نجبْ دعوتك ونتَّبعِ الرسل﴾، فيجابون:

﴿أو لم تكونوا أقسمتم من قبلُ﴾، حلفتم في دار الدنيا، ﴿ما لكم من زوال﴾، عنها أي: لا تبعثون. وهو قوله تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت» (النحل ـ ٣٨).

﴿وسكنتُم﴾، في الدنيا، ﴿في مساكن الذين ظلموا أنفسَهم﴾، بالكفر والعصيان، قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم. ﴿وتبيّن لكن كيفَ فعلنا بهم﴾، أي: عرفتم عقوبتنا إيّاهم، ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾، أي: بينَّا أن مثلكم كمثلهم.

﴿وقد مكروا مكرَهم وعندَ اللّهِ مكرُهم﴾، أي: جزاء مكرهم، ﴿وإنْ كان مكرهم﴾، قرأ علي وابن مسعود: ﴿وإن كان مكرهم﴾ بالدال، وقرأ العامة بالنون.

﴿لِتزُولَ منه الجبال﴾، قرأ العامة لتزول بكسر اللام الأولى ونصب الثانية.

معناه: وما كان مكرهم.

قال الحسن: إن كان مكرهم لأضعف من أن تزول منه الجبال.

وقيل: معناه إن مكرهم لا يزيل أمر محمد ﷺ الذي هو ثابت كثبوت الجبال.

وقرأ ابن جريج والكسائي: ﴿لَتزول﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، معناه: إن مكرهم وإن عظم حتى بلغ محلاً يزيل الجبال لم يقدروا على إزالة أمر محمد ﷺ.

وقال قتادة: معناه وإن كان شركهم لتزول منه الجبال وهو قوله تعالى: «وتخر الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً» (مريم ـ ١٩).

ويُحكى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معنى الآية: أنها نزلت في نمروذ الجبَّار الذي حاج إبراهيم في ربه، وذلك أنه قال: إن كان ما يقول إبراهيم حقاً فلا أنتهي حتى أصعد السماء فأعلم ما فيها، فعمد إلى أربعة أفرخ من النسور فربَّاها حتى شبت واتخذ تابوتاً، وجعل له باباً من أعلى وباباً من أسفل، وقعد نمرود مع رجل في التابوت، ونصب خشباتٍ في أطراف التابوت، وجعل على رؤوسها اللحم وربط، التابوت بأرجل النسور، فطِرْن وصعدن طمعاً في اللحم، حتى مضى يوم وأَبْعَدْنَ في الهواء، فقال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأعلى وانظر إلى السماء هل قربناها، ففتح

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

[الباب ونظر][1] فقال: إن السماء كهيئتها ثم قال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها؟ ففعل، فقال: أرى الأرض مثل اللجّة والجبال مثل الدخان، فطارت النسور يوماً آخر، وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران، فقال لصاحبه: افتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها، وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة، فنودي: أيها الطاغية أين تريد؟

قال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل معه القوس والنشّاب فرمى بسهم فعاد إليه السهم متلطخاً بدم سمكة قذفت نفسها من بحر في الهواء ـ وقيل: طائر أصابه السهم ـ فقال: كفيت شغل إله السماء.

قال: ثم أمر نمرود صاحبه أن يصوّب الخشبات وينكص اللحم، ففعل، فهبطت النسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنسور، ففزعت وظنت أنه قد حَدَثَ حدثٌ من السماء، وأن الساعة قد قامت، فكادت تزول عن أماكنها، فذلك قوله تعالى: **﴿وإنْ كان مكرُهم لتزولَ منه الجبال﴾**[2].

﴿فلا تحسبنّ اللّهَ مخلفَ وعدِهِ رسلَه﴾، بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه، وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده، **﴿إن الله عزيز ذو انتقام﴾**.

قوله عزّ وجلّ: **﴿يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسموات﴾**.

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أخبرنا عبدالغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، أخبرنا إبراهيم بن محمد بن يوسف، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا خالد بن مخلد، عن محمد بن جعفر بن أبي كثير، حدثني أبو حازم بن دينار عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراءَ كقُرْصة النَّقِيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد»[3].

---

(١) ساقط من «ب».

(٢) روى الطبري هذه القصة عن علي، وسعيد بن جبير: ١٣/٢٤٤ـ٢٤٥. وضعّف هذه القصة ابن عطية في المحرر الوجيز: ٨/٢٦٥ فقال: «وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيدٌ أن يغرّر أحد بنفسه في مثل هذا».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة: ١١/٣٧٢، ومسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور، برقم (٢٧٩٠): ٤/٢١٥٠، والمصنف في شرح السنة: ١٥/١١٢.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أنبأنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن خالدٍ ـ هو ابن يزيد ـ عن سعيد بن أبي هلال، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزةً واحدة يتكفؤها الجبّار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر، نُزُلاً لأهل الجنة»(١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية قال: تبدل الأرض بأرض كفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم تعمل عليها خطيئة(٢) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: تبدل الأرض من فضة والسماء من ذهب(٣) .

وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير: تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه(٤) .

وقيل: معنى التبديل جعل السموات جناناً وجعل الأرض نيراناً .

وقيل: تبديل الأرض تغييرها من هيئة إلى هيئة، وهي تسيير جبالها، وطمّ أنهارها، وتسوية أوديتها وقطع أشجارها، وجعلها قاعاً صفصفاً، وتبديل السموات: تغيير حالها بتكوير شمسها، وخسوف قمرها وانتثار نجومها، وكونها مرة كالدهان، ومرة كالمهل .

أخبرنا إسماعيل بن عبدالقاهر، أخبرنا عبدالغافر بن محمد، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف، حدثنا مسلم بن الحجاج، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا علي بن مسهر، عن داود ـ وهو ابن أبي هند ـ عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عزّ وجلّ: «يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسموات» فأين يكون الناس يومئذ يارسول الله؟ فقال: «على الصراط»(٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق: ١١/٣٧٢، ومسلم في الموضع نفسه، برقم (٢٧٩٢): ٤/٢١٥١، والمصنف في شرح السنة: ١٥/١١٣ .

(٢) أخرجه البزار، وابن المنذر، والطبراني، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث» مرفوعاً، وأخرجه موقوفاً: عبدالرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ في «العظمة»، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في البعث .
قال البيهقي: «والموقوف أصح» . انظر: الدر المنثور: ٥/٥٦ـ٥٧ .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم .
انظر: الدر المنثور: ٥/٥٧ .

(٤) أخرجه ابن جرير عنهما، انظر: التفسير: ١٣/٢٥٢ (طبع الحلبي) .

(٥) أخرجه مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب في البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة، برقم (٢٧٩١): ٤/٢١٥٠ . والمصنف في شرح السنة: ١٥/١٠٧ـ١٠٨ .

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ۝٥١ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٢﴾

وروى ثوبان أن حبراً من اليهود سأل رسول الله ﷺ فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؛ قال: «هم في الظلمة دون الجسر»(٥) .

قوله تعالى: ﴿وبرزوا﴾، خرجوا من قبورهم، ﴿لله الواحد القهار﴾، الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

﴿وترى المجرمين يومئذٍ مُقَرَّنين﴾، مشدودين بعضهم ببعض، ﴿في الأصفاد﴾، في القيود والأغلال، واحدها صَفَد، وكل من شددته شداً وثيقاً فقد صفدته .

قال أبو عبيدة: صَفَدْتُ الرجل فهو مصفود، وصفَّدته بالتشديد فهو مصفَّد .

وقيل: يقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة، بيانه قوله تعالى: «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم» (الصافات ـ ٢٢)، يعني: قرناءهم من الشياطين .

وقيل: معناه مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد والقيود، ومنه قيل للحبْل: قَرَن .

﴿سرابيلهم﴾، أي: قُمُصُهم، واحدها سربال. ﴿من قَطِرانٍ﴾ هو الذي تهنأ به الإبل .

١٩٥/ب وقرأ عكرمة ويعقوب ﴿من قطرآنٍ﴾ على كلمتين منونتين / والقطر: النحاس، والصفر المذاب، والآن: الذي انتهى حرُّه، قال الله تعالى: «يطوفون بينها وبين حميم آن» (الرحمن ـ ٤٤) .

﴿وتغشى وجوههم النار﴾، أي: تعلو .

﴿ليجزي الله كل نفس ما كسبتْ﴾، من خير وشر، ﴿إنّ الله سريعُ الحساب﴾ .

﴿هذا﴾، أي: هذا القرآن، ﴿بلاغ﴾، أي: تبليغ وعظة، ﴿للناس ولينذروا﴾، وليخوفوا، ﴿به وليعلموا أنما هو إله واحد﴾، أي: ليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى: ﴿وليذّكّر أولوا الألباب﴾، أي: ليتعظ أولو العقول .

---

(١) قطعة من حديث طويل، أخرجه مسلم في الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة، وأن الولد مخلوق من مائهما، برقم (٣١٥): ١/٢٥٢ .

سُورَةُ الحِجْر

سورة الحجر

مكية[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾

﴿الر﴾ قيل: معناه: أنا الله أرى[2]، **﴿تلك آيات الكتاب﴾**، أي: هذه آيات الكتاب، **﴿وقرآنٍ﴾** أي: وآيات قرآن، **﴿مبين﴾**، أي: بيِّن[3] الحلال من الحرام والحق من الباطل.

فإن قيل: لِمَ ذكر الكتاب ثم قال **﴿وقرآن مبين﴾** وكلاهما واحد؟

قلنا: قد قيل كل واحد يفيد فائدة أخرى، فإن الكتاب: ما يكتب، والقرآن: ما يجمع بعضه إلى بعض.

وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، وبالقرآن هذا الكتاب.

﴿ربما﴾ قرأ أبو جعفر ونافع وعاصم بتخفيف الباء والباقون بتشديدها، وهما لغتان، ورُبَّ للتقليل وكم للتكثير، ورُبَّ تدخل على الاسم، ورُبَما على الفعل، يقال: رُبَّ رجل جاءني، ورُبَمَا جاءني رجل، وأدخل ما هاهنا للفعل بعدها. **﴿يَوَدُّ﴾**، يتمنى، **﴿الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾**.

واختلفوا في الحال التي يتمنى الكافر فيها الإسلام.

قال الضحاك: حالة المعاينة[4].

---

(١) مكية بالاتفاق، وهو مروي عن ابن عباس وابن الزبير. انظر: الدر المنثور: ٦١/٥.

(٢) انظر فيما سبق: ٥٨/١-٥٩.

(٣) في «ب»: يبين.

(٤) وفيه نظر، إذ لا يقين للكافر حينئذ بحال المسلمين. انظر: المحرر الوجيز: ٢٧٩/٨.

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾

وقيل: يوم القيامة.

والمشهور أنه[1] حين يخرج الله المؤمنين من النار.

وروي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة: ألستم مسلمين؟ قالوا بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وأنتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها، فيغضب الله تعالى لهم [بفضل رحمته][2]، فيأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها، فحينئذ يودُّ الذين كفروا لَوْ كانوا مسلمين[3].

فإن قيل: كيف قال «ربما» وهي للتقليل وهذا التمني يكثر من الكفار؟

قلنا: قد تذكر «ربما» للتكثير، أو أراد: أن شغلهم بالعذاب لا يفرغهم للندامة إنما يخطر ذلك ببالهم أحياناً.

﴿ذرهم﴾، يامحمد، يعني: الذين كفروا، ﴿يأكلوا﴾ في الدنيا، ﴿ويتمتعوا﴾، من لذاتهم[4] ﴿ويُلْهِهِمُ﴾، يشغلهم، ﴿الأملُ﴾، عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة، ﴿فسوف يعلمون﴾، إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد.

وقال بعضُ أهل العلم: «ذرهم» تهديد، وقوله: «فسوف يعلمون» تهديد آخر، فمتى[5] يهنأ العيش بين تهديدين.

والآية نسختها آية القتال[6].

---

(١) في «ب»: وهو المشهور، أنه.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير: ١٤/٢ (طبع الحلبي) وابن أبي عاصم في «السُّنة»: ٤٠٥/١-٤٠٦، والحاكم في «المستدرك»: ٤٤٢/٢، وقال: صحيح ولم يخرجاه.

قال الهيثمي في «المجمع»: (٤٥/٧): «رواه الطبراني، وفيه خالد بن نافع الأشعري، قال أبو داود: متروك. قال الذهبي: هذا تجاوز في الحدِّ، فقد حدث عنه أحمد بن حنبل وغيره ـ وبقية رجاله ثقات».

وعزاه في «كنز العمال»: (٥٤١/١٤) أيضاً لابن أبي حاتم، وابن مردويه، والبيهقي في «البعث والنشور». وانظر: تفسير ابن كثير: ٥٤٧/٢.

وصححه الألباني في «ظلال الجنة في تخريج السنة»: ٤٠٦/١.

(٤) في «ب»: في لذاتها.

(٥) في «أ»: فكيف.

(٦) ذكر هذا كثير من المفسرين، انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ص (٥٨)، المحرر الوجيز: ٢٨١/٨، =

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا
يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦ لَّوۡ مَا
تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا
كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾

﴿وما أهلكنا من قرية﴾، أي: من أهل قرية، **﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾**، أي: أجل مضروب لا يتقدم عليه، ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه، ولا يتأخر عنهم.

﴿ما تسبق من أمة أجلها﴾ «من» صلة، **﴿وما يستأخرون﴾**، أي: الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: العذاب المضروب.

﴿وقالوا﴾ يعني: مشركي مكة، **﴿يا أيها الذي نُزّل عليه الذكر﴾**، أي: القرآن، وأرادوا به محمداً ﷺ، **﴿إنك لمجنون﴾**، وذكروا تنزيل الذكر على سبيل[1] الاستهزاء.

﴿لوما﴾، هلا **﴿تأتينا بالملائكة﴾**، شاهدين لك بالصدق على ما تقول، **﴿إن كنت من الصادقين﴾**، إنك نبي[2].

﴿ما ننزل الملائكة﴾، قرأ أهل الكوفة غير أبي بكر بنونين «الملائكة» نصب، وقرأ أبو بكر بالتاء وضمها وفتح الزاي «الملائكة» رفع وقرأ الباقون بالتاء وفتحها[3] وفتح الزاي «الملائكة» رفع. **﴿إلا بالحق﴾** أي: بالعذاب ولو نزلت يعني الملائكة لعجلوا بالعذاب، **﴿وما كانوا إذاً منظَرين﴾** أي: مؤخَّرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عياناً فأجابهم الله تعالى بهذا. ومعناه: إنهم لو نزلوا عياناً لزال عن الكفار الإمهال وعُذّبوا في الحال.

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾، يعني القرآن، **﴿وإنّا له لحافظون﴾**، أي: نحفظ القرآن من الشياطين أن

= زاد المسير: ٤/٣٨٢.

هذا، وقد ألمحنا في موضع سابق من هذا التفسير إلى أن بعض العلماء توسعوا كثيراً في الحكم على كثير من آيات الصبر والمسالمة والإعراض عن المشركين وتهديدهم بالعذاب = بالنسخ، وجعلوا آية القتال أو آية السيف ناسخة لأكثر من مائة آية في القرآن الكريم. وفي هذا غلو في القول بالنسخ، وخروج به عن مفهومه الصحيح.

انظر: علوم القرآن، لأستاذنا الدكتور عدنان محمد زرزور ص (٢١٠-٢١٢) واقرأ الفصل بكامله عن «الناسخ والمنسوخ».

(١) في «ب»: طريق.

(٢) ساقط من «ب».

(٣) في «ب»: وضمها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾

يزيدوا فيه، أو ينقصوا منه، أو يبدِّلوا، قال الله تعالى: «لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه» (فصلت ــ ٤٢) والباطل: هو إبليس، لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه ولا أن ينقص منه ما هو منه.

وقيل الهاء في «له» راجعة إلى محمد ﷺ أي: إنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء كما قال جلّ ذكره: «والله يعصمك من الناس» (المائدة ــ ٦٧).

قوله تعالى: **﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾**، أي: رسلاً، **﴿في شِيَعِ الأولين﴾**، أي: في [الأمم والقرون الماضية][1].

والشيعة: هم القوم المجتمعون[2] المتفقة كلمتهم.

﴿وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون﴾، كما فعلوا بك، ذكره[3] تسلية للنبي ﷺ.

﴿كذلك نسلكه﴾، أي: كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء بالرسل[3] في قلوب شيع الأولين، كذلك [نسلكه: ندخله][3]، **﴿في قلوب المجرمين﴾**، يعني: مشركي مكة قومك. وفيه ردٌّ على القدرية[4].

﴿لا يؤمنون به﴾، يعني: لا يؤمنون بمحمد ﷺ وبالقرآن، **﴿وقد خلت﴾**، مضت، **﴿سنة الأولين﴾**، أي: وقائع الله تعالى بالإهلاك فيمن كذب الرسل من الأمم الخالية، يخوِّف أهل مكة.

﴿ولو فتحنا عليهم﴾، يعني: على الذين يقولون لو ما تأتينا بالملائكة، **﴿باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾** أي: فظلت الملائكة يعرجون فيها، وهم يرونها عياناً، هذا قول الأكثرين.

---

(١) في «ب»: أمم الأولين الماضية.

(٢) في «أ»: المجتمعة.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) القدرية هم الذين ينكرون القدر، فيقولون: لا قدر والأمر أُنُف، ويزعمون أن كل عبد خالق لفعله، فالأمور يستأنف العلم بها، وتستأنف ــ بالتالي ــ إرادتها، وكأنهم بهذا ينفون الإرادة الأزلية والعلم الأزلي ليخرجوا فعل الإنسان عن نطاق قدرة الخلاق العليم.

انظر: الوصية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيمية، بتحقيقنا، ص (٥٧) تعليق (٥).

﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾

وقال الحسن: معناه فظل هؤلاء الكفار يعرجون فيها أي: يصعدون .

والأول أصح(١) .

﴿لقالوا إنما سكرت﴾، سُدَّت، ﴿أبصارنا﴾، قاله ابن عباس(٢) .

وقال الحسن: سحرت .

وقال قتادة: أخذت(٣) .

وقال الكلبي: عميت(٤) .

وقرأ ابن كثير ﴿سُكِرَتْ﴾ بالتخفيف، أي: حُبست ومُنعت النظر كما يسكر النهر لحبس الماء .

﴿بل نحن قوم مسحورون﴾، أي: عمل فينا السحر فسحرنا محمد ـ ﷺ ـ .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾، والبروج: هي النجوم الكبار، مأخوذة من الظهور، يقال: تبرجت المرأة أي: ظهرت .

وأراد بها: المنازل التي تنزلها الشمس، والقمر، والكواكب السيارة، وهي اثنا عشر برجاً: الحَمَل، والثَّور، والجَوْزاء، والسَّرطان، والأسد، والسُّنْبُلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدلو، والحوت(٥) .

وقال عطية: هي قصور في السماء عليها الحرس(٦) .

---

(١) وهو مروي عن ابن عباس، وابن جريج، وقتادة، والضحاك، وإليه ذهب الطبري. واعتمد ابن كثير قول الحسن، وهو ما قاله ابن عطية كذلك .
انظر: تفسير الطبري: ١٤/١٠ـ١١ (طبع الحلبي)، تفسير ابن كثير: ٥٤٨/٢، المحرر الوجيز: ٢٨٨/٨، زاد المسير: ٣٨٦/٤ .

(٢) وهو قول مجاهد والضحاك. انظر: تفسير الطبري: ١٢/١٤ .

(٣) وهما قولان متقاربان، وأخرجهما الطبري عن ابن عباس وقتادة أيضاً .

(٤) أخرجه الطبري: ١٣/١٤ .
وقد رجح الطبري قول من قال إن معنى ذلك: «أخذت أبصارنا وسُحرت، فلا تبصر الشيء على ما هو به، وذهب حدُّ إبصارها، وانطفأ نوره، كما يقال للشيء الحار إذا ذهبت فورته وسكن حدّ حرّه: قد سكر يسكر .

(٥) وهو قول ابن عباس وأبي عبيدة وآخرين .
انظر: زاد المسير: ٣٨٧/٤، الدر المنثور: ٦٩/٤ .

(٦) كان في المطبوع «ابن عطية» وكذلك في البحر المحيط، وليس هذا الكلام لابن عطية، وإنما هو: «عطية» كما في زاد المسير، وهو مروي أيضاً عن ابن عباس. وقال ابن قتيبة: يقال هي اثنا عشر برجاً، وأصل البرج: القصر والحسن .
انظر: زاد المسير: ٣٨٧/٤، مشكل القرآن لابن قتيبة: (٢٣٨/١) من القرطين لابن مطرف، الدر المنثور: ٦٩/٤ .

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾

﴿وزيناها﴾، أي: السماء بالشمس والقمر والنجوم ﴿للناظرين﴾.

﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾، مرجوم. وقيل: ملعون.

قال ابن عباس: كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها، ويأتون بأخبارها فيلقون على الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام / منعوا من ثلاث سموات، فلما ولد محمد ﷺ ١٩٦/أ منعوا من السموات أجمع، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمي بشهاب، فلما منعوا من تلك المقاعد ذكروا ذلك لإبليس، فقال[1]: لقد حدث في الأرض حدث، قال: فبعثهم فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن، فقالوا: هذا والله ما حدث[2].

﴿إلا من استرق السمع﴾، لكن من استرق السمع، ﴿فأتبعه شهابٌ مبين﴾، والشهاب: الشُّعلة من النار.

وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضاً إلى السماء الدنيا، ويسترِقُون السمع من الملائكة، فيُرمون بالكواكب فلا تخطىء أبداً، فمنهم من تقتله ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله، ومنهم من تخبله فيصير غولاً يضلّ الناس في البوادي[3].

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمروٌ، قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربتِ الملائكةُ بأجنحتها

---

(١) في «ب»: فقالوا.

(٢) نقله عنه أبو حيان في البحر المحيط: ٥/٤٤٩ وابن الجوزي في زاد المسير ٤/٣٨٩، كلاهما دون قوله: فما منهم من أحد... إلخ وانظر: تفسير القرطبي: ١٠/١٢، الدر المنثور: ٨/٣٠٣.

(٣) اختلف في الشهاب، هل يقتُل أم لا؟.

فقال ابن عباس: الشهاب يجرح ويُحرق ويخبل ولا يقتل.

وقال الحسن وطائفة: يَقْتُل. فعلى هذا القَول في قتلهم بالشهب قبل إلقاء السمع إلى الجن قولان:

أحدهما ـ أنهم يُقتلون قبل إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكهانة.

والثاني: أنهم يقتلون بعد إلقائهم ما استرقوه إلى غيرهم من الجن، ولذلك ما يعودون إلى استراقة، ولو لم يصل لانقطع الاستراق وانقطع الإحراق. ذكره الماورديّ.

قال القرطبي: والقول الأول أصح.

انظر: تفسير القرطبي: (١٠/١١).

خُضْعَاناً[(١)] لقوله، كأنه سلسلةٌ على صَفْوان، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العليُّ الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدَّد بين أصابعه ـ فيسمعُ أحدهم الكلمةَ فيُلْقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقيَها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشِّهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذبُ معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فيصدَّقُ بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[(٢)] .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن أبي مريم، حدثنا الليث، حدثنا ابن جعفر، عن محمد بن عبدالرحمن، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الملائكة تنزل في العَنَان، وهو السحاب، فتذكر الأمر الذي قُضِيَ في السماء فتسترقُ الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكُهَّان، فيكذبون معها مائة كذبةٍ من عند أنفسهم»[(٣)] .

واعلم أن هذا لم يكن ظاهراً قبل مبعث النبي ﷺ، ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساساً لنبوته عليه السلام[(٤)] .

وقال يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس بن شريق: إن أول من فزع للرمي بالنجوم هذا الحي من ثقيف وإنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية أحد بني علاج، وكان أهدى[(٥)] العرب، فقالوا له: ألم تَرَ ما حدث في السماء من القذف بالنجوم؟ قال: بلى، فانظروا فإن كانت معالم النجوم التي يُهتدى بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء لما يصلح الناس من معايشهم هي التي يرمى بها فهي ـ والله ـ طي الدنيا وهلاك الخلق الذي فيها، وإن كانت

---

(١) «خضعانا» بفتحتين، من الخضوع. وفي رواية بضم أوله وسكون ثانية، وهو مصدر بمعنى: خاضعين .
انظر: فتح الباري: ٥٣٨/٨ .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب: «حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق، وهو العلي الكبير»: ٥٣٧/٨، وفي باب «إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين»: ٣٨٠/٨ .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ذكر الملائكة: ٣٠٤/٦، وفي مواضع أخرى .

(٤) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز»: (٢٩٢/٨): «وفي الأحاديث ما يدل على أن الرجم كان في الجاهلية، ولكنه اشتدَّ في وقت الإسلام، وحفظ السماء حفظاً تاماً» .
وقال الزَّجَّاج: لم يكن إلا بعد النبي ﷺ، بدليل أن الشعراء لم يشبهوا به في السرعة إلا بعد الإسلام. وذكر الزهـري عن أبي رجاءٍ العطاردي: كنا لا نرى الرجم بالنجوم قبل الإسلام» .
وانظر تفصيلاً أوسع في القرطبي: ١٢/١٠، ١٢/١٩-١٣، ٦٦/١٥-٦٧ .

(٥) في «ب»: أدهى .

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ١٩
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾

نجوماً غيرها وهي والله ثابتة على حالها فهذا الأمر أراده الله تعالى بهذا الخلق(١).

قال معمر قلت للزهري: أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية؟ قال: نعم، قلت: أفرأيت قوله تعالى: «وأنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسمع» الآية.(الجن ـ ٦)؟ قال: غلِّظت وشُدِّد أمرُها حين بعث النبي ﷺ(٢).

وقال ابن قتيبة: إن الرجم كان قبل مبعثه ـ ﷺ ـ ولكن لم يكن [مثله](٣) في شدة الحراسة بعد مبعثه(٤).

وقيل: إن النجم ينقض فيرمي الشياطين ثم يعود إلى مكانه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿والأرض مددناها﴾، بسطناها على وجه الماء، يقال: إنها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة(٥)، ﴿وألقينا فيها رواسيَ﴾، جبالاً ثوابت، وقد كانت الأرض تميد إلى أن أرساها الله بالجبال، ﴿وأنبتنا فيها﴾، أي: في الأرض، ﴿من كل شيء موزونٍ﴾، مقدَّر معلوم.

وقيل: يعني في الجبال، وهي جواهر من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها، حتى الزرنيخ والكحل كل ذلك يوزن وزناً.

وقال ابن زيد: هي الأشياء التي توزن وزناً(٦).

﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾، جمع معيشة، قيل: أراد بها المطاعم والمشارب والملابس [وهي ما](٧) يعيش به الآدمي(٨) في الدنيا، ﴿ومن لستم له برازقين﴾، أي: جعلنا فيها من لستم له برازقين من الدوابِّ والأنعام، أي: جعلناها لكم وكفيناكم رزقها و«من» في الآية بمعنى «ما» كقوله تعالى: «فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين» (النور ـ ٤٥).

---

(١) انظر: تفسير القرطبي: ١٠/١٢.
(٢) رواه عبدالرزاق عن معمر. انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة ص (٤٢٩) تحقيق السيد صقر.
(٣) استدركناها من «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة واضطربت العبارة في المطبوع اضطراباً كثيراً، وفيها زيادات، ليست في «تأويل المشكل»، ولا في النسخ الخطية.
(٤) انظر: «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة ص (٤٣٠).
(٥) انظر: البحر المحيط: ٥/٤٥٠. وذكر المصنف ذلك بصيغة التمريض، ولا دليل ثابت عن المعصوم ﷺ في ذلك.
(٦) والمعنى الأول أعمّ وأحسن. انظر: المحرر الوجيز: ٨/٢٩٣.
(٧) في «أ»: وقيل.
(٨) في «ب»: المرء.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝٢٢﴾

وقيل: «من» في موضعها؛ لأنه أراد المماليك مع الدواب .

وقيل: «من» في محل الخفض عطفاً على الكاف والميم في «لكم» .

﴿وإنْ من شيء﴾، [أي: وما من شيء][1]، ﴿إلا عندنا خزائنه﴾، أي مفاتيح خزائنه .

وقيل: أراد به المطر .

﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾، لكل أرضٍ حدٌّ مقدر، ويقال: لا تنزل من السماء قطرة إلا ومعها ملك يسوقها حيث يريد الله عزّ وجلّ ويشاء . .

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: في العرش مثال جميع ما خلق الله في البرّ والبحر، وهو تأويل قوله تعالى: «وإنْ من شيء إلا عندنا خزائنه»[2] .

﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ أي: حوامل، لأنها تحمل الماء إلى السحاب، وهو جمع لاقحة، يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد .

قال ابن مسعود: يرسل الله الريح فتحمل الماء فيمر به السحاب، فيدرُّ كما تدر اللقحة ثم تمطر[3] .

وقال أبو عبيدة: أراد باللواقح الملاقح واحدتها ملقحة، لأنها تلقح الأشجار .

قال عبيد بن عمير: يبعث الله الريح المبشرة فتقمُّ الأرض قمّاً، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلِّفة السحاب بعضه إلى بعض فتجعله ركاماً، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر[4] .

وقال أبو بكر بن عياش: لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه، فالصَّبا تهيجه، والشَّمال تجمعه، والجَنوب تذره، والدَّبُور تفرقه .

وفي الخبر أن: اللقح رياح الجنوب .

---

(١) ساقط من «أ» .

(٢) نقله القرطبي في التفسير: ١٥/١٠ .

(٣) أخرجه ابن جرير: ٢٠/١٤، والبيهقي في السنن: ٣٦٤/٣، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والخرائطي في «مكارم الأخلاق». انظر: الدر المنثور: ٧٢/٥ .
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٤٥/٧): «رواه الطبراني، وفيه يحيى الحمّاني وهو ضعيف» .

(٤) أخرجه ابن جرير الطبري: ٢١/١٤، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة .
انظر: الدر المنثور: ٧٣/٥ .

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣﴾

وفي [بعض] الآثار: ما هبت ريح الجنوب إلا وبعث عيناً غدقة[1].

وأما الريح العقيم: فإنها تأتي بالعذاب ولا تلقح.

أخبرنا عبدالوهاب بن محمد الخطيب، أخبرنا عبدالعزيز بن أحمد الخلال، حدثنا أبو العباس الأصم، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا من لا أتهم بحديثه، حدثنا العلاء بن راشد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما هبّت ريح قط إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه، وقال: اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً. قال ابن عباس: في كتاب الله عزّ وجلّ: «إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً» (القمر ـ ١٩) «إذْ أرسلنا عليهم الريح العقيم» (الذاريات ـ ٤١)، وقال: «وأرسلنا الرياح لواقح» (الحجر ـ ٢٢)، وقال: «أن يرسل الرياح مبشرات»[2] (الروم ـ ٤٦)

قوله: **﴿فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه﴾**، أي: جعلنا المطر لكم سقياً، يقال: أسقى فلان فلاناً: إذا جعل له سقياً، وسقاه: إذا أعطاه ما يشرب. وتقول العرب: سقيت الرجل ماءً ولبناً إذا كان لسقيه[3] / فإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه ودوابه تقول: أسقيته. ١٩٦/ب

﴿وما أنتم له بخازنين﴾، يعني المطر في خزائننا لا في خزائنكم. وقال سفيان: بمانعين.

﴿وإنّا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون﴾، بأن نميت جميعَ الخلائق، فلا يبقى حي سوانا.

والوارث من صفات الله عزّ وجلّ. قيل: الباقي بعد فناء الخلق.

وقيل: معناه إن مصير الخلق إليه[4].

---

(١) أخرج البيهقي في السنن: ٣٦٣/٣ عن عبدالله مرفوعاً: «ما عام بأمطر من عام، ولا هبَّتْ جَنوب إلا سال وادي». وقال: كذا روي مرفوعاً، والصحيح أنه موقوف.

(٢) أخرجه الشافعي في المسند: ٧٥/١، وفيه العلاء بن راشد وهو مجهول، ورواه الطبراني، ومسدّد، وأبو يعلى، والبيهقي في «الدعوات الكبير».
قال الهيثمي: وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش، وهو متروك. وقال البوصيري: رواه مسدد وأبو يعلى بسند ضعيف لضعف حسين بن قيس.
انظر: مجمع الزوائد: ١٣٦/١٠، المطالب العالية: ٢٣٨/٣، مشكاة المصابيح: ٤٨١/١.

(٣) في «ب»: لشفته.

(٤) قال البيهقي في «الأسماء والصفات»: (٤١/١): «الوارث: ومعناه الباقي بعد ذهاب غيره. وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة؛ لأنه يبقى بعد ذهاب المُلاك الذين أمتعهم في هذه الدنيا بما آتاهم، لأن وجودهم ووجود الأملاك كان به، ووجوده ليس بغيره. وهذا الاسم مما يؤثر عن رسول الله ﷺ في خبر الأسامي».
وانظر: «المنهاج في شعب الإيمان» للحليمي: ١٨٩/١.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ٢٤﴾

﴿ولقد علمنا المستقدِمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾، قال ابن عباس: أراد بالمستقدمين الأموات وبالمستأخرين الأحياء.

قال الشعبي: الأولين والآخرين.

وقال عكرمة: المستقدمون(١) من خلق الله والمستأخرين(١) من لم يخلق الله.

قال مجاهد: المستقدمون القرون الأولى والمستأخرون أمة محمد ﷺ.

وقال الحسن: المستقدمون في الطاعة والخير، والمستأخرون المبطئون عنها(٢).

وقيل: المستقدمون في الصفوف في الصلاة والمستأخرون فيها. وذلك أن النساء كن يخرجن إلى صلاة الجماعة فيقفن خلف الرجال، فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتأخر إلى آخر صفوف الرجال، ومن النساء من كانت في قلبها ريبة فتتقدم إلى أول صفوف النساء لتقرب من الرجال. فنزلت هذه الآية(٣).

وقال النبي ﷺ: «خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها»(٤).

وقال الأوزاعي: أراد المصلين في أول الوقت والمؤخرين إلى آخره.

وقال مقاتل: أراد بالمستقدمين والمستأخرين في صف القتال.

وقال ابن عيينة: أراد من يسلم ومن لا يسلم(٥).

---

(١) في «ب»: المستقدمين، المستأخرين. في سائر المواضع في تفسير الآية.

(٢) انظر في هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها: تفسير الطبري: ١٤/٢٣ـ٢٦، البحر المحيط: ٥/٤٥١، زاد المسير: ٤/٣٩٦ـ٣٩٧، الدر المنثور: ٥/٧٣ـ٧٦.

(٣) أورد السيوطي جملة آثار في ذلك منها ما أخرجه الطيالسي، وسعيد بن منصور، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في السنن من طريق أبي الجوزاء عن ابن عباس، قال: كانت امرأة تصلي خلف رسول الله.. فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه، فأنزل الله «ولقد علمنا المستقدمين منكم والمستأخرين».

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله عن هذا الأثر: «حديث غريب جداً...» وقال أيضاً: «وهذا الحديث فيه نكارة شديدة... والظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر، وقد قال الترمذي: هذا أشبه أن يكون أصح».

وقال ابن عطية: ما تقدم وما تأخر من الآية يضعف هذه التأويلات لأنها تذهب إيصال المعنى.

انظر: تفسير ابن كثير: ٢/٥٥٠ـ٥٥١، الدر المنثور: ٥/٧٣، المحرر الوجيز: ٨/٣٠٣، الكافي الشاف لابن حجر ص ٩٣.

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها، برقم (٤٤٠): ١/٣٢٦، والمصنف في شرح السنة: ٣/٣٧١.

(٥) قال الطبري: (١٤/٢٦): «وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة، قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم =

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

﴿وإنّ ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾، على ما علم منهم .

وقيل: يميت الكلَّ، ثم يحشرهم، الأولين والآخرين .

أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبدالملك المؤذن، أخبرنا أبو سعيد الصيرفي، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا أحمد بن عبدالجبار، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من مات على شيء بعثه الله عليه»(١) .

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾، يعني: آدم عليه السلام، سمي إنساناً لظهوره وإدراك البصر إياه. وقيل: من النسيان لأنه عهد إليه فنسي. ﴿من صَلْصَالٍ﴾، وهو الطين اليابس الذي إذا نقرته سمعت له صلصلةً، أي: صوتاً .

قال ابن عباس: هو الطين الحر، الذي نضب عنه الماء تشقّق، فإذا حرك تقعقع .

وقال مجاهد: هو الطين المنتن. واختاره الكسائي، وقال: هو من صَلَّ اللحم وأَصَلَّ، إذا أنتن(٢).

﴿من حمإٍ﴾، والحمأ: الطين الأسود، ﴿مسنون﴾ أي: متغيِّر. قال مجاهد وقتادة: هو المنتن المتغير .

= يابني آدم فتقدَّم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم، ممن هو حي، ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بَعْدُ، لدلالة ما قبله من الكلام وما بعده على أن ذلك كذلك .

وجائز أن تكون الآية نزلت في شأن المستقدمين في الصف لشأن النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله عزّ وجلّ عمَّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال جل ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم، وما كانوا يعملون، ومن هو حيٌّ منكم، ومن هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرِّها، وأحصينا جميع ذلك، ونحن نحشر جميعهم، فنجازي كُلاً بأعماله، إن خيراً فخيراً، وإن شرّاً فشرّاً، فيكون ذلك تهديداً ووعيداً للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء، ولكل من تعدَّى حدَّ الله، وعمل بغير ما أذن له به، ووعداً لمن تقدم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبة الله ورضوانه في أفعاله كلها .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٣١٣/٤ عن جابر رضي الله عنه، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي .
وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٣١٣/٣ عن جابر، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقة: ٢٩/١، والمصنف في شرح السنة: ٤٠١/١٤ .
وصححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» برقم (٢٨٣): ٥١٠/١، وانظر: كنز العمال: ٦٨١/١٥ .
وأخرج مسلم من طريق جرير عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ ويقول: «يُبعث كل عبد على ما مات عليه»، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، برقم (٢٨٧٨): ٢٢٠٦/٤ .

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ٣٠٣/٨ـ٣٠٥، البحر المحيط: ٤٥٣/٥ .

﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾

وقال أبو عبيدة: هو المصبوب. تقول العرب: سننت الماء أي صببته .

قال ابن عباس: هوالتراب المبتلُّ المنتن، جعل صلصالاً كالفخار(١) .

وفي بعض الآثار: إن الله عزّ وجلّ خمر طينة آدم وتركه حتى صار متغيراً أسود، ثم خلق منه آدم عليه السلام(٢) .

﴿**والجانّ خلقناه من قبلُ**﴾، قال ابن عباس: هو أبو الجن كما أن آدم أبو البشر .

وقال قتادة: هو إبليس خلق قبل آدم .

ويقال: الجانّ: أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين .

وفي الجن مسلمون وكافرون، ويحيون ويموتون، وأما الشياطين؛ فليس منهم مسلمون، ويموتون إذا مات إبليس .

وذكر وهب: إن من الجن من يولد لهم ويأكلون ويشربون [بمنزلة الآدميين](٣)، ومن الجن من هم بمنزلة الريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون .

﴿**من نار السَّمُوم**﴾، والسموم ريح حارة تدخل مسامَّ الإنسان فتقتله. ويقال: السَّموم بالنهار والحَرور بالليل .

وعن الكلبي عن أبي صالح: السموم نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها وهي نار بين السماء وبين الحجاب، فإذا أحدث الله أمراً خرقت الحجاب فهوت إلى ما أمرت، فالهدَّةُ التي تسمعون في خرق ذلك الحجاب .

وقيل: نار السَّموم لهب النار .

وقيل: من نار السموم أي: من نار جهنم .

وعن الضحاك عن ابن عباس قال: كان إبليس من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السَّموم(٤)، وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار، فأما الملائكة فإنهم خلقوا

---

(١) انظر: المحرر الوجيز: ٨/٣٠٥-٣٠٦، زاد المسير: ٤/٣٩٧-٣٩٨ .

(٢) أخرج نحواً من هذا مطولاً: ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه، وما انفرد به ابن عساكر فهو ضعيف غالباً .
انظر: الدر المنثور: ٥/٧٧ .

(٣) ساقط من « أ » .

(٤) انظر: فيما سبق، تفسير سورة البقرة: ١/٨٠-٨١ .

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾

من النور[(١)] .

قوله تعالى: **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً﴾**، أي: سأخلق بشراً، **﴿من صلصال من حمإٍ مسنونٍ﴾** .

﴿فإذا سويته﴾، عدَّلْتُ صورته، وأتممت خلقه، **﴿ونفختُ فيه من روحي﴾**، فصار بشراً حياً، والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان، وأضافه إلى نفسه تشريفاً، **﴿فقَعُوا له ساجدين﴾**، سجود تحية لا سجود عبادة .

﴿فسجد الملائكة﴾، الذين أمروا بالسجود، **﴿كُلُّهم أجمَعونَ﴾** .

فإن قيل: لِمَ قال **﴿كلهم أجمعون﴾** وقد حصل المقصود بقوله فسجد الملائكة؟

قلنا: زعم الخليل وسيبويه أنه ذكر ذلك تأكيداً .

وذكر المبرِّد: أن قوله **﴿فسجد الملائكة﴾** كان من المحتمل أنه سجد بعضهم فذكر «كلهم» ليزول هذا الإشكال، ثم كان [يحتمل أنهم سجدوا][(٢)] في أوقات مختلفة فزال ذلك الإشكال بقوله «أجمعون»[(٣)] .

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: إن الله عزّ وجلّ قال لجماعة من الملائكة: اسجدوا لآدم فلم يفعلوا فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم قال لجماعة أخرى: اسجدوا لآدم فسجدوا[(٤)] .

---

(١) أخرج الإمام مسلم في صحيحه: (٤/٢٢٩٤) عن عائشة رضي الله عنها قلت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» .

(٢) في «ب»: من المحتمل أن يسجدوا .

(٣) جاء هذا الجواب أوضح في «مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل» ص (١٦٧-١٦٨)، قال: «قال سيبويه والخليل: هو توكيد بعد توكيد، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره في الذهن، فلا يكون تحصيل الحاصل، بل تكون نسبة «أجمعون» كنسبة «كلهم» إلى أصل الجملة .
وقال المبرِّد: قوله تعالى: «أجمعون» يدل على اجتماعهم في زمان السجود، و«كلهم» يدل على وجود السجود من الكل، فكأنه قال: فسجد الملائكة كلهم معاً في زمان واحد. واختار ابن الأنباري هذا القول. واختار الزَّجَّاج وأكثر الأئمة قولَ سيبويه، وقالوا: لو كان الأمر كما زعم المبرِّد لكان «أجمعون» حالاً، لوجود حدّ الحال فيه، وليس بحال؛ لأنه مرفوع، ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التوكيد» .

(٤) أخرجه الطبري في التفسير: ٣١/١٤. وقال ابن كثير: (٢/٥٥١): وفي ثبوت هذا عنه نظر، والظاهر أنه اسرائيلي ووصفه بأنه أثر غريب عجيب .

إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ
ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ
﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾

﴿**إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين**﴾ .

﴿**قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين**﴾ .

﴿**قال لم أكن لأسجدَ لبشرٍ خلقته من حمإٍ مسنون**﴾، أراد: أنا [أفضل][1] منه لأنه طينيّ، وأنا ناريّ، والنار تأكل الطين .

﴿**قال فاخرجْ منها**﴾ أي: من الجنة ﴿**فإنّك رجيم**﴾، طريد .

﴿**وإنَّ عليكَ اللعنةَ إلى يوم الدينِ**﴾، قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السماء والأرض .

﴿**قال ربِّ فَأَنْظِرْني إلى يوم يبعثون**﴾، أراد الخبيث أن لا يموت .

﴿**قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم**﴾، أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق، وهو النفخة الأولى .

ويقال: إن مدة موت إبليس أربعون سنة وهي ما بين النفختين .

ويقال: لم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراماً له، بل كانت زيادة في بلائه وشقائه .

﴿**قال رب بما أغويتني**﴾، أضللتني. وقيل: خيَّبْتَني من رحمتك، ﴿**لأُزيِّنَنَّ لهم في الأرض**﴾، حُبَّ الدنيا ومعاصيك، ﴿**ولأغوينّهم**﴾، أي: لأضلنّهم، ﴿**أجمعين**﴾ .

﴿**إلا عبادَكَ منهم المخلَصين**﴾، المؤمنين الذي أخلصوا لك الطاعة والتوحيد، ومن فتح اللام، أي: مَنْ أخلصته بتوحيدك واصطفيته .

(١) في «ب»: خير .

قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴿٤٤﴾

﴿**قال**﴾، الله تعالى، ﴿**هذا صراطٌ عَلَيَّ مستقيمٌ**﴾، قال الحسن: معناه صراط إلي مستقيم.

وقال مجاهد: الحق يرجع إلى الله تعالى، وعليه طريقه، ولا يعوج عليه شيء.

وقال الأخفش: يعني: عليَّ الدلالة على الصراط المستقيم.

قال الكسائيُّ: هذا على التهديد والوعيد كما يقول الرجل لمن يخاصمه: طريقك عليَّ، أي: لا تفلت مني، كما قال عزّ وجلّ: «إن ربك لبالمرصاد» (الفجر – ١٤).

وقيل: معناه على استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية.

وقرأ ابن سيرين، وقتادة، ويعقوب: عَلِيٌّ، من العُلُوّ أي: رفيع، وعبَّر بعضهم عنه: رفيع أن يُنال، مستقيم أن يُمال.

﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾ /، أي: قوة. ١٩٧/أ

قال أهل المعاني: يعني على قلوبهم.

وسُئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: معناه ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي، وهؤلاء ثنية الله الذين هداهم واجتباهم. ﴿**إلا من اتبعك من الغاوين**﴾.

﴿**وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين**﴾، يعني موعد إبليس ومن تبعه.

﴿**لها سبعة أبواب**﴾، أطباق.

قال علي رضي الله عنه: تدرون كيف أبواب النار؟ هكذا، ووضع [شعبة] إحدى يديه على الأخرى[1]، أي: سبعة أبواب بعضها فوق بعض وإن الله وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها فوق بعض.

قال ابن جريج: النار سبع دَرَكاتٍ: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

﴿**لكل بابٍ منهم جُزءٌ مقْسومٌ**﴾، أي: لكل دركةٍ قومٌ يسكنونها.

وقال الضحاك: في الدركة الأولى أهل التوحيد الذين أدخلوا النار، يعذَّبون بقدر ذنوبهم ثم

---

(١) أخرجه الطبري: ١٤/٣٥، ومنه زدنا كلمة «شعبة» وهو الراوي الذي حكى الإشارة بيديه.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾

يخرجون، وفي الثانية النصارى، وفي الثالثة اليهود، وفي الرابعة الصابئون، وفي الخامسة المجوس، وفي السادسة أهل الشرك، وفي السابعة المنافقون، فذلك قوله تعالى: «إنَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار» (النساء ـ ١٤٥) .

وروي عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لجهنّم سبعة أبواب باب منها لمن سلَّ السيف على أمتي أو قال على أمة محمد»(١) .

قوله تعالى: ﴿إنّ المتقين في جنات وعيون﴾، أي: في بساتين وأنهار .

﴿ادخلوها﴾ أي: يقال لهم ادخلوا الجنة، ﴿بسلامٍ﴾، أي: بسلامة ﴿آمنين﴾، من الموت والخروج والآفات .

﴿ونَزَعْنا﴾، أخرجنا، ﴿ما في صُدُورِهم من غِلّ﴾، هو الشحناء والعداوة والحقد والحسد، ﴿إخواناً﴾، نصب على الحال، ﴿على سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿متقابلين﴾، يقابل بعضهم بعضاً، لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه .

وفي بعض الأخبار: إن المؤمن في الجنة إذا وَدّ أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان .

﴿لا يَمسُّهم﴾، لا يصيبهم، ﴿فيها نَصَبٌ﴾، أي: تعب، ﴿وما هم منها بمخرجين﴾، هذه أنصُّ آية في القرآن على الخلود .

قوله تعالى: ﴿نبِّئْ عبادي أنّي أنا الغفورُ الرحيم﴾، قال ابن عباس: يعني لمن تاب منهم .

وروي أن النبي ﷺ خرج يوماً على نفر من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «أتضحكون وبين أيديكم النار»، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية، وقال: «يقول لك ربك يامحمد لمَ تقنط عبادي من رحمتي»(٢) .

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحجر: ٨/٥٥١ـ٥٥٢، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول، والإمام أحمد في المسند: ٢/٩٤ .
وعزاه السيوطي للبخاري في «التاريخ»، ولابن مردويه. انظر: الدر المنثور: ٥/٨١ .

(٢) أخرجه الطبري عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: ١٤/٣٩، وعزاه السيوطي لابن مردويه، الدر المنثور: ٥/٨٦، وذكره =

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ
﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وإنّ عذابي هو العذاب الأليم﴾ قال قتادة: بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع عن حرام، ولو يعلم قدر عذابه لبخع نفسه»(١) .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمةٍ، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خَلْقِهِ كلِّهم رحمةً واحدة، فلو يعلمُ الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلمُ المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»(٢) .

قوله تعالى: **﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾** أي: عن أضيافه. والضيف: اسم يقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله تعالى ليبشروا إبراهيم عليه السلام بالولد، ويهلكوا قوم لوط .

﴿إذْ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾، إبراهيم: **﴿إنّا منكم وَجِلُونَ﴾**، خائفون لأنهم لم يأكلوا طعامه .

﴿قالوا لا تَوْجَلْ﴾ لا تخف، **﴿إنّا نُبشِّرك بِغلام عليم﴾**، أي: غلام في صِغَرِه، عليم في كبره، يعني: إسحاق، فتعجب إبراهيم عليه السلام من كبره وكبر امرأته .

﴿قال أبشَّرتُموني﴾ أي: بالولد **﴿على أن مَسَّني الكِبَرُ﴾**، أي: على حال الكبر، قاله على طريق التعجب، **﴿فبِمَ تَبشِّرونِ﴾**، فبأي شيء تبشرون؟ قرأ نافع بكسر النون وتخفيفها أي: تبشرون، وقرأ ابن كثير بتشديد النون أي: تبشرونني، أدغمت نون الجمع في نون الإضافة، وقرأ الآخرون بفتح النون وتخفيفها .

= الواحدي في «أسباب النزول» ص (٣٢٠)، والقرطبي في التفسير: ٣٤/١٠، وأبو حيان في البحر: ٤٥٧/٥ .
وروى نحوه دون ذكر نزول جبريل، الطبراني عن عبدالله بن الزبير، وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف. انظر: مجمع الزوائد: ٤٦/٧ .

(١) رواه الطبري عن قتادة بلاغاً: ٣٩/١٤، وزاد السيوطي نسبته لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم . انظر: الدر المنثور: ٨٦/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، باب الرجاء مع الخوف: ٣٠١/١١، والمصنف في شرح السنة: ٣٧٨/١٤ .

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٥٧ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٩ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ۝٦٠﴾

﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ أي بالصدق، ﴿فلا تكن من القانطين﴾.

﴿قال ومن يَقْنَطُ﴾، قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب: بكسر النون، والآخرون بفتحها، وهما لغتان: قَنَطَ يَقْنِط، وقَنِطَ يَقْنَطُ[1]، أي: من ييأس، ﴿من رحمة ربه إلا الضالّون﴾، أي: الخاسرون، والقنوط من رحمة الله كبيرة كالأمن من مكره[2].

﴿قال﴾ إبراهيم لهم: ﴿فما خطبكم﴾، ما شأنكم، ﴿أيها المرسلون﴾؟

﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾، مشركين.

﴿إلا آل لوطٍ﴾، أتباعه وأهل دينه، ﴿إنا لمُنَجُّوهم أجمعين﴾، خفف الجيم حمزة والكسائي، وشدّده الباقون.

﴿إلا امرأته﴾، أي: امرأة لوط، ﴿قدَّرنا﴾، قضينا، ﴿إنها لمن الغابرين﴾، الباقين في العذاب،

---

(١) ردَّ أبو عبيدة القراءة بكسر النون، فقال ابن عطية في المحرر الوجيز: ٣٢٧/٨، وليس كما قال، لأنهم لا يُجْمعون إلا على قويٍّ في اللغة مرويٍّ عندهم، وهي قراءة فصيحة.

(٢) روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من رَوْح الله، والأَمْنُ مِنْ مكر الله».

أخرج عبد الرزاق في «المصنف»: (٤٦٠/١٠) عن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رَوْح الله» وعزاه الهيثمي للطبراني وقال: «إسناده صحيح» مجمع الزوائد: (١٠٤/١).

وقال الطحاوي: «الأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل الإسلام»، فيجب أن يكون العبد خائفاً راجياً، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خِيْفَ منه اليأس والقنوط.

والرجاء المحمود: رجاء رجلٍ عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راجٍ لثوابه، أو رجلٍ أذنب ذنباً، ثم تاب منه إلى الله، فهو راجٍ لمغفرته.

أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

وقد مدح الله تعالى أهل الخوف والرجاء بقوله: «أَمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه» (الزمر ـ ٩) وقال: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً» (السجدة ـ ١٦) فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أَمْناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً. وكل أحد إذا خفته، هربت منه، إلا الله تعالى، فإنك إذا خِفْتَه هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه...».

انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص (٣٥٧-٣٥٨).

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

والاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فاستثنى امرأة لوط من الناجين فكانت ملحقة بالهالكين .

قرأ أبو بكر «قدرنا» هاهنا وفي سورة النمل بتخفيف الدال. والباقون بتشديدها .

﴿**فلما جآء آل لوط المرسلون**﴾ .

﴿**قال**﴾، لوط لهم، ﴿**إنكم قوم منكرون**﴾ أي: أنا لا أعرفكم .

﴿**قالوا بل جئناكَ بما كانوا فيه يَمْتَرونَ**﴾، أي: يشكُّون أنه نازلٌ بهم، وهو العذاب، لأنه كان يوعدهم بالعذاب ولا يصدقونه .

﴿**وأتيْناكَ بالحقِّ**﴾، باليقين. وقيل: بالعذاب، ﴿**وإنّا لصادقون**﴾ .

﴿**فأسْرِ بأهلِكَ بِقِطْعٍ منَ الليل واتبِعْ أَدْبَارَهُمْ**﴾ أي: سِرْ خلفهم، ﴿**ولا يلتفتْ منكم أحدٌ**﴾، حتى لا يرتاعوا من العذاب إذا نزل بقومهم .

وقيل جعل الله ذلك علامة لمن ينجو من آل لوط .

﴿**وامضوا حيث تُؤمرون**﴾، قال ابن عباس: يعني الشام. وقال مقاتل: يعني زُغَر[1]. وقيل: الأردن .

﴿**وقضينا إليه ذلك الأمر**﴾، أي: فرغنا إلى آل لوط من ذلك الأمر، أي: أحكمنا الأمر الذي أمرنا في قوم لوط، وأخبرناه: ﴿**أنّ دابر هؤلاء**﴾، يدل عليه قراءة عبدالله: وقلنا له إن دابر هؤلاء، يعني: أصلهم، ﴿**مقطوع**﴾، مستأصل، ﴿**مُصْبِحِيْنَ**﴾، إذا دخلوا في الصبح .

---

(١) في «ب»: «زَغْر» ـ بالعين المهملة الساكنة، أوله مفتوح ـ موضع بالحجاز، قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (٣/١٤٢ـ١٤٣): «زُغَر»: بالغين المعجمة، بوزن زُفَر ـ قرية بمشارف الشام وإياها عنى أبو داؤد الإيادي حيث قال :

كَكِتابةِ الزُّغَرِيِّ غَشَّا * ها من الذَّهب الدُّلامصُ

وقيل: «زُغَر» اسم بنت لوط، عليه السلام، نزلت بهذه القرية فسميت باسمها؛ وقال حاتم الطائي :

سقى اللّهُ ربُّ النّاسِ سَحّاً ودِيْمَةً * جنوبَ السَّراةِ من مآبٍ إلى زُغَر

وجاء ذكر «زُغَر» في حديث الجساسة، الذي أخرجه مسلم في الفتن برقم (٢٩٤٢): ٤/٢٢٦١ـ٢٢٦٤ .

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾

﴿**وجاء أهل المدينة**﴾، يعني سدوم، ﴿**يستبشرون**﴾، بأضياف لوط، أي: يبشر بعضهم بعضاً، طمعاً في ركوب الفاحشة منهم.

﴿**قال**﴾، لوط لقومه، ﴿**إن هؤلاء ضيفي**﴾، وحقٌّ على الرجل إكرام ضيفه، ﴿**فلا تفضحونِ**﴾ فيهم.

﴿**واتقوا الله ولا تُخزونِ**﴾، ولا تُخجِلون.

﴿**قالوا أولم ننهك عن العالمين**﴾، أي: ألم ننهك عن أن تضيف أحداً من العالمين.

وقيل: ألم ننهك أن تُدخل الغرباء المدينة، فإنا نركب منهم الفاحشة.

﴿**قال هؤلاء بناتي**﴾ أزوجهن إياكم إن أسلمتم[1]، فأتوا الحلال ودعُوا الحرام، ﴿**إن كنتم فاعلين**﴾، ما آمركم به.

وقيل: أراد بالبنات نساء قومه لأن النبي كالوالد لأمته.

قال الله تعالى: ﴿**لَعَمْرُكَ**﴾، يامحمد أي وحياتك، ﴿**إنهم لَفِي سَكْرَتِهِم**﴾، حيرتهم وضلالتهم، ﴿**يَعْمَهُونَ**﴾، يترددون.

قال قتادة: يلعبون.

روي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما خلق الله نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما أقسم الله تعالى بحياة أحد إلا بحياته[2].

---

(١) قال ابن عطية بعد أن ذكر الخلاف في تأويل قوله «بناتي»:.. ويلزم من هذا التأويل أن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة، وقد ورد أن المؤمنات به قليل جداً.
وقال: ويحتمل أن يريد عليه السلام بقوله: «هؤلاء بناتي» بنات صلبه، ويكون ذلك على طريق المجاز، وهو لا يحقق في إباحة بناته، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قتل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإنما ذلك على جهة التشنيع عليه، والاستنزال من جهةٍ ما، واستدعاء الحياء منه، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب، بل الغرض منه مفهوم، وعليه قول النبي ﷺ: «ولو كَمَفْحَص قَطَاةٍ».. إلى غير هذا من الأمثلة.
انظر: المحرر الوجيز: ٨/٣٣٧ـ٣٣٨.

(٢) أخرجه الطبري في التفسير: ١٤/٤٤، والحارث بن أبي أسامة في مسنده، وأبو يعلى، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في «الدلائل». وسكت عليه البوصيري.
انظر: الدر المنثور: ٥/٨٩، المطالب العالية لابن حجر: ٣/٣٤٧.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

١٩٧/ب / **﴿فَأَخذَتْهُمُ الصيحةُ مُشرِقِينَ﴾**، أي: حين أضاءت الشمس، فكان ابتداء العذاب حين أصبحوا، وتمامه حين أشرقوا .

﴿فجعلنا عاليَها سافِلَها وأَمْطَرْنا عليهم حجارةً من سِجّيلٍ﴾ .

﴿إنّ في ذلك لآياتٍ للمُتوسِّمِيْن﴾، قال ابن عباس: للناظرين .

وقال مجاهد: للمتفرسين .

وقال قتادة: للمعتبرين .

وقال مقاتل: للمتفكرين(١) .

﴿وإنها﴾ يعني: قرى قوم لوط، **﴿لَبِسَبِيلٍ مُقيم﴾**، أي: بطريق واضح .

وقال مجاهد: بطريق معلم(٢)، ليس يخفى ولا زائل .

﴿إن في ذلك لآيةً للمؤمنين﴾(٣) .

﴿وإن كان﴾، وقد كان **﴿أصحاب الأيكة﴾**، الغيضة، **﴿لظالمين﴾**، لكافرين، واللام للتأكيد، وهم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أصحاب غياض وشجر ملتفٍّ، وكان عامة شجرهم الدَّوْم، وهو المُقْل(٤) .

---

(١) وهذه المعاني كلها متقاربة، فالله تعالى يقول: إن في الذي فعلنا بقوم لوط من إهلاكهم، وأحللنا بهم من العذاب لَعَلاماتٍ ودلالات للمتفرسين المعتبرين بعلامات الله وعِبَره على عواقب أمور أهل معاصيه والكفر به، وإنما يعني ـ تعالى ذكره ـ بذلك قوم نبيّ الله ﷺ من قريشٍ، يقول: فلِقَومِك يامحمد في قوم لوط، وما حلَّ بهم من عذاب الله حين كذَّبوا رسولَهم، وتمادوا في غيِّهم وضلالهم، معتبرٌ» .

انظر: تفسير الطبري: ٤٥/١٤ .

(٢) في «ب»: معلوم .

(٣) «يقول تعالى ذكره: إن في صنيعنا بقوم لوط ما صنعنا بهم، لَعَلامة ودلالة بيِّنة لمن آمن بالله، على انتقامه من أهل الكفر به، وإنقاذه من عذابه، إذا نزل بقوم، أهلَ الإيمان به منهم» .

انظر: تفسير الطبري: ٤٧/١٤ .

(٤) في «المعجم الوسيط»: (٣٠٥/١): «الدَّوْم»: شجرٌ عظام، من الفصيلة النخيلية، يكثر في صعيد مصر، وفي بلاد العرب، وثمرته في غلظ التفاحة ذات قشر صلب أحمر، وله نواة ضخمة ذات لبٍّ اسفنجي» .

وفيه أيضاً: (٨٨١/٢): «المُقْل»: حَمْلُ الدَّوم، وهو يشبه النخل .

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ
۝٨٠ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
آمِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾

﴿فانتقمنا منهم﴾، بالعذاب، وذلك(١) أن الله سلط عليهم الحرَّ سبعة أيام فبعث الله سحابة فالتجؤوا إليها يلتمسون الروح، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم، فذلك قوله تعالى: «فأخذهم عذاب يوم الظلة» (الشعراء ــ ١٨٩) .

﴿وإنهما﴾ يعني مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لبإمامٍ مبين﴾، بطريق واضح مستبين .

قوله تعالى: ﴿ولقد كذب أصحاب الحِجْر﴾، وهي مدينة ثمود قوم صالح، وهي بين المدينة والشام، ﴿المرسلين﴾، أراد صالحاً وحده(٢) .

﴿وآتيناهم آياتنا﴾، يعني: الناقة وولدها والبئر، فالآيات في الناقة؛ خروجها من الصخرة، وكبرها، وقرب ولادها، وغزارة لبنها، ﴿فكانوا عنها معرضين﴾ .

﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين﴾، من الخراب ووقوع الجبل عليهم .

﴿فأخذتهم الصيحة﴾، يعني: صيحة العذاب، ﴿مصبحين﴾، أي: داخلين في وقت الصبح .

﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾، من الشرك والأعمال الخبيثة .

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد ابن يعقوب الكسائي، حدثنا عبدالله بن محمود، أنبأنا إبراهيم بن عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك عن معمر، عن الزهري، أخبرنا سالم بن عبدالله، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه لما مر بالحجر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»،

(١) في « أ »: روي .

(٢) وإنما ذكر بلفظ الجمع لأن من كذب بنبي واحد أو كفر، فقد كفر بسائر الأنبياء فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض، فمن ردَّ نبوته لحسدٍ أو عصبية أو هوىً... يتبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء، وتصديقه له، ليس إيماناً شرعياً .

وانظر تفصيلاً أوسع لهذا في «مجلة البحوث الإسلامية» العدد (١٦) بعنوان «إن الدين عند الله الإسلام» كتبه: عثمان جمعة ضميرية .

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾

قال: وتقنَّع بردائه وهو على الرَّحْل[1].

وقال عبدالرزاق عن معمر: «ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى اجتاز الوادي»[2].

قوله تعالى: ﴿**وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة**﴾، يعني: القيامة ﴿**لآتية**﴾، يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ﴿**فاصفحِ الصفحَ الجميل**﴾، فأعرضْ عنهم واعفُ عفواً حسناً. نسختها آية القتال[3].

﴿**إنّ ربّك هو الخلاق العليم**﴾ [بخلقه][4].

قوله تعالى: ﴿**ولقد آتيناك سبعاً من المثاني**﴾، قال عمر وعلي: هي فاتحة الكتاب. وهو قول قتادة وعطاء والحسن وسعيد بن جبير.

أخبرنا عبدالواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا آدم، حدثنا ابن أبي ذئب حدثنا سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم»[5].

وعن ابن مسعود قال في السبع المثاني: هي فاتحة الكتاب، والقرآن العظيم: هو سائر القرآن[6].

واختلفوا في أن الفاتحة لمَ سُميت مثاني؟.

قال ابن عباس والحسن وقتادة: لأنها تُثنّى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة[7].

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: «وإلى ثمود أخاهم صالحاً» ٦/٣٧٨-٣٧٩، ومسلم في الزهد، باب «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم» برقم (٢٩٨٠): ٤/٢٢٨٦. والمصنف في شرح السنة: ١٤/٣٦١.

(٢) المصنف لعبد الرزاق: ١/٤١٥، والبيهقي في السنن: ٢/٤٥١.

(٣) انظر فيما سبق، تفسير الآية (٣) من السورة: ص٧٨ تعليق (٦).

(٤) ساقط من «أ».

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجر، باب «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم»: ٨/٣٨١ وانظر: فتح الباري: الموضع نفسه.

(٦) أخرجه الطبري في التفسير: ١٤/٥٥، وزاد السيوطي نسبته لابن الضريس، وابن المنذر، وابن مردويه. انظر: الدر المنثور: ٥/٩٤، زاد المسير: ٤/٤١٣.

(٧) انظر: الطبري: ١٤/٥٤-٥٥، الدر المنثور: ٥/٩٥-٩٦، زاد المسير: ٤/٤١٣-٤١٤، ففيها تفصيل هذه الأقوال ونسبتها لأصحابها. وراجع فيما سبق: ١/٤٩.

وقيل: لأنها مقسومة بين الله وبين العبد نصفين، نصفها ثناء ونصفها دعاء، كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال يقول الله عز وجل: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»[1] .

قال الحسين[2] بن الفضل: سميت مثاني لأنها نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، كل مرة معها سبعون ألف ملك .

وقال مجاهد: سميت مثاني لأن الله تعالى استثناها وادخرها لهذه الأمة فما أعطاها غيرهم .

وقال أبو زيد البلخي: [سميت مثاني][3] لأنها تُثْنِي أهل الشر عن الفسق، من قول العرب: ثنيت عناني .

وقيل: لأن أولها ثناء .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن السبع المثاني هي السبع الطوال، أولها سورة البقرة، وآخرها الأنفال مع التوبة. وقال بعضهم: سورة يونس بدل الأنفال .

أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم الشريحي، [أنا أبو إسحاق الثعلبي، حدثنا أبو محمد الحسن ابن أحمد المخلدي][4] أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد وعبدالله بن محمد بن مسلم قالا: أنبأنا هلال بن العلاء، حدثنا حجاج بن محمد عن أيوب بن عتبة، عن يحيى بن كثير، عن شداد ابن عبدالله، عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المِئِين مكان الإنجيل وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل»[5] .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أوتي النبي ﷺ السبع الطوال، وأعطي موسى ستاً فلما ألقى الألواح رفع ثنتان وبقي أربع[6] .

---

(١) وتمامه: «... ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: (الحمد لله رب العالمين) قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي. وإذا قال: (مالك يوم الدين)، قال: مجّدني عبدي، فإذا قال: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل» .
أخرجه مسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة... برقم (٣٩٥): ١/٢٩٦، والمصنف في شرح السنة: ٣/٤٧، وانظر فيما سبق: ١/٥٧ .

(٢) في «ب»: الحسن .

(٣) ساقط من «ب» .

(٤) ما بين القوسين ساقط من «ب» .

(٥) تقدم تخريجه فيما سبق: ١/٤١، تعليق (٣) .

(٦) انظر فيما سبق تعليقاً على الروايات عن القاء موسى للألواح ٣/٢٨٨ تعليق (١) .

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾

قال ابن عباس: وإنما سميت السبع الطوال مثاني لأن الفرائض والحدود والأمثال والخبَر والعبر ثنيت فيها .

وقال طاووس: القرآن كله مثاني قال الله تعالى: «الله نزَّل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً مثاني» (الزمر ـ ٢٣). وسمي القرآن مثاني لأن الأنباء والقصص ثنيت فيه .

وعلى هذا القول: المراد بالسبع: سبعة أسباع القرآن، فيكون تقديره على هذا: وهي القرآن العظيم. وقيل: الواو مقحمة، مجازه: ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم(١) .

قوله تعالى: ﴿**لا تَمُدَّنَّ عينيك**﴾، يامحمد، ﴿**إلى ما متعنا به أزواجاً**﴾، أصنافاً، ﴿**منهم**﴾ أي: من الكفار متمنياً لها. نهىٰ الله تعالى رسوله ﷺ عن الرغبة في الدنيا ومزاحمة أهلها [عليها](٢) .

﴿**ولا تحزن عليهم**﴾، أي: لا تغتمَّ على ما فاتك من مشاركتهم في الدنيا .

أخبرنا عبدالواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبدالله النعيمي، أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد ابن العَنَزِيّ، حدثنا عيسى بن نصر، أنبأنا عبدالله بن المبارك، أخبرنا جهم بن أوس، قال: سمعت عبدالله بن أبي مريم ـ ومرَّ به عبدالله بن رستم في موكبه، فقال لابن أبي مريم: إني لاشتهي مجالستك وحديثك، فلما مضى قال ابن مريم ـ سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تغبطنَّ فاجراً بنعمته، فإنك لا تدري ما هو لاقٍ بعد موته، إن له عند الله قاتلاً لا يموت» فبلغ ذلك وهب بن منبه فأرسل إليه وهب أبا داود الأعور، قال: يا أبا فلان ما قاتلاً لا يموت؟ قال ابن أبي مريم: النار»(٣) .

أخبرنا أبو منصور محمد بن عبدالملك المظفري السّرخسي، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن محمد ابن الفضل الفقيه، حدثنا أبو الحسن بن إسحاق، حدثنا إبراهيم بن عبدالله العبسي، أخبرنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا

---

(١) تقدم فيما سبق أنه ليس في القرآن شيء من الحروف مقحم .

(٢) ساقط من «ب» .

(٣) رواه البخاري في «التاريخ»، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات. ورواه المصنف في شرح السنة: ١٤/٢٩٤ـ٢٩٥ .
وضعفه الألباني في تعليقه على المشكاة .
انظر: فيض القدير للمناوي: ٦/٤١٣، مجمع الزوائد: ١٠/٣٥٥، مشكاة المصابيح: ٣/١٤٤٥ .

﴿وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾

إلى من هو أسفلَ منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أَجْدَرُ أن لا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم»[1] .

وقيل: هذه الآية متصلة بما قبلها لمَّا مَنَّ الله تعالى عليه بالقرآن نهاه عن الرغبة في الدنيا .

١٩٨/ أ رُوي أن سفيان بن عُيَيْنة / ـ رحمه الله ـ تأول قول النبي ﷺ «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[2] أي: لم يستغن بالقرآن. فتأول هذه الآية[3] .

قوله تعالى: ﴿واخفض جناحك﴾، ليِّن جناحك ﴿للمؤمنين﴾، وارفق بهم، والجناحان لابن آدم جانباه .

﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ .

﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ قال الفرَّاء: مجازه: أنذركم عذاباً كعذاب المقتسمين. حكي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: هم اليهود والنصارى .

﴿الذين جعلوا القرآن عضِين﴾، جزَّؤوه فجعلوه أعضاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. وقال مجاهد: هم اليهود والنصارى قسموا كتابهم ففرقوه وبدَّلوه[4] .

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٣): ٤/٢٢٧٥، والمصنف في شرح السنة: ١٤/٢٩٣ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: «وأسروا قولكم أو اجهروا به»: ٣/٥٠١ وفي مواضع أخرى .

(٣) أخرج البخاري في فضائل القرآن، باب «من لم يتغن بالقرآن»: (٩/٦٨) عن أبي هريرة مرفوعاً: ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغنَّى بالقرآن»، قال سفيان: تفسيره يستغني به» .

قال في فتح الباري (٩/٦٩) ويمكن أن يستأنس بما أخرجه أبو داود، وابن الضريس، وصححه أبو عوانة عن ابن أبي مليكة عن عبيدالله بن نهيك قال: «لقيني سعد بن أبي وقاص وأنا في السوق فقال: تُجَّار كَسَبَة، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن». وقد ارتضى أبو عبيد تفسير يتغنى بيستغنى ـ وقال: إنه جائز في كلام العرب، وأنشد الأعشى :

وكنت امرءاً زمناً بالعراق • خفيف المناخ طويل التغني

أي: كثير الاستغناء. وقال المغيرة بن حبناء :

كلانا غني عن أخيه حياته • ونحن إذا متنا أشدُّ تغانيا

قال: فعلى هذا يكون المعنى: من لم يستغن بالقرآن عن الإكثار من الدنيا، فليس منا، أي: على طريقتنا. وأيَّد ابن كثير تفسير سفيان بن عيينة للحديث فقال: وهو تفسير صحيح، ولكن ليس هو المقصود من الحديث. انظر: ابن كثير: ٢/٥٥٨ .
وردَّ الشافعي رحمه الله تفسير ابن عيينة بأنه لو كان معناه على الاستغناء، لكان «يتغانى»، وتحسين الصوت هو يتغنى .
انظر شرح السنة للبغوي: ٤/٤٨٧، وراجع حكم التغني بالقرآن واختلاف العلماء فيه وفي معناه في: فتح الباري: ٩/٦٩ـ٧٢، تفسير القرطبي: ١/١١ وما بعدها، التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص (٨٧ـ٩٠) .

(٤) في « أ »: بدَّدوه .

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

وقيل: «المقتسمون» قوم اقتسموا القرآن. فقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: شعر. وقال بعضهم: كذب، وقال بعضهم: أساطير الأولين.

وقيل: الاقتسام هو أنهم فرقوا القول في رسول الله ﷺ فقالوا: ساحر كاهن شاعر.

وقال مقاتل: كانوا ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا عِقَاب[(١)] مكة وطرقها، وقعدوا على أنقابها يقولون لمن جاء من الحجاج: لا تغترُّوا بهذا الرجل الخارج الذي يدعي النبوة منّا. وتقول طائفة منهم: إنه مجنون، وطائفة: إنه كاهن، وطائفة: إنه شاعر، والوليد قاعد على باب المسجد نصبوه حكماً فإذا سئل عنه قال: صدق[(٢)] أولئك [يعني][(٣)] المقتسمين[(٤)].

وقوله: ﴿عِضِينَ﴾ قيل: هو جمع عضو مأخوذ من قولهم عضَّيت الشيء تعضيةً، إذا فرَّقته. ومعناه: أنهم جعلوا القرآن أعضاء، فقال بعضهم: سحر. وقال بعضهم: كهانة. وقال بعضهم: أساطير الأولين.

وقيل: هو جمع عضة. يقال: عضة وعضين مثل برة وبرين وعزة وعزين، وأصلها: عضهة ذهبت هاؤها الأصلية، كما نقصوا من الشفة وأصلها شفهة، بدليل: أنك تقول في التصغير شفيهة، والمراد بالعضة الكذب والبهتان.

وقيل: المراد بالعضين العَضَهُ، وهو السحر، يريد: أنهم سمُّوا القرآن سحراً[(٥)].

﴿فوربك لنسألنهم أجمعين﴾، يوم القيامة.

﴿عمّا كانوا يعملون﴾ في الدنيا، قال محمد بن إسماعيل قال عدَّة من أهل العلم: عن قوله «لا إله إلا الله»[(٦)].

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان» (الرحمن ـ ٣٩).

قال ابن عباس: لا يسألهم هل عملتم، لأنه أعلم بهم منهم، ولكن يقول: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ واعتمده قطرب فقال: السؤال ضربان، سؤال استعلام، وسؤال توبيخ، فقوله تعالى: «فيومئذ لا يسأل

---

(١) عِقَاب: جمع عقبة، والعقبة هي المرق الصَّعب من الجبال.

(٢) في «ب»: سَئِل.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) انظر هذه الأقوال وتخريجها في الطبري: ١٤/٦١-٦٤، الدر المنثور: ٥/٩٨، زاد المسير: ٤/٤١٧-٤١٨، فتح الباري: ٨/٣٨٢.

(٥) انظر: زاد المسير: ٤/٤١٨-٤١٩، الطبري: ٤/٦٤-٦٦.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ١٤/٦٧.

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾

عن ذنبه إنس ولا جان» (الرحمن ـ ٣٩)، يعني: استعلاماً. وقوله: «لنسألنّهم أجمعين» يعني توبيخاً وتقريعاً .

وقال عكرمة عن ابن عباس في الآيتين: إن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف يسألون في بعض المواقف، ولا يسألون في بعضها. نظيره قوله تعالى: «هذا يوم لا ينطقون» (المرسلات ـ٣٥)، وقال في آية أخرى: «ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون»(١) (الزمر ـ ٣١) .

قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾، قال ابن عباس: أَظْهِرْه. ويورى عنه: أمضه .

وقال الضحاك: أَعْلِم .

وقال الأخفش: ٱفْرُقْ، أي: افرق بالقرآن بين الحق والباطل .

وقال سيبويه: اقض بما تؤمر، وأصل الصَّدْع: الفصل، والفرق: أمر النبي ﷺ في هذه الآية بإظهار الدعوة .

وروي عن عبدالله بن عبيدة قال كان مستخفياً حتى نزلت هذه الآية فخرج هو وأصحابه(٢) .

﴿وأعرض عن المشركين﴾، نسختها آية القتال(٣) .

﴿إنا كفيناك المستهزئين﴾، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: فاصدع بأمر الله، ولا تخف أحداً غير الله عزّ وجلّ، فإن الله كافيك من عاداك كما كفاك المستهزئين، وهم خمسة نفر من رؤساء قريش: الوليد بن المغيرة المخزومي ـ وكان رأسهم ـ والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن عبدالمطلب ابن الحارث بن أسد بن عبدالعزى بن زمعة، وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه فقال: اللهم أَعْمِ بصره وأثْكله بولده، والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، والحارث بن قيس ابن الطُّلاطلة فأتى جبريل محمداً ﷺ، والمستهزؤون يطوفون بالبيت، فقام جبريل وقام النبي ﷺ إلى جنبه، فمرَّ به الوليد بن المغيرة، فقال جبريل: يامحمد كيف تجد هذا فقال بئس عَبْدُ الله، فقال: قد كُفِيْتَه، وأومأ إلى ساق الوليد، فمرَّ برجل من خزاعة نبَّال يريش نبلاً له وعليه بُرْد يمان، وهو يجرُّ إزاره، فتعلقت شظية من نَبْلٍ بإزاره فمنعه الكبر أن «يطاطىء رأسه»(٤) فينزعها، وجعلت تضرب ساقه، فخدشته، فمرض منها فمات .

---

(١) انظر: مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، ص (١٤٠ـ١٤١) و(١٦٩)، زاد المسير: ٤/٤١٩ـ٤٢٠ .

(٢) انظر: زاد المسير: ٤/٤٢٠ .

(٣) انظر فيما سبق التعليق (٦) في تفسير سورة الحجر، الآية (٣) ص (٣٦٨) .

(٤) في «ب»: يطامن .

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾

ومرّ به العاص بن وائل فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: بئس عبدالله، فأشار جبريل إلى أخمص رجليه، وقال: قد كفيته، فخرج على راحلته ومعه ابنان له يتنزه فنزل شعباً من تلك الشعاب فوطىء على شبرقةٍ فدخلت منها شوكة في أخمص رجله، فقال: لدغت لدغت، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، فمات مكانه.

ومرّ به الأسود بن المطلب، فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ قال عبد سوء، فأشار بيده إلى عينيه، وقال: قد كفيته، فعمي.

قال ابن عباس رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعت عيناه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك.

وفي رواية الكلبي: أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك، فاستغاث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك، حتى مات، وهو يقول قتلني رب محمد.

ومرّ به الأسود بن عبد يغوث، فقال جبريل: كيف تجد هذا يامحمد؟ قال: بئس عبدالله على أنه ابن خالي. فقال: قد كفيته، وأشار إلى بطنه فاستسقى [بطنه][1] فمات حيناً.

وفي رواية للكلبي أنه خرج من أهله فأصابه السَّمُوم فاسودَّ حتى عاد حبشياً، فأتى أهله فلم يعرفوه، وأغلقوا دونه الباب حتى مات، وهو يقول: قتلني رب محمد.

ومرّ به الحارث بن قيس فقال جبريل: كيف تجد هذا يامحمد؛ فقال: عبد سوء فأومأ إلى رأسه وقال: قد كفيته فامتخط قيحاً فقتله.

وقال ابن عباس: إنه أكل حوتاً مالحاً فأصابه العطش فلم يزل يشرب عليه من الماء حتى أنقد بطنه فمات[2]، فذلك قوله تعالى: **﴿إنّا كفيناك المستهزئين﴾**، بك وبالقرآن **﴿الذي يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون﴾**.

وقيل: [استهزاؤهم][3] واقتسامهم: هو أن الله عزّ وجلّ لما أنزل في القرآن سورة البقرة،

---

(١) ساقط من «أ».

(٢) انظر: تفسير الطبري: ٦٩/١٤ــ٧٢، زاد المسير: ٤٢١/٤ــ٤٢٣، الدر المنثور: ١٠٠/٥ــ١٠٢، المحرر الوجيز: ٣٥٩ــ٣٦١، البحر المحيط: ٤٦٩/٥ــ٤٧٠، سيرة ابن هشام: ٤٠٨/١ــ٤٠٩.

(٣) ساقط من «ب».

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾

وسورة النحل، وسورة النمل، وسورة العنكبوت، كانوا يجتمعون ويقولون استهزاء: هذا في[1] سورة البقرة، ويقول هذا في[1] سورة النحل، ويقول هذا في[1] سورة العنكبوت[2]، فأنزل الله تعالى:

﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك﴾، قال ابن عباس: فصلِّ بأمر ربك ﴿وكن من الساجدين﴾ /، من المصلين[3] المتواضعين. ١٩٨/ب

وقال الضحاك: «فسبح بحمد ربك»: قل سبحان الله وبحمده «وكن من الساجدين» المصلين.

وروي أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[4].

﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾، أي الموت الموقن به، وهذا معنى ما ذكر في سورة مريم: «وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا».

أخبرنا المطهر بن علي الفارسي، أخبرنا محمد بن إبراهيم الصالحي، أخبرنا عبدالله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ الحافظ، حدثنا أمية بن محمد الصواف البصري، حدثنا محمد بن يحيى الأزدي، حدثنا أبي والهيثم بن خارجة قالا: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن شرحبيل بن مسلم، عن أبي مسلم الخولاني عن جبير بن نفير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أوحي إليَّ أن أجمع المال وأكون من التاجرين ولكن أوحي إليَّ أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»[5].

---

(١) في «ب»: إلى. وفي البحر المحيط: فمن قائل: البعوض لي، من قائل: النمل لي، وقائل العنكبوت لي، استهزاءً.

(٢) انظر: البحر المحيط: ٤٦٨/٥.

(٣) ساقط من «ب».

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل: ٩٤/٢ عن حذيفة، بلفظ: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلّى» قال المنذري: وذكر بعضهم أنه روي مرسلاً.
وأخرجه الإمام أحمد في المسند: ٣٨٨/٥، والبيهقي في الدلائل في قصة الخندق مطولاً، انظر: الكافي الشاف ص (٧)، وأخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: ٢٧٤/٦.
وأخرجه المصنف في شرح السنة: ١٥٥/٤، وضعفه الألباني في تعليقه على المشكاة: ٤١٦/١.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١٣١/٢ مرسلاً، ورواه السهمي موصولاً في تاريخ جرجان ص (٣٤٢) عن ابن مسعود. وعزاه السيوطي في الدر المنثور: (١٠٥/٥) لسعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في «التاريخ»، وابن مردويه، والديلمي في «الفردوس»، وابن عدي في الكامل: ١٨٩٧/٥.
وأخرجه المصنف في شرح السنة: ٢٣٧/١٤، وفيه شرحبيل بن مسلم، ضعفه ابن معين. انظر: الجرح والتعديل: ٣٤٠/٤.

وروي عن عمر رضي الله عنه قال: نظر النبي ﷺ إلى مصعب بن عمير مقبلاً وعليه أهاب كبش قد تنطق به، فقال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى هذا الذي قد نوّر الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذيانه[1] بأطيب الطعام والشراب، ولقد رأيت عليه حلّة شراها، أو شريت له، بمائتي درهم، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترونه»[1]. والله أعلم .

(١) في «ب»: يغذوانه .
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١٠٨/١، وانظر: المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٢٨٧/٤ .